

المملكة العربية السعودية
وزارة التعلـــيم العالي
جـــامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

التاريخ السياسي والحضاري لمكة المكرمة

مـــن خلال

كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة اتحاف الورى

لمؤلفه جار الله محمد بن فهد

(٨٩١-٩٥٤هـ/١٤٨٦-١٥٤٧م)

"دراسة نقدية مقارنة"

رســـالة مقدمة لنيل درجة الدكتـــوراة فـــي التاريخ الاسلامي

"المجلد الأول"

اعداد الطالب

عائض محمد عائض الزهراني

إشـــراف:

أ.د. محمد المنسي محمود عاصي

١٤١٩هـ/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف موجز

بالبحث المقدم لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ الإسلامي إلى قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية وعنوانه "التاريخ السياسي والحضاري لمكة المكرمة من خلال كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة اتحاف الورى- لمؤلفه جار الله محمد بن فهد (٨٩١-٩٥٤هـ/١٤٨٦-١٥٤٧م) دراسة نقدية مقارنة".

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

اشتملت الدراسة الى مقدمة يتلوها تمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

المقدمة تضمنت أهمية الموضوع والجهود التي بذلت فيه والقيام بدراسة تحليلية لأهم مصادر البحث ومراجعه.

التمهيد اشتمل على عرض مختصر للأوضاع العامة في مكة قبل قيام الدولة العثمانية بتسلم زمام السلطة والتحدث عن الاوضاع المكية في أواخر عهد السلطة المملوكيه.

أما **الفصل الأول** وعنوانه (الحياة السياسية في الحجاز) ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: العلاقات الداخلية: واشتمل على احوال مكة السياسية بين الاشراف وموقفهم من سلطة الشريف بركات وعلى اهم الاحداث التاريخية في هذه الفترة، ثم الصراع على السلطة وموقف الدولة المملوكية من هذا الصراع.

أما المبحث الثاني: فيتحدث عن اهم العلاقات الخارجية بين شريف مكة وسلاطين الدول الاسلامية كالدولة المملوكيه في نهاية عهدها والدولة العثمانية والامتداد السياسي لها.

وأما **الفصل الثاني** وعنوانه (التحركات العسكرية في الحجاز والبحر الاحمر) واشرنا الى ظهور دولة البرتغال وامتداد اطماعها الى السواحل العربية وتطاولها على اقتحام البحر الاحمر وتهديد ثغر عدن وصراع الدولة العثمانية ومن قبلها دولة المماليك في صد العدوان البرتغالي.

وأما **الفصل الثالث** وعنوانه (الناحية الإقتصادية) حيث شهد الحجاز في هذا العهد تطوراً اقتصادياً وذلك بتحول تجارة الهند من ميناء عدن الى ميناء جدة حتى أصبحت جدة ميناء عالمياً للتجارة الدولية. وأصبحت مكة مدينة تتمتع بتنمية إقتصادية عالية، وكان لموسم الحج دور كبير في الازدهار الاقتصادي.

كما استعرض هذا الفصل اسواق التجارة الداخلية ومواطن تزويدها وأوقاتها ومصادرها واحتكار التجار وتدخل السلطة وكذلك اثمان الأطعمة المختلفة وما يطرأ عليها من ارتفاع وانخفاض في الاسعار مع جدولة ببيان أهم السلع الواردة والصادرة لمكة.

ويتناول البحث وصفاً للوضع الاقتصادي للسكان ومستوى الطبقات من ناحيتي الغنى والفقر والشدة والرخاء مع الاشارة الى الوحدات النقدية التي تعاملت بها مكة مع بيان قيمتها وأوزانها وأعيرتها مما ساعد على نجاح تجارتها واستقرار اقتصادها وكان لهذا الانتعاش أثره البارز في الرخاء والازدهار وتكوين وامتلاك الثروات.

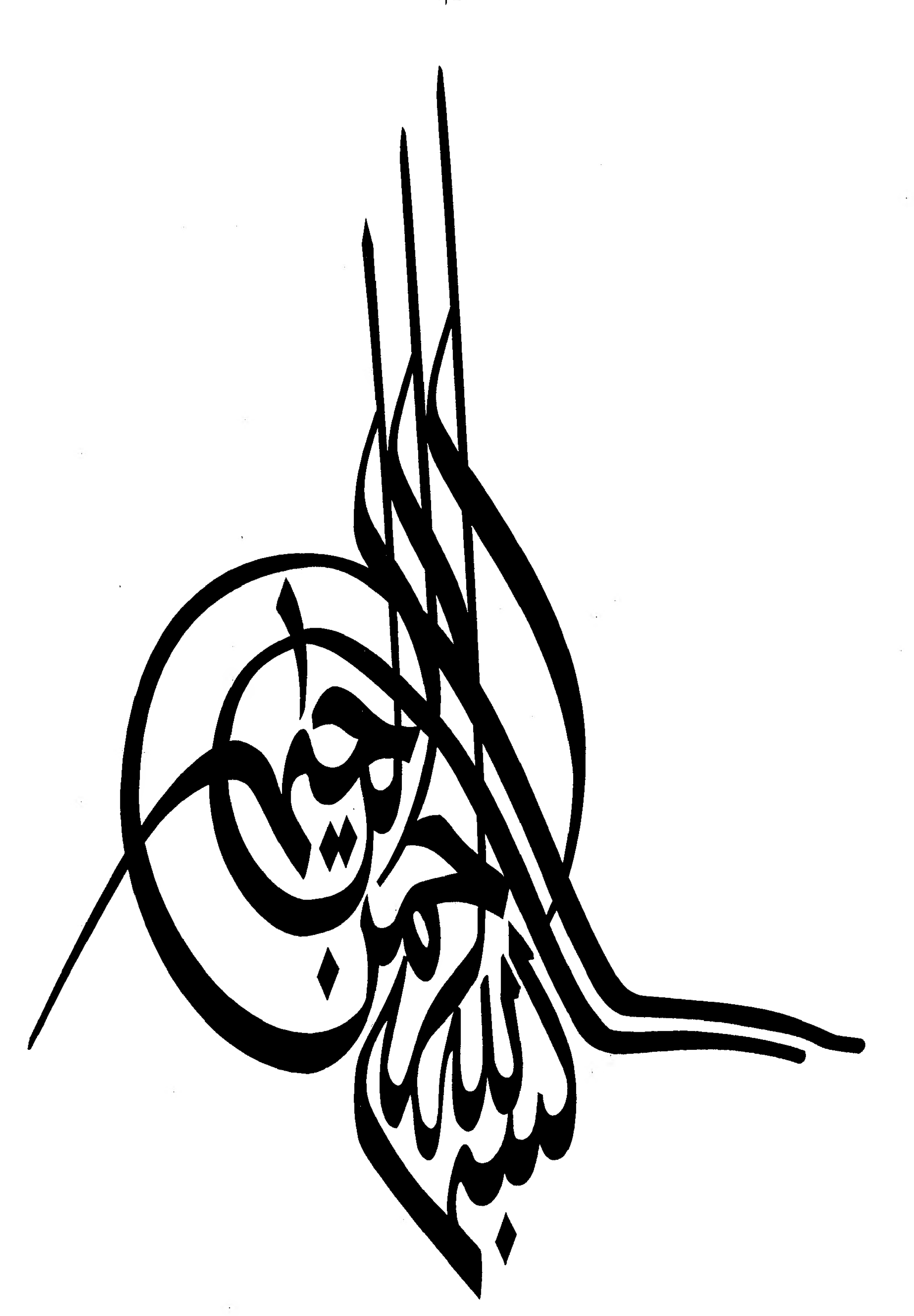
وأما **الفصل الرابع:** وعنوانه (الناحية الاجتماعية)، وتطرق إلى دراسة اثر العلاقات الاجتماعية في مكة على السكان. وتناولت التركيب الإجتماعي من حيث فئات المجتمع والعادات والتقاليد والإحتفالات.

وأما **الفصل الخامس والأخير:** وعنوانه (الناحية الثقافية) وفيه ألقى الضوء على الحياة العلمية في مكة المكرمة التي ازدهر فيها العلم. وشهدت بذلك تطوراً ثقافياً وسادها جو من الثقافة الشاملة.

وانتهى البحث **بخاتمة** احتوت على اهم نتائج البحث التي توصلت اليها، وذيلته بكشاف موسع، كما أفردت في نهايته بعض الملاحق والخرائط التي تدعم البحث وتقويه، وألحقته بعد ذلك بقائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث.

والحمد لله أولاً وآخراً،،،

الطالب	المشرف الأستاذ الدكتور	الأستاذ الدكتور/ضيف الله يحيى الزهراني	الأستاذ الدكتور/ محمد علي العقلا
عائض محمد عائض الزهراني	محمد المنسي محمود عاصي	رئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية	عميد كلية الشريعة والدراسات العليا


بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا[1]

(١) سورة البقرة آية٢٨٦.

الإهـــــداء

إلى والدي أستاذي ونبراس حياتي ومثلي الأعلى..

يا من زرعت فينا حب الخير والنبل والتحصيل العلمي..

لك يا من كنت وراء هذا الإنجاز...

إلى كل إخوتي الذين قدموا لي كل مساعدة وأضاءوا لي شموع الأمل

وكانوا خير عون وسند..

إلى كل صاحب قلب حي

أهدي لكم ثمار هذا البحث..

شكر وتقدير

أحمدك اللهم وأشكرك، أنت أهل الحمد ومستحقه لا إله غيرك ولا رب سواك، أنت مسدي كل نعمة، وميسر كل همة، يقول النبي المصطفى عليه السلام: ﴿لا يشكر الله من لم يشكر الناس﴾[1] .

أرى من الواجب أن أقدم خالص شكري وتقديري الى أستاذي الفاضل الدكتور **محمد المنسي محمود عاصي** المشرف على الرسالة الذي قام بالإرشاد القيم والتوجيه الصائب، وقدم لي عميق خبرته ودرايته بالنصيحة والمعرفة.. كما قام بتنمية قدراتي على البحث وتدريب النفس على الصبر، مما جعلني أكتسب أوسع ما يمكنني اكتسابه من خبرة العمل في مجال البحث وتحمل المسئولية، ونما معرفتي، وحثني على المثابرة وكثرة الاطلاع على المصادر الأصيلة والأبحاث الجادة. كما أنه شملني برعايته وتوجيهاته مدة طويلة، رسم لي فيها الطريق، وشجعني على الولوج فيه، كما فتح لي داره لمراجعته، وطلب ارشاداته في أي وقت... وأباح لي ثمين وقته وعظيم تجربته، وعلمني ما يجب أن يأخذ به الباحث في المنهج التاريخي من الروح العالية التي لا تضيق بالطرق الوعرة الشاقة. كما أشكر المشرف السابق محمد الحبيب الهيله على معاونته في اختيار الموضوع والبدايات الأولى في الاشراف.

كما لا يفوتني أن أشكر أعضاء هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية الذين كان لهم الفضل بعد الله عز وجل في فتح طريق العلم أمامي وكانوا كالشمس تنير لنفسها وللآخرين، شكراً لهم على كل ما قدموه لانجاز هذا البحث.

كما أتوجه بجزيل الشكر لكل من ساهم من اساتذتي في كل مراحل التعليم في تنوير فكري، وغذاء عقلي، وتزويدي بسلاح العلم والمعرفة، كما أنني أقدم شكري وعرفاني وآيات الولاء لجامعتي العريقة جامعة أم القرى وكليتي كلية الشريعة الشامخة في العلم والمعرفة التي منحتني مواصلة دراستي العليا، وأشكر جهود أعضاء هيئة التدريس لما يبذلونه من جهد لتبديد ظلام الجهل، وتعميم وهج شمس العلم والثقافة في مملكتنا الغالية.

---

(١) الحديث من رواية أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: مسند احمد، بتحقيق احمد شاكر- ج٣- ص٢٤٦، سنن ابي داود- ج٢- ص٢٥٥.

وفي الختام لا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الى كل من مد لي يد العون والمساعدة لإتمام هذه الرسالة سواء أعانني بإعارة كتاب، أو بـذل جهـد، أو توجيـه النصيحـة، جـزى ا لله الجميـع عـني خـير الجزاء. إنه نعم المولى ونعم النصير.

المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

يعتبر التاريخ وعاء الحياة الإسلامية العملية لأنه يحكى قصة تجربة الإنسان في هذا الكون ويعرض لنا مراحل تطور الفكر الانساني في ميادين المعرفة من دين وأدب وسياسة وفن واقتصاد واجتماع.

ولم يعد التاريخ مجرد سرد حكايات وأحاديث سمر تتحدث عن العصور الماضية التي مرت بالبشرية بل هو عملية مستمرة من التفاعل بين المؤرخ ووقائعه وحوار متصل حي بين الماضي والحاضر، وأصبح المؤرخ هو الذي يستنطق ويستحضر الماضي الغائب ويبدأ التمحيص والتمييز والتدقيق واستنطاق الرواية والحصول على الحقائق بصورة صحيحة وترتيب أحداثها في سياق منظم قوامه السبب والنتيجة ولا بد من إعادة تركيب الماضي في ذهن المؤرخ وذلك بالوجود مع الشخصية المدروسة والنفاذ إلى أعماقها والتغلغل في العصر الذي يدرسه كي يفهمه، وبذلك تصبح الأحداث التاريخية حاضرة وتتحول الوقائع الميتة الى نبضات حية ولا يقف تمثل أفكار الآخرين وتجاربهم عند مجرد فهم مواقفهم وأفكارهم وسلوكهم وإنما تصبح هذه العملية الفكرية جزءاً من ذات المؤرخ.

إن كتابة البحث التاريخي والبحث عن مصادره، تنمي لدى الباحث القدرة على التعبير عن أفكاره إلى جانب أن يكتسب بواسطة الاطلاع والقراءة التي يتطلبها البحث، معرفة واسعة، وينمي ثقافته وقدراته الفكرية.

والبحث العلمي لابد أن يتم بالأصالة التي تجعل منه إضافة حقيقية للمعرفة التاريخية وتعتمد أصالة البحث على مدى ارتباط الباحث بالمنهج وتطبيق القواعد المتعارف عليها بين الباحثين.

ويعتبر تاريخ الحجاز في الفترة من (٩٢٣-٩٤٩هـ/١٥١٧-١٥٤٣م) من الموضوعات المهمة في التاريخ الإسلامي فمن مكة المكرمة انتشر الإسلام إلى مختلف أنحاء العالم، وبدد ظلام الضلال في شتى أنحاء المعمورة، بالإضافة إلى مكانتها التاريخية العريقة في قلوب المسلمين، إذا احتوت أرضها الطاهرة بيت الله الكعبة المشرفة وشهدت مهبط الوحي، حيث نزل روح القدس جبريل الأمين على خاتم الأنبياء والمرسلين بأعظم معجزة بهرت الأنظار وأدهشت العقول، وجعلها تقف عاجزة أمامها لا تقوى على الإتيان بمثلها وزادها الإسلام تشريفاً فجعل الركن الخامس من أركان الإسلام واجباً على من استطاع من المسلمين يتم أداؤه في المشاعر المقدسة.

فمن المعروف أن منطقة الحرمين الشريفين كانت منذ فجر الإسلام ولا تزال منطقة جذب للمسلمين تهوي إليها قلوبهم للحج والعمرة وزيارة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، وكان هذه تحقيقاً لدعوة الخليل ابراهيم عليه السلام، حينما دعى ربه قائلاً: ﴿وإذ قال ابراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبني أن نعبد الأصنام﴾[1].

وجاءت استجابة المولى عز وجل لدعوة سيدنا ابراهيم عليه السلام، فما لبثت هذه البقعة الطاهرة إلا يسيراً حتى امتلأت أرجاؤها بالمسلمين الذين باتوا يأتون إليها من كل حدب وصوب.

لذلك تميزت مكة المكرمة بمكانة عظيمة في نفوس المسلمين جميعاً عن غيرها من المدن الأخرى كما توفر لها الحب والود الممزوج بالعطف والحنان في

---

(١) سورة إبراهيم- آية٣٥.

أفئدة المسلمين حتى أن الانسان عندما يودعها مفارقاً يدعو الله من أعماق قلبه أن يعود إليها، كما أنه لا يفارقها إلا وفي نيته الرجوع والعودة إليها.

أهمية موضوع البحث وأهدافه:

لا شك أن البحث في تاريخ الحجاز له أهمية خاصة بل يكاد البحث في تاريخه أن يكون واجباً على المشتغلين بالتأريخ في مملكتنا العزيزة يعود ذلك لأهمية بلاد الحجاز الاستراتيجية عامة ولوجود الأماكن المقدسة خاصة.

أما عنوان هذه الدراسة فهو "التاريخ السياسي والحضاري لمكة المكرمة من خلال كتاب "نيل المنى في ذيل بلوغ القرى في تكملة اتحاف الورى" وتنبثق أهمية الفترة التي هي مجال بحثنا التاريخي من عام ٩٢٣- ٩٤٩هـ/١٥١٧- ١٥٤٢م من عدة عوامل رئيسية وهي:

* حرص القوى الاسلامية الكبرى كالدولة المملوكية والدولة العثمانية للسيطرة على بلاد الحجاز ومدنه -مكة المكرمة والمدينة المنورة- وأن يخطب لها على منابرهما لأن ذلك يجعلها تحمل شرف حمل لواء الاسلام وحماية الحرمين الشريفين وحصولها على الزعامة الدينية والسياسية مما يكسبها احترام العالم الاسلامي وتقديره.

* يعتبر الحجاز في هذه الفترة مثاراً للتنافس المستمر والصراع المرير بين الأشراف حول إمرة مكة وأصبح سمة من سمات حكمهم وكان كل منهم يطمع في الوصول الى الحكم وتسلم مقاليد السلطة بمكة المكرمة مما ادى الى اشتداد الصراع وكثرة الفتن فانعدم الأمن وسادت الفوضى حيث اصبحت من الظواهر التاريخية آنذاك.

* التطور الاقتصادي الهائل الذي شهدته إمارة مكة المكرمة في هذه الفترة وذلك ببروز ميناء جدة كميناء مهم على البحر الاحمر وتحول التجارة إليه بدلاً من عدن، وأصبحت مكة سوقاً عالمياً في تجارة التوابل القادمة من الهند، فضلاً عن أهميتها بوابة الحجاز للوافدين اليها من شتى أنحاء العالم الاسلامي، وازدياد حجم التجارة الدولية بها مما دعا أمراء مكة إلى الاهتمام والعناية الفائقة بالميناء وتوفير سبل الراحة والأمن للتجار طوال العام وموسم الحج خاصة.

* برزت قيمة الكتاب وتميزه، لأن مؤلفه جار الله بن فهد جمع أخباره مياومه (كتابة الحوادث والأخبار يومياً) وكتب كتابه في تكتم وسرية تامة ليكون تأريخاً صادقاً لمكة رصد به كل الحوادث والأخبار المتاحة له، وأطلق لقلمه وفكره العنان حتى يدوّن وينقد نقداً واضحاً وأحياناً لاذعاً، كل ما كان يراه خطأ أو غير صواب في شتى النواحي السياسية والاجتماعية فبذلك يصبح الكتاب وما يحتويه من أفضل المصادر التي أرخت لتاريخ مكة المكرمة في القرن العاشر الهجري.

* دون هذا الكتاب في بداية عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وهي بداية سيادة بسط النفوذ لحكم الدولة العثمانية للحجاز وتلاشي السيادة المملوكية بعد سقوطها على أيدي العثمانيين بعد تنافس ونزاع بينهما، ونتيجة لذلك دخل الحجاز سلمياً تحت مظلة السيادة العثمانية وابتدأ الأثر العثماني يظهر ويتضح في المجتمع المكي وأرخ ابن فهد لبداية هذا العهد والنهج السياسي الذي انتهجه السلطان العثماني سليم الأول تجاه مكة، وحرصه الشديد على امتداد النفوذ

العثماني وتأثيره على مكة في شتى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية.

* حاجة المكتبة التاريخية الى مزيد من الدراسات المنهجية والتحليل والتفسير في تاريخ تلك الفترة من منظور إسلامي وإبراز النتائج ودراسة مناهج المؤرخين، ومناقشة آرائهم، وعلى كل حال فقد جهدت في أن تكون هذه الدراسة شاملة لكل جوانب هذا الموضوع متبعاً في ذلك المنهج العلمي التاريخي مستفيداً قدر المستطاع من المصدر الأساسي وهو كتاب "**نيل المنى**" ومن المصادر والمراجع المتخصصة التي تعضده وتسانده وتشترك معه في ذكر الأحداث وشرح بعضها هذا وقد قُسمت الدراسة إلى مقدمة يتلوها تمهيد وخمسة فصول وخاتمة.

فأما **المقدمة** فقد تضمنت أهمية الموضوع، والجهود التي بذلت فيه، وقمت بدراسة تحليلية لأهم مصادر البحث. أما **التمهيد** فترجمة للمؤلف جار الله بن فهد ترجمة ضافية شملت نشأته وتعليمه والأثر البيئي في تكوينه الفكري وأهم مؤلفاته ورحلاته كما اشتملت عن دراسة لكتابه "**نيل المنى**".

والفقرة الثانية اشتملت على عرض مختصر للأوضاع العامة في مكة قبل قيام الدولة العثمانية بتسلم زمام السلطة والتحدث عن الاوضاع المكية في أواخر عهد السلطة المملوكيه.

أما **الفصل الأول** وعنوانه (الحياة السياسية في الحجاز) ويتضمن مبحثين:

المبحث الأول: العلاقات الداخلية: واشتمل على أحوال مكة السياسية بين الأشراف وموقف أسر الأشراف من سلطة الشريف بركات على الحجاز الممتدة إلى عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م، وأهم الأحداث التاريخية التي مرت بإمارة الحجاز في هذه الفترة، ثم الصراع على السلطة بين أبناء الشريف محمد بن بركات وموقف الدولة المملوكية من هذا الصراع ثم سيطرة الشريف بركات ومن بعده ابنه أبو نمي على

الأوضاع في الحجاز حيث تمكن من السيطرة على السلطة واهم الاحداث التاريخية في عهديهما وتطور الصراع المرير الذي كان ينشب بين أفراد الأسرة حول الأمرة وما ترتب عليه من آثار إيجابية وسلبية وكان لهم أكبر الأثر في استقرار الأوضاع أو عدم استقرارها في الحجاز. واعتمدت في كل ما ذكرت على ما دونه صاحب نيل المنى من أخبار عن ذلك الصراع.

أما المبحث الثاني: فيتحدث عن أهم العلاقات الخارجية وشملت العلاقات بين شريف مكة وسلاطين الدول الإسلامية كالدولة المملوكيه في نهاية عهدها وزوال تاريخها، والدولة العثمانية والامتداد السياسي لها بعد أن تم إسقاط دولة المماليك وما تركته هذه العلاقة من مؤثرات إيجابية وسلبية على مكة المكرمة.

وأما **الفصل الثاني** وعنوانه (التحركات العسكرية في الحجاز وفي البحر الاحمر) الذي يعد شرياناً حيوياً للمواصلات البحرية ووسيلة من وسائل التبادل التجاري واشرنا الى ظهور دولة البرتغال وتهديدها لمراكز التجارة والتوابل وامتداد اطماعها الى السواحل العربية وتطاولها لاقتحام البحر الاحمر وتهديد ثغر عدن والتشوف الى الشمال بتهديد ميناء جدة والعبث بمقدسات الإسلام وتراثه الغالي في مهبط الوحي وصراع الدولة العثمانية ومن قبلها دولة المماليك في صد العدوان البرتغالي.

وأما **الفصل الثالث** وعنوانه (الناحية الإقتصادية) واختص بدراسة الأوضاع الاقتصادية حيث شهد الحجاز في هذا العهد تطوراً اقتصادياً هائلاً وذلك

بتحول تجارة الهند من ميناء عدن الى ميناء جدة. وأصبحت جدة ميناء عالمياً للتجارة الدولية فضلاً عن اهميتها كبوابة للحجاز للوافدين اليها من البلاد الاسلامية، وازدياد حجم التجارة الدولية بها، وذلك لعناية شريف مكة بالميناء وتوفير سبل الراحة والامن للتجار.

وأصبحت مكة مدينة تتمتع بتنمية إقتصادية عالية تكثر فيها أنواع السلع والمواد الشرقية والغربية وازدهر نشاطها التجاري وكان لموسم الحج دور كبير في الازدهار الاقتصادي لما يفد اليها من الوفود العربية والاسلامية.

ولعبت الموانيء في ازدهار التجارة بمكة المكرمة كميناء جدة، ورابغ، وينبع دوراً كبيراً وكان لهذا الانتعاش الاقتصادي اثره حيث اصبح الحجاز مطمعاً كبيراً للماليك فبالاضافة الى اهميته الدينية اصبحت له اهمية اقتصادية مما جعل السلطان المملوكي يعين موظفاً مختصاً في جدة لأخذ المكوس وجباية الضرائب من تجار الهند، حتى أنه قد بلغ ما جباه ناظر جدة في احدى المواسم في عهد السلطان برسباي عام ٨٢٨هـ/١٤٢٥م اكثر من مائتي الف دينار.

كما اشتدت قبضة العثمانيين على الحجاز بعد سقوطه في ايديهم واصبح السلطان يتدخل تدخلاً مباشراً في شئون التجارة، وتغير الحال بعد ان كان السلاطين من العثمانيين يغدقون الأموال الطائلة على الحجاز نرى العكس، حيث أصبحوا يحصلون على الأموال من بلاد الحجاز.

ويتطرق الباحث في هذا الفصل الى الموارد الاقتصادية لمكة والعلاقات الخارجية التي كان لها اكبر الاثر في تحسين وازدهار الأوضاع الاقتصادية او تدهورها بمكة في فترات متفاوته.

كما استعرض هذا الفصل اسواق التجارة الداخلية ومواطن تزويدها وأوقاتها ومصادرها واحتكار التجار وتدخل السلطة وكذلك اثمان الأطعمة من قمح وشعير ولحوم وفواكه وخضار وما يطرأ عليها من ارتفاع وانخفاض في الاسعار مع جدولة بيان بأهم السلع الواردة والصادرة لمكة.

ويتناول البحث وصفاً للوضع الاقتصادي للسكان ومستوى الطبقات من ناحيتي الغنى والفقر والشدة والرخاء مع الاشارة الى الوحدات النقدية التي تعاملت بها مكة المكرمة مع بيان قيمتها وأوزانها وأعيرتها مما ساعد على نجاح تجارتها واستقرار اقتصادها وكان لهذا الانتعاش أثره البارز في الرخاء والازدهار وتكوين وامتلاك الثروات.

ولقد سجل ابن فهد تسجيلاً دقيقاً عن حالة الأسواق وأسعار السلع ورصد بكل دقة وأمانة الحالة الاقتصادية مما ساعدنا كثيراً على كتابة صورة واضحة عن تلك الفترة التاريخية.

وأما **الفصل الرابع**: وعنوانه (الناحية الاجتماعية) واختص بدراسة الحياة الاجتماعية وتطرق إلى دراسة اثر العلاقات الاجتماعية في مكة على السكان وتَناولْتُ التركيب الاجتماعي لسكان الحجاز من حيث النظام الطبقي، ووضع المرأة في المجتمع والعادات الاجتماعية كالزواج والاحتفال الديني بمطلع كل شهر هجري وعادة عمرة الأكمه وغسل الكعبة وعن تقاليد شهر رمضان والاحتفال برؤية الهلال.

ثم تعرضْتُ لبيان الاعياد وكيفية الاحتفال بها وعن تقاليد الاحتفال بالاجازات وبختم القرآن وعن ملابس الرجال والنساء وانواع الطعام في ذلك

العصر كما بينت حرص وتنافس السلاطين والامراء على القيام بالاصلاحات بالمسجد الحرام وانشاء الاربطة والمدارس. ومما يدعو للدهشة تسجيل ابن فهد لهذه الأحداث ورصده لها بعين المؤرخ الناقد وعالم الاجتماع الذي ينفذ الى جوهر الظواهر الاجتماعية ويحللها ويكشف عن اسبابها.

وأما **الفصل الخامس والأخير**: وعنوانه (الناحية الثقافية) وفيه ألقى الضوء على الحياة العلمية في مكة المكرمة التي ازدهر فيها العلم ولا غرو في ذلك حيث انها اصبحت مقصد العلماء في كل فن، حتى أصبحت من اكبر المراكز الثقافية حيث يفد اليها مئات الآلاف من المسلمين في كل عام لأداء الركن الخامس من أركان الإسلام "الحج" ومعهم المئات من العلماء وطلاب العلم الذي يجاورون بعد انتهاء الموسم وبهم تعقد الحلقات العلمية والدينية حتى اصبحت مكة من اهم مراكز الاشعاع الثقافي والديني وبرز التنافس العلمي الشريف بين العلماء وادى الى ازدهار ونمو الحركه العلمية بمكة واحتوت العديد من الثقافات التي لا تتوافر في أي مدينة اخرى وشهدت بذلك تطوراً ثقافياً بارزاً وسادها جو من الثقافة والحضارة الاسلامية الدينية وانفردت عن غيرها حتى صارت مركزاً للهداية والارشاد ومنبعاً للاشعاع الروحي.

وقد برزت الشخصية العلمية لمكة المكرمة في القرنين التاسع/ العاشر الهجري واتضحت عدة عوامل ساعدت على تنشيط الحياة العلمية في مكة لعل من أبرزها:

١) عقد الحلقات العلمية والقاء المحاضرات الدينية.

٢) كثرة المجاورين والقادمين الى مكة من العلماء والدعاة.

٣) انشاء المدارس والمكتبات والأربطة.

٤) اهتمام السلاطين والامـراء في الـدول الاسـلامية والبيـوت العلميـة المكيـة بالحركة العلمية في مكة واغـداق الامـوال علـى العلمـاء والطـلاب المجـاورين وغيرهم.

٥) ازدهار التأليف في شتى العلوم والمعارف.

٦) كثرة العلماء والقضاة والمجاورين الذين برعوا في شتى العلوم والمعارف.

٧) عدم اقتصار العلم والتصنيف على الرجال بـل لقـد اشـتهر بمكـة المكرمـة الكثيرات من العالمات اللاتي تحدثت عنهن كتب الطبقات.

ولقد أفاض صاحب نيل المنى بذكر كثير من الأحداث العلمية والثقافيـة الـتي حدثت بمكة ويبدو أنه كان صديقاً لكثير من العلماء وأربـاب الأسـر العلميـة ولا غرو في ذلك فهو من بيت آل فهد وهو من كبريات البيوت العلمية.

وانتهى البحث **بخاتمة** احتوت على اهم نتائج البحث التي توصلت اليها، كمـا أفردت في نهايته بعض الملاحق والخرائط التي تدعم البحـث وتقويـه، وألحقتـه بعد ذلك بقائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في كتابة هذا البحث.

دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر البحث:

لا شك أن لكل عمل علمي طبيعته التي تفرضها وجهته الدراسية وبالتالي فإن لكل موضوع مصادر ومنابع معينة ومحددة تمليها طبيعة ذلك الموضوع فدراسة تاريخ مكة سياسياً وحضارياً تفرض على الباحث أن يلتقي بالعديد من المصادر المتخصصة في التاريخ والسياسة والاقتصاد والاجتماع والفكر بكافة فروعها المعرفية.

ومن فضل الله علينا فإن الفترة التي وفقنا الله إلى دراستها كانت فترة نماء وازدهار وتطور حضاري وتغير سياسي رصدها بدقة متناهية كثير من المؤرخين الأفاضل، ورسموا لنا صورة رائعة للحياة الحجازية في هذا العصر ومن أبرزهم مؤرخنا جار الله بن فهد صاحب كتاب "**نيل المنى بذيل بلوغ القرى بتكملة إتحاف الورى**".

وتميزت الكتابة التاريخية في ذلك العصر بالكتابة الحولية الذي نسجل منها أهم الأحداث التي تؤرخ لكل سنة على حدة وتنتهي عادة بوفاة المؤلف وهذا ما نجده في الموسوعات التاريخية في العصر المملوكي وبعده العصر العثماني فقد ظهرت المؤلفات العظيمة وتسجل شتى الاحداث المعاصرة لتلك الفترة وتشير لكافة الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية لبلاد الحجاز.

كما أن تعدد الموضوعات المختلفة التي تطرقنا لها في هذا البحث أدت الى تنوع مصادر البحث وتعددها وهيأ من إمكانية الاستفادة منها جميعاً، مما يجعل من الصعوبة بمكان أمر تناولها جميعاً بالتفصيل، وإنما نحاول هنا قدر

الإمكان الإشارة الى أهمها والتي تعتبر الركائز الأساسية التي اعتمد عليها البحث مساندة للمصدر الأساسي "نيل المنى" لفترة البحث والتي أفادت في دراسة تاريخ الحجاز في النصف الأول من القرن العاشر الهجري.

ومن أهم المصادر التي اعتمدت عليها في الدراسة التاريخية النقدية سبعة مصادر أحدها لمؤرخ مخضرم عاش بين القرنين التاسع والعاشر الهجريين، وثلاثة مصادر لمؤرخين عاصروا القرن العاشر الهجري، وثلاثة مصادر لمؤرخين مخضرمين بين القرنين العاشر والحادي عشر الهجري.

وكتابنا الاساسي الذي نقوم برصد الأحداث السياسية والحضارية لمكة المكرمة من خلاله هو كتاب "**بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى**" لعز الدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي المكي المتوفي عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وبدأ في تأليفه في شهر رمضان عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م وأتمه في جمادى الأولى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وهي سنة وفاته ورتبه على النظام الحولي بالسنوات وتقدر المدة الزمنية التي استغرقها الكتاب بحوالي سبع وثلاثين عاماً وثمانية أشهر، كما أنه كان دقيقاً في ترتيبه للحوادث حسب الأيام والشهور فلم يقدم يوماً أو شهراً على آخر بل جعلها مرتبة ترتيباً دقيقاً حسب تسلسلها السنوي من البداية الى النهاية.

ويعتبر كتاب **بلوغ القرى** من المصادر المهمة في التاريخ المكي خاصة الفترة التي دون فيها نتيجة معاصرته ومشاهدته الحياة فيها حيث إنه رأى وعلم وعاصر أحداثاً في مكة وغيرها، فقد أورد واهتم ابن فهد في كتابه بكل ما

جرى وحدث في مكة و لم يعتمد على مصادر في تأليف كتابه سوى المعاينة او ما ينقل له من أخبار بعض الوفيات.

ويعتبر الكتاب سجلاً حافلاً لأهم الأحداث التي وقعت في عصره واسهمت كثيراً في وصف الفترة الزمنية بعد وفاة الشريف محمد بن بركات عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م والصراع بين أبنائه وكذلك شمل جزءاً كبيراً من الحياة الاجتماعية في مكة المكرمة، والتي تمثلت في اهتمامه بذكر المواليد والوفيات ومراسيم الدفن، واحتفالات اهل مكة بالزواج وانواع الزفاف وشتى المناسبات.

كما اعتمد البحث على كتابه الثاني "**غاية المرام بأخبار البلد الحرام**"، ورتبه على من تولى إمارة مكة من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عهده، حسب أقدمية ولايتهم لمكة المكرمة وكان مجموع من ترجم لهم خمسة ومائتي وال وأورد به معلومات هامة عن النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والعلمية والاجتماعية، ويتميز الكتاب بوحدة الموضوع حيث يعرض ويصور بكل دقة شتى النواحي بمكة لمن يترجم لهم والاعمال التي جرت في ولايتهم وقل أن يوجد له مثيل في الكتب التاريخية المكية التي أرخت للنصف الأول من القرن العاشر الهجري في نفس الفترة.

ومن أهم هذه المصادر فيما يتعلق بالحجاز كتاب "**الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**" ومؤلفه عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري المتوفّى عام ٩٧٧هـ/١٥٦٩م، ولقد شرع في تأليفه في عام ٩٦٠هـ/١٥٥٢م، كما أشار إلى ذلك في كتابه ورتب كتابه إلى أبواب

وفصول حيث اشتملت على سبعة أبواب متضمنة واحداً وثلاثين فصلاً شملت بناء الكعبة وفضلها والحج والعمرة وأخبار مكة وأمرة الحج والأماكن والأسماء لمكة، و لم يحدد الجزيري منهجاً عاماً يسير عليه عند تأليف كتابه ولقد اعتمد على عدد كبير من المصادر التي استعان بها ضمن الأبواب والفصول، كما كان اعتماده على ما عاصره من أحداث وما شاهده ورآه وسمعه بنفسه، وتميزت كتابات الجزيري بالصراحة المطلقة والنقد الشديد لكل ما يراه محتاجاً للنقد، وتعدى في نقده إلى أهل الحل والعقد في عهده كالولاة والقضاة وأمراء الحاج كما اهتم بالحديث عن الفترة الزمنية التي عاش فيها، ورغم أنه كان قد نص في كتابه على اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة إلا أنه أورد فيه العديد من الأخبار لكل من مصر والحجاز، ويعتبر بذلك كتابه من أفضل ما كتب عن أمور الحاج فهو لم يهتم بها من جانب واحد بل تكلم عن وظائفها وواجباتها وذكر عربان الطريق وأسمائهم ومشايخهم ويعد كتاب الدرر الفرائد من المصادر المهمة بالنسبة للتاريخ المكي والمصري معاً في القرن العاشر الهجري.

ومن المصادر التي اعتمدت عليها كتاب "**الإعلام بأعلام بيت ا لله الحرام**" ومؤلفه قطب الدين محمد بن علاء الدين احمد بن محمد النهروالي المتوفَّى عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م ولقد شرع في تأليف كتابه عام ٩٧٩هـ/١٥٧١م وأهداه الى السلطان العثماني مراد بن سليم وانتهج منهج من سبقه فقسم كتابه الى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة والأبواب الى فصول بحسب الاحتياج اليها، ولقد اسرف في الحديث عن سيرة الخلفاء العباسيين وملوك الجراكسة

وسلاطين آل عثمان والتي شملت جزءاً كبيراً من الكتاب (من الباب الرابع الى الباب العاشر) واعتمد على كثير من المصادر التي كتبت عن التاريخ المكي واهتم بذكر مصادره والاشارة اليها و لم ينتهج اسلوباً معيناً واضحاً في عملية النقل باستثناء بعض النقول، وامتاز اسلوبه في بعض المواطن بالتكلف والاكثار من السجع وبذلك يعد الكتاب من المصادر الهامة التي لا غنى عنها لدراسة التاريخ المكي رغم حب النهروالي للعثمانيين وولائه وتمجيده لهم، وقدم لنا معلومات هامة اختصت بعهده وتركزت على ذكر الإصلاحات العديدة في مكة خاصة وسياسة العثمانيين تجاه الحجازيين والحجاز بصفة عامة.

ويتصدر كتاب "**إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام**" لمؤلفه عبد الكريم بن محي الدين بن علاء الدين النهروالي الشهير بالقطب المتوفَّى عام ١٠١٤هـ/١٦٠٥م بأهمية خاصة حيث شرع بتدوين كتابه بعد وفاة عمه قطب الدين النهروالي واتبع في مؤلفه نفس الخطة التي وصفها عمه قطب الدين ورتبه على عشرة أبواب وخاتمة، و لم يسلك منهجاً خاصاً في تأليفه كغيره من المؤرخين المكيين، وهذا يعود بالطبع الى اعتماده اعتماداً اساسياً على كتاب عمه، وهو لم يعتمد على أي مصدر من المصادر بالنسبة للمعلومات التي أضافها لتعلقها بالفترة الزمنية التي عاشها ويعد هذا الكتاب اختصاراً جيداً ومفيداً لكتاب عمه وقد كانت اضافاته افضل ما في الكتاب.

كما استفدت من كتاب "**الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف**" لمؤلفه جمال الدين محمد بن جار الله بن محمد بن ظهيره

القرشي المتوفَّى عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م ولقد اعتمد اعتماداً كبيراً في الموارد الحقيقية لتكوين مادة كتابه على المؤرخ المكي تقي الدين الفاسي، وقد قسم كتابه الى مقدمة وعشرة ابواب ولقد انتهج وتحرى الأمانة العلمية قدر الامكان فيمن نقل عنهم، وعدم الرغبة في الاطالة وانتهاج النهج الوسط ومع ذلك فإنه لم يكن يتبع دائماً الاسلوب العلمي الواضح في ذكر مصادره قياساً بمنهاج البحث العلمي في عصرنا فهو في كثير من الاحيان يذكر المؤلف ولا يذكر كتابه، ورغم أنه خصص كتابه لفضائل مكة واهلها إلا أنه طرق العديد من الجوانب الهامة عن المجتمع المكي بذكر عاداتهم واصلاحاتهم في عهده، كما غلب عليه الطابع الديني والمتمثل في ذكر رأي مذهبه كما أن كتابه لم يخل من الحشو والاطالة وذلك بذكر العديد من القصص والحوادث الخارجة عن صلب الموضوع.

ومن الكتب المهمة كتاب " **السنا الباهر بتكميل النور السافر في اخبار القرن العاشر**" لمؤلفه محمد بن ابي بكر بن احمد الشهير بالشِّلِي" توفي عام ١٠٩٣هـ/١٦٨٢م والكتاب كما هو واضح من عنوانه محدود بفترة زمنية محددة وهي فترة القرن العاشر الهجري والكتاب رغم أهميته وما به من معلومات مهمة ما زال مخطوطاً ويتكون المخطوط من ٣٥٢ ورقة يتضمن تقريباً ٦٤١ ترجمة، ولقد استعان بمجموعة من المصادر ولكنه لم يشر اليها، ولذا يعد الكتاب واحداً من أبرز كتب التراجم التي تخصصت في تراجم تلك الفترة الا أنه في الحقيقة يحتوي على معلومات تاريخية كثيرة تخص بلاد اليمن وبلاد الحجاز، ويحتوي ايضاً على معلومات كثيرة تتعلق بالمعالم الحضارية والمنشآت الدينية

وخاصة في أخبار وعمارة الحرمين الشريفين كما يحتوي أيضاً على معلومات تتعلق بالحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية في بلاد الحجاز واليمن في القرن العاشر الهجري.

كما كان لكتاب "**بدائع الزهور في وقائع الدهور**" لمؤلفه ابي بركات محمد بن ايـاس المتوفي عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م، والذي كان معاصراً للسلطان قايتباي والسلطان قانصوه الغوري، وقد شاهد أحداث دولتهم وعاصر انتقال السلطة من دولة المماليك الى العثمانيين، بعد هزيمة المماليك في مرج دابق ٩٢٣هـ/١٥١٧م ويشمل الكتاب بين دفتيه على معلومات تاريخية قيمة وسياسية هامة عن الاوضاع السياسية والظروف الاقتصادية بإمارة مكة، كما ضم بين طياته معلومات عن مكانة جدة الاقتصادية للتجارة العالمية واثر ذلك على الأوضاع في مكة.

وهناك ايضاً كتاب "**الأرج المسكي في التاريخ المكي**" لمؤلفه علي بن عبد القادر بن محمد الطبري المتوفَّى عام ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م ويعد الكتاب من اشهر الكتب التي تناولت تاريخ مكة المكرمة والتي ألفت في القرن الحادي عشر الهجري، فقد اهتم بتاريخ هذه البلدة المقدسة فجمع ما كتب عنها نقلاً عن سبعة من مؤرخيها، وأضاف في هذا الكتاب الكثير من المعلومات التي لم يدونها غيره والتي كان أكثرها معاصراً لعهده، وخاصة الأحداث السياسية والتنظيمات الإدارية والعمارة المدنية، وبعض المنشآت الدينية، ولقد قسم كتابه إلى مقدمتين وثمانية أبواب، وكل باب يتضمن عدة فصول واعتمد في أسلوبه على استخدام السجع والمحسنات البديعة، وربما يعود ذلك إلى أنه كان من الأدباء المشهورين الذين يحاكون أسلوب العصر الذي يستخدم هذا النوع الشكلي من الأساليب، ولكنه استطاع أن يخرج كتابه هذا بأسلوب تميز بالسهولة والوضوح كما جاءت استنتاجاته معبرة ودالة على منطقيته كما إن مناقشاته وأدلته التي يوردها تجعل القاريء يسلم بها، ويؤمن بقناعته بها.

و لم يخل البحث من الإستعانة ببعض المراجع الأجنبية المعاصرة للتعرف على وجهات نظرهم في التعامل مع الأحداث. ومن المصادر التي أُعْتُمِدَ عليها في دراسة الوجود البرتغالي في البحر الاحمر وما يتعلق به من تفاصيل "موسوعة Kammerer" المعنونة بالبحر الأحمر La Mrer Rouge باللغة الفرنسية ومن حسن حظي أن مكتبة جامعة ام القرى تحظى بنسخة منها وبفضل الترجمة استطعت الإستفادة من المعلومات التي رصدها المؤرخ كالأحداث بين المسلمين والبرتغاليين والصراع المرير بينهما.

كما استفدت من مصدر هام لمؤرخ برتغالي عاصر أحداث القرن العاشر والحادي عشر الهجري وهو كتاب "**تاريخ اكتشاف وغزو البرتغاليين للهند**" The P ortuguese Asia Tome لمؤلفه فاريا سوزا Sousa Fariay، ورغم ما يتضمنه الكتاب من معلومات مهمة في طيات صفحاته إلا أن روح التعصب واضحة بين سطوره وليس المجال هنا مجال تفصيل في هذا الكتاب ولذلك أخذنا جانب الحذر والنقد التاريخي ومقارنة نصوص الأحداث في مؤلفه مع مؤرخين مسلمين معاصرين للأحداث.

كما استعنت بكتب الرحلات حيث امتازت بالوصف الدقيق للمدن والمنازل والطرق التي حل بها الرحالة وما شاهدوه، وتسجيل الاحداث التاريخية التي حدثت خلال رحلاتهم، كرحلة ناصر خسرو (٤٩٨هـ/١١٠٤م) ورحلة ابن جبير (٦١٤هـ/١٢٢٠م) ورحلة ابن بطوطة (٧٧٩هـ/١٣٧٧م) ونزهة الأنظار للورثيلاني، وتاريخ المستبصر لابن المجاور (٦٩٠هـ/١٢٩١م) والرحلة الحجازية للبتنوني (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م).

وبجانب ذلك اعتمد البحث على عدد كبير من المصادر والمراجع التي أسهمت مجتمعه في بناء البحث بالشكل الذي ظهر فيه وسترد في نهاية البحث قائمة موسعة للمصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في اعداد هذه الرسالة.

والحمد لله الذي قيض لي من يرشدني الى الصواب في رفق ولين طيله مراحل البحث بغزير علمه وتوجيهاته، وإرشاداته العلمية السديدة، جزاه الله عني خير الجزاء، وأسأل المولى عز وجل العون والسداد وأسأله تعالى التوفيق أولاً وأخيراً وفي الكل إنه سميع مجيب الدعاء.

التمهيد

أ) ترجمة جار الله بن فهد.

ب) مكة المكرمة في أواخر عصر المماليك (الشراكسة).

ترجمة جار الله بن فهد (٨٩١-٩٥٤هـ| ١٤٨٦-١٥٤٧م): المؤلف[1].

(١) له ترجمة في السخاوي، محمد بن عبد الرحمن: **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**- ج٣ - القاهرة- مكتبة حسام المقدسي- ١٣٥٣هـ-ص٥٢- العز بن فهد: **بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار ام القرى**- نسخة مكتبة الحرم المكي رقم١- تاريخ دهلوي ورقة ٣٢أ، ١٣٦ب، ١٥٩ب- ١٦٠أ، ١٦١أ، ١٨٤ب- ١٨٥أ، ١٩٧ب- ١٩٨أ، ١٩٩ب، العيدروسي: **النور السافر عن اخبار القرن العاشر**- تصحيح محمد رشيد- بغداد- مطبعة الفرات-١٩٣٤م ص٢٤١، الغزي:محمد -**الكواكب السائرة بأعيان المائه العاشره**- تحقيق جبرائيل سليمان - بيروت١٣١/٢، خليفه: حاجي -**كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون**- نشر محمد شرف- اسطنبول- ١٩٤٣م- ٢٥٣/١، ٣٠٦، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٨، ٨٨٥، ابن العماد: **شذرات الذهب** ٣٠١/٨، السيوطي- جلال الدين عبد الرحمن -**ذيل طبقات الحفاظ** - نشر محمد امين- دار احياء التراث العربي- مصر- د.ت- ص٣٨٣-٣٨٤، البغدادي- اسماعيل باشا -**ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**- اسطنبول- ١٩٤٥م- ٢٠١/١، ٤٤٠، ٥٩٤/٢، مرداد، ابو الخير عبد الله بن احمد- **المختصر من كتاب نشر النور والزهر**- اختصار محمد العامودي واحمد علي- جدة عالم المعرفة-١٤٠٦هـ- ص١٥٢، الزركلي- خير الدين -**الأعلام**- دار العلم- بيروت- ١٩٩٠م- ٢٠٩/٦، كحالة- عمر رضا -**معجم المؤلفين**- مطبعة الترقي- دمشق-١٩٦١م- ١٧٥/١٠، زيدان-جرجي - **تاريخ آداب اللغة العربية** - دار الهلال- القاهرة-٣٣٨/٣، عبد الوهاب الدهلوي: محمد الحبيب الهيلة -**التاريخ والمؤرخون بمكة**- مؤسسة الفرقان- مكة- ١٩٩٤م- ص١٩٥/١٩٦- محمد عابد يوسف -**التاريخ والمؤرخون**-رسالة دكتوراة غير منشورة- جامعة ام القرى- ١٤١٦هـ- ص٨٧ -**مجلة المنهل تعريف بالكتب المؤلفة عن الحرمين والطائف وجدة**، المجلد السابع السنة السابعة ج٨، شعبان ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م ص٣٤٣، ٤٤٠، ٤٤٥، احمد ابراهيم الغزاوي: **مجلة المنهل، شذرات الذهب** ج٦ المجلد ٢٤ جمادى الثانية ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ص٣٢٧-٣٦٦، حمد الجاسر: **مجلة العرب** حسن القرى في ذكر اودية ام القرى، ج١، ٢ ص١٨ رجب - شعبان ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ص٧-١١، محمد سعيد كمال: **مجلة العرب مؤرخو الطائف ومؤلفاتهم** ج٢ س٢ شعبان ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م ص١٠٤-١٠٥، ناصر الرشيد: **بنو فهد مؤرخو مكة المكرمة**، مجلة العرب ج١١، ١٢ س١١ جماديان سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م ص٩٢٧-٩٣٢، **رسالة في فضل جدة وشيء من خبرها لجار الله بن فهد**، دراسة وتحقيق د. عبد المحسن المدعج، مجلة معهد المخطوطات العربية، الكويت، المجلد الحادي والثلاثون، ج١ من جمادى الاولى - شوال ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ص١٨٩-٢١٠، يحيى الساعاتي: **ابن فهد وكتابه تحفة اللطائف**، مجلة الفيصل العدد ١٦ شوال ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ص٧٢-٧٣، **مقدمة معجم الشيوخ**: النجم عمر بن فهد تحقيق محمد الزاهي ص١٣، ترجمته في مقدمة كتاب **تحفة اللطائف**، تعليق ومراجعة محمد سعيد كمال ومحمد الشحقاء ص١٣ ومابعدها.

أما ابن فهد فهو كما نسب نفسه في كتابه "تحفة اللطائف" في فضائل ابن عباس ووجّ والطائف.

هو جار الله محمد بن عبد العزيز، بن عمر، بن تقي الدين محمد، بن محمد ابي الخير، بن محمد، بن محمد بن عبد الله، بن محمد، بن فهد، بن حسن، بن محمد، بن عبد الله، بن سعد، بن هاشم، بن محمد، بن حمد، بن عبد الله، بن القاسم، بن عبد الله، بن جعفر، بن عبد الله، بن جعفر، بن محمد، الشهير بابن الحنفية بن علي بن ابي طالب، الهاشمي، العلوي، المكي، الشافعي، يسمى بالمحب أبي الفضائل ولكن بجار الله أشهر[١] .

بلده:

ينتمي جار الله بن فهد الى مكة المكرمة قبلة المسلمين ومقصد الحجاج ومهوى أفئدتهم.

بدأت علاقة أسرة آل فهد بمكة عندما هاجر جدهم محمد بن محمد بن عبد الله من أصفون الجبلين في صعيد مصر[٢] إلى الحجاز عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م وألقت عصى الاستقرار في مكة موطنهم الأصلي، ولم يوضح لنا معظم المؤرخين الدوافع وراء هذا الانتقال هل تركوها حنيناً الى موطنهم، أم لظروف اخرى، اقتصادية او سياسية، او علمية، ولم يكلف أحد مؤرخي آل

---

(١) السخاوي – **الضوء اللامع**– ٣/٥٢.

(٢) الصعيد: بالفتح ثم الكسر والصعيد وجه الارض وهو بمصر– وهو بلاد واسعة كبيرة فيها عدة مدن عظام منها اسوان وقوص واخميم والبهنسا الى قرب الفسطاط ويوجد بالصعيد تسعمائة وسبع وخمسون قرية. للمزيد انظر: ياقوت الحموي، شهاب الدين عبد الله –**معجم البلدان**– ج٣– بيروت– دار بيروت– ١٤٠٠هـ– ص٤٠٨.

فهد نفسه بذكر التفصيلات وتسجيلها وبيان ظروفهـا واسـبابها وتركونـا في حيرة من امر الانتقال الى مكة المكرمة ويمكن أن يكـون الانتقـال سـعياً وراء المجاورة فيها على عادة الناس في تلك الأزمان وطاب لهم المقام وبـرزت هـذه العائلة في المحيـط الفكـري والديـني وأصبحـت لهـم مكانـة مرموقـة سـامية في الأوساط العلمية[1] .

مولده:

اتفقت جميع المصادر المترجمة له على أنه ولد في مكـة المكرمـة في وسـط ليلـة السبت ٢٠ من شهر رجب عام ٨٩١هـ الموافق يوليو ١٤٨٦م. من أم مكيـة بنت عم أبيه تدعى أم الكمال كمالية بنت الشيخ محـب الديـن بـن ابـي بكـر احمد بن تقي الدين بن فهد الهاشمي[2] .

نشأته وتعليمه:

نبت جار الله بن فهد في بيئة علمية، فنمـا عـوده وأورق، ونشـأ نشـأة ابنـاء العلماء في زمانه، وأنبته الله نباتاً حسناً في أسرة ثابتة الأركان، قوية الدعـائم، عرفت ربها فأبوه حافظ وجده حافظ ابن حافظ ولكـل واحـد منهـم مكانـة علمية مرموقة وتآليف حديثية وتاريخية فائقة[3] .

---

(١) السخاوي – الضوء اللامع- ج٩- ص٢٣١. الحلبي -**درر الحبب**-ج٢- ص٤٣٤-٤٣٦.

(٢) العز بن فهد -**بلوغ القرى**- ورقة ٢٢أ، ١٣٢أ، السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٣- ص٥٢.
العيدروسي -**النور السافر**-ص٢٤١/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨- ص٣٠١.

(٣) الهيله-**التاريخ والمؤرخون بمكة**- ص١٩٥.

نشأ في كنف والده الذي أحاطه بعنايته ورعايته منذ نعومة أظفاره، وكان له الأثر الكبير في تثقيفه وتوجيهه، فلقنه مباديء القراءة والكتابة وتعاليم الإسلام، وأحضره على أكابر الشيوخ وهو في الرابعة من عمره[١] ومنهم الشيخ شمس الدين السخاوي[٢] الذي يقول عنه: "وحضر علي وهو في الرابعة في مجاورتي الرابعة من لفظي وبقراءة أبيه وغيره أشياء ثم سمع علي بعد ذلك أشياء"[٣]، كما حضر على المحب الطبري، ختم سلم وثلاثيات البخاري والربع الأول من تساعيات العز كذلك بعد المسلسل[٤].

واستمر حريصاً على تكوين ثقافته الدينية والتاريخية من والده وعلماء مكة المكرمة المقيمين والقادمين اليها للحج أو للمجاورة، حتى استطاع أن يحفظ القرآن الكريم وكتباً كالأربعين النووية، للنووي ومنهاجه[٥]، ثم نهج في تلقي العلم على طريقة سلفه وتعمق واهتم بعلم الرواية متأثراً بطريقة آبائه[٦].

---

(١) العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤١/ ابن العماد - **شذرات الذهب**- ج٨- ص٣٠١.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن محمد شمس الدين السخاوي، ولد عام ٨٣١هـ/١٤٢٧م مؤرخ حجة وعالم بالحديث والادب أصله من سخا (من قرى مصر) صاحب مؤلفات عديدة في شتى العلوم والمعارف بلغت مائتي كتاب اشهرها الضوء اللامع في اعيان القرن التاسع، توفي بالمدينة المنورة عام ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. ترجم له: السخاوي- **الضوء اللامع**- ج٨- ص٤- ابن العماد- **شذرات الذهب**- ج٨- ص١٥- ابن إياس، محمد بن احمد- **بدائع الزهور في وقائع الدهور**- ج٢- نشر محمد مصطفى- القاهرة- ١٩٦٣م- الليفنتات كولونيل ب.ج- الجود- مصر- ترجمة راشد البراوي- القاهرة- مطبعة الاعتماد- ص٣٢١.

(٣) السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٣- ص٥٢.

(٤) السخاوي -**المصدر السابق**- ج٣- ص٥٢/ العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤١/ ابن العماد - **شذرات الذهب**- ج٨- ص٣٠١.

(٥) العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤١/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨- ص٣٠١.

(٦) حمد الجاسر -**مجلة العرب**- ج١، ٢/ ص١٨- رجب وشعبان- ١٤٠٣هـ- ص٧.

ولم تكن صلة جار الله بن فهد بوالـده صلـة تعـاطف روحـي فحسـب وانما كـانت صلة نفع علمي وصلـة التلميـذ بشـيخه حيـث لازمـه ملازمـة دائمـة فـي القراءة والسماع وأخذ عنه وعن جده الحديث لذلك نجد أن والده هيأ له أسباب الحياة الوفيرة الميسرة كما حرص على أن يتبوأ ابنه المكانـة السـامية والمركز العلمي المرموق بين علماء عصـره فلقنـه كـل مالديـه لصقـل ملكاتـه وتوجيهه الوجهة السليمة في التحصيل والاستيعاب.

أسرته وأثر بيئته على تكوين أفكاره وثقافته

اشتهرت أسرة بني فهد بالاهتمام بعلم الحديث الشريف وعلم التاريخ والتراجم وخلفوا لنا تراثاً اسلامياً ضخماً في شتى النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية وكانت اسرتهم من اكبر الاسر والبيوت الكبيرة في مكة فيذكر عبد الحي الكتاني في كتابه **فهرس الفهارس**((... واذا تأملت في بطون الكتب قل أن نجد بيتاً من بيوت المسلمين فيه خمسة من الحفاظ في سلسلة واحدة من بيت واحد يتوارثون الحفظ والاسناد غير هذا البيت العظيم)) [1] وكانت اسرته تتمتع بمكانة علمية رفيعة ساعدها على ذلك وجود مكتبة ضخمة لديهم بها جميع المؤلفات في شتى صنوف العلم والمعرفة، كل ذلك كان له اكبر الاثر في تفوقه ونبوغه والمامه بشتى العلوم والمعارف، والواقع أن هذه الاسرة انتجت علماء وشيوخ اجلاء، عملوا في التدريس والقضاء، وأولعوا بتأليف المؤلفات في المجال الديني والتاريخي خاصة عن التاريخ المكي، وكان لتبحرهم في العلم أن شاع ذكرهم وبعد صيتهم وكثر طلابهم وتخرج على ايديهم علماء وصل اكثرهم الى درجة الحفاظ.

وكان لأسرة بني فهد على مدى القرون الثامن والتاسع والعاشر الهجري، أثر بارز في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز بصفة عامة وفي مكة المكرمة بصفة خاصة واعترافاً بجميلها اطلق على أحد أبواب الحرم المكي باباً سمي باب الفهود.

---

(١) -**فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المفاهم والمشيخات والمسلسلات**- دار الغرب الاسلامي- بيروت- ١٤٠٦هـ- ج٢- ص٩١٠.

وسأذكر هنا أبرز علماء هذه الاسرة التي تأثر بهم المؤرخ جار ا لله بن فهد:

١) القاضي جمال الدين محمد بن عبد ا لله بن محمد بن عبد الله الهاشمي(ت ٧٣٦هـ/١٣٣٥م) سمع صحيح البخاري ومسلم وموطأ الامام مالك ومسند الدارمي على عدد من العلماء في مكة المكرمة والقادمين اليها. وأخذ الفقه عن قاضي مكة نجم الدين الطبري. وناب عنه في القضاء، وكان فقيهاً لا تأخذه في ا لله لومة لائم[١] .

٢) محمد بن محمد بن محمد بن عبد ا لله بن محمد بن عبد ا لله بن فهد الهاشمي المكي ولد عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م بمكة المكرمة. سكن اصفون من صعيد مصر عند جده لأمه الشيخ نجم الدين الأصفوني والذي كان له أملاك هناك، وعاد الى مكة المكرمة عام ٧٩٥هـ/١٣٩٣م ثم رحل لطلب العلم في مصر وبلاد الشام، حدّث بمكة المكرمة واشتهر بتخريج الأحاديث وتوفي عام ٨١١هـ/١٤٠٩م بمكة المكرمة[٢] .

٣) تقي الدين محمد بن محمد بن عبد ا لله بن فهد الهاشمي المكي، ولد بأصفون الجبلين من صعيد مصر عام ٧٨٧هـ/ ١٣٩١م، ودرس بمكة المكرمة على يد علمائها الأفاضل والعلماء القادمين إليها.

---

(١) الفاسي -**العقد الثمين**- ج٢- ص٧٩-٨٠.

(٢) النجم ابن فهد النحم عمر بن محمد-**الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الامين**- مخطوط- رقم ٣٦١٢- الهند- ورقة٧٥. **معجم الشيوخ**- تحقيق محمد الزاهي- الرياض- دار اليمامه- ١٤٠٢هـ- ص٢٨٠/ السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٩- ص٨١.

وتتلمذ على الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، وقد اشتهر بتمكنه من علم الحديث، وألف مجموعة من الكتب وكان مولعاً بالقراءة واقتناء الكتب فاجتمع له منها الكثير[١] .

٤) أبوبكر بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي، ولد بمكة المكرمة عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م، وتلقى العلم على أيدي علمائها وعاش بمكة المكرمة وتوفي عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م[٢] .

٥) الحافظ النجم عمر بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد المكي، ولد بمكة المكرمة عام ٨١٢هـ/١٤٠٩م ودرس علم الحديث على يد الشيخ جمال الدين ابن ظهيره والقاضي زين الدين أبي بكر المراغي، وأخذ عن الأول كتاب علوم الحديث لابن الصلاح، وأخذ عن الثاني كتب الحديث الستة وموطأ الامام مالك[٣] .

وفي عام ٨٣٥هـ/١٤٣١م رحل الحافظ النجم عمر بن فهد المكي إلى القاهرة فأخذ من علمائها الأفاضل.

---

(١) النجم بن فهد – **الدر الكمين**– ورقة ٧٥.
السخاوي –**الضوء اللامع**– ج٩/ ص٢٨١.

(٢) النجم ابن فهد –**الدر الكمين**– ورقة ٧٩. **معجم الشيوخ**– ص٩١.

(٣) **المصدر الشيوخ**– ورقة ١٥٨– **المصدر السابق** –ص١٩١– ١٩٤ –السخاوي –**الضوء اللامع**– ج٦– ص١٢٦– الشوكاني– محمد علي –**البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع**– مطبعة السعادة – القاهرة– ١٩٥١م– ج١– ص٥١٢.

وقد لازم النجم الحافظ ابن حجر العسقلاني مدة من الزمن ودرس على يديه بعض مؤلفاته ومنها كتابه لسان الميزان[1] .

خصص الحافظ النجم عمر بن فهد الكثير من وقته للتأليف حتى بلغت مؤلفاته مايزيد على ثلاثين كتاباً لايوجد بين أيدينا منها سوى خمسة كتب.

ومن أبرز مؤلفاته الكتب التالية:

- اتحاف الورى بأخبار أم القرى[2].
- التبيين بتراجم الطبريين[3].
- تذكرة الناسي بأولاد أبي عبد الله الفاسي[4].
- تراجم شيوخ شيخته سارة بنت العز بن جماعة[5].
- كتاب المخضرمين[6].
- كتاب المدلسين[7].
- معجم شيوخه[8].

---

(١) السخاوي- **الضوء اللامع** -ج٦- ص١٢٦- ١٢٧.

(٢) طبع من الكتاب ثلاثة اجزاء- تحقيق الاستاذ فهيم شلتوت- جامعة ام القرى- كما تم طبع الجزء الرابع والاخير تحقيق د/ علي باز- مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي- مكة المكرمة.

(٣) السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٦- ص١٢٨./ البغدادي- اسماعيل باشا -**هدية العارفين باسماء المؤلفين وآثار المصنفين**- اسطنبول- ١٩٥١م- ج٥- ص٧٩٤.

(٤) السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٦- ص١٢٩.

(٥) معهد المخطوطات العربية - القاهرة- تحت رقم (٩٩٣) تاريخ.

(٦) الشوكاني -**البدر الطالع**- ج١- ص٥١٢- ٥١٣.

(٧) **المصدر السابق** -ج١- ص٥١٢.

(٨) تحقيق محمد الزاهي- ط١- الرياض- دار اليمامه للترجمة والنشر- ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين.

٦) بدر الدين حسن بن عطيه بن محمد بن فهد العلوي الهاشمي المكي الشافعي الامام المسند، ولد عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، أخذ عن عمه تقي الدين محمد بن فهد والحافظ ابن حجر العسقلاني. واجتمع بالشمس ابن طولون بدمشق وأجازه[١] عام ٩٢٠هـ/ ١٤١٧م، وتوفي عام ٩٢٢هـ/١٤١٩م[٢].

٧) أبو القاسم أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن فهد الهاشمي الشافعي، ولد بمكة المكرمة عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م، ورحل الى القاهرة ودمشق طلباً للعلم. وقد برع في علم النحو. كما سافر أبو القاسم إلى الهند، وكان له مكانة عالية فيها لكرم أصله، ورجاحة عقله، وكان يراسل أسرته من آل فهد ويمدهم بأخبار الهند[٣].

---

(١) قسم بعض العلماء الاجازه الى سبعة اقسام:

١- أن يجيز لمعين في معين مثل ان يقول: اجزت لك الكتاب الفلاني فهذه أعلى انواع الاجازه.

٢- ان يجيز لمعين في غير معين مثل ان يقول: اجزت لكم جميع مسموعاتي او جميع مروياتي.

٣- أن يجيز لغير معين بوصف العموم مثل أن يقول: أجزت للمسلمين وأجزت لمن أدرك زماني.

٤- الاجازه للمجهول او بالمجهول مثل أن يقول: اجزت لمحمد بن خالد الدمشقي وفي وقته ذلك جماعة مشتركون في هذا الاسم والنسب ولايعين المجاز له منهم.

٥- الاجازه للمعدوم والاجازه للطفل وهذا النوع من الاجازه اختلف في جوازه العلماء.

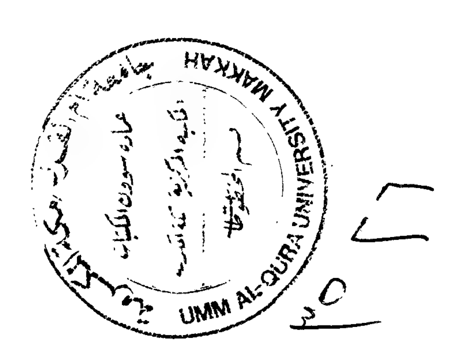
٦- اجازه ما لم يسمعه المجيز.

٧- اجازة المجاز.

ابن الصلاح- تقي الدين عثمان بن عبد الرحمن -**مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح**- تحقيق عائشه عبد الرحمن- دار الكتاب- مصر - ١٩٧٤م- ص٢٦٢- ٢٧٤.

(٢) السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٣- ص١٠٥/ ابن العماد الحنبلي -**شذرات الذهب**- ج٨- ص١٠٧.

(٣) السخاوي -**الضوء اللامع**- ج١١- ص١٣٣.



٨) يحيى بن عمر بن محمد بن محمد بن فهد، ولد عام ٨٤٨هـ/١٤٤٧م وزار المدينة المنورة والطائف وبلاد اليمن طلباً للعلم.

وكان يحيى اديباً شاعراً له ديوان يضم أشعاره ويوضح لنا كتابه "الدلائل الى معرفة الأوائل" مدى عنايته بالشعر توفي يحيى بن عمر عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م[١] .

٩) عبد العزيز بن عمر بن محمد بن محمد بن عبد الله بن فهد ابن العمدة المؤرخ الرحالة نجم الدين والد جار الله بن فهد المكي ولد عام ٨٥٠هـ/١٤٤٦م بمكة المكرمة[٢] . رحل الى الديار المصرية والشام وسمع هناك الكثير من العلماء وأذن له بالتدريس والافتاء. توفي عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م.

وله عدة مؤلفات منها:

- معجم شيوخه.
- الترغيب والاجتهاد في الباعث لذوي الهمم العليا على الجهاد.
- تاريخ على السنين ابتدأ فيه من سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة[٣] .

---

(١) **المصدر السابق** - نفس الجزء- ص٢٣٨-٢٤٠.

(٢) ابن فهد -**الدر الكمين**- ورقة٦٩- ٧٠/ السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٤- ص٢٢٤- ٢٢٥/ الغزي -**الكواكب السائرة**- ج١- ص٢٣٨.

كحالة -**معجم المؤلفين**- ج٥- ص٢٥٥.

(٣) السخاوي - **الضوء اللامع**- ج٤- ص٢٢٤/ الغزي -**الكواكب السائرة**- ج١- ص١٣٩/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨-ص١٠١- ١٠٢.

- بلوغ القرى بذيل اتحاف الورى بأخبار ام القرى[1] .

- غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام[2] .

١٠) العلامة المسند عبد الرحمن بن عبد القادر بن عبد العزيز بن عمر بن فهد المكي. محدث جليل. توفي عام ٩٩٥هـ/١٥٨٦م[3] .

(١) تم تحقيق الجز الاول من الكتاب- تحقيق الاستاذ/ فهيم شلتوت- جامعة ام القرى مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي- مكة المكرمة.

(٢) تم تحقيق ثلاثة اجزاء من الكتاب- تحقيق الاستاذ/ فهيم شلتوت- جامعة ام القرى مركز البحث العلمي واحياء التراث الاسلامي مكة المكرمة.

(٣) الكتاني -**فهرس الفهارس والاثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**- دار الغرب الاسلامي- بيروت- ١٤٠٢هـ- ج٢- ص٧٣٤.

وكان لنساء بني فهد نصيب في تنشيط الحركة العلمية وبروز بعض نساء هذه الاسرة واللاتي تتمتع الكثيرات منهن بقدر كبير من العلم، ومن هؤلاء النساء:

١) خديجة ابنة عبد الرحمن بن محمد بن فهد الهاشمي زوج التقى محمد بن فهد، ولدت عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م أجاز لها ابن التقى حاتم والعفيف النشاوري سمعت الكثير من الأحاديث عن الشيخ شمس الدين بن الجزوري وحدثت بمكة المكرمة واخذ عنها شمس الدين السخاوي وأثنى عليها. كما أخذ عنها ابنها النجم عمر بن فهد المكي، وروى عنها عدة أحاديث. توفيت عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م بمكة المكرمة(١).

٢) كمالية ابنة محمد بن محمد بن فهد الهاشمية المكية أخت تقي الدين بن فهد ولدت عام ٨٠٨هـ/١٤٠٥م بمكة المكرمة وأقامت في دمشق من عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م حتى ٨٥٧هـ ثم اتجهت الى القاهرة، وأخذ عنها العلماء وأجازت لشمس الدين السخاوي. توفيت عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م بمكة المكرمة(٢).

٣) فاطمة ابنة محمد بن محمد القرشي والدة تقي الدين بن فهد كانت عالمة جليلة اجاز لها الكثير من العلماء بحضور ولدها التقي بن فهد(٣).

---

(١) النجم ابن فهد -**الدر الكمين**- ورقة ١٩٨/ السخاوي -**الضوء اللامع**- ج١٢- ص١٢١- ١٢٢/ كحالة- عمر رضا -**اعلام النساء**- مطبعة الترقي- - دمشق- ١٩٦١م- ج١- ص٣٣٥.

(٢) النجم ابن فهد -**الدر الكمين**- ورقة ٢١٩/ السخاوي -**الضوء اللامع**- ج١٢- ص١٢١- ١٢٢.

(٣) النجم ابن فهد- **الدر الكمين**- ورقة١٩٩.

٤) ست قريش فاطمة بنت العلامة تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي ولدت عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م بمكة المكرمة، أخذت عن علماء مكة المكرمة في سنواتها الاولى المبكرة حيث سمعت من القاضي أبي بكر بن الحسين المراغي، والقاضي جمال الدين بن ظهيره "سنن الدار قطني"[(١)] .

وقد اجاز بعض العلماء لفاطمة ابنة محمد بن فهد ومنهم العالمة عائشة بنت عبد الهادي توفيت بمكة المكرمة عام ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م[(٢)] .

٥) ام هاني زينب ابنة محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكي ولدت بمكة المكرمة عام ٨١٧هـ/ ١٤١٥م. أخذت عن الجمال أحمد بن علي النويري كتاب "الرياض النضره".

وكانت ام هانيء تحدث وقد اجازت لعدد من العلماء منهم شمس الدين السخاوي والعز بن فهد. وقد توفيت عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م بمكة المكرمة[(٣)] .

٦) أم ريم تقية ابنة تقي الدين محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمية المكية. ولدت عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بمكة المكرمة، رحلت لطلب العلم الى عدد من المدن الاسلامية صحبة شقيقها عمر بن فهد[(٤)] .

لقد تعود آل فهد أن يسلكوا سبل العلم المختلفة وأن يطرقوا أبوابه وتحملوا الصعاب في سبيل لذلك غير مكترثين بما يصادفونه من مصاعب وكأنهم

(١) **المصدر السابق**- ورقة ٢٠٠- كحاله- **اعلام النساء**- ج٢- ص٧٨.

(٢) النجم ابن فهد -**معجم الشيوخ**- ص٤٠٤-٤٠٥.

(٣) ابن فهد -**الدر الكمين**- ورقة ٢٢٠/ السخاوي -**الضوء اللامع**- ج١٢- ص١٥٩.

(٤) ابن فهد -**المصدر السابق**- ورقة ٢٠٧/ السخاوي -**المصدر السابق نفس الجزء**- ص١٤٦-١٤٧.

وهبوا أنفسهم، وأوقفوها على طلب العلم. لذلك لم يقف بينهم وبين اكتساب المعرفة بعد المسافات وتحمل الصعاب في عذابات السفر براً وبحراً الى مواطن العلماء حيث وجدوا في المشرق، أو المغرب فكانت رحلاتهم الى مصر والشام واليمن وغيرها.

لذا فاننا نلاحظ تأثر أفراد هذه الأسرة بعضهم ببعض فالعز ابن فهد، والد جار الله تأثر بوالده عمدة المؤرخين النجم عمر بن فهد وسار على نهجه في التأليف يقول عز الدين بن عمر بن فهد "وكان سيدي والدي الحافظ العمدة نجم الدين عمر بن فهد الهاشمي المكي قد سبقني لجمع تراجم كثيرة من ذلك متتبعاً لتواريخ جماعة"[1] .

ثم جاء مؤرخنا جار الله بن فهد والذي عني بكتابات والده العز بن فهد وجده النجم عمر بن فهد ونقل عنهما الكثير يقول في ذلك "وجدت بخط جدي" وقال جدي في تاريخه اتحاف الورى[2] وقال والدي الحافظ عز الدين عبد العزيز بن فهد الهاشمي[3] .

كما أن البيت العلمي الذي عاش فيه جار الله بن فهد والذي كان زاخراً بأمهات الكتب كان له أثره على حياة مؤرخنا فكان جده التقي محمد بن فهد مولعاً بالكتب فاجتمع له منها ما لم يكن عند غيره من أهل بلده، وانتفع

---

(١) عبد العزيز بن فهد -**غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام**- ج١- ص١٧.

(٢) ابن فهد - جار الله -**تحفة الناسي بخبر رباط العباس**- مخطوط- - جامعة يال- امريكا- رقم ٢٣٥- ورقة٥.

(٣) **المصدر السابق** -ورقة٥.

أهل مكة والقادمون اليها بهذه الكتب[1] . بالاضافة الى المؤلفات التي قام علماء الفهود بتأليفها والتي تزيد على المائة جاء أغلبها عن تاريخ الحجاز وتراجم الرجال.

وكان لأسرة جار الله بن فهد أثر كبير في انضاج اتجاهات جار الله الفكرية والأخلاقية من خلال مناقشته لأفراد أسرته واستقراء مؤلفاتهم فلو تقصينا سير رجال ونساء هذه الاسرة وأخبارهم لوجدنا فيهم العالم والزاهد والقاضي والمؤرخ.

في ظل هذه الظروف الطيبة نشأ جار الله بن فهد وترعرع وسار على نهج أفراد اسرته فأحب العلم وحرص عليه الأمر الذي أدى الى بروزه كعالم من علماء الحجاز يشار اليه بالبنان، وهكذا كان البيت هو مدرسة جار الله بن فهد الأولى حيث رسم له والده وأجداده معالم الطريق وهيأوا له سبل المعرفة.

---

(١) السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٩- ص٢٨١/ النجم بن فهد -**معجم الشيوخ**- ص٢٨٠- ٢٨٤.

رحـــلاته العلـمية

اشتد عود جار الله بـن فهـد، وشـب عـن الطـوق، فنشـط في تحصيـل العلـم وصنوف المعرفة في بلده، ووصف بالرحالة لسفره المتواصل الى شـتى الأقطـار براً وبحراً في طلب العلم والإثراء الديني والفكري والمعرفي رغم مايواجهه مـن مشاق السفر ومتاعبه.

إن الهدف الذي تحرك من أجله في ترحالـه أغلـى وأثمـن مـن معرفـة الأقـاليم والبلدان، وأكثر إلحاحاً من تلبية مطالب جسدية أو متعة حياتيـة، بـل استعد ببذل الأموال وإنهاك الجسد ومواجهة ما يصادفه من مشـاق في تحقيـق هدفـه الأسمى والوصول إلى منابع العلم والمعرفة دينية كانت ام تاريخية.

رحلاته الداخلية:

١) رحلته الى المدينة المنورة:

كانت اولى الرحلات العلمية لجار الله بن فهـد مـع والـده الى المدينـة المنـورة فتوجه اليها عام ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م[١] عـائداً ذلـك لقربهـا مـن مكـة المكرمـة ولمكانتهـا العلميـة حيـث كـانت تزخـر بالعلمـاء والشـيوخ وطــلاب العلـم وجاوروا هناك والتقى بعدد من العلـــماء وسمع منهم. كما قرأ علـــى الشيخ

---

(١) العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤١/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨- ص٣٠١.

علي عبد الله السمهودي[1] تاريخ الوفاء وفتاواه، وقرأ على أبيه منها العمدة والشمائل وغيرهما، وقرأ عليه عدة موضوعات من الكتب الستة في علم الحديث وكتاب الشفاء للقاضي عياض[2].

٢) رحلته الى الطائف:

وبعد عدة سنوات من رحلته للمدينة بدأ برحلتين علميتين الى الطائف بصحبة والده الاولى عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م[3] سيراً في طريق العلم الى نهايته وأخذ العلم من علمائها وقضاتها، فلزم قاضي الحنفية علي بن الضياء العمري وأخذ عنه وكذلك قاضي الحرمين محمد بن يعقوب المالكي وتزود من علمهما وفقههما.

وبعين الناقد المؤرخ اطلع على آثار مدينة الطائف ومعالمها والكتابات الأثرية الموجودة على شواهد القبور[4] ثم عاوده الحنين الى مدينة الطائف والالتقاء

---

(١) نور الدين ابو الحسن علي عبد الله بن احمد الحسني الشافعي، نزيل الحرمين يعرف بالشريف السمهودي، مؤرخ المدينة المنورة ولد بسمهود بمحافظة قنا بمصر عام ٨٤٤هـ/ ١٥٥٠م فقيه ومؤرخ مصري جاور بالأزهر وأخذ اللغة والفقه على مشائخ عصره وجلس للتدريس مع ميله للتصوف جاور بمكة ثم انتقل الى المدينة واتصلت سيرته بها له مؤلفات كثيرة اشتهر بمؤلفاته التاريخيه عن تاريخ المدينة. توفي عام٩١١هـ بالمدينة المنورة.

العيدروسي -**النور السافر**-ص٥٨/ السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٥- ص٢٤٥. الزركلي-**الاعلام**- ج٤- ص٣٠٧/ الشوكاني -**البدر الطالع**- ج١-ص٤٧٠.

(٢) العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤١/ ابن العماد- **شذرات الذهب**- ج٨- ص٣٠١.

(٣) العز بن فهد -**بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة ١٨٤ب- ١٨٥أ . ابن فهد- جار الله - **تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف**- تعليق محمد كمال ومحمد الشقحاء- النادي الأدبي- الطائف- ١٤٠٦هـ- ص١٥٠.

(٤) جار الله بن فهد -**تحفة اللطائف**- ص١٤٤.

بعلمائها وأدبائها عام ٩١٦هـ/١٥٠٩م[1] وكان من ثمار هذه الرحلة العلمية قيامه بتأليف كتاب تضمن ما رصده فكره وعقله وبصره في هذه المدينة سماه "تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووجّ والطائف[2]".

كما سمع أثناء وجوده بقرية السلامة[3] من الفقية شهاب الدين احمد بن علي الحناوي المكي المالكي[4] والشيخ الفقيه الأديب رضي الدين[5] محمد بن ابراهيم الحلبي الحنبلي[6].

---

(١) جار الله بن فهد- **تحفة اللطائف** -ص١٥٠.

(٢) كتاب "**تحفة اللطائف في فضائل الحبر ابن عباس ووج والطائف**. وضعه على مقدمة وبابين وخاتمة، طبع بتعليق ومراجعة محمد سعيد كمال ومحمد الشقحاء- طبعة النادي الأدبي بالطائف- ١٤١٣هـ.

(٣) حي يقع في الناحية الغربية من احياء الطائف ضارباً في القدم، به مسجد للنبي صلى الله عليه وسلم وبالقرب منه مسجد وقبر الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وقد وسع هذا المسجد واصبح من المساجد الكبرى في مدينة الطائف. للمزيد انظر: البلادي- عاتق غيث -**معجم الحجاز**- دار مكة- مكة- ١٤٠١هـ- ج٤-ص٢١٨.

(٤) شهاب الدين احمد بن عمر بن سليمان الجعفري من علماء المتصوفه برع في علم الفقه والحديث وامتاز بقرضه الشعر خاصة شعر المدح استقر بمدينة الطائف وأصبح من أبرز فقهائها له عدة مؤلفات خاصة في العلوم الفقهية توفي سنة ٩٢٠هـ.

ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨-ص٩٦/ عمر كحاله -**معجم المؤلفين**- ج٢-ص٣٢.

(٥) رضي الدين محمد بن ابراهيم بن يوسف الحلبي الحنبلي واحد التلاميذ الذين اخذوا عن جار الله بن فهد وأجاز له مؤرخ من علماء حلب مولده بحلب عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م. له نيف وخمسون مصنفاً في شتى العلوم والمعارف وأغلبها في التاريخ ومن اشهرها "درر الحبب في تاريخ أعيان حلب" و "الزبد والضرب في تاريخ حلب" توفي عام ٩٧١هـ/١٥٦٣م ترجم له:

الغزي -**الكواكب السائرة**- ج٢- ص١٣١/ الذهبي -**اعلام النبلاء**- ج٦-ص٥٩/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨-ص٣٦٥.

الزركلي -**الاعلام**- ج٥- ص٣٠٢.

(٦) جار الله بن فهد -**التحفة اللطيفة**- ص١٥١.

كما قام بتأليف كتاب آخر سماه "حسن القرى بأودية أم القرى"[١] .

٣) **رحلته إلى جدة:**

ثم تلى هذه الرحلة رحلة الى مدينة جدة لأنه أدرك مدى أهميتها وانها بوابة مكة وخط الدفاع عنها والميناء الاقتصادي لامدادها بالمنتجات الغذائية وغيرها وكتب عنها رسالة بعنوان "تاريخ مدينة جدة واحوالها وقربها من مكة"[٢] .

استفاد جار الله بن فهد من رحلاته الداخلية حيث كانت مفيدة ومثمرة، أتت أكلها، فاقترب من علماء الحجاز وأخذ عنهم ماراقه وما اشتهر به كل منهم واوقفته على ثقافة العصر وفكره ووصل الى درجة كبيرة من النضج الفكري والإتساع المعرفي[٣] .

---

(١) حسن القرى بأودية ام القرى ويسمى نبع الخير والبركة في اودية ام القرى مكة. تضمن مقدمة وثلاثة فصول خصها بمكة وجدة والطائف واعتمد على كثير من المصادر ويتضمن معلومات مهمة عن اماكن الاودية وخصائصها مع صفات اهلها، درس الكتاب وحققه ونشره المستشرق: روبرت سيرجنت- مطبعة لندن- ويقع في ٤٨ صفحة، ونشر في مجلة العرب عام ١٣٩٨هـ.

(٢) "تاريخ مدينة جدة واحوالها وقربها من مكة" تقع في اربع صفحات ونصف ورغم صغرها فقد ذكر فيها اخباراً هامة عن الحياة الحضارية لجدة واسوارها ومساجدها وآثارها وجبايات السفن وتجارتها. نشرها ودرسها عبد المحسن مدعج في مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد ٣١ -ج١ -شوال ١٤٠٧.

(٣) العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤٢.

رحلاته الخارجية:

بعد ان استوفى ماعند مشائخ الحجاز والسماع منهم لم يستقر بمكة و لم يركن إلى الدعه بها حيث ابتدأ جار الله بن فهد يتطلع ويتوق نفسه الى طلب العلم والنهل من محيط المعرفة من خارج اقليم الحجاز ويشد رحاله متجشماً المشاق للبحث عن عالم بعينه يأخذ عنه العلم والوقوف على المراكز العلمية المتوزعة على كثير من اقطار العالم الاسلامي واغراه على ذلك عدم وجود صعوبات في دخول كل هذه الاقطار، وحسن استقبال الناس له والرغبة في تحصيل العلم كانت من اكبر العوامل التي شجعته على قطع ارجاء معظم البلاد الاسلامية من جميع اطرافه ومعرفة المجهول واكتشاف العالم الاسلامي.

١) رحلته الى القاهرة:

وفي سن الثالثة والعشرين من عمره قام برحلة علمية حافلة الى القاهرة كعبة العلماء عام ٩١٣هـ/١٥٠٧م[١] ليشارك فيها بنشاطه الفكري ويقف على مافيها من علوم ومعارف، ولاشك انه اجتمع بعدد من العلماء واستفاد من علمهم الأمر الذي دفعه الى العودة لها مرة ثانية عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م[٢] وليأخذ على من لم يسعفه الوقت بالأخذ عنه في المرة الأولى، وكان لهذه الرحلة اثرها على حياة جار الله بن فهد العلمية حيث تعرف على المدرسة

---

(١) العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤١/ ابن العماد - **شذرات الذهب**- ج٨ ص٣٠١.

(٢) العز بن فهد -**بلوغ القرى**- ورقة ٢٣٠/ **غاية المرام** -ج٣ ص٣٣٥/ العيدروسي -**النور السافر**- ص١١١.

التاريخية المصرية التي ازدهرت بفضل علماء ومؤرخون في منتصف القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجري منهم المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) وابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/١٤٤٩م) وشمس الدين السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م) وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م) وغيرهم وكان لهذه المدرسة اثرها الواضح في منهجه في كتابة الاحداث التاريخية وان كان هناك نوع من الاستقلالية في الكتابة التاريخية نلمسها في مؤلفاته[1] كما وقف بنفسه على أهم الأحداث السياسية التي جرت بين دولة المماليك الجراكسة ودولة بني عثمان وسقوط الاولى واستلام الثانية الزمام والسيطرة على العالم الاسلامي.

٢) رحلته الى اليمن:

تعتبر رحلته العلمية الثانية حيث كانت عام ٩١٤هـ/١٥٠٨م فطاف ببلاد اليمن والتقى بعلمائها ومكث بها اربعة اشهر والتقى بمدينة زبيد[2] بمؤرخ اليمن ابن الديبع[3] وتحدث ابن الديبع عن زيارة جار الله بن فهد في

---

(١) الكتاني -**فهرس الفهارس**- ج١ -ص٢٩٦/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨ ص٢٥٠.

(٢) زبيد: تتخذ موقعاً في سهل اليمن المطل على البحر الاحمر فلذلك كان سكان الشواطي ينالون احتياجاتهم من السلع عن طريق زبيد وبينها وبين الشاطيء خمسة أميال شيدت في خلافة المامون ثم صارت قاعدة لبني رسول، يكثر بها النخيل واللبان. القلقشندي، شهاب الدين احمد بن علي -**صبح الاعشى في صناعة الانشاء**- تحقيق محمد حسين شمس الدين- بيروت- دار الفكر- ١٩٨٧م- ج٥ - ص٩/ الادريسي، ابو عبد الله محمد بن عبد الله -**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**-ج٢- تحقيق كور بللي وآخرين- نابلي- معهد الدراسات الشرقية- ١٩٦٥م ص٥٥- القزويني، زكريا بن محمد-**آثار البلاد وأخبار العباد**-بيروت- دار صادر- ١٩٨١م- ص٦٢.

(٣) وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني الزبيدي نسبة الى زبيد مسقط رأسه ولد عام ٨٨٦هـ/١٤٦١م المشهور بابن **الديبع**، وكلمة الديبع تعني بلغة النوبة الأبيض وكانت لقباً لجده الأعلى علي بن يوسف درس شتى العلوم والمعارف وأصبح فقيه ومؤرخ اليمن الكبير ومحدثها من تلاميذه المؤرخ المكي جار الله بن فهد جاور بمكة واشتهر بتأليفه عن مدينة زبيد والاسر الحاكمة لها له مؤلفات كثيرة في التاريخ والحديث توفي ابان دولة بني طاهر باليمن عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م. ترجم له: العيدروسي -**النور السافر**- ص٢١٢. احمد الشنتناوي وآخرون-**دائرة المعارف الاسلامية**-دار المعارف- القاهرة-١٩٦٤م- ج١-ص١٦٢. الزركلي -**الاعلام**- ج٣-ص٣١٨/ الشوكاني - **البدر الطالع**- ج١- ص٣٣٦.

كتابه الفضل المزيد على بغية المستفيد في اخبار زبيد في يوم الثلاثاء السادس والعشرون من ربيع الاول ٩١٤هـ/١٥٠٨م، قدم الشيخ الفاضل المحدث جار الله محمد بن محب الدين ابن شيخنا الحافظ عز الدين عبد العزيز بن عمر بن فهد الهاشمي المكي الى مدينة زبيد... ولازمني مدة اقامته بزبيد، وحمل عني كثيراً من مقرؤاتي ومؤلفاتي وكان عجباً في ذلك زاده الله من فضله ولم يزل بزبيد طالباً للعلم حريصاً على ذلك الى ان توجه الى مكة المشرفة يوم الاثنين الحادي عشر من شعبان بلغه الله مراده آمين"[1] .

٣) رحلته الى الشام:

قرر جار الله بن فهد أن يغترف العلم من علماء الشام وزيارة مدنها والقيام برحلة علمية لها عام ٩٢١هـ/١٥١٥م مروراً بمصر، ثم دمشق التي دخلها عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م[2] وهناك التقى بالمؤرخ ابن طولون[3] وتوطدت بينهما

---

(١) ابن الديبع- عبد الرحمن بن علي بن محمد -**الفضل المزيد على بغية المستفيد**- تحقيق محمد عيسى الصالحيه- المجلس الوطني- الكويت- ١٤٠٣هـ- ص٢١.

(٢) الحلبي -**درر الحبب**- ج١ ص٤٣٤/ الغزي -**الكواكب السائرة**- ج٢ - ص١٣١/ ابن طولون -**اعلام الورى**- ص٢٦٩.

(٣) شمس الدين محمد علي بن طولون الحنفي الدمشقي الصالحي، مؤرخ ملم بعلم التراجم والفقه والطب، كان معاصراً للمؤرخ المكي جار الله بن فهد وبينهم صداقة وطيدة ولد سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٦م بدمشق تعلم بالقاهرة ثم عاد الى مسقط راسه حيث جلس لتدريس اللغة والحديث في المدرسة الصالحية له تآليف كثيرة ومتنوعة اغلبها في التاريخ والتراجم توفي بدمشق عام ٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م. ترجم له:
الغزي -**الكواكب السائرة**- ج٢-ص٥٢/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨-ص٢٩٨/ الزركلي - **الاعلام**- ج٦-ص٢٩١.

المحبة والصداقة ولازمه أثناء إقامته في دمشق وكانا يحضران معاً مجالس العلماء والفقهاء في مدينتي دمشق وحلب، ونال إعجاب وتقدير واحترام العلماء فكان كثيراً مايطلبون منه ان يفتتح بعض الحلقات العلمية التي يعقدونها في دمشق[١].

كما التقى جار الله بن فهد بالخليفة العباسي المتوكل على الله[٢] وفوض اليه بعد والده مشيخة رباط العباس ونيابة النظر على وقفة وكتب له امراً بذلك، وذلك للثقة الكبيرة ومكانة ابن فهد العلمية. وقد افاد واستفاد كثيراً من اجتماعه بالعلماء ومحاورتهم ونهل مالديهم من علم ومعرفة والاطلاع على مؤلفاتهم ومالديهم من مصنفات وقام بنسخ كثير من المؤلفات التي كان بحاجة اليها[٣].

عاد جار الله بن فهد إلى مكة المكرمة. يقول صديقه: ابن طولون في كتابه "مفاكهة الخلان" إن جار الله بن فهد سافر من دمشق لما سمع بوفاة والده اليوم السابع من جمادى الثانية عام ٩٢٢هـ ماراً بحلب وغزه"[٤].

---

(١) الكتاني -**فهرس الفهارس**- ج١- ص٢٩٦/ ابن طولون - **اعلام الورى**- تحقيق محمد مصطفى- المؤسسة المصرية العامة- القاهرة- ١٩٦٤م- ص٢٦٩.

(٢) المتوكل على الله ابو عبد الله الخليفه محمد بن يعقوب المستمسك بالله ولد في ليلة الاثنين ثاني عشر ربيع الاول سنة ٨٧٠هـ بالقاهرة فنشأ في كنف أبيه وحفظ القرآن وكان فاضلاً اديباً عاقلاً أريباً له شعر حسن توفي عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م. انظر: الشلي، محمد بن ابي بكر المكي -**السنا الباهر بتكميل النور السافر في اخبار القرن العاشر**-مخطوط مكتبة شهتوبتي- ايرلندا- رقم٥٢٣٠- ص٤٧٩.

(٣) الحلبي -**درر الحبب**- ج١ - ص٦٦/ ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨- ص١٢٨.

(٤) ابن طولون- محمد علي-**مفاكهة الخلان في حوادث الزمان** - ج٢- ص٦٣.

٤) رحلته الى بلاد الروم:

بعد عدة سنوات من رحلتـه الى الشـام حـن جـار ا لله بـن فهـد الى الترحـال والسفر وطلب العلم ومقابلة العلماء والرغبة في التكسب ومقابلة عليـه القـوم والتودد اليهم. فقرر القيام برحلة علمية الى مقر العاصمـة الإسـلامية اسـتنبول الـتي كـانت تزخـر بالعلمـاء والمكتبـات والمراكـز العلميـة في عـام ٩٢٨هـ/ ١٥٢١م[1] وخلال هذه الرحلة الف فيها كتابه "الجواهر الحسان"[2] .

كما عاد جار ا لله بـن فهـد الى اسـتنبول برحلـة علميـة ثانيـة عـام ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م، والتقى فيها بالعديد من العلماء[3]، وترك جار ا لله بن فهد في مدينة استنبول عدداً من مؤلفاته ليستفيد منها مشائخه واصدقائه[4] .

وهكذا افادت جار ا لله بن فهد رحلاته العديدة، فصقلت موهبتـه وشـحذت فكـــره، وظهر الهلال واكتمل فسار بدراً بدَّد بعلمـه دياجـير الظـلام، وبلـغ فـــي العلوم كماله، لأنه استـفاد من رحــلاته ثقافة وعلـماً فكراً وخلقاً، مع

(١) ابن فهد- جار ا لله -**منهل الظرافه بذيل مورد اللطافه**- مخطوط- مكتبة مكة المكرمة- جامعة اسطنبول- رقم٣٦٠- ورقه ٩٨.

(٢) الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان بن عثمان، أهداه الى السلطان العثماني رتبه على مقدمة وبابين وخاتمة وألفه في مدينة بورصة يتضمن تاريخ سلاطين آل عثمان وفضل الروم والفتوحات في عهدهم وأورد نبذة عن فضائل الحرمين الشريفين توجد منه نسختان، اولاهما بالمكتبة السليمانية والثانية بجامعة اسطنبول لم تحقق تقع في ١٢٨ ورقة.- جار ا لله بن فهد -**الخبر المرفوع في ايام الاسبوع** -مخطوط- جامعة بيل الامريكية- امريكا- رقم٢٢٥- ورقة١١.

(٣) **المصدر السابق** -ورقة ١١.

(٤) ابن فهد - جار ا لله -**الجواهر الحسان في مناقب السلطان سليمان بن عثمان**- مخطوط- جامعة اسطنبول- رقم ٣٦٠- ورقة ٢٢٨.

مشاهداته، ومعرفته بطبائع الناس فيها، ودراسة احوالها وظروفها، مما كان لـه انعكاس واضح على مؤلفاتـه، لذلـك كـانت الرحـلات أحـد أسباب نبوغـه وتفوقه، وابرز المصادر التي اعتمد عليها جار الله بن فهد في إعداد مؤلفاته.

مكانته العلمية وثناء العلماء عليه

لقد هيأ الله لجار الله بن فهد سبيل الشهرة منذ صغره فتفتحت عيناه على منابع العلم والاجتماع بالعلماء لمكانة اسرته العلمية وساعدته الظروف على الترحال إلى الأمصار والاشتغال بالعلوم والاطلاع على المصنفات في المراكز العلمية والمكتبات الخاصة لجل العلماء، ونتج عن ذلك أن بدأت وفود الطلاب تأتيه من كل حدب وصوب لتنهل من علمه وتسمع منه الحديث وتقرأ عليه التاريخ وتطلب إجازته[1].

ومن أشهر من أخذ عنه ونال إجازته ابن الحنبلي محمد بن إبراهيم الذي ذكر علاقته بجار الله لقوله: "سمعت من لفظه بمكة المشرفة سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة (٩٥٣هـ/١٥٤٦م) وأجاز (لي) في أن أروي عنه جميع مايجوز له روايته عنه وأنشدنا لبعض مشائخه:

أكَابِرنَا شيوخِ العلم حَازوا

علومَ الدين فاغتنموا وفازوا

أجَازُوا لي رِوايةِ مَارووه

فَهَا أنَا ذا أجَزْتَ كمَا أجَازُوا[2]

كما أثنى عليه والد (النجم الغزي) الذي التقى به في إحدى حجاته، وقد أشار النجم إلى ذلك قائلاً: "ولما حج شيخ الإسلام الوالد سنة خمسين

---

(١) ناصر الرشيد -**مجلة العرب**- ج١١،١٢- جمادى الاولى والثانية سنة ١٣٩٧هـ- ص١١.

(٢) الغزي -**الكواكب السائرة**- ج٢/١٣١.

وتسعمائة (٩٥٠هـ/١٥٤٣م) حضر المشار إليه للسلام عليه، وأثنى عليه الوالد كثيراً وترجمه بالإمامة والتقدم في علم الحديث[١] .

وكتب عنه الأديب شهاب الدين احمد بن العليف[٢] معبراً عن إعجابه بجار الله بن فهد في قصيدة قال في مطلعها:

لِلّهِ دُرُ بن فَهدِ فِي تَفَنُنِهِ
ومَا تصدَّى لَهُ من خدمةِ الأثرِ
مُحدِّثٍ ثقةٍ في النّقلِ رَاوية
قَد مَارسَ الفَنَ في وَردِ وفِي صَدرِ
أبدىَ أحَادِيثِ فَضلٍ من مَعارِفهِ
نُمُواً غوامِضاً بَرَزَت في أحْسنِ الصَوَرِ
وَصَارَ يَجمَع مِنهَا كُلَ مُفتَرِقٍ
حتى تَألّقَ فِي عَقدٍ مِنَ الدُررِ[٣]

كما نظم الاديب أحمد الجعفري قصيدة طويلة في مدح جار الله بن فهد قال في مطلعها:

---

(١) الغزي -**المصدر السابق نفس الجزء والصفحة.**

(٢) شهاب الدين احمد بن الحسين المكي العدناني ولد عام ٨٥١هـ بمكة عالم فقيه محدث أطلق عليه متنبي عصره لشاعريته ترجم له بتوسع محمد الطبري في كتابه اتحاف فضلاء الزمن وذكر أغلب اشعاره التي امتازت بمدح الخلفاء والسلاطين والامراء ومن اشهر قصائده القصيدة النونية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والقصيدة الرائية التي ضمنها حوادث الأيام دفن بالمعلاه بمكة في ذي الحجة سنة ٩٢٦هـ ترجم له:

الطبري -محمد بن علي -**اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن وولاية قتاده**- تحقيق ناصر البركاتي - رسالة دكتوراة غير منشورة من جامعة ما نشستر ببريطاني ج١ ص١٦ .

عبد الله مرداد -**المختصر من كتاب نشر النور والزهر**- ص١٠٧/ الشوكاني **البدر الطالع**- ج١-ص٥٤.

(٣) العز بن فهد -**غاية المرام**- ج٣- ص٢٤٠.

وبَعدُ فَالعَبدُ الفَقِير قد وقَفَ

مُجْتنياً زَهــــرِ الكَمامِ واقتَطَفَ

مِــن ثَمَراتِ هَــذهِ الأوراقِ

مــَـــا قَـد جَناهُ أفْضَلُ الُحذَّاقِ

أعْنِي مُحبَّ الدِّينِ جـَـارَ اللّهِ

مِن فَضلهِ قـــدْ عَزَ عَن مُضَاهِي

وَكَيْفَ لا وهُو إبنُ عِزَّ الدِّينِ

ذي الفَضْلِ والتَحقِيقِ والتَّمْكِين[1]

كما كان لجار ا الله بن فهد صداقات مع مشاهير الأعلام في عهده منهم شمس الدين ابن طولـون فقـد توطـدت المحبـة بينهمـا فكـان يسـميه: أخونـا في ا الله المؤرخ، كما كان يكاتب كل منهما صاحبه في كـل سـنة مـع الحجـاج كـل مايستجد من أحداث[2] .

وعندما قضى جار ا الله بن فهـد نحبـة رثـاه العـالم رضـي الديـن محمـد الحلـبي الحنبلي في كتابه "درر الحبب":

بوفَاةِ الإمَامِ جَارَ اللّهِ

كَسفَتْ شَمْسُ كُلِّ وَجْهٍ بَاهِي

وَبِترْحَالِهِ الى الرَّمْسِ بِالأمْسِ

فَكَمْ سَاهِرٍ عَلَيهِ وسَاهِي[3]

(١) الغزي -**الكواكب السائرة**- ج٢- ص١٣١.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن -**ذيل الحفاظ**- بيروت- دار الكتب- ١٣٨١هـ- ص٣٨٣. عابد، محمد يوسف -**التاريخ والمؤرخون بمكة**- ص٩٢.

(٣) الحلبي -**درر الحبب**- ج١- ص٤٣٤.

وجار الله بن فهد بشهادة المؤرخين من عصره كان من كبار مؤرخي مكة المشرفة ومن اجل علمائها، أنتج إنتاجاً ضخماً وترك اثراً ملموساً في نفوس من اجتمعوا به وعرفوه عن قرب حتى إنه نال الإعجاب والتقدير والاحترام من شيوخه وتلاميذه.

شيوخه:

أما شيوخه الذين أخذ عنهم وغرف من غزير علومهم ثقافته وتكوينه العلمي فهم كثير وجمعهم في ثبته وفي فهرسته وفي معجم شيوخه، وهي كتب ثبتت نسبتها اليه أوردها في إخباره عن نفسه، ولثبوت ذكرها في المصادر الأساسية لترجمته ولكنها -فُقدت من المكتبات و لم نعثر على شيء منها. إلا أن تأليفه لها يقوم دليلاً على كثرة شيوخه الذين أخذ عنهم

نُشير في ما يلي إلى عدد محدود من مشاهير هؤلاء الشيوخ فمنهم:

- المحدث المؤرخ والده العز بن فهد المكي (ت ٩٢٢هـ/١٥١٧م).
- المحدث المؤرخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م).
- الفقيه القاضي زكريا بن محمد الأنصاري (ت ٩٢٥هـ/١٥١٩م).
- الفقيه النحوي عبد الله باكثير المكي (ت ٩٢٥هـ/١٥١٩م).
- القاضي المحدث برهان الدين بن أبي شريف المقدسي (ت ٩٢٣هـ/١٥١٧م).
- الفقيه الإمام عبد الحق السنباطي (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م).
- المؤرخ عمر الشماع (ت ٩٣٦هـ/١٥٢٩م).
- المحدث أبوبكر العيدروسي (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م).

- الفقيه مؤرخ المدينة، علي السمهودي (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م).
- المؤرخ عبد الرحمن العليمي المقدسي (ت ٩٢٨هـ/١٥٢٢م).
- المؤرخ عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني المشهور بابن الديبع (ت ٩٤٤هـ/١٥٣٧م) وغيرهم.

وهناك مجموعة من الشيخات الراويات للحديث مثل:

- أم سلمه بنت محمد الطبريه المكية (ت ٩١٣هـ/١٥٠٧م).
- فاطمة بنت الكمال بن سيرين (ت ٩٤١هـ/١٥٣٤م).

مؤلفـــاتــــه

يعتبر جار الله بن فهد نموذجاً فذاً من النمـاذج الـتي تمثـل ثقافـة عصـره بكـل مافيه أصـدق تمثيـل. ذلـك أنـه ألَـمّ بـألوان الثقافـة الإسـلامية علـى اختـلاف مناحيها واتجاهاتها. وطرق كل ماتاقت اليه نفـس العـالم مـن علـوم في مجـال الدين والفنون والتاريخ والمعارف الانسانية فقـد رزقـه الله عقـلاً تواقـاً ذواقـاً استوعب في شوق جل ما كتبه السابقون، فأكب عليها بحثاً واستظهاراً حتـى حصل الكثير، ومن ثم تكونت لديه ثروة علمية ضخمة أتت ثمارهـا المرجـوة غزارة في الانتاج وتعدداً وتنوعاً في المؤلفات وهي مفيدة ونافعـة وقيمـة، تجـبر قارئها على عدها من المؤلفات البارعة، فقـد تـرك رصيـداً ضخمـاً في فـروع العلم المختلفة المعروفة في زمانه سالكاً في ذلك مسلك والده وحده في تدويـن الحديث والتاريخ المكـي. ممـا جعلـه يقـترب الى حـد كبـير مـن المؤرخـين في القرنين التاسع والعاشر الهجري، ويسـمو الى مرتبـة المؤرخـين الكبـار وكـان لمؤلفاته أثر فيمن جاء بعده حيث استفادوا من مؤلفاته نقلاً ومنهجاً.

ولمؤرخنا جار الله بن فهد مؤلفات كثيرة مفقودة مابين كتاب ورسـالة أشـار اليهـا في مؤلفاتـه الموجـودة وكذلـك اشـارت اليهـا كتـب الفهـارس وكتـب التراجم ولقد ضاعت هذه الكتـب و لم يصلنـا منهـا شـيء وتحتـاج الى جهـد شاق متواصل للبحث عنها.

وسنتناول هنا بشيء من الايجاز عرض قائمة مؤلفات جار الله بن فهد المفقودة والموجودة. مرتبة على حروف المعجم مع الإحالة الى شيء موجز يعرف بوجودها أو بمن ذكرها من اصحاب المصادر.

بيان بأسماء المؤلفات

١) الاتعاظ، بما ورد في سوق عكاظ. ذكره المؤلف في حسن القرى ص٧٦.

٢) الإسعاف، في حماية كتب الأوقاف. ذكره المؤلف في نيل المنى ورقة ١٦٠ ب.

٣) الأقوال المتبعة، في بعض ما قيل في مناقب الأئمة الأربعة، منه نسخة في مكتبة الظاهرية رقم ٢١٣.

٤) البلدانيات. ذكره المؤلف في حسن القرى ص٩،١١ وغيرها.

٥) بلوغ الأرب، بمعرفة أي الأنبياء من العرب. منه نسخة بمكتبة الحرم المكي برقم٤٢٣ حديث.

٦) بلوغ الأرب، في تملك السلطان سليم خان لأرض العجم والعرب. ذكره الشلي في السنا الباهر ورقم ٨٤ ب.

٧) بلوغ الأرب في حكم تيجان العرب (العمامة). ذكره المؤلف في نيل المنى ورقة٤٧ أ.

٨) بلوغ المنى، في بيان: لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر. منه نسخة مكتبة برلين رقم٦٣،٦٠.

٩) بهجة الزمان، بعمارة الحرمين لملوك آل عثمان. ذكره البغدادي في ايضاح المكنون ١: ٢٠١.

١٠) تاريخ مدينة جدة وأحوالها وقربها من مكة. منه نسخة بمكتبة برلين رقم٦٣ ٦٠.

١١) تاريخ يفيد في معرفة المترجمين في الضوء اللامع من الاحياء. ذكره مرداد في المختصر من نشر النور والزهر ص١٥٢.

١٢) تأليف في دخول الطاعون لمكة والمدينة. ذكره المؤلف في نيل المنى ١٦٩أ.

١٣) تحفة الإيقاظ، بتتمة ذيل طبقات الحفاظ. ذكرها المؤلف في نسخة كتبها من لحظ الألحاظ. انظر لحظ الألحاظ ص٢٨٢.

١٤) تحفة الكرام، بمرويات حجاب بيت الله الحرام. نسبه له السنجاري في منائح الكرم ج٢.

١٥) تحفة اللطائف، في فضل الحبر ابن عباس ووج والطائف. طبع بتعليق محمد سعيد كمال، نادي الطائف الادبي.

١٦) التحفة اللطيفة، في بناء المسجد الحرام والكعبة الشريفة. ذكره الغزي في الكواكب السائرة ٢: ١٣١.

١٧) تحفة المسند العالي، بنخبة الأسانيد العوالي. ذكره المؤلف في نيل المنى ٣٤أ.

١٨) تحفة الناس، بخبر رباط سيدنا العباس. طبع في مجلة "الحكمة" الصادرة في بريطانيا، العدد السادس، صفر ١٤١٦هـ ص١٣٣-١٥٣. بتحقيق ابي عبيده مشهور آل سليمان وأبي حذيفه احمد الشقيرات.

١٩) تحقيق الرجا، لعلو المقر المحبي بن آجا. ذكره العز بن فهد في غاية المرام ١:٣٧.

٢٠) تحقيق الصفاء، في تراجم بني الوفاء. ذكره الكتاني في فهرس الفهارس ص٩١٢.

٢١) تخريج مشيخة عبد الحق السنباطي. ذكره العيدروسي في النور السافر ص٢٤٢.

٢٢) تخريج مشيخة محب الدين النويري. ذكره العيدروسي في النور السافر ص٤٢٤.

٢٣) ثبت جار الله بن فهد. ذكره المؤلف في نيل المنى ٤٨ب.

٢٤) الجواهر الحسان، في مناقب السلطان سليمان بن عثمان. منه نسخة بالمكتبة السليمانية باسطنبول رقم ٩٢٧، وثانية بمكتبة جامعة اسطنبول (دار المثنوي) رقم ٣٦٠.

٢٥) حسن السلوك، في فضل الملوك. ذكره المؤلف في نيل المنى ٣٤ أ.

٢٦) حسن القرى، في اودية ام القرى. نشره المستشرق R B Sergeant وطبع في مجلة العرب سنة ١٤٠٣هـ.

٢٧) حفظ العهود، على حكم وقف دار الفهود. ذكره المؤلف في نيل المنى ١٧٥ أ.

٢٨) حفظ المساق والعهد، في مدائح بني فهد. ذكره المؤلف في نيل المنى ١٥٨ب.

٢٩) الخبر المرفوع، في أيام الأسبوع. ذكره المؤلف في نيل المنى ١٥٦ أ، ومنه نسخة بجامعة Yale بأمريكا ، رقم ٢٢٥.

٣٠) رحلة الى حلب. ذكرها الغزي في الكواكب السائرة ١: ١٣٩.

٣١) رحلة الى دمشق. ذكرها ابن طولون في مفاكهة الخلان ٢: ٩.

٣٢) رسالة في كتاب السر في ديوان مصر. ذكرها المؤلف في تحفة اللطائف ٩٦.

٣٣) غاية الأماني والمسرات، لعلو سلطان الحجاز ابي زهير بركات. ذكرها العز بن فهد في غاية المرام ١: ٣٧.

٣٤) فهرسة جار الله بن فهد. ذكرها الكتاني في فهرس الفهارس ص٢٩٦.

٣٥) قمع الشهوات، في رد كذب ناظم القهوات. ذكره المؤلف في نيل المنى ورق ٧٧ أ.

٣٦) القول المبرور، في فضل عرفة والدعاء بها المأثور. ذكره المؤلف في نيل المنى ٦٩ب.

٣٧) القول المعظم المنيف، في الموعظة وتعظيم أهل الحديث. ذكره المؤلف في نيل المنى ١٥٨ ب.

٣٨) القول المؤتلف، في نسبة الخمسة البيوت الى الشرف. منه نسخة بمكتبة الحرم المكي رقم١١٨ تراجم دهلوي.

٣٩) كشف القناع، عن هول الوداع. ذكره البغدادي في هداية العارفين ٢: ٢٤٢.

٤٠) معجم الشعراء الذين سمع منهم الشعر. ذكره الغزي في الكواكب السائرة ١: ١٣٩.

٤١) معجم شيوخ جار الله بن فهد. ذكره المحبي في خلاصة الأثر ٢: ٤٥٧.

٤٢) منهل الظرافه، بذيل مورد اللطافه، في من ولي السلطنة والخلافه، منه نسخة بمكتبة مكة المكرمة (دار المولد) برقم ٤ (٢) تاريخ.

٤٣) مورد الطالب الظمي، بمرويات الحافظ برهان الدين سبط ابن العجمي. ذكره حاجي خليفه في كشف الظنون ص١٩٠١.

٤٤) مولد مختصر. ذكره المؤلف في نيل المنى ورقم ١٥٨ أ.

٤٥) نخبة قرة العين، بمبرة وفاء الدين. ذكره المؤلف في نيل المنى ورقة ١٥٨أ.

٤٦) نزهة الأبصار، بأخبار الأعمار. ذكره المؤلف في نيل المنى ورقة ١٥٨ أ.

٤٧) النكت الظراف، في الموعظة بذوي العاهات من الاشراف. منه نسخة بمكتبة شستر بيتي رقم ٣٨٣٨.

٤٨) نهاية السول، في فضل آل بيت الرسول، صلى الله عليه وسلم. منه نسخة بمكتبة برلين رقم ٩٦٢٧.

وفـــاته:

وبعد رحلة علمية وعملية حافلة بشتى انـواع المعـارف، آن للبـدر أن يختفـي وراء الأفق وللعين أن تغيب خلف الحجـب، ولكنـه إختفـاء مـادي، وغيـاب حسي، أما روحه فهي حية في مؤلفاته القيمـة، فقـد لقـى ربـه في سـحر ليلـة الثلاثاء خامس عشر جمادى الثانيـة عـام ٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م عـن عمـر ينـاهز الثالثة والستين[١].

(١) العيدروسي -**النور السافر**- ص٢٤١- ابن العماد -**شذرات الذهب**- ج٨- ص٣٠١.

كتاب " نيل المنى بذيل بلوغ القرى بتكملة اتحاف الورى"

يعتبر كتاب جار الله بن فهد "**نيل المنى**" حلقة مهمة في سلسلة كتب التاريخ المكي وامتداداً وتكملة لمن سبقه فهو ذيل على كتاب والده العز بن فهد "**بلوغ القرى**" المتوفّى في جمادى الأولى عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م الذي جعله ذيلا لكتاب والده النجم عمر بن فهد "**اتحاف الورى**" المتوفي في رمضان عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م. وهذا يعني أن جار الله بن فهد سلك مسلك والده. حيث ان والده بدأ في تأليف كتابه من بداية شهر رمضان عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م وهو الشهر الذي توفي فيه والده -النجم- واستمر في تأليفه الى شهر جمادى الاولى عام ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م أي حوالي ٣٧ عاماً و٨ أشهر. مما دفع جار الله بن فهد الى أن يكمل كتاب والده وأن يبدأه بتاريخ وفاة والده مباشرة والكتاب جاء فريداً في موضوعه وموسوعة في مادته. ويعتبر من اهم المؤلفات النادرة التي كتبت تاريخ مكة لأن مؤلفه رصد اهم الحوادث التاريخية التفصيلية لما يحدث بمكة لفترة ستة وعشرين عاماً تقريباً رسم فيها صورة واضحة جلية بالحوادث السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، حيث سجلها في ثنايا كتابه.

وختاماً يعد الكتاب من المصادر المهمة في القرن العاشر وذلك لطريقة التأليف الخاصة التي سار فيها على النظام الحولي وتركيزه في تدوين ما كان يحدث في المجتمع المكي في هذه الفترة بصورة خاصة.

ويعتبر الكتاب بلا شك من أهم مؤلفات جار الله بن فهد التاريخية إذ يحتل مكانة مرموقة بين كتب التاريخ التي صنفت في القرن العاشر عن تاريخ مكة، وتزداد قيمته عندما يصف الأحداث التي عاصرها وشاهدها حيث كان يدون مايراه، أو يسمعه أو يشعر به ويحسه لأن الرواية المعاصرة الفياضة هي أدق ما تحتويه كتابات المؤرخين، ومع ذلك فهو موسوعة حافلة بحوادث مكة السياسية والحضارية سواء لأهل عصره او لمن جاء بعده حتى ايامنا الحاضرة.

نسخة كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى

نسخة المكتبة السليمانية باستانبول (تركيا) برقم ١٩٦١ مكتبة شهيد علي باشا مكتوبة بخط غير واضح دون ذكر تاريخ النسخ والناسخ وتقع في (١٩٨) ورقة. والواقع أن هذه النسخة لم يعرف مكان وجودها لأنه لم يرد لها ذكر عند مترجمي جار الله بن فهد كالعيدروسي والغزي وابن العماد وحاجي خليفه وغيرهم، الا ان الجزيري المعاصر له (صاحب كتاب الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة) كان قد نقل عنه من كتابه هذا ضمن حوادث عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م اذ يقول: "قال صاحبنا المرحوم الشيخ جار الله بن فهد في ذيله على ذيل (اتحاف الورى بأخبار أم القرى)"[١] وقوله: "قال صاحبنا الشيخ جار الله بن فهد القرشي في تاريخه الذي ذيله على ذيل تاريخ جدة لوالده (اتحاف الورى)".

وبفضل من الله تعالى ثم بفضل جهود استاذنا الدكتور محمد الحبيب الهيله جزاه الله خيراً أمكن التعرف على مكان هذه المخطوطة، وتم احضار نسخة منها مصورة على ميكروفيلم، وقد قام الدكتور بطبعها على الآلة الكاتبة والبدء في تحقيقها أعانه الله على ذلك. وقد اعتمدت في دراستي على هذه النسخة المطبوعة.

---

(١) الجزيري، عبد القادر محمد الانصاري- **الدرر الفرائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة** - ج٢- تحقيق حمد الجاسر- القاهرة- مطبعة نهضة مصر- ١٤٠٣هـ- ص٨٨.

منهجه في التأليف

رتب جار الله بن فهد كتابه على النظام الحولي بالسنوات والأشهر والايام للفترة من بداية شهر ذي الحجة عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م الى شهر رجب عام ٩٤٩هـ/١٥٤٢م وتقدر المدة الموجودة في المخطوطة بحوالي ٢٦ عاماً تقريباً، وقد كان دقيقاً في ترتيب الحوادث فيها حسب السنوات والأشهر فلم يقدم شهراً على آخر بل جعلها مرتبة ترتيباً دقيقاً حسب تسلسلها الزمني، كما أن الأيام كانت مرتبة من أول يوم في الشهر إلى نهايته.

ويحتوي الكتاب على معلومات ثرية لمرحلة هامة من تاريخ مكة وهي معلومات في غاية الدقة، فإن تأريخ المؤرخ لعصره كما هو معروف، اهم التواريخ بطبيعة الحال لأنه لايبلغ في تأريخ ما قبل عصره في الأهمية ما يبلغه تأريخه لعصره، ذلك لأن تاريخ ما قبل عصره ينقله عن غيره، وإن كانت له وجهة نظر فيها، أما عصره فإنه يؤرخه عن مشاهدة ومشاركة ومعاينة، وقد كان عصر جار الله بن فهد مليئاً بالاحداث الضخام، في مكة المكرمة التي عاش فيها، وفي المناطق القريبة منها والتي دون أخبارها عن علم ومعرفة، وعن مشاهدة ومشاركة. وحتى المناطق البعيدة وصلت اليه أخبارها فدونها كما وصلته.

وقد برزت شخصيته في تأريخه لعصره اكثر مما برزت في الفترة السابقة، وظهرت اهم جوانبها في معرفة روح العصر، والاستقلال في الرأي، وتوخى

قول الحق، حتى انه ليمكننا القول بأن جار الله بن فهد كان صادقاً في تأريخه لعصره الى حد بعيد.

ونود أن نسجل هذه الملاحظات الموجزة لتوضيح منهج الرجل ووصف كتابه.

١) ان المتتبع للمنهج الذي اتبعه جار الله بن فهد في تدوين كتابه يجد فيه أنه سار على النظام الحولي حسب السنوات والاشهر والأيام، مفصلاً الأحداث في كل شهر حسب وقوعها. أي تدوين المعلومات اولاً بأول مع مراعاة الترتيب الزمني.

٢) وعلى الرغم من أنه كتب عن الفترة الزمنية المعاصرة له فإنه اعطى صورة دقيقة جيدة وواضحة واكثر صدقاً لتلك الفترة التي عاش فيها.

٣) عند ورود الأسماء المشتبهة، سواء أسماء مدن أو أشخاص يقوم بضبطها. وهذا منهج جيد وضعه لنفسه، وسار عليه، وإن لم يكن من ابتكاره.

٤) اهتم بتسجيل الأيام التي وقعت بها بعض الحوادث الهامة، اما الأيام العادية التي لم تقع بها أية حوادث فإنه يهملها ويبيّض لها.

٥) كتب جار الله بن فهد كتابه، بالأسلوب النثري المرسل، متجنباً الزخرفة اللفظية والألفاظ الخشنة، الا ما جاء عفو الخاطر. فخلت كتاباته من التعقيد، وعبر عن رأيه بعبارات موجزة ولكنها موحية واضحة، كما اهتم بإبراز المادة الخبرية في جمل قصيرة، وعبارات قليلة، ولذلك نجد في اسلوبه حيوية ونشاطاً.

٦) يعد كتاب "**نيل المنى**" ، صورة صادقة لعصره، ومرآة صافية انعكست عليها أحداثه وظروفه وسير رجاله، حيث جمع فيه من الحوادث وأخبار الأعيان ما يعتبر به فريداً في بابه، دقيقاً في معناه.

٧) انعكس في كتابة جار الله بن فهد المعاصرة اثر مقابلاته للعلماء والمشايخ الذين خالطهم في حله وترحاله، وأخذ عنهم، وانتفع بهم، كما افاد من معرفته الشخصية لبعض كبار الشخصيات كالخليفة المتوكل، وما استفاده من هذه المعرفة الشخصية، فوقف على امور لم يطلع عليها غيره، كما كانت صلته بكبار القضاة والعلماء والتجار قد اوقفته على الأخبار من مضامينها، مما يجعلها خير مصدر، وأوثق كتابة.

٨) توافرت لجار الله بن فهد في عصره المصادر التي كتبت عن تاريخ مكة المشرفة كما أن معاصرته للأحداث تطبع روايته التاريخية بطابع الصدق والدقة، فهو أقدر على تصويرها بألوانها الحقيقية من غيره من المؤرخين المعاصرين واللاحقين، وذلك لاعتماده على المشاهدة والمعاينة، والسماع من مصادر متنوعة، والمعاينة والتحقيق يجنبان المؤرخ الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها غيره ممن لم يحذ حذوه واعتمد على التقول.

ولذلك كان يقول كثيراً: ولقد أخبرني بنفسه، أخبرني بذلك حين التقيت به. سمعته يقول: ولقد رأيت. ولقد شاهدت ... إلخ.

٩) توافرت لجار الله بن فهد في مؤلفه المادة التاريخية التي هيأتها له دراسته العميقة، وبخاصة في الأحاديث ورجالاتها، فاستخدم في أخباره الدقة

والتحقيق والتمحيص، والمقارنة والترجيح، مع التثبت منها وإيضاحهـا، مجريـاً عليها قواعد الجرح والتعديل. ومن لهذا العمل غير ابن فهد المحدث المشهور.

١٠) لم يقف جار الله بن فهد عند ذكر الأحداث السياسية الداخليـة فقـط، بل تناول الأحوال الاقتصادية من مقومات زراعية، ومن العملة، وتغيّر أثمانهـا وضربها، وقلتها وغشها. ومن الحبوب وتغيّر اثمانها، وما يرتبط بها من حاجة وعوز. كما تناول التجارة داخلياً وخارجياً، مع الاهتمام بالأحداث الخارجية للدول المجاورة ولقد رصد ارتفاع وتدني الاسـعار شـهراً بشـهر واعتنـى بهـا اعتناء كبير وفصل فيها حتى أن القاريء يشعر أنه امام خبير اقتصادي.

١١) ركز جار الله بن فهد في كتابه على الأوضاع الاجتماعية المكية واهتـم فيها بالمواليد -كان غالباً ما يذكر اسم المولود ووالديه وتاريخ ولادتـه- امـا الوفيات فكان غالباً مايذكر اسماء اصحابها ومكان الصلاة عليهـا في المسـجد الحرام وتشييعها ومكان دفنها وما خلفه الميت من مال وابنـاء واحيانـاً يذكـر سن المتوفى.

١٢) كما انه ركز على وصف حفلات الزواج في مكة وعلى العادات المتبعة بها من استمرارية لها عدة ايام قـد تصـل الى اسـبوع أو أكثر تبعـاً لمستوى اصحابها وحالة العروس أبكراً كانت ام ثيبا، كما أنه فصل المراحـل الـتي تمـر بها هذه الحفلات تفصيلاً دقيقاً وكـان لايـورد هـذه الحفـلات دفعـة واحـدة تحت عنوان واحد بل كان يذكرها عرضاً حسب وقوعها في ترتيب الأيام.

١٣) كما ذكر بعض الاصلاحات في تلك السنة مثل بناء المقام الحنفي على يد الامير مصلح الدين الرومي ويعتبر ما ذكره جار الله بن فهد عن هذا البناء

اكثر تفصيلاً مما ذكره المعاصرون له كابن ظهيره القرشي وقطب الدين النهروالي. وكذلك قيام الشريف بركات ببناء رباط له في خط الخزامية عند اليمن. كما اهتم بذكر انواع الصدقات التي كانت تصل لمكة المكرمة في عهده كالصر الحكمي وصدقة الذخيرة السلطانية الواصلة من مصر، وصدقة اللاك الواصلة من ملك الهند المظفر شاه ابن السلطان محمود شاه الكجراتي، وتفريق الصرر الشامية، كذلك اهتم بذكر بعض صدقات المقيمين في مكة.

١٤) كثيراً ما اشار جار الله بن فهد في كتابه الى تولي القضاة والفقهاء والمتعممين للوظائف الدينية، كالقضاء والحسبة ونظر الأوقاف والتدريس وغيرها -احياناً- بالرشوة والسعي والبرطيل[1] والبذل، فكان شديد السخط على هذا التصرف، ناعياً على من فعله أو ساعد عليه، وكثيراً ما أورد حديث "لعن الله الراشي والمرتشي".

١٥) اهتم جار الله بن فهد بالآثار الإسلامية، وجعل كتابه سجلاً حافلاً لها، كما اهتم كذلك بالظواهر الطبيعية من كسوف وخسوف ومطر ورياح وغيرها، وما ألحقت ضرر عظيم للمباني بمكة، والخوف الكبير الذي أنتاب الناس.

١٦) قدم جار الله بن فهد حقيقة للأجيال من بعده بموسوعة حافلة بحوادث التاريخ المكي وتوسع في احداثها بالاتساع والعمق.

---

(١) البرطيل والبرطلة والبراطيل: تعبيرات شاعت في العصر المملوكي ومعناها تقديم الرشا للحصول على الحقوق الضائعة أو تحقيق مكاسب شخصية أو تقلد وظائف أميرية. محمد التونجي- **معجم المعربات الفارسية في اللغة العربية**- ص٣٩.

١٧) لذلك اعتمد المؤرخون المعاصرون له واللاحقون به عليه، ونقلـوا عنـه، واخذوا منه واستفادوا بـه، كمـا اعتمـد علـى الآثـار الـتي شـاهدها وعـاصر انشاءها فوصف كثيراً من الحقائق المتعلقة بهـا كإنشـاء المـدارس وبنـاء المقـام الحنفي والمياضيء.

١٨) كما اعتمد ثالثاً على مشاهداته للأحداث ومشـاركته لهـا، حيـث دوّن كل ما استطاع أن يقف عليه من معلومات عن أحداث شـاهد وقوعهـا عـن قرب أو عن بعد، وتأثر بها واثر فيها، او نقلها اليه ثقة، ولذلك كثيراً ما نجده يذكر "ولقد اخبرني من أثق به".

١٩) اما الأخبار الخارجة عن مكة فقد اهتم بذكرها عن طريق القاصدين الى مكة بما يحملونه من كتب ومعلومات عن الاقطار الـتي قدمـوا منهـا وكذلـك عن طريق الخبر والمراسلات والكتب واطلق العنان لقلمه وفكره في كل مايراه محتاجاً الى نقد.

٢٠) واحياناً كان نقده لاذعا لما يراه خطأ او غـير صـواب، فنقـد الاشـراف والاروام وكبار موظفي الدولة من سياسيين وقضاة وفقهاء وخطباء والقائمين على الصدقات والتجار المتحكرين للسلع والمواد الغذائية.

٢١) كـانت لجـار الله بـن فهـد آراء عديـدة نقديـة تحليلـة اتصفـت بـالعمق والاصالة وعلى درجة عالية من الاهمية وكان اكثر مصداقية وواقعية في نقده واقل مجاملة وكذلك كان اسلوبه اكثر تركيزاً وقوة في حين انـه امتـاز بزيـادة التوسـع والسـرد والاطالـة في المواضيـع الجديـرة بالاهتمـام واتبـع المشـاهدة

والمعاصرة لما يحصل في مكة والوصف الدقيق للأحـداث بجزئياتها واصبحـت الصراحة السمة الرئيسية التي ميزت كتابه عن بقية الكتب المعاصرة له.

٢٢) لذا نرى أن "كتاب نيل المنى" وثيقـة تاريخيـة هامـة مـن الطـراز الأول، وتراث معنوي خالد سجله لنا مؤرخ مشهور، ومحدث معروف، وفقيه ممتاز، ولغوي نابه، بمشاهداته وملاحظاته، ورواياتـه فلقـد قـدم ثـروة علميـة قوميـة جليلة الخطر، عظيمة الاثر، وافية بالغرض.

مكة المكرمة في أواخر عصر المماليك (الشراكسة)[1] :

اكتسب اقليم الحجاز أهمية ومكانة في قلوب العالم الإسلامي لوجود الأماكن المقدسة كالكعبة المشرفة والمسجد النبوي الشريف، حيث يقصدها مئات الألوف من الحجاج في موسمي الحج والعمرة، وزادها أهمية موقع مكة الجغرافي الفريد الذي ساعد على ازدهارها تجارياً رغم افتقارها الى الموارد الاقتصادية الطبيعية، حيث أصبحت ملتقى طرق القوافل البرية التي تجوب الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً.

بذلك أصبحت مكة البلد الأمين موطن القداسة وموئل الاجلال، اختارها الله سبحانه وتعالى من بين بقاع الأرض لتكون قبلة المسلمين وملتقى أفئدتهم ومهوى أرواحهم.

---

(١) ترجع أصول تكوين دولتهم الى السلطان المنصور قلاوون الذي اكثر من شرائهم وسموا بالبرجية لأنه اسكنهم في أبراج القلعة، اما بلادهم فهي بعض بلاد الكرج "جورجيا" بين بحر قزوين والبحر الاسود. كانت جزءاً مما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي واستقلت عنه، وتوجد منطقة تعرف باسم شركس تمتد على الشاطيء الشرقي للبحر الاسود وهي منطقة جبلية ينتمي لها الشراكسة. استمر حكمهم من عام (٧٨٤-٩٢٣هـ) (١٣٨٢-١٥١٧م) وأول سلاطينهم برقوق وآخرهم طومان باي.

المقريزي- تقي الدين احمد بن علي - **السلوك لمعرفة دول الملوك**-ج١- تحقيق سعيد عاشور- القاهرة - دار الكتب العلمية ١٤٠٦- ص٧٥٦.

ابن تغري بردي، جمال الدين ابو المحاسن يوسف -**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** - ج٧- تحقيق فهيم شلتوت- القاهرة- مطابع وستا توماس-١٩٧٠- ص٣٣٥.

الشنتناوي - احمد وآخرون- **دائرة المعارف الإسلامية**- ج٦ - ص٣٣٩.

وحرصت القوى الإسلامية الكبرى على السيطرة على بلاد الحجاز ومدنه مكة والمدينة، وأن يخطب لها على منابرهما لأن ذلك يجعلها تحمل لقب حامي الحرمين الشريفين، وحصولها على الزعامة الروحية والسياسية مما يكسبها احترام العالم الإسلامي وتقديره.

ويمكن القول أنه منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتى نهاية العصر المملوكي - فيما عدا فترات قصيرة - أصبح الحجاز مرتبطاً ارتباطاً مستمراً بمصر على أن الخلافة العباسية رغم ضعفها وانحلالها الا أنها حرصت على استمرار سيطرتها ونفوذها الاسمى على الحجاز.

وقد نشأ عن تعدد الخلفاء في العالم الاسلامي في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ومابعده في (بغداد ، القاهرة، قرطبة) أن اشتد الصراع والتنافس حول السيادة على العالم الاسلامي[1] .

مما أوجد نظرية جديدة بين الفقهاء تنص على أن من له الحق الشرعي في الخلافة هو من استطاع أن يضم مكة والمدينة الى نفوذه ((انما تحق الخلافة لمن كان الحرمان في يده ولمن أقام الحج للناس))[2] .

وهو الأمر الذي دفع خلفاء وسلاطين العالم الاسلامي للتنافس على السيادة على مكة والمدينة لاضفاء صفة الشرعية على حكمهم و لم تكن هذه السيادة التي سعى اليها الجميع، منذ أن تأسس حكم الأشراف الحسنيين في مكة في

---

(١) علي ابراهيم حسن - حسن ابراهيم حسن - **النظم الاسلامية**- القاهرة- مكتبة النهضة العربية- ١٩٣٩- ص٩٦.

(٢) اليعقوبي - احمد بن يعقوب بن جعفر- **تاريخ اليعقوبي**- ج٣ - النجف - ١٣٥٨هـ - ص١٥.

منتصف القرن الرابع الهجري إلا سيادة اسمية ، تتمثل في الدعاء في الخطبة الى جانب شعارات أخرى تشير الى سيادة صاحبها على الحرمين الشريفين[1] .

ومن هذا المنطلق حرص سلاطين المماليك منذ اعتلائهم عرش مصر ، على مد نفوذهم على الحرمين، وبسط سيادتهم على مكة ، الأمر الذي يضفي على حكمهم نوعا من الشرعية والهيبة لدى العالم الإسلامي.

خاصة وأنه واجهتهم -حتى في مصر- بعض المشاكل التي تشير الى أصولهم وأنهم مازالوا رقيقاً رغم تمتعهم بالسيادة والحكم مما تستحيل معه حكم الأحرار.

وقد اتخذ النفوذ المملوكي في مكة طيلة دولتهم الأولى (البحرية)[2] صفة اسمية تتمثل في التمتع ببعض الشعارات ، كالدعاء لهم على منابر الحرمين الشريفين وإرسال كسوة الكعبة المشرفة والمحمل من مصر، وتقديم الهبات والصدقات والقيام ببعض الاصلاحات في الحرمين الشريفين تاركين في نفس الوقت لأمير

---

(١) ابن خلدون- عبد الرحمن محمد الحضرمي - **العبر وديوان المبتدأ والخبر** -ج٥- بيروت، مؤسسة مجلي للطباعة- ١٣٩٩هـ- ص٥٠٥/ الفاسي - تقي الدين محمد احمد الحسني - **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين** -ج٣- تحقيق فؤاد السيد- بيروت- مؤسسة الرسالة- ١٤٠٥هـ- ص٤٢٩.

(٢) سميت **بالمماليك البحرية** لأن الملك الأيوبي الصالح نجم الدين بنى لهم مساكن بجزيرة الروضة واستمر حكمهم من عام (٦٤٨-٧٨٤هـ) (١٢٥٢-١٣٨٢م) وأول سلاطينهم عز الدين بن ايبك وآخرهم السلطان حاجي ومن اشهر سلاطينهم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون. وهم حراس السلطان في الليل والنهار وهم من أجناس شتى. انظر: إبن ظهيره -جمال الدين محمد القرشي- **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**- تحقيق مصطفى السقا- القاهرة- مركز تحقيق التراث- ١٩٦٩م- ص٤٦- المقريزي -**السلوك**- ج١- ص٣٦٨- ابن تغري -**النجوم الزاهرة**- ج٧- ص٣- ابن اياس، محمد بن احمد -**بدائع الزهور في وقائع الدهور**- ج١- نشر محمد مصطفى- القاهرة- ١٩٦٣م- ص٩٠. الليفتنات كولونيل ب.ج. الجود -**مصر**- ترجمة راشد البراوي- القاهرة- مطبعة الاعتماد- ص٥٨.

مكة استقلاله التام بامارته على أن العلاقات بين مصر والحجاز لم تلبث أن شهدت تطوراً جديداً حيث لم يكتف المماليك الشراكسة بالنفوذ الأسمي لهم والذي تمتع به أسلافهم البحرية ، بل سعوا الى نفوذ مباشر على الحجاز.وقد ظهرت سياسة المماليك الشراكسة نحو الحجاز منذ عهد اول سلاطينهم برقوق[1] .

فعندما حدث النزاع بين أحمد بن عجلان[2] وابني عمه حسن بن ثقبة[3]

---

(١) السلطان الظاهر برقوق بن أنص الجركسي، سلطان مملوكي ومؤسس دولة المماليك الثانية (الشراكسة) تولى سلطنة مصر عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، كان مملوكاً للأمير يلبغا وبرع في فنون الحرب وتدرج في المناصب حتى اصبح أتابكاً للجيش ثم استولى على السلطنة ولقب بالملك الظاهر تيمناً باسم الظاهر بيبرس عني بالاصلاحات الاجتماعية والادارية وخفض الضرائب كما عني بالامارة خاصة واليه تنسب المدرسة الظاهرية فضلاً عن آثاره المعمارية في الاسكندرية ودمياط ودمنهور والقدس وتوفي عام ٨٠١هـ. ١٣٩٨م.

وقد ترجم له: الفاسي -**العقد**- ج٣- ص٣٥٧- ابن تغري -**النجوم الزاهرة**- ج١١- ص٢٢١.

ابن العماد الحنبلي -**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**- ج٧- بيروت- دار الفكر- ١٩٧٩م- ص٦.

السخاوي، محمد بن عبد الرحمن -**الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**- ج٣ - القاهرة- مكتبة حسام المقدسي- ١٣٥٣هـ ص١٠.

(٢) احمد بن عجلان بن رميثه أمير مكة شريكاً لأبيه، ومستقلاً ثم شريكاً لابنه محمد ستاً وعشرون سنة وكان ينظر في الامر نيابة عن ابيه أيام مشاركة ابيه وعمه ثقبة في امرة مكة توجه الى القاهرة بصحبة ابيه وأخيه كبيش فلما وصلوها قبض عليهم واعتقلوا ببرج القاهرة وأقسم السلطان حسن بن قلاوون أن لايطلقهم مادام حياً حنقاً عليهم بسبب صدهم للخطيب الضياء الحموي عن الخطابة في المسجد الحرام آنذاك وأطلق سراحهما بعد تنحي السلطان المملوكي حسن بن قلاوون وعاد عجلان الى مكة شريكاً في امرتها مع ابنه ثم اصبح احمد منفرداً بالامرة وكان يتمتع بالسياسة والحنكة والدهاء ولكن الحجاز اضطرب في عهده بسبب موقف الاشراف من حكمه مات مسموماً عام ٧٨٨هـ.

وترجم له: الفاسي -**العقد**- ج٣- ص٨٧.

(٣) حسن بن ثقبة بن رميثه الحسنى كان له دور في اثارة الفتن ضد ابن عمه شريف مكة احمد بن عجلان الذي قبض عليه وكحّل عينيه عقاباً له كان صاحب ادب وبلاغة امتد به العمر حتى بلغ الستين مات في شهر شعبان عام ٨١٦هـ ودفن بالمعلاة بمكة. وقد ترجم له:

الفاسي -**العقد**- ج٤ -ص٦٩- السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٣ -ص٩٧.

والشريف عنان بن مغامس[1] عام ٧٨٧هـ/١٣٨٥م تمكن احمد بن عجلان من القبض عليهما وسجنهما، وأصر ان لايطلقهما رغم وصول كتاب السلطان المملوكي برقوق بالإفراج عنهما[2] .عندئذ قرر السلطان المملوكي أن يتخلص من احمد بن عجلان، حيث ارسل من يدس له السم عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م[3] كما أرسل من يتولى اغتيال ابنه محمد[4] في العام نفسه[5]

(١) عنان بن مغامس بن رميثه الحسني صاحب خصائل محمودة تولى امرة مكة وتحالف مع عمه سند بن رميثه بعد مقتل ابيه واخيه محمد ثم تحالف مع عمه عجلان وابنه احمد ولم يستمر هذا التحالف بعد الخلاف المستمر سافر الى القاهرة واستقبلة السلطان برقوق وارسله مع امير الحاج اميراً لمكة بعد ان تم قتل احمد بن عجلان ولم تستقر الأوضاع الحجازية في عهده فسرعان ماعزله السلطان برقوق ثم ولي وعزل مرة اخرى واستدعاه السلطان لمصر ثم تم سجنه حتى وافته المنية عن عمر يناهز الثلاث والستين عاماً عام ٨٠٥هـ. ترجم له: الفاسي – **العقد**– ج٦– ص٤٣– ابن فهد – عز الدين عبد العزيز الهاشمي–**غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام**–ج٢– تحقيق فهيم شلتوت– مكة– جامعة ام القرى– ١٤٠٩هـ– ص٢٠٠– السخاوي –**الضوء اللامع**– ج٦– ص١٤٧.

(٢) الفاسي – **العقد** – ج١ – ص٣٧٩.

ابن حجر– شهاب الدين احمد العسقلاني– **أنباء الغمر بأنباء العمر**–ج٥– تحقيق عبد الله الحضرمي– ط٢– بيروت، دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ – ص٥٠٥. ابن فهد، النجم عمر ابن فهد – **اتحاف الورى بأخبار أم القرى** – ج٣– تحقيق فهيم شلتوت– مكة – جامعة ام القرى ١٤٠٤هـ– ص٣٨٣.

(٣) ابن الفرات– محمد عبد الرحيم –**تاريخ الدول والملوك** –ج٩ – تحقيق قسطنطين زريق– بيروت، الجامعة الامريكية ١٩٤٢م – ص٤١٣– المقريزي– **السلوك**–ج٣ – ص٧٧٠.

(٤) محمد احمد عجلان ولي إمرة مكة ثمان سنين شريكاً لأبيه ثم استقل بعد موته واستمر يحكم حوالي مائة يوم فقط ولم تكن لولايته في عهد ابيه أي أثر لأن والده كان يقوم بشتى الأمور حتى وفاته ولم يترك أولاداً ولكنه ترك ابنة تسمى شمسية ثم قتل سنة ٧٨٨هـ. ترجم له: الفاسي –**العقد**– ج١– ص٣١٧– نجم الدين ابن فهد –**اتحاف الورى**– ج٣– ص٣٣٠. ابن تغري بردي –**الدليل الشافي**– ج٢– ص٥٨٤ – عز الدين ابن فهد –**غاية المرام**– ج٢– ص١٩٧.

(٥) ابن خلدون – **مصدر سبق ذكره** – ج٤ – ص١٠٨.

الجزيري– عبد القادر محمد الأنصاري – **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة** –ج١ تحقيق حمد الجاسر، القاهرة– مطبعة نهضة مصر ١٤٠٣هـ– ص٦٧١.

ويبدو لي أن سياسته نحو المماليك لم تكن مستقرة ومحاولته المستمرة أن يحفظ للحجاز شيئاً من الاستقلال وكان كثيراً ما يستخدم دهائه مستفيداً من الصراع بين القوى الكبرى المحيطة به والدعاء لمغول العراق، وبني رسول في اليمن في الحرمين الشريفين بالاضافة الى الصراع المستمر بين الاشراف وارساهم الهدايا للسلطان المملوكي، وتشويه صورة شريف مكة، وعدم صلاحيته لإمرة الحجاز خاصة من قبل عنان بن مغامس الفار الى مصر من سلطة شريف مكة الذي سجن كثيراً من الأشراف وقام بتكحيلهم مما اغضب السلطان المملوكي وازداد حنقه عليه.

وفي عام ٩٠٣هـ/١٤٩٨م بعد وفاة شريف مكة محمد بن بركات(١) اتسعت هوة النزاع بين ابنائه على سدة الحكم واعتلاء الإمرة وأصبحت مكة مسرحاً لمنازعاتهم واختلافاتهم مما جعل السلطان الغوري(٢) يأمر امير الحاج

---

(١) محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسني، ولد بمكة عام ٨٤٠هـ نشأ في كنف والده واستجاز له جماعة من المشايخ أرسله والده الى القاهرة للسلطان جقمق ليطلب رضاه وعاد بالولاية لوالده، ثم وصلت موافقة السلطان الأشرف بولايته لإمرة مكة بعد وفاة والده امتاز بالشجاعة والفروسية وقام بتأمين طرق الحاج وتأديب القبائل استقرت الأحوال في عهده وعم الرخاء ورضيت عنه السلطة المملوكية فترة حكمة ترجم له: السخاوي وأثنى عليه ثناءاً عطراً وقام انه كفؤاً لإمرة مكة التي تولى إمرتها عام ٨٥٩هـ، وخلد ذكره بالآثار العمرانية توفى عام ٩٠٣هـ. ابن اياس -**بدائع الزهور**- ج٢- ص٣٣٤ - دحلان- احمد زيني -**خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام**- مصر- ١٣٠٥هـ- ص٥٤. السخاوي - **الضوء اللامع**- ج١٢- ص٩٠.

(٢) الاشرف قانصوه عبد الله الظاهري الغوري تولى سلطنة مصر سنة ٩٠٦هـ/١٥٠١م، بنى كثير من المنشآت. كان ملماً بالموسيقى كان قائداً للماليك في معركة مرج دابق امام السلطان العثماني سليم الاول انتهت بهزيمته ومات قهراً تحت سنابك الخيل عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م.ابن العماد الذهبي -**سير أعلام النبلاء**- ٣-١١٢.

المصري[1] بالقبض على الشريف بركات ومن معه من الأشراف وأن يوقرهم في الحديد ويرسلهم في حراسة مشددة الى مصر.

ولقد ظل الشريف بركات في محبسه حتى حانت له الفرصة فاستطاع الهرب ونتيجة لذلك شدد السلطان الغوري على من بقي بمصر من الاشراف وجعل عليهم حرساً[2].

وقد ظهر تدخل سلاطين المماليك في شؤون مكة الداخلية بصورة جلية في عام ٨٠١هـ/١٣٩٩م حين اصدر الامير الطبلخاني[3] بيسق عبد الله الشيخي[4] – امير الحاج المصري – أوامره بمنع اهل مكة من حمل السلاح،

---

(١) امير الحاج: أو أمير الحجاج تتكون من كلمتين الأولى "أمير" العربية بمعنى رئيس أو قائد و "حاج" بمعنى قاصد الى مكة للنسك والمعنى المراد هو "رئيس الحجاج" الخارجين من قطر ما الى بيت الله الحرام وصاحب هذه الوظيفة كان يعين من قبل السلطان وهو المكلف بمهمة رئاسة وصحبة موكب الحجاج في عصر المماليك وهو برتبة امير مائة ومقدم أُلف.

ابن شاهين- خليل -**زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**- تحقيق بال رافيس- باريس- المطبعة الجمهورية ١٨٩١م- ص١١٤- الباشا حسن -**الفنون الاسلامية والوظائف**- ج١- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٦٨م- ص٢٠٢-٢٠٤.

(٢) ابن فهد-عز الدين عبد العزيز- **بلوغ القرى في ذيل اتحاف الورى بأخبار أم القرى**- نسخة مكتبة الحرم المكي رقم١ تاريخ دهلوي- ورقة ١٤٢. -**غاية المرام**- ج٣ - ص١٤٦- ١٦٦.

(٣) الطبلخانه أو الطبلخاناه: كلمة مركبة من "طبل" بالعربية و "خاناه" بيت بالفارسية وبمعنى "بيت الطبل" وكان يطلق الاسم اصلاً على مكان ملحق بالقصر تختزن فيه الطبول السلطانية والادوات المتعلقة بها ثم اتسع المعنى فشمل الآلات الموسيقية الأخرى كالأبواق والصنوج وتوابعها ثم اصبح يطلق على الفرقة الموسيقية الخاصة بالسلطان وكان الاشراف عليها موكولا لأحد الأمراء من أرباب المناصب يعرف باسم امير الطبلخانه ثم اصبح يطلق على المنصب نفسه. ادي شير -**الألفاظ الفارسية المعربة**- المطبعة الكاثوليكية - بيروت- ١٩٦٨م-ص٥١.

(٤) بيسق عبد الله الشيخي الظاهري، احد امراء الطبلخانات تولى امرة مكة نيابة عن شريفها حسن بن عجلان عندما سافر الى حلي ومارس سلطته حيث منع الدعاء لصاحب اليمن على زمزم بعد المغرب ومنع حمل السلاح بمكة وأخرج بنات الخطأ والمخنثين وغيرهم من أهل الفساد وأمر بوابي المسجد الحرام بملازمة أبوابه وتنظيف الطرقات من الأوساخ والقمائم له آثار بمكة كعمارة الرواق الغربي للمسجد الحرام وكان شرس الأخلاق جماعاً للمال مع البر والصدقة مات بالقدس بطلاً في جمادى الآخرة عام ٨٢١هـ. ترجم له: ابن تغري بردي -**الدليل الشافي**- ج١-ص ٩٠- السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٣- ص٢٢- المقريزي -**السلوك**- ج٤- ص٤٧٤.

ورفع اسعار الذهب، وقام بنقل سوق مكة الرئيسي من المسعى الى سوق الليل، وأمر ان تفتح الكعبة المشرفة يومي الجمعة والاثنين في شهر رمضان[1] . ولربط الحجاز ربطاً مباشراً بالسلطنة المملوكية ، أقدم السلطان الناصر فرج بن برقوق[2] على خطوة جريئة في علاقات المماليك بالحجاز ، وذلك

---

(١) الفاسي - **العقد**- ج٤ - ص٩٦- نجم الدين ابن فهد - **اتحاف الورى**- ج٣ - ص٤١٢- العز ابن فهد - **غاية المرام** - ج٢- ص٢٦٢.

(٢) الناصر بن فرج بن برقوق ابو السعادات ولد عام ٧٩١هـ/١٣٨٩هـ ثم بويع بالسلطنة بعد وفاة ابيه سنة ٨٠١هـ وكان صغير السن فقام بالوصاية عليه "الأتابكي أتيمش "البجاسي" مدة قصيرة اضطربت الدولة في عهده فقاد الجيوش لمحاربة أعدائه وأعلن الأمان وهدأت الأمور خلع عن السلطنة ثم عاد اليها أسرف في القتل وسفك الدماء مما دعا المماليك أن يحاصروه ويتم قيده وسجنه وقتله في القلعة وهو في ريعان شبابه عام ٨١٥هـ - ١٣٨٩هـ. ترجم له: ابن اياس -**بدائع الزهور**- ج١- ص١١٧- السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٦- ص١٦٨.

باصدار مرسوم بتعيين امير مكة الشـريف حسن بـن عجلان الحسني[1] نائباً للسلطنة المملوكية في الحجاز[2] .

وبذلك استطاع بقرار واحد أن يمد النفوذ المملوكي على مكة الى جانب جدة والطائف - وينبع - والمدينة المنورة، والقبائل المجاورة لهذه المناطق[3] .

على أن العلاقة بين امراء مكة الاشراف والسلاطين المماليك اصبح يشوبها القلق والتوتر، حيث ظهر التوجه الجديد في سياسة المماليك نحو الحجاز،

---

(١) حسن بن عجلان بن رميثه بن ابي نمي ويلقب ببدر الدين ولد عام ٧٧٥هـ/١٣٧٣م تولى إمرة مكة عام ٧٩٨هـ/١٣٩٥م صاحب سيرة حسنة استطاع أن يحفظ للحجاز شيئاً من الاستقلال بشتى الأساليب وكان سياسياً بارعاً استطاع أن يثبت في حكمه مدة طويلة ولتوثيق أواصر العلاقة القائمة بينه وبين السلطان الناصر فرج ورضاء السلطة المملوكية لإمرته أن أنعم عليه السلطان في شهر ربيع الأول عام ٨١١هـ/١٤٠٨م بمنصب نائب السلطنة في الأقطار الحجازية وأضيفت الى رقعة نفوذه المدينة المنورة والطائف وينبع وخليص والصفراء واحتفظ بلقب نائب السلطنة الذي أضفى عليه كثير من السلطوة والهيبة لدى أمراء الحاج المملوكي توفى بالقاهرة عام ٨٢٩هـ/١٤٢٦م. ترجم له بتوسع: الفاسي -**العقد**- ج٤- ص٨٨- نجم الدين -**اتحاف الورى**- ج٣- ص٤٠٥- السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٣- ص١٠٣.

الطبري- محمد علي المكي -**اتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني حسن**- تحقيق ناصر عبد الله البركاتي- رسالة دكتوراة غير منشورة- جامعة ما نشستر-١٤٠٣هـ- ص٧٧- ٧٨.

(٢) الفاسي - **العقد** - ج٤ - ص١٠٦- مؤلف مجهول - **احوال الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى** - مكة - مكتبة الحرم المكي - تاريخ ورقة ١٨ (مخطوط). المقريزي - **السلوك**- ج٤ - ص٧٦.

(٣) مورتيل، ريتشارد -**الاحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي**- الرياض- جامعة الملك سعود- ١٩٨٥م- ص ١٢٥.

لفرض سيطرة شاملة على الحرمين الشريفين، ولتدعيم هذا التوجه حرص الناصر فرج على أن يتشرف بلقب خادم الحرمين الشريفين[1] .

ورغم إرسال الخلع الى امير مكة في كل عام، ورغم سيطرته على الأوضاع الداخلية بامرته والتمتع بشيء من الاستقلال الا ان العلاقات بين الجانبين اخذت تتراوح بين مد وجزر، وكان القلق والخوف ينتاب امير مكة عند قدوم موسم كل حج، او تأخر الخلعة السنوية عن موعدها، وكان يلجأ في مثل هذه الحالات إلى إرسال شخص من قبله الى مصر للاستفسار والاطمئنان على رضا السلطان عن الشريف.

كما حدث عام ٩١٨هـ/١٥٠٨م، عندما ارسل امير مكة الشريف بركات[2] ابنه ابانمي[3] وبصحبة السيد عرار بن عجل وقاضيا مكة صلاح

---

(١) القلقشندي-**صبح الأعشى**- ج٤ - ص١٠٨- الفاسي - **العقد** -ج٣- ص٩٨.

(٢) بركات بن محمد بن بركات الحسني، أمير مكة والحجاز ولد بها عام ٨٦١هـ وأمه شريفه من بني حسن نشأ في كفالة ابيه في رفاهية وعز ودرس على يد عشرات العلماء في عصره وزار القاهرة وعمرة سبعة عشر عاماً وأكرمه السلطان المملوكي وأحسن وفادتهم تولى الامرة ولم تستقر له الأمور لصراعه على سدة الحكم مع اخوته هزاع وحازان استمر عدة سنوات، اعتقل بالقاهرة ثم استطاع الفرار الى مكة، ثم اتى مرسوم سلطاني من الاشرف قانصوه بتوليته وهو اول شريف بمكة في بداية العصر العثماني للحجاز بعد سقوط دولة المماليك توفى بمكة عام ٩٣١هـ عن عمر يناهز السبعين عاماً.احمد دحلان -**خلاصة الكلام**- ص٤٦- العيدروسي- محيي الدين عبد القادر-**النور السافر عن أخبار القرن العاشر**- تصحيح محمد رشيد- بغداد- مطبعة الفرات- ١٩٣٤م ص١٥٢.

(٣) محمد بن بركات بن محمد بن بركات الحسني ابو نمي، ولد في آخر شهر من عام ٩١١هـ/١٥٠٦م وهو اصغر ابناء الشريف بركات كان ادارياً ذو رأي سديد وفي الوقت نفسه محارباً جسوراً شارك والده في حكم مكة ثم انفرد بالسلطة بعد وفاة والده سنة ٩٣١هـ واستمر في الحكم فترة طويلة وفي عهده صد هجمات البرتغال عن جدة وأجبرهم على الانسحاب ولقد تجاوز الثمانين من العمر وتوفي في شهر محرم عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م في وادي آبار جهة اليمن وجلب الى مكة حيث دفن في المعلاة ترجم له: احمد دحلان -**خلاصة الكلام**- ص٥٤- النهروالي -قطب الدين محمد علاء الدين -**الاعلام بأعلام بيت الله الحرام**- طبعة مصورة- بيروت -دار خياط- ١٩٦٤م- ص١٦٧- جارشلي، اسماعيل حقي -**امراء مكة في العهد العثماني**- ترجمة خليل مراد- البصرة - مركز دراسات الخليج العربي- ١٩٨٥م- ص١٠٦.

الدين بن ظهيره ونجم الدين بن يعقوب المالكي الى القاهرة[1] .وهكذا نلاحظ أن سياسة المماليك الشراكسة قد اتخذت منعطفاً خطيراً حيث لم تكتف بالنفوذ الاسمي والتمتع بالسيادة الروحية على المشاعر المقدسة، كما حدث مع خلفاء بغداد ومصر وسلاطينها منذ أن تأسس حكم الاشراف بمكة، بل اخذت تطالب أشراف مكة بدفع مبالغ باهظة لقاء إبقائهم في الإمرة.ويبدو أن هذا القرار كان راجعاً إلى حاجة السلطة المملوكية إلى المال بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[2] وانقطاع الطريق التجاري الذي كان يمدهم بالمال[3] . واصبحت هذه الأموال ضرائب سنوية يدفعها شريف مكة للسلطان المملوكي في القاهرة لنيل رضاه وعند تأخيرها أو عدم الاستطاعة في إرسالها

---

(١) العز بن فهد - **غاية المرام** - ج٣ - ص٢٤٩- العز بن فهد - **بلوغ القرى**- ورقة ٢٠٧.

السنجاري- علي تاج الدين بن تقي الدين - **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم** - مخطوطة مصورة بمكتبة الحرم المكي رقم٣٠ تاريخ، دهلوي ورقة ٤١٠ (مخطوط).

(٢) كشف البرتغاليون جهودهم -في نهاية القرن التاسع هجري- نمو عمليات الكشوف الجغرافية في ما وراء البحار وتحقيق رغبتهم في السيطرة والثراء مدفوعين بالصراع الديني بين المسيحيين والمسلمين ومطاردة المسلمين من شبه جزيرة ايبيريا وتمكنوا من تحقيق غايتهم مستندين الى قوتهم وجهودهم البحرية المتسمة بالسرية في جمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق وطرقها وقد استهل هذه الجهود الامير هنري الملاح الذي خالط الدم الانجليزي في عروقه الدم البرتغالي وأثمرت جهوده عن الوصول الى الساحل الغربي لإفريقيا والاستيلاء على سبته من ايدي المسلمين في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م وبلغت جهود البرتغاليين ذروتها عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م بوصول "بارتلميو دياز" الى الطرف الجنوبي لافريقيا الذي سمي بـ "رأس العواصف" ثم اطلق عليه الملك "يوحنا الثاني" ملك البرتغال اسم "رأس الرجاء الصالح" تيمناً بالفتح الجديد.

محمد محمود السروجي -**معالم التاريخ الاوروبي**- الاسكندرية- مطبعة المصري- ١٩٦٧م- ص٥٥- عبد الكريم غرابيه -**مقدمة التاريخ العربي الحديث**- مطبعة جامعة دمشق -١٩٧٧م -ص٣٧.

(٣) عائض محمد الزهراني- **الحجاز في عهد الشريف حسن بن عجلان**- رسالة ماجستير غير منشورة- ١٤١٢هـ-ص٨٦.

في الوقت المحدد، يسارع أمير مكة الى ارسال رسله للسلطان المملوكي للاعتذار، وطلب وده ويشكو ضيق الحال وقلة الموارد والمكوس.

وبذلك أخذت العلاقة بين المماليك الشراكسة والأشراف منعطفاً خطيراً ، ودخلت مكة فعلاً ضمن ممتلكات الدولة المملوكية، فأصبح سلاطين المماليك يتدخلون تدخلاً فعلياً في الشئون الداخلية لمكة حتى أصبحت تحت سيطرة المماليك مستفيدين من صراعات الأشراف وخلافاتهم وتعارض مصالحهم.

ونتيجة للتطور الاقتصادي الذي شهدته الموانيء الحجازية في النصف الأول من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[1] شهد عهد السلطان برسباي[2] تطوراً جديداً في العلاقة بين سلاطين المماليك، وأشراف مكة، وجاء هذا التطور نتيجة لبروز ميناء جدة الذي حل محل ميناء عدن[3] في استقبال تجارة الهند، وأصبحت تستقبل المراكب التجارية القادمة من اليمن

---

(١) المقريزي، احمد بن علي - **اغاثة الامة بكشف الغمة** - القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر -١٩٤٠ - ٤٣.

(٢) برسباي الملك الاشرف ابو النصر سيف الدين الظاهري نسبة الى مولاه السلطان الظاهر برقوق ولقب بالأشرف ولد سنة ٧٦٦هـ اصبح نائباً على ولاية طرابلس الشام ثم دوادار للسلطان ططر فوصياً على ابنه الصالح ولكن لم يلبث ان خلعه واستولى على العرش عام ٨٢٥هـ/١٤٢٢م تميز عهده بالحروب البحرية بينه وبين الافرنج بالقضاء على اعمال القرصنة وجعل من جدة ميناء لتجارة الهند كما عني بإمارة الكعبة تميز حكمه باصدار عدة تشريعات اجتماعية واقتصادية أثارت عليه موجة من التذمر حتى اتهم بالجنون خلد ذكره بأعمال جليلة ومنشآت ومدارس توفي عام ٨٤١هـ.
ابن اياس -**بدائع الزهور**- ج٢- ص١٥- السخاوي -**الضوء اللامع**- ج٣- ص٨.

(٣) ميناء عدن المشهور جنوب الجزيرة عند مفتاح البحر الاحمر الجنوبي اهم الموانيء اليمنية، وأول من نزل بها "عدن بن سبأ فعرفت به" كما يطلق الاسم على خليج عدن وأصبحت لها أهمية استراتيجية عندما احتكرت التجارة واصبحت من اهم اسواق العرب، حيث كانت تأتيه السفن من مختلف الانحاء. لذا كان سكان عدن يعملون بالتجارة. وسميت "دهليز الصين ومعدن التجارات" لأنها أصبحت صرح التجارة الشرقية. معاوية الشمري- **المعجم الجغرافي**- ص١٨٧- احمد عطية الله- **القاموس الاسلامي**- ج٤- ص١٥٣.

ومصر، وأصابت مـــن ذلك تجارة عظيمة وثراء عريضاً[1] مما عـاد بالانتعـاش الاقتصـادي علـى بـلاد الحجـاز[2] وقـد نشـأ عـن ذلـــك أن أصبـــح العـــامل الاقتصادي هو الدافع الرئيسي لسـلاطين المـاليك في بسـط سيطرتهم علـى الأماكن المقدسة في حـين اصبـح الدافـع الديـني والمعنـوي في مرتبـة ثانويـة[3] ولأحكام سيطرة سلاطين المماليك علـى التجـارة في موانـيء الحجـاز ، فقـد كان عليهم أن يشددوا قبضتهم عليه، وأن يفرضوا نفوذاً مباشراً على موانئه ، وذلك للمحافظة على مصالحهم التجاريـة مـن جبايـة المكـوس ومـن احتكـار لبعض السلع والمتاجر القادمة مـن الهنـد، فـأحدث السـلطان برسـباي منصبـاً جديـداً باسـم نظـر جـدة أو نيابـة جـدة، وعـين عليـه أحـد أمـراء المـــاليك ويساعده عدد من الموظفين لتحصيل الأموال من التجار وإرسالها الى السلطان في القاهرة[4] .

ولا أدل على اهتمام سلاطين المماليك بالتجـارة عـبر البحـر الأحمـر إصـدار المنشورات والمكاتبات الى تجار الصين والهند والسند واليمـن لإغرائهـم علـى القدوم بسفنهم إلى ثغور الحجـاز خاصـة ثغـر جـدة الـذي غـدا أكـبر مركـز تجاري لأنها بوابة مكة منها صادراته وإليها وارداته وتـروج التجـارة فيهـا في موسم الحج وإصدار مراسيم الى أمراء الحجاز لتحسين معاملة تجار الشرق[5]

---

(١) الادريسي – **نزهة المشتاق**- م٢- ص٢٠.

(٢) الفاسي – **العقد** – ج٤ – ص١٤٧- ابن تغري – **النجوم الزاهرة** –ج١٤ – ص٢٦٣.

(٣) Ankrwi, Abdullah The Pilgrimage to Mecca in Mamluk Times Arabian Studis,ed. R.B. Serjeant and R.L. andBidwell, London, 1974

(٤) الفاسي – **العقد** – ج٤ – ص٩٢، ١٤٧- المقريزي – **السلوك**- ج٤ – ص٦٨١.

(٥) طرخان- ابراهيم علي- **مصر في عهد دولة المماليك الجراكسه**- القاهرة- ١٩٥٩م- ص٢٨٨.

وهكذا بلغ المتحصل من مكوس التجار بجدة في أوج ازدهارها مائتي الف دينار وربما زاد أو نقص عن ذلك قليلاً، وقد نجح السلطان برسباي ومن جاء بعده من السلاطين الشراكسة في احكام قبضتهم[1] على تجارة جدة ، الى جانب تحصيل الأموال الطائلة من الأشراف مقابل تنصيبهم في إمرة مكة المشرفة[2] ، والابقاء عليهم وحمايتهم ومن جهة أخرى فقد حرموا اشراف مكة من الاستفادة من التطور الاقتصادي الذي حل بموانيء الحجاز، ولم يتركوا لهم سوى جزء ضئيل من الدخول لايفي بحاجتهم[3] .

مما أعاق أي محاولات للتنمية في إقليم الحجاز ورغم ثرائه ظل عالة على ما تقدمه له حكومة المماليك وبعض الحكومات الاسلامية في موسم الحج مع أن هذه المكوس كان من الممكن ان تساهم في خطط التنمية في مكة والمدينة.

كما شجع النفوذ المملوكي على لجوء بعض الاشراف الى السلاطين بالقاهرة وتحريضهم على بعض الحكام وبذل الأموال الجزيلة لهم لتحقيق غايتهم في الوصول الى امرة مكة أو الإطاحة بحكم منافسيهم[4] حتى إن بعضهم كان يلتزم بدفع مبالغ طائلة للسلطان المملوكي.

---

(١) الهاشمي -غريب بن الشيخ عجيب- **سياحتي الى الحجاز وهي حوادث واقعية** -القاهرة- ١٩١٥م- ص٧٠.

(٢) ابن شاهين - **زبدة كشف الممالك**- ص١٤.

(٣) دراج احمد - **ايضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر الأحمر منذ القرن التاسع الهجري** - (المحاضرات العامة للجمعية المصرية للدراسات التاريخية) الموسم الثقافي ١٩٦٧م - ص١٨٧.

(٤) عدوان، احمد محمد - **المماليك وعلاقاتهم الخارجية**- الرياض، مطابع الفرزدق- ١٤٠٥هـ ص ١٤٨.

ففي عام ٩١٥هـ ١٥٠٥م أرسل شريف مكة بركات بعض أقاربه الى السلطان الغوري بهدايا نفيسة كان من جملتها عشرون عبداً حبشياً وعشرون الف دينار ذهباً وعشرون فرساً كما أرسلوا ثلاثة آلاف دينار للدويدار[١] [٢] وهكذا انقلبت الأوضاع، فبعد أن كان الحجاز منذ فجر التاريخ يتلقى الإعانات والهدايا والصدقات من خلفاء وسلاطين وأمراء العالم الإسلامي انعكس الحال في عهد المماليك الشراكسة حيث أصبح أشراف مكة أنفسهم يقدمون الأموال الطائلة للسلطان المملوكي لإقرارهم في إمرة مكة.

ويعلق المقريزي في سخرية لاذعة على ماوصلت اليه الاحوال وانقلاب الاوضاع نتيجة للصراع على الحكم والتنافس على الرئاسة.

يقول: " إن العادة لم تزل من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة الى مكة لتفرق في أشرافها ومجاوريها فانعكست الحقائق وصار المال يحمل من مكة وتلزم اشرافها بحمله"[٣] .

والمقريزي هنا يقرر حقيقة واقعة بأنه ليس من حق السلطان أن يتقاضى مثل ذلك المال ويحرم أصحابه منه.

---

(١) الفاسي – **العقد**- ج٤- ص١٥٢- النجم ابن فهد – **اتحاف الورى**- ج٣- ٦٢٨.

(٢) الدوادار: كلمة معربة من كلمتين "دوا" كلمة عربية بمعنى الدواة" و "دار" بمعنى "صاحب" أي صاحب الملك أو كاتب الملك وهو الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير ووظيفته تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وعرض وتقديم القصص اليه والمشاورة على من يحضر الى الباب الشريف وتقديم البريد واخذ الخط السلطاني على عامة المناشير–القلقشندي – **صبح الأعشى** – ج٤- ص١٩- دهمان محمد احمد – **معجم الالفاظ التاريخية في العصر المملوكي**- بيروت – دار الفكر- ١٤١٠هـ- ص٧٧.

(٣) المقريزي – **السلوك**- ج٤ – ص٧٠٧.

ونتيجة لسياسة المماليك – السالفة الذكر- من التدخل المباشر في الأوضاع الداخلية السياسية والاقتصادية ظهرت بعض الآثار الايجابية والسلبية التي شكلت تاريخ منطقة الحجاز ومكة في المستقبل وظهرت هذه الآثار في اوضاع المنطقة سلباً وإيجاباً.

فمن الآثار الايجابية التي تميز فترة حكمهم اهتمام المماليك بالإصلاحات المعمارية في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، وإنشاء الأربطة(1) ، والمدارس، وتوفير المياه، وإصلاح الطرق وتأمينها .وبالغوا في ذلك تخليداً لذكرهم في صفحات التاريخ.

ومن المآثر الجليلة لسلاطين المماليك في الحرم الشريف بمكة كسوة الكعبة، وللكسوة تاريخ طويل ، وقد مرت بمراحل عدة من التطور من حيث خامتها والدقة في صنعها والانفاق عليها، كما لعبت دوراً بارزاً وحاسماً في الصراع السياسي في العالم الاسلامي، فكان لابد لمن ينفرد بتقديم كسوة الكعبة المشرفة أن يحصل على السيادة الأسمية في الأماكن المقدسة، لذلك أخذ

---

(١) الأربطة، جمع رباط وهي مباني وزوايا، أوقفها المحسنون من ملوك أو أغنياء على من جنى الدهر عليهم سواء فقراء أو غرباء أو طلاب علم، مساعدة لهم وتشجيعاً لحثهم على العلم، سواء كانوا من مكة أو غيرها، وبعضها خاص بالنساء والآخر للرجال، وفي مكة أربطة كثيرة ولايخلو من أحيائها دون رباط. وسوف يكون هناك توسع شامل لها في الناحية الاجتماعية. للمزيد انظر: الفاسي، تقي الدين محمد بن احمد -**شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**- تحقيق عمر عبد السلام- بيروت- دار الكتاب- ١٤٠٥هـ- ج١- ص٣٣٠- الشنتناوي -احمد -**دائرة المعارف الاسلامية**- ج١٠ -ص٢٠- عدد من المؤلفين - **المنجد في اللغة والادب** -ط٢٦- بيروت- دار الشرق- ١٩٧٦م- ص٢٤٥.

الصراع يحتدم من وقت لآخر بين الزعامات الاسلامية حول أحقية تقديم الكسوة للكعبة المشرفة[1] .

وعندما اعتلت الدولة المملوكية حكم مصر ابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ الكسوة حيث نالت جانباً كبيراً من اهتمامها واستمر سلاطين المماليك في إرسالها إلى الكعبة المشرفة مرة في العام.

وعلى الرغم من اهتمام سلاطين المماليك بكسوة الكعبة المشرفة، واضفاء الصغبة الدينية عليها كان إرسال الكسوة كل عام تدعيماً لنفوذ المماليك ومظهراً من مظاهر السيادة على بلاد الحجاز.

---

(١) وتنقسم كسوة الكعبة إلى قسمين خارجية تجدد كل عام وهي من الحرير الأخضر وداخلية لاتجدد حتى تبلى وهي من الحرير الأحمر المذهب وكان لوجود أفضل المنسوجات في مصر ، أن اصبحت كسوة الكعبة المشرفة تصنع بها وأصبحت مدينة تنيس مقراً لصناعة الكسوة ثم أوقف السلطان الملك الصلاح قلاوون بيسوس، وسندبيس -وهي قرى صغيرة على النيل من قرى القليوبيه تكثر بها المزارع المنتجة للفواكه -لكسوة الكعبة المشرفة والحجرة النبوية الشريفة ولقد اهتم سلاطين المماليك بالانفاق بسخاء على كسوة الكعبة، وتم استحداث وظيفة جديدة للاشراف عليها وهي وظيفة " ناظر الكسوة " ولايشغل هذه الوظيفة إلا من هو في وظيفة وكيل بيت المال. وفي العهد السعودي الزاخر أنشأ الملك عبد العزيز مصنع الكسوة سنة ١٣٤٦هـ في مكة. ولقد تطور مع مرور الزمن وأصبح حالياً من المصانع الحديثة حيث يحوي عدة اقسام أهمها القسم اليدوي والقسم الآلي. للمزيد انظر: العنقاوي- عبد الله عقيل - **كسوة الكعبة في العصر المملوكي**- مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية- م٥ جدة- جامعة الملك عبد العزيز ١٩٨٥م - ١٤٠٥هـ - ص٨.

ومن الآثار الحميدة للمماليك اعتناؤهم بالأربطة في مكـة المكرمـة الـتي كـانت ملجأ لسكنى الفقراء ، والغرباء ، وطلاب العلم المجـاورين في مكـة[١] وتوفـير سبل الراحة لهم وتأمينها بجميع الاحتياجات من مـأكل ، ومشـرب وملبـس، وأوقفت عليها الأوقاف الكثيرة، من قبل السلاطين والخلفاء والأغنياء[٢] .

كما عملوا على انشاء المياضيء والمطاهر، وكـانت في غايـة الاتسـاع وانتفـع بها خاصة في مواسم الحج لراحة حجاج بيت ا لله الحرام منها مـاهو للرجـال وما هو للنساء[٣] كما اهتم سلاطين المماليك بالمدارس المنشأة بمكة المكرمـة ، والاعتناء بها اظهاراً منهم لشعور التقوى والتقرب الى ا لله، كما انهم وجدوا في هذه المدارس أداة تساعدهم على توطيد مركزهـم في أعين النـاس وكـانت المدارس في عهدهم تتمتع بدخل مالي ثابت مصدره الاوقاف العريضـة مـن أراض وبيوت واسواق، التي كانت ترصد للانفاق من ريعها على المدارس والأربطة.

كما كانت تتكفل برواتب القضاة مع إرسال الهدايا لهم[٤] وكـان لقلـة الميـاه في مكـة أن عـني سـلاطين المـماليك بتوفيرهـا لأهـل مكـة والحجيـج وكـان الاهتمام ينصب على العيون وحفر الآبار[٥] .

---

(١) الفاسي – **الشفاء**- ج١ – ص٣٣٠.

(٢) الكردي، محمد طه – **التاريخ القويم لمكة وبيت ا لله الكريم**-ج٢- مكة- مكتبة النهضة الحديثة- ١٣٨٥هـ ص١٤٩.

(٣) محي الدين الطبري –**مصدر سبق ذكره**- ورقة ٨٣ (مخطوط).

(٤) الفاسي – **العقد** – ج٥ – ص٣٣٥/ الشفاء – ج١ – ص٣٣٧.

(٥) الجزيري – **مصدر سبق ذكره**- ج١ – ص٢٩٧.

كما اهتم المماليك بإصلاحات الطرق والمستراحات والقلاع وكثير من مسالك الحجاز، كما قاموا ببناء السبل، ومن أشهرها سبيل الست وهي أخت الملك الناصر حسن[1] .

كما اعتنو ببناء البرك وحفر الآبار للاستفادة من مياه الأمطار في أطراف الأودية، ولسقيا الدواب[2] لأنها الوسيلة الوحيدة لحفظ المياه التي كانت موجودة في هذه الفترة[3] .

كما قاموا بإنشاء وتحسين البيمارستانات[4] لمعالجة المرضى، وتقديم الخدمات الطبية للوافدين إلى مكة في مواسم الحج.

وكان لعظم هيبة سلاطين المماليك المعاصرين للشريف حسن بن عجلان وقوة امراء الحاج المصري ان ساد الأمن طرقات الحج ، وأصبحت القبائل القاطنة على طرق الحج تهاب التعرض للحجاج وحرص امراء الحاج المصري على حراسة الحجيج حتى انقضاء الموسم[5] .

---

(١) السبل عبارة عن خزانات صغيرة تبنى فوق سطح الأرض وتملأ بالمياه لسقيا الناس في غدوهم ورواحهم. للمزيد انظر: ابن منظور- ابو الفضل جمال الدين محمد -**لسان العرب**-ج١١- بيروت، دار صادر- ١٩٦٧م - ص٣٢١.

الفاسي - **الشفاء** - ج٢ - ص٣٣٧.

(٢) الفاسي - **المصدر السابق**- ج١ - ص٣٣٧.

(٣) المالكي- سليمان عبد الغني - **بلاد الحجاز**- الرياض، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز- ١٩٨٣م- ص ١٤٩.

(٤) البيمارستان كلمة فارسية مركبة من "بيمار" أي "مريض" "وستان" بمعنى مكان وتقابل كلمة مستشفى وقد ترد مختصرة فيقال مارستان وتنصرف على مسشتفى الامراض العقلية "المجانين" أو كلمة المارستان أو بنيمارستان فنطلقها على المستشفى الصحي لأنها مركة من بنيمار "مريض" وستان "مكان".ادى شير -**الألفاظ الفارسية المعربة**- - ص٣٣.

(٥) الفاسي - **العقد** - ج١ - ص٢٠٣.

ويبدوا أن قبضة السلاطين كانت قوية في هذه الفترة حيث أخذت فيما بعد تضعف حتى عم الاضطراب طرق الحج أواخر العهد المملوكي، وحاول سلاطين المماليك في هذا العهد التقرب إلى أشراف مكة المشرفة وأهاليها وخاصة الفقراء بالعطايا والصدقات.

كما حرص بعض سلاطين الشراكسة على اسقاط المكوس[1] وارسال مراسيم[2] لأمراء مكة بعدم أخذ المكوس من الحجاج، وتعويضهم بمبالغ وهبات، مقابل هذا التنازل[3] .

---

(١) يطلق المكس إصطلاحاً على الجباية وهي دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية، كما تطلق ايضاً على كل مايأخذه العشار وهي ليس لها سند شرعي انما نشأت في الإسلام وتوارثها الحكام من العصور السابقة وقد أبطل الإسلام المكس بأنواعه، وفرض الزكاة على الناس في أموالهم وجاء حديث في مسند الامام احمد الجزء الرابع وسنن ابي داوود في باب الامارة الجزء السابع "لايدخل الجنة صاحب المكس". وتعتبر المكوس مصدراً مهماً من مصادر الدخل الاقتصادي لمكة المشرفة وأشار المقريزي في سلوكه الى مقدار المكس على الحاج وأنه كان يؤخذ على كل شخص سبعة دنانير ونصف وكانت هناك مكوس تفرض على الأطعمة الواردة الى مكة المكرمة وكذلك جميع الواردات لمكة من البضائع الاستهلاكية كالثياب والأخشاب ابن منظور -**مصدر سبق ذكره**- ج١٢-ص١١٣- الدرامي -عبد الله الفضل- **سنن الدارمي**- ج١- بيروت- دار الكتب- ص٣٩٣- المقريزي -**السلوك**- ج١- ص٦٤. الفاسي - **الشفاء**- ج٢- ص٢٤٩.

(٢) المراسيم جمع مرسوم وهي كتب كانت في الجاهلية وهو ماجرت العادة بكتابته للمسامحة من المقررات واللوازم السلطانية او بمعنى إمتثال الأمر. و لم تكن المراسيم زمن الأيوبيين وقبلهم الفاطميين موجودة بل كانت تسمى السجلات واستحدثت المراسيم في عهد المماليك وكان يكتب التقليد لشريف مكة "تقليد شريف بأن يفوض الى المجلس العالي، الأمير الكبير على شرف...". للمزيد انظر: ابن منظور، ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم -**لسان العرب**- ج١٢- بيروت- دار صادر- ١٩٦٧م- ص٢٤١. القلقشندي -**صبح الأعشى**- ج١١- ص١٠٧.

(٣) ابن حجر - **أنباء الغمر**- ج٧ - ص٤٣٠.

على أنه بالرغم من نجاح المماليك الشراكسة -كثير من الفترات- في بسط سيطرتهم المباشرة على الحجاز الا أنهم عجزوا عن توطيد الأمن والاستقرار في المدينتين المقدستين، فلم يمض عقد من الزمن بغير فتنة في مكة المكرمة والمدينة المنورة(١).

وكان لسياسة المماليك الشراكسة التي انتهجوها في الحجاز **آثار سلبية** بعيدة المدى فقد أدى حرص المماليك الشراكسة على أن يجعلوا من مكة ولاية مملوكية مثل سائر الولايات التابعة لهم الى تدخلهم المباشر في شؤون مكة الداخلية من تعيين الأشراف وعزلهم، بل وحتى اعتقالهم والتآمر على قتل بعضهم بايعاز من السلاطين مما أوجد حالة من الفوضى وعدم الاستقرار خصوصاً في مواسم الحج(٢).

وتتضح هذه السياسة عندما أقدم السلطان الظاهر برقوق على اغتيال شريف مكة المكرمة أحمد بن عجلان بالسم عام ٧٨٨هـ/١٣٨٦م(٣).

ثم بعث من يقتل ابنه محمد بن احمد الذي تولى امرة مكة بعد والده المسموم بمائة يوم وهو يقوم بتقبيل خف جمل المحمل(٤).

وكان لأمير الحاج المصري دور كبير في إثارة الفتن، والاضطرابات وإشعال نار العداوة بين الحجيج في مكة المكرمة والمدينة المنورة، فقد كان كثيراً

---

(١) عاشور، سعيد عبد الفتاح - **العصر المماليكي في مصر والشام**- ط٢- القاهرة- دار النهضة العربية- ١٩٧٦م ص٢٣٩.

(٢) ابن خلدون - **مصدر سبق ذكره**- ج٥ - ص٥٠٥- المقريزي - **السلوك**- ج٣ - ص٧٧٠.

(٣) الفاسي - **العقد** - ج٦ - ص١٣٤- العز ابن فهد - **مصدر سبق ذكره**- ج٢ - ص١٩٣.

(٤) ابن حجر - **أنباء الغمر**- ج٥ - ص٥٠٥- العز ابن فهد - **مصدر سبق ذكره** - ج٢ - ص١٩٨.

مايتدخل في شؤون مكة الداخلية ويحاول أن يفرض نفوذه في أثناء وجوده في الحجاز.

كما حدث في عام ٩٠٨هـ/١٥٠٣م عندما قبض أمير الحاج المصري على الشريف بركات واصطحبه معه إلى مصر لقاء مبلغ من المال بلغ ستين الف، أشرفي احمر[١].

وبذلك أصبح شريف مكة يتجنب لقاء أمير الحاج المصري واستقبال المحمل خوفاً من أن يتم القبض عليه او قتله.

ومما يجدر ذكره أن السياسة التي انتهجها المماليك الشراكسة نحو الحجاز من عزل وتولية الأشراف في حكم مكة المشرفة قد أدت الى نشوب الصراع والفرقة داخل صفوف الأشراف، واتساع الهوة بينهم، وأصبحوا عبارة عن أطراف ينافس كل منها الآخر، ويسعى زعيم كل فئة الى الحصول على تأييد السلطان المملوكي والوصول الى سدة الحكم[٢].

فقد حاول السلطان الغوري عام ٩١١هـ/١٥٠٦م أن يضرب الشريف بركات بأخيه حميضه ونجح في محاولته فدارت بينهما المعارك وهرب حميضه أثناء الصراع عندما أحس بهزيمته، ثم ارسل السلطان الغوري بالتفويض الى الشريف بركات اميراً على الحجاز وأن المعول عليه في شتى الأمور[٣].

---

(١) السنجاري - **منائح الكرم**- ورقة ٤٠٠- العز ابن فهد - **غاية المرام**- ج٣- ص١٤٦.

(٢) ريتشارد مورتيل - **مرجع سبق ذكره** - ص١١.

(٣) العز ابن فهد - **مصدر سبق ذكره** - ج٣ - ص١٨٦.

ولاشك أن هذه السياسة التي تتميز بالتسلط والأنانية كان لها أكبر الأثر في خلق جو من الفوضى والاضطرابات وعدم الاستقرار الذي شهده الحرمان خلال هذه الفترة.

ومن الآثار السلبية للحكم المملوكي ما آلت اليه العلاقات الاقتصادية بين مصر والحجاز فقد جرت العادة منذ فجر الاسلام أن يحمل إلى الحجاز ، الهدايا والهبات النقدية والعينية من الخلفاء والسلاطين التي أسهمت في انتعاش احوالها الاقتصادية، وقد حظيت هذه الزعامات بذكر اسمائها في الخطبة والدعاء لها في الحرمين الشريفين[١] .

فشهد الحجاز جنوح سلاطين المماليك الشراكسة الى استغلال الحجاز اقتصادياً، فقد احتكر السلطان برسباي التجارة وبسط سيطرته على جدة ميناء مكة الاقتصادي، وفرض الضرائب والمكوس على التجار والحجاج ، مما دعا التجار أن يزيدوا في أسعار بضائعهم على الحجاج وأهل مكة، وأثقل كاهل أهل مكة بارتفاع الأسعار في الأطعمة، وما لحقهم من أضرار من جراء ذلك[٢] .

ويشكل المحمل وما أحاط به من مظاهر أحد الآثار السلبية للنفوذ المملوكي، فقد جرت العادة منذ أن قام المماليك في حكم مصر على ارسال المحمل كل عام[٣] بصحبة قافلة الحج المصري.

---

(١) ابن الفرات – **مصدر سبق ذكره** – ج٩ – ص١٣٢.

(٢) المقريزي – **السلوك**- ج٤ – ص٦٨١.

(٣) لايعرف متى أرسل المحمل الى مكة، وبداية تاريخه الذي يكتنفه الغموض سواء في تكوينه أو الدور الذي لعبه، وقد أوضح العنقاوي أن هيكل المحمل قد مر في مرحلة طويلة من التطور.وسوف أتوسع عن المحمل وظروفه بالجزء الخاص به. انظر العنقاوي – **المحمل نشأته وآراء المؤرخين فيه**- مجلة كلية الآداب- م٢ – الرياض – جامعة الرياض – ١٣٩١هـ- ص ص ٣٢٣- ٣٣٨.

وكان يحتفل بخروجه على رأس ركب الحاج المصري احتفالاً شعبياً واكتسب على مر السنين طابعاً دينياً واجتماعياً وسياسياً[1] ويحتفل به مرتين في العام، المرة الأولى في شهر رجب في بداية الاستعدادات لموسم الحج، والمرة الثانية في منتصف شهر شوال حيث كان السلطان المملوكي يجلس بميدان القلعة[2]، حيث تعرض كسوة الكعبة المشرفة، والبرقع، وكسوة المقام، ثم يبدأ المحمل في شق شوارع القاهرة، مودعاً لها بطلقات المدافع وحراسة الجنود[3] .

ولقد تنافس الملوك والسلاطين في مصر والعراق واليمن في ارسال المحمل الى مكة المشرفة مع قافلة الحج، واحاطته بالأبهة والعظمة[4] .

ويذكر القلقشندي أن المحمل "يحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة وعليه غشاء من حرير أطلس وبأعلاه قبة من فضة مطلية"[5] .

وكان على شريف مكة أن يخرج الى أطراف مكة المكرمة لاستقبال المحمل المصري" فاذا وافاه ترجل عن فرسه وأتى الجمل الحامل للمحمل فقلب خف يده اليمنى وقبله خدمة لصاحب مصر"[6] .

---

(١) القلقشندي – **صبح الأعشى**– ج٤ – ص٢٨٠.

(٢) أصلح هذا الميدان بعد خرابه في عهد الملك الناصر المملوكي سنة ٧١٢هـ،حيث حفرت به الآبار وغرس به النخيل والأشجار وأحاطه بسور من الحجارة، وأصبح يلعب فيه بالكرة مع أمرائه– المقريزي –الخطط –ج١ ص٩٦.

(٣) البتنوني– محمد لبيب – **الرحلة الحجازية** – ط٣، الطائف– مكتبة المعارف– د.ت ص١٤٠– آمنة حسين جلال – **علاقة سلاطين بني رسول بالحجاز** – (رسالة ماجستير) – مكة – جامعة الملك عبد العزيز – ١٤٠٠ – ص١٨٢.

(٤) العنقاوي – **المحمل** – ص٣٢٤.

(٥) القلقشندي – **صبح الأعشى**– ج٤ – ص٢٨١.

(٦) **المصدر السابق** – ج٤ – ص٢٨١.

وكأنه نوع من التعبير عن اعترافه بالتبعية بالسلطان المملوكي وكان الاشراف -لمكانتهم الدينية والسياسية- يأنفون من هذه العادة، وكانوا يؤدونها على مضض وكراهية حتى استطاع الشريف بركات بن حسن بن عجلان في عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م أن يستصدر مرسوماً من السلطان المملوكي الأشرف يتضمن باعفائه من تقبيل خف الجمل الذي يأتي بالمحمل[١] وبذلك انتهت هذه العادة التي كانت تقلل من شأنهم أمام رعيتهم. وهذا يؤكد أن تقبيل خف الجمل كان يتم بالإكراه دون الرضا والاختيار.

بذلك اهتم سلاطين المماليك -كما اشرنا سالفاً- منذ اعتلائهم عرش مصر وانتصارهم على المغول[٢] في معركة عين جالوت[٣] عام ٦٥٨هـ/١٢٦٨م على مد نفوذهم على الأماكن المقدسة، وبسط سيطرتهم على مكة والمدينة، الأمر الذي يضفي على حكمهم نوعاً من الشرعية، ويسبغ عليهم الدعم الروحي والمعنوي كمظهر مكمل لسيطرتهم على العالم الإسلامي.

---

(١) النجم ابن فهد -**اتحاف الورى**- ج٤- ص١٤٥.

(٢) المغول شعب بدوي ينقسم الى عدد من الطوائف والقبائل يسكن إقليم منغوليا شمال صحراء جوبي في أواسط آسيا جنوبي سيبيريا، ليس له حضارة، امتاز بالوحشية لشدة بداوته أبرزهم زعيمهم جنكيز خان الذي وحد صفوفهم وكون إمبراطورية منغولية قوية غزت اقليم الصين وأقاليم الدولة الاسلامية حتى استطاع حفيده هولاكو من إسقاط قلعة الإسلام بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م- دحلان- احمد زيني- **الفتوحات الإسلامية**- ج٢- ط١- القاهرة- مؤسسة الحلبي- فؤاد الصياد- المغول في التاريخ- القاهرة- دار النهضة- ١٩٦٠م- ص٦٧.

(٣) عين جالوت: بليده شرق دارين بين بيسان ونابلس من اعمال فلسطين ويرجع هذا الإسم الى الاسطورة القائلة بأن داود قتل جالوت في هذا المكان.

Encyclopedia of Islam,II Luzac, London, 1927, p.345.

رغم شدة قبضة المماليك القوية على بلاد الحجاز، والتدخل في شؤونه من عزل وتولية، الا أن ذلك لم يؤد الى تغيير جوهري في نظام الوراثة في حكم مكة المشرفة فبقي الأشراف الحسنيون يحكمون مكة.

و لم يكن هناك عرف مقنن ينظم وراثة الحكم في إمرة مكة مما كان سبباً في نشوء الصراع بين الأشراف حول اعتلاء الإمرة، ومما أتاح الفرصة بالتالي لسلاطين المماليك لأن يتدخلوا في تولية وعزل الأمراء.

كان للجوء الأشراف أنفسهم إلى مماليك مصر وإعطائهم الأموال الجزيلة لتحقيق غايتهم في الوصول الى إمرة مكة، والإطاحة بحكم منافسيهم أن أدى إلى فقدانهم السيطرة على إمرة مكة، وساعد على تكريس النفوذ المملوكي، وسعى المماليك من جانبهم إلى تأجيج نار الفتنة بينهم، حتى أصبح الاضطراب وخلخلة نظام حكم الأشراف ولجوؤهم إلى المماليك سمة من سمات النفوذ المملوكي، وذلك ليسهل لهم التدخل في شؤون مكة، وتعيين من يشاؤون في إمرتها.

واختلفت نيابة السلطنة في الشام وفلسطين كلية عن نيابة السلطنة في الحجاز، فنائب السلطنة في الأقاليم الأخرى أحد موظفي السلطان، وغالباً مايكون من أمراء المماليك، ولاتستمر النيابة في أسرته، ويكون مرتبطاً ارتباطاً مباشراً بالنظام الاداري بالسلطنة المملوكية في القاهرة.

ويعتمد هؤلاء النواب على جيوش منظمة يدينون بالولاء للسلطان المملوكي، أما نائب السلطنة في الحجاز فيعين من أسرة الأشراف الحاكمة في امرة مكة، ويتمتع بنفوذ واسع غير مقيد بالنظام الإداري المفروض من

سلاطين المماليك، ويعتمد في بسط سيادته وفرض نفوذه على قواته من الأشراف والقواد ورجال القبائل.

و لم يقصد من نيابة السلطنة في الحجاز مفهوم النيابة المتعارف عليها في الدولة المملوكية وانما قصد بها توسيع دائرة نفوذ شريف مكة، وربط الحجاز مباشرة بالسيادة المملوكية.

بذلك تتضح سياسة الدولة المملوكية (الشراكسة) تجاه الحجاز -كما تقدمت الاشارة اليها- التي كانت تقوم على منافعها المادية التي ظهرت بابتزازها للأموال من الموانيء الحجازية لتصب في خزانة الدولة المملوكية مستخدمة زرع بذور الخصام وإثارة الفوضى وإشعال نار الفتنة بين أشراف الحجاز، ليتحقق لها بسط السيطرة على الموقف السياسي والحربي في مكة المكرمة.

ولخشيتها من استقلال الحجاز عن التبعية والسيادة المملوكية في وقت بدأت تواجه صعوبات خارجية وداخلية تمس كيانها كظهور الدولة العثمانية التي أصبحت تتطلع الى توسيع رقعة دولتها وترنو بسياستها الى ضم مصر تحت المظلة العثمانية وتحقق لها ذلك بعد صراع وتنافس مرير وحروب أسفرت عن سقوط الدولة المملوكية عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)(١) .

---

(١) نيقولاي إيفانوف: الفتح العثماني للأقطار العربية- ترجمة يوسف عطا الله- ط١- بيروت- دار الفارابي- ١٩٨٨م- ص٥٨.

بذلك أصبح العثمانيون القوة العظمى على البلاد العربية والإسلامية وهكذا تغيرت وتطورت العلاقات ودخلت الحجاز سلمياً تحت السيادة والسلطة العثمانية، وبدأ النفوذ العثماني يتزايد تزايداً مطرداً وصار لهم نفوذ مباشر على اقليم الحجاز.

الفصل الأول

السياسة الداخلية
والعلاقات الخارجية

المبحث الأول

أ) السياسة الداخلية

في أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي بدأ يبرز نفوذ أسرة جديدة من الأشراف الحسنيين بزعامة قتادة بن ادريس[1] الذي استطاع الإطاحة بحكم أسرة الهواشم والاستيلاء على مكة المكرمة[2].

وبعد فترة وجيزة نلاحظ أن الاستقرار السياسي بدأ يضطرب حيث نجد بيوت الأشراف من بني قتادة الحسنيين في نزاع دموي ضد بعضهم بعضاً بصفة عامة وضد الأمير القائم منهم بصفة خاصة. مما أدى لاضطراب الأمن وانتشار الفزع والهلع خاصة في مواسم الحج والتجارة بما كان يحدث من عدوان مستمر على السفن الواردة الى جدة أو نهب للبضائع المكدسة في مستودعاتها أو مصادرة أموال التجار الوافدين والمقيمين على السواء[3].

وفي بداية القرن العاشر الهجري لم تنعم إمارة مكة بالاستقرار طويلاً عقب وفاة الشريف محمد بن بركات، فسرعان ما نشب النزاع بين أبنائه على

(١) قتادة بن ادريس بن مطاعن ينتهي نسبه الى موسى الثاني بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، استولى على مكة عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، وأخضع المناطق المجاورة لحكمه واتسعت دولته وسار سيرة حسنة وتمتع الحجاج في عهده بالراحة والطمأنينة، واستمر يحكم لمدة عشرين عاماً وانتهت حياته بمقتله على يد ابنه الحسن في عام ٦١٣هـ/١٢١٦م. ترجم له: الفاسي- **العقد**- ج٧- ص٤٠- عز الدين بن فهد- **غاية المرام**- ج١- ص٥٥١- العصامي، عبد الملك بن حسين- **سمط النجوم العوالي في أنباء الاوائل والتوالي**- ج٤- القاهرة- المطبعة السلفية- ١٣٨٠هـ- ص٢٠٧.

(٢) تقي الدين الفاسي- **العقد الثمين**- ج٧- ص٣٩- العز بن فهد- **غاية المرام**- ج١- ص٥٥٢.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١١٣/١١٤/ وصفحات اخرى- **نيل المنى**- ص٦٨-وصفحات اخرى.

الولاية، وبخاصة بين الشريف بركات بن محمد وأخيه الشريف هزاع[1].

وقد أبدى السلطان الناصر محمد بن قايتباي[2]، اهتماماً ملحوظاً بتطور هذا الخلاف، الذي كان يمثل تهديداً خطيراً لحالة الأمن في الحجاز، فأرسل مرسوماً إلى كاتب السر، القاضي بدر الدين بن مزهر -الذي كان وقتذاك مقيماً بمكة- أوصاه فيه بالسعي في تخفيف حدّة التوتر في الإمارة. وقبل حلول شهر شوال من عام ٩٠٣هـ/١٤٩٨م، كان القاضي ابن مزهر قد تمكن من الإصلاح بين بركات وهزاع[3] غير أن الاتفاق الذي تم التوصل إليه لم يتضمن على ما يظهر حلاً شاملاً للنزاع القائم بينهما وإزالة أسباب الخلاف بين الأخوين، حيث تم إشراك هزاع مع أخيه بركات في الإمرة[4].

(١) هزاع بن محمد بن بركات، ممن تولى إمرة مكة انتزعها من اخيه بركات، كان صالحاً ختم القرآن، مصلياً للناس سنة٨٨٢هـ/١٤٧٧م مات السيد هزاع بالسمرات بين وادي الابيار والعد وشيخ ودفن بمحله بشهر رجب من عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م- ترجم له: السخاوي- **الضوء اللامع**- ج١٠- ص٢٠٨- العز بن فهد-**غاية المرام**- ج٣- ص١٠٣- وما بعدها- الشلي- **السنا الباهر**- ورقة١٩٨.

(٢) الملك الناصر محمد بن قايتباي المحمودي الظاهري، ولد بالقاهرة عام ٨٨٧هـ/١٤٨٢م بويع بحكم مصر وابوه على فراش الموت عام ٩٠١هـ/١٤٩٥م وكان صغيراً في السن اتصف بالكرم السخي والشجاعة كان يتمتع بالحنكة السياسية قتله بعض مماليكه. ترجم له: ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٢- ص٣٠٣- ابن العماد-**شذرات الذهب**- ج٨- ص٢٢.

(٣) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٣ ص٣٩٢.

(٤) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٠٦أ.

على أن هذه المحاولة لم تنل رضاء الشريف هزاع بـن محمـد، الـذي كـان يـأمل ويطمع في الاستقلال بإمرة مكة والانفراد بتسيير أمور الإمرة دون شريك.

لذا اتخذ قـراراً بـالرحيل ومفارقـة أخيـه بركـات واتجـه إلى ينبـع في أوائـل سـنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م وبصحبته أخوه احمد الملقب جازان[١] ، ومعه جموع مـن بـني ابراهيم[٢] ، عرب ينبع، وبني زُبيد، عرب خليص[٣] ، بعُسْفان[٤] على مقربة من مكة.

وقد أسفرت جهود القاضي ابن مزهر عن انسحاب قوات هزاع، بعد أن حلف يميناً بعدم التعرض لأخيه بركات[٥] .

---

(١) جازان ويدعى احمد بن محمد بن بركات الحسني ممن تولى امرة مكه واضطربـت الاوضـاع في عهـده اتصـف بالقسوه والشده تواطأ عليه جماعة من الترك المقيمين بمكة عندما لم يعجبهم تصرفاته وخافوا علـى انفسـهم فقتلـوه وهو يطوف عند باب الكعبة مات بمكة ودفن بـالمعلاه عـام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م. ترجـم لـه: العـز بـن فهـد-**بلـوغ القرى**- ورقة١٤٨ب- **غاية المرام**- ج٣- ص١٣٩.

(٢) بنو ابراهيم بطن من بني مالك مـن قبيلـة جهينـه امتـاز بنمـو قوتهـم قبيـل القـرن العاشـر الهجـري، اشـتهروا بالفروسية والشجاعة خاضوا كثيراً من الحروب التي انهكتها خاصة مع الاشراف حكـام مكـة المكرمـة، وديـارهـم بينبع النخل وما حولها. انظر: البلادي- **معجم قبائل الحجاز**- ص١١/١٢.

(٣) خليص: ارض ذات اشجار ونخيل تتخللها الهضاب الحمراء، تقع شمال مكة فيها قرى بني مالك. انظر: ياقوت الحموي-**معجم البلدان**- ج٢- ص٩١- البلادي-**معجم معالم الحجاز**- ج٣- ص١٤٦.

(٤) عسفان: موقع بسيط من الارض بين جبالها آبار عذبة تنسب احداها الى عثمان بن عفان -رضـي الله عنـه- تقع بين مكة والمدينة يوجد بها الآن مزارع وتبعد عن مكة بثمانين كيلـو مـتراً. انظـر: يـاقوت الحمـوي -**معجـم البلدان**- ج٤- ص٢١٧- البلادي-**معجم معالم مكة**- ص١٨٨.

(٥) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٠٦أ.

كما تكللت المفاوضات التي أجريت بين بركات وهزاع خلال موسم الحج من السنة نفسها، بالنجاح، إذ وصل الطرفان إلى اتفاق، التزم الشريف بركات بمقتضاه أن يصرف لهزاع راتباً، بينما تعهد هزاع بطاعة أخيه، وبذلك أصبح هزاع مسانداً لأخيه بركات في حكم مكة[1] .

على أن الأحوال السياسية في إمارة مكة سرعان ما اضطربت فيها الاحوال وسادت الفوضى بها في موسم حج ٩٠٦هـ/١٥٠١م حيث بدأت بوادر الفتن والقلاقل والنزاع بين الأخوين وكل منهما يحاول أن يجمع أكبر قدر من الأنصار للوقوف بجانبه والإطاحة بالآخر ولقد تحقق للشريف هزاع ما كان يصبو إليه وانتهى الامر بانتصاره على أخيه عام ٩٠٦هـ/١٥٠١م[2] .

وهكذا تحول الأمير السابق الى مناوئ خطير للأمير الجديد متصفاً بالتعنت وعدم الاستسلام بل تصدى لأخيه، ونرى هذا عندما يتأهب الشريف بركات بن محمد لمواجهة أخيه هزاع محاولاً استرجاع عرشه وقيامه بجمع أتباعه من القبائل الموالية له، ونزل بالجموم[3] من وادي مر على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلو متراً من مكة صوب الشمال في طريق المدينة[4] ، وانتظر قدوم ركب الحاج المصري.

---

(١) ابن فهد- **المصدر السابق**- ورقة١١١أ.

(٢) الجزيري- **درر الفوائد**- ص٣٤٩- يحيى بن الحسين- **غاية الأماني**- ج٢ ص ص ٦٢٦-٦٢٧- العصامي- **سمط النجوم العوالي**- ج٤ ص٢٨٢.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١١٣ب.

(٤) انظر: البلادي- **معجم معالم الحجاز**- ج٢- مكة- دار مكة-١٩٧٩م- ص ١٧٦-١٧٧- **معالم مكة**- ص٢٦٤.

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من أهالي الحجاز وأعيانها انحازوا إلى جانب الشريف هزاع وساروا معه إلى مكـــة صحبة الحاج وفضـلاً عـن ذلـك حظـي الشـريف هزاع بمناصرة اثنين من إخوته، هما جازان وحميضة[١] اللذين قاما بمساندته في تثبيته بالسلطة على أمل أن ينالا ما يطمحـان إليـه مـن سـلطة سياسـية أو دعـم مادي[٢] .

لكن الشريف هزاع بن محمد لم ينعم طويلاً بها، إذ توفي في الخامس عشـر مـن شهر رجب عـام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م فخلفـه أخـوه جـازان في الإمـرة، بمساعدة قاضي قضاة مكة الشافعي، أبي السعود إبراهيم بن ظهـيره[٣] ولما تبـين لجـازان عدم استعداد أهالي مكة للقيام بنصرته عندها اضطر أن يغادرهـا بـدون مقاومـة وتوجه إلى ينبع فعاد اليها اخوه بركات مع عسكره في بداية شـهر شـعبان مـن السنة المذكورة وهكذا استعاد الشريف بركات إمرة مكة[٤] .

إلا أنه بعد فترة وجيزة تولى الشريف جازان بن محمد إمرة مكة وكان أهل ينبع من أنصاره فعاد جازان الى مكة مرة اخرى، ودخلها في السابع والعشـرين مـن شهر ذي الحجة عام ٩٠٨هـ/١٥٠٣م[٥] .

---

(١) حميضه بن محمد بن بركات من الذين تولوا إمارة مكة لفترة وجيزة خلال عـام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م ثـم قـامت الفتن مع إخوته وتم عزله وكان قاسياً فاتكاً. انظر: العز بن فهد- **غاية المرام**- ج١- ص١٦٦ وما بعدها.

(٢) العز فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٢٠أ.

(٣) ابن فهد- **المصدر السابق**- ورقة١٢٥ب- يحيى بن الحسين- **غاية الأماني**- ج٢ ص٦٢٨.

(٤) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٢٦أ- يحيى بن الحسين- **مصدر سبق ذكره**- ج٢- ص٦٢٨.

(٥) العصامي- **سمط النجوم العوالي**- ج٤- ص٢٨٦.

ولم يكن الشريف جازان بن محمد حسن السيرة في عهده الجديد بإمرة مكة أيضاً، وسرعان ما اختلف مع أخيه حميضه[1] وساءت علاقته بالامير بك باي قائد العسكر المملوكي المرابط في مكة الذي تآمر مع حميضة على اغتياله[2] .

ففي شهر رجب من عام ٩٠٩هـ/١٥٠٤م وثب ثلاثة مماليك من أفراد العسكر المملوكي المرابط بمكة على الشريف جازان اثناء طوافه بالكعبة، وقتلوه، وولّى الامير بك باي أخاه حميضة الإمرة خلفاً له[3] .

ساد الاضطراب إمارة مكة خلال الفترة التي حكمها الشريف حميضة بن محمد بن بركات فقد امتنع مالك ابن رومي، أمير خليص[4] عن الدخول في طاعته إذ كان من انصار الشريف جازان المقتول، وأخذت قبيلته زبيد تغير على بعض المواضع القريبة من مكة في شهر رمضان من عام ٩٠٩هـ/١٥٠٤م[5] مما أدى الى هجرة جماعة من الأشراف من ذوي أبي نمي من وادي مر[6] إلى وادي الآبار، جنوبي مكة[7] .

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٣٨ب-١٣٩أ.

(٢) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤ ص٦٢.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٣٩أ- ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٦٤- الجزيري- **درر الفوائد**- ص ص٣٥٣-٣٥٤- ابن ظهيره- **الجامع اللطيف**- ص٢٠٠- العصامي- **سمط النجوم العوالي**- ج٤- ص٢٨٨.

(٤) ابن اياس - **بدائع الزهور**- ج٤ ص ص١٠٦-١١٢.

(٥) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٤٠أ.

(٦) وادي مر: هو مر الظهران من نواحي مكة المكرمة، ويعتبر من اكبر اودية الحجاز ويسمى وادي فاطمة يمر شمال مكة المكرمة بـ ٢٢ كيلو مترا، عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران واديا واحدا، جري فيه المياه وفيه نخيل كثيرة. انظر: ياقوت الحموي-**معجم البلدان**- ج١- ص٤٤٩- البلادي- **معجم معالم الحجاز**- ج١- ص٢٣٣.

(٧) **العز بن فهد**- ورقة١٤١ب.

استعان الشريف بركات ببعض العساكر بالكرك، ثـم توجـه الى العقبـة، حيـث التقى بأمير الحاج المصري أثناء سيره الى الحجـاز في شـهر ذي القعـدة مـن عـام ٩٠٩هـ/١٥٠٤م فمال اليه امير الحاج، وأرسل رسولاً الى القاهرة يقـترح عـزل الشريف حميضة من إمرة مكة وتولية أخويه بركات وقايتباي[١] مكانه[٢] .

ولما فارق الشريف بركات امير الحاج بالعقبة، توجه الى المدينـة وسـار منهـا الى أطراف الحجاز الشرقية، حيث جمع أعوانه من القبائل الموالية له، وتوجه بهم الى مشـارف مكـة في مطلـع شـهر ذي الحجـة وصـار أتباعـه ينهبـون أهــل مكـة والحجيج، وحالوا دون صعودهم الى جبل عرفات، فلم ير أمير الحـاج المصـري بداً من دفع مبلغ من المـال الى الشـريف بركـات مقـابل تعهـده بعـدم التعـرض للحجاج بسوء[٣] .

قدم رسول من القاهرة في نهايـة شـهر ذي الحجـة مـن عـام ٩٠٩هـ/١٥٠٤م يحمل أمراً من السلطان قانصوه الغوري الى امير الحاج المصري بعــزل الشـريف حميضة بــــن محمــد مـن إمـــرة مكـة، وتوليـة أحـد أخـــويه بركــــات أو

---

(١) قايتباي بن محمد بن بركات الحسني تولى إمرة مكة لفترة من الوقت امتاز بالشـجاعة والفروسـية وسـداد الرأي، اعتمد عليه اخوه بركات في توطيد حكمه توفي بأرض حسان عام ٩١٨هـ/١٥١٢م ودفـن في المعـلاه بجانب والده. انظر: العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٣٨-١٣٩ب.

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٤٢ب.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القـرى**- ورقـة١٤٢ب-١٤٣أ- الجزيـري- **درر الفوائـد**- ص٣٥٤- العصـامي- **سمط النجوم العوالي**- ج٤ ص٢٨٨.

قايتباي مكانه[1] واستقر الرأي بعد اجتماع بعض زعماء القبائل بالأمير بك باي على تولية الشريف قايتباي الإمرة ففي الرابع من شهر صفر عام ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م دخل قايتباي بن محمد بن بركات مكة متولياً لها، ولبس خلعة الولاية وقرئت المراسيم المتضمنة تقليده الإمرة في المسجد[2] .

ومع ذلك ظل أخوه بركات صاحب النفوذ الأكبر في الإمارة إذ كان يدعى له فوق منبر المسجد الحرام يوم الجمعة دون أخيه قايتباي[3] .

وفضلاً عن ذلك قام الشريف بركات بإشراك ابنه علي مع قايتباي في الإمرة وجعل له نصف نصيب امير مكة من موارد دخل الإمارة[4] ، ولما توفي علي بن بركات في عام ٩١٣هـ/١٥٠٧-١٥٠٨م عين بركات ابنه الآخر محمد ابا نمي شريكاً لقايتباي في الإمرة[5] .

لذلك نلاحظ أن مكة أصبحت في هذه الفترة مركزاً للصراع بين الأشراف إذ لم تكن الهزيمة تحل بأحدهما أو بقواته حتى يبادر الى تجميع قوات جديدة إليها لإستعادتها واستمر ذلك الصراع عدة سنوات مما زاد من تدهور الأوضاع السياسية في مكة، وإفتراق كلمة الأشراف، وضياع سيادتهم.

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٤٤ب.

(٢) - **المصدر السابق**- ورقة١٤٥أ- ابن ظهيره القرشي- **الجامع اللطيف**- ص٢٠٠- العصامي- **سمط النجوم العوالي**- ج٤ ص٢٨٩.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٢٥أ.

(٤) العصامي- **سمط النجوم العوالي**- ج٤ ص٢٨٩.

(٥) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٤٤ب.

ولكن استقر الأمر أخيراً بسيطرة الشريف بركـات صـاحب النفـوذ الأكـبر في الأمارة[1] .

ازداد نفوذ الشريف بركات في إمارة مكة بعد انتصاره على القبائل المناوئـة لـه، خاصة من بني ابراهيم الموالين لأخيه حميضه، وبعث رسولاً من قبله يدعى عـرار بن عجل النموي[2] الى القاهرة في عام ٩١٥هـ/١٥٠٩-١٥١٠م حاملاً الهدايـا من الخيل والرقيق للسلطان قـانصوه الغـوري فضـلاً عـن مبلـغ مـن المـال قـدره عشرون الف دينار[3] .

ثم استقل بركات بن محمد بإمرة مكة بعد وفاة أخيه قايتبـاي[4] في شـهر ربيـع الاول عام ٩١٨هـ/١٥١٢م[5] ثم بعث ابنه محمداً أبا نمي إلى القاهرة نيابـة عنـه تلبية لدعوة السلطان الغوري[6] .

ولما قـدم محمـد ابـو نمـي بـن بركـات الى القـاهرة في شـهر رمضـان عـام ٩١٨هـ/١٥١٢م احتفى به الغوري، وأشركه مع أبيه فـي "إمـرة مكة وجدة وينبع وسائر الأقطار الحجازية"[7] .

---

(١) - **بلوغ القرى**- ورقة١٤٤ب.

(٢) عرار بن عجل بن ربيح بن حازم بن عبد الكريم بن نمي الحسني، كان رجلاً كـاملاً أديبـاً فـاضلاً وكـان شـريف مكـة بركات وابنه ابو نمي يرسلانه كسفير لهما الى السلطان العثماني في قضاء حوائجهما المتعلقـة بالسـلطنة واسـتمر الى ان توجـه مرة في خدمة الشريف لاسطنبول عام ٩٤٧هـ/١٥٤٠م فمات بها مطعوناً. ترجم له: الشلي-**السنا الباهر**- ورقة٤٦٩.

(٣) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة٢٩٩.

(٤) ابن ظهيره القرشي- **الجامع اللطيف**- ص٢٠٠.

(٥) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٢٠٤ب- الجزيري- **درر الفوائد**- ص٣٥٨.

(٦) العز بن فهد- **المصدر السابق**- ورقة٢٠٨ب.

(٧) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤ ص٢٨٧- ابن ظهيره والقرشي- **الجامع اللطيف**- ص١و٢.

ويتضح من المرسوم الذي أرسله السلطان الغوري إلى الشريف بركات بن محمد فـــي بداية عام ٩١٩هـ/١٥١٣م مدى اعتماده عليه فـــي إدارة بـلاد الحجـاز واستفتح الغوري هذا المرسوم بالثناء على الشريف بركات، ثم كلفه بـالنظر في مسألة تعيين أمير جديد للمدينة بالاشتراك مع شيخ الحرم النبوي وقضـاة المدينـة كما جعل السلطان رأي الشريف بركات هو المعول عليه فقـال: "إنـا لا نفعـل إلا ما يريد، والحاضر يرى ما لا يرى الغائب"[١] .

شرع الشـريف بركـات في إنهـاء الصـراع السياسـي بـين الأشـراف واسـتطاع بفضل دهائه وحنكته وخبرته السياسية أن يرضي كثيراً من خصومه تارة بـاللين وأخرى بالحزم والشدة وأسفرت هذه السياسة الـتي انتهجهـا الشـريف بركـات عن استكانة الأشراف وغيرهم من العناصر الأخرى الموالية لهم كـالقواد وأمـراء الحج الى الهدوء والطاعة واستمر هذا الوضع طيلة فترة حكمه[٢] .

ورغم ذلك يرصـد لنـا جـار الله بـن فهـد بعـض الأحـداث الداخليـة في عهـد الشريف بركات في ثنايا كتابه بـدون ذكـر الأسـباب نسـتدل منهـا علـى عـدم ثبات الأوضـاع السياسـية في مكـة مما أدى إلى انعـدام الأمـن وانتشـار السـرقة والقتل رغم تنفيذ الأحكام الشرعية بمرتكبي الحوادث.

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٢١١ب.

(٢) **نيل المنى**- ص٤٣-٥٦-٧١-٩٨ وصفحات أخرى متعددة.

ففي عام ٩٢٧هـ/١٥٢٠م استطاع الشريف بركات أن يقوم بتأديب بعض الأعراب في جهة الشرق قاموا بقطع الطريق على بعض القوافل التجارية واستئصال جذورهم والتنكيل بهم وإعادة الهيبة السياسية لمكة واستقرار الأمن في الطرق التجارية[١].

كما أدرك الشريف بركات خطورة قطاع الطرق خاصة من غير العرب من الأمراء والأتراك الخارجين على الدولة العثمانية وسيطرتهم على المراكب التجارية التي كانت الشريان الاقتصادي لأهل مكة، وترك ذلك قلقاً وتوتراً لدى الشريف وأثار مخاوفه مما جعله يتخذ اجراءات سرية وإتصالات مع المعارضين للسلطة العثمانية انتهت بتسوية الأوضاع وإستمالتهم إليه مما جعل أغلب المراكب البحرية تشعر بإعادة الأمن والهدوء[٢] ويصور لنا ذلك جار الله بن فهد بقوله: ((... جاء الخبر الى مكة بوصول جلاب[٣] في أحدها الأمير سنان الرومي الذي كان باليمن أميراً في اللحية، ثم ركب البحر في غراب[٤] وصار يقطع الطريق ويمنع الميرة لأهل مكة فألهمه الله التوجه الى الشريف

(١) **نيل المنى**- ص١٧١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٥٢-٥٣-٥٥-٦٨.

(٣) جلاب مفردها جلبه وهي السفن التي لا يستعمل في بنائها وصنعها المسامير المعدنية وهذا النوع من السفن يستخدم في البحر الاحمر- سعاد ماهر- **البحرية في مصر الاسلامية وآثارها الباقية**- دار الكتاب العربي- القاهرة-١٩٦٧م- ص١٩٠.

(٤) غراب سفينه حربيه قديمه مدببة الحيزوم ذات أشرعة ومجاديف انتشرت في القرن العاشر الهجري في البحر الاحمر. انظر: محمد دهمان-**معجم الألفاظ التاريخية**- ص١١٥.

بركات، وإهدائه له هدية والتكلم معه في العفو عنه مما صدر منه ويأذن له في التوجه الى مكة فأكرمه على هديته وأذن له في التوجه الى جدة[1])).

وكان لقرار توليهم وتنفيذ قرار الشريف الأثر الايجابي حيث خصص لهم الشريف مرتبات لهم أثناء مكوثهم في مكة المكرمة[2].

وتعدى الأمر أن امتد حبل الفتن والإضطرابات الى المدينة المنورة مما جعل الشريف بركات يولي المدينة كثيراً من اهتمامه، وأن يسودها الأمن والاستقرار. ففي عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م بلغت الاضطرابات ذروتها وأثبت شريف المدينة عدم قدرته على التحكم في زمام الأمور[3] بسبب السياسة القمعية التي انتهجها شريف المدينة باز بن فارس بن شامان[4] الذي كان يستند الى العلاقة المتينة التي تربطه بشريف مكة حيث أن الأخير خاله فتعمد الضغط على بعض فقهاء المدينة من المذهب الشيعي وحرمانهم من الصدقات الهندية في تلك السنة التي بلغت ثلاثين الف دينار مما أثار حفيظتهم هم ومن يوالونهم وقاموا بإثارة الفتنة والسطو على منازل بعض الفقهاء والقضاة من السنة وخُشي بعض الأشراف من الفتنة فبعث لهم الشريف بركات أحد خواصه لتسوية

---

(١) **نيل المنى**- ص٥٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص٥٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٩٢.

(٤) باز بن فارس بن شامان بن زهير بن سليمان الحسيني تولى إمرة المدينة بعد وفاة والده، وأمه الشريفة خزيمه بنت الشريف محمد بن بركات قاد عدة حملات لشريف مكة ابو نمي واثبت شجاعة وجسارة وحنكه حربيه وسياسيه ساعدته في استمرار حكمة للمدينة، توفي عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م. ترجم له: الشلي- **السنا الباهر**- ورقة٢٥٥.

الخلاف القائم فاستجابوا الى ذلك وسألوه الصفح عنهم والإحسان إليهم فأجابهم الى ذلك[1].

أصبح الشريف بركات ينهج سياسة القمع في كل تصرف أو عمل يعود بالضرر في تحقيق سياسته واستمر الشريف في سياسته القمعية تجاه القبائل المجاورة لمكة كأهل حلي[2] وبني لام[3] وعرب عتيبه[4] الذين عملوا على إحداث الفتن والإضطرابات.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٣.

(٢) حلي وتعرف بابن يعقوب لأن بعض سلاطين اليمن كان ساكناً بها قديماً وأسس الأسرة الحاكمه بها وهي مدينة كبيرة حسنة المعمار يسكنها طائفتان من العرب وهم بنو حرام وبنو كنانه وتطلق كلمة حلي على وادي حلي بأكمله ويتبعها عدة قرى وبها سوق كبير رغم أنها مدينة ساحلية سهلية الى ان بها مناطق زراعية ويكثر بها شجر السدر. انظر: احمد الزيلعي- **المواقع الاسلامية المندثرة في وادي حلي**- حوليات كلية الآداب- جامعة الكويت- الرسالة- ٣٩-١٩٨٦م- ص١١-٢٣.

(٣) بنو لام، بطون من القحطانيين، ونسبهم القلقشندي الى طيء وذكر أن بني لام في امرة آل ربيعة في عرب الشام، وهم ثلاثة بطون هي: مغيره وكثير، وفضل، وكانت لهم شوكة في القرن التاسع والعاشر الهجري أغلب مساكنهم في عالية نجد ووادي الشعراء وأسافل نجد وكانوا يتمركزون على طرق الحاج المتجهة الى الشام والعراق, انظر: القلقشندي- **نهاية الأرب في معرفة انساب العرب**- تحقيق ابراهيم الابياري- القاهرة- دار المعرفة-١٩٥٩م- ص١٥٦.

(٤) عتيبة: قبيلة كبيرة وعلماء النسب يرجعون أصولها الى هوازن بن منصور بن قيس بن عيلان ثم الى مضر وتمتد منازلهم في الشرق حتى الوشم والقصيم وينضم تحت مسمى القبيله كثير من القبائل والعشائر والفخوذ وهي من اكثر القبائل افراداً. انظر: القلقشندي- **نهاية الأرب**- ص٢٠١- حمد بن ابراهيم الحقيل- **كنز الانساب ومجمع الآداب**- الرياض-١٤١٨هـ ص١٤٣.

ففي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م قام بغزو حلي بني يعقوب لفرض سيطرته عليها، وجباية الأموال التي فرضها عليها سنوياً عندما أعلنوا التمرد يقودهم شيخهم علي العماري وقبل قدوم الشريف بقواته إليهم أرسلوا في طلب الصلح والإذعان بسلطته ودفع أموال مقسطة في كل عام[1].

لم يوافق الشريف بهذه الشروط بل أصر على تقديم القوة التي يستندون اليها من خيول ودروع وأسلحة أو لتنفيذ حملته التأديبية والهجوم على ممتلكاتهم وكان من نتيجة سياسته وإصراره أن قدم إليه أعيان حلى منفذين كامل الشروط ويحدد لنا بدقة جار الله بن فهد ما قدموه للشريف بركات بقوله ((حصل الصلح بين الشريف وبين أهل حلي... وأنهم بذلوا له أربعين فرساً وثلاثين درعاً وعشرة آلاف دينار))[2] .

وفي العام الذي يليه نقض بنو لام شروط الإتفاق والهدنة وثاروا على سلطة شريف المدينة وقاموا بمحاصرتها. ويصف لنا جار الله بن فهد بصورة واضحة جلية هذه الفتنة وأثرها في إنتشار الفزع والهلع في المدينة وحدث ذلك في عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م.

ويذكر لناجار الله بن فهد أحداث هذه الانتفاضة بقوله: ((يوم الجمعة ١٣ وصلت أوراق من المدينة مضمونها أن حصل لأهل المدينة ما لم يقع لهم نظيره وهو وصول طائفة من العرب يقال لهم بنو لام ونزلوا في موضع يقال له البركة شمال المدينة وقطعوا تجارها وجميع ما كان في تلك الناحية من التجار

(١) **نيل المنى**- ص٦٧.

(٢) **المصدر السابق**- ص٦٩.

ايضاً ثم إنهم رحلوا وغابوا نحو الأسبوع وعادوا الى شرقي المدينة ونهبوا من جمال الحدائق نحو التسعة. ثم إن أمير المدينة خرج إليهم ومعه جميع بني حسين وجماعة من الفقهاء وغالب أهل البلد وكان خيل الأمير ثلاثة أرؤس من غير زيادة، وصل نحو الأربعين فأرسل القاضي الشافعي عبد الله السمهودي للأمير ينهاه عن القتال لعلمه بعدم مقاومتهم للعدو أن يعطى ما يمكن اعطاؤه ويصالح به عن دماء المسلمين وأموالهم فامتنع، ووقع بينهم القتال فانكسر اهل المدينة كسرة شنيعة بحيث قتل منهم ثمانية أنفس إثنان من الأشراف وواحد من الفقهاء والباقي من العامة، ومسكوا من أهل المدينة أربعة عشر رجلاً منهم سبعة من بني حسين، وإثنان من الفقهاء، و لم يرجع أحد من الفزع إلا وهو مصاب إما بالسلاح أو الحجارة، وغُلقت أبواب المدينة وصارت خيل العدو تصل الى باب البقيع والى تحت قلعة الأمير ولا يمكن الخروج إليه، وقطع نحو نصف ثمار المدينة وأفسدها، وعزم على إفساد ثمار قبا والعوالي))(١) .

وذهب الشريف بركات في سياسته في تأديب بني لام الى حد بعيد فلم يتورع بالقتال وكانت الموقعة لصالح الشريف ابو نمي حيث تزعزع بنو لام، وحلت بهم الهزيمة والإنكسار.(٢) .

---

(١) **نيل المنى**- ص١٢٦-١٢٧.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٢٧.

أسفرت هذه الحرب عن مقتل أعداد كبيرة من بني لام حيث قتل أربعة من مشائخهم وسبعة عشر من فرسانهم وجرح أربعة عشر فارساً وكسب الأشراف كثيراً من إبلهم وخيلهم[1] .

بهذه الموقعة ازدادت شوكة وهيبة السلطة المكية، وعظمت مكانة الشريف بركات وخاصة عند القبائل المجاورة واحتفلت مكة بهذا الانتصار ((فسر الناس بذلك وتحدثوا بسعدهما وأمر الحاكم بمكة مبارك بزينة الأسواق سبعة أيام ولعب العيرى عند بيت الشريف بأجياد، والعرضة لذلك في كل يوم صباحاً ومساء))[2] .

لم يتوان الشريف بركات عن ممارسة سلطته في قمع أي قلق يهدد ويضعف سماء الأمن في الحجاز مما يجعله يتخذ القرارات الخطيرة على ضبط الأمور وإعادة الإستقرار والهدوء.

ففي عام ٩٢٧هـ/١٥١٩م يتخذ قراراً بمحاربة عرب عتيبة التي تقيم الى الشرق من مكة المشرفة لفرض سيطرته عليها بعد أن علم بقيامهم باعتراض قافلة قادمة من بجيلة تحمل مؤن غذائية في موقع قريب من الطائف والاستيلاء على القافلة وقتل عدد من رجالها وفرار البعض الآخر الى مكة طلباً العون والمساعدة من شريف مكة الذي وعدهم بالنصر وأخذ ثأرهم ورد ما

---

(١) **نيل المنى**- ص١٤٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٤٤.

أخذ لهم وبالفعل اوفى بوعده وسار إليهم بقوة واستطاع أن يهزمهم وأخذ منهم بعض الأموال والخيول[1].

وفي أحيان أخرى اتسمت سياسة الشريف الداخلية لمكة باللين والتسامح والإصلاحات في حدود إمكاناته المتواضعة واستعمال سياسة الترغيب بالتقرب والتودد وإغداق الأموال على الاشراف والقضاة والفقهاء ليكونوا عوناً له لا عليه ويتضح ذلك في عدم توسع الشرخ في العلاقة بين القضاة والفقهاء والاجتماع بهم خاصة ويتمثل ذلك في النزاع المحتد بين الإخوة قضاة الشافعية محمد بن ظهيره وأخيه الشرفي الصلاحي وإعادة الود بينهم ونزع فتيل الخصام ((فنصب لهم خيمتين وسلم عليهم... وجبر خاطرهم بكلمات حسنة... فقال لهم لا أتخلى عنكما... ولا تفترقوا يطمع فيكم المصريون))[2].

بهذه السياسة ازدادت شوكة الشريف بركات وعظمت هيبته وخاصة عند اهل مكة وزاد قدره عند الخاصة والعامة.

آلت الإمرة بعد موت الشريف بركات عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م الى ابنه أبي نمي محمد الذي كان يتمتع بشخصية قوية تستطيع أن تقبض على زمام الأمور بقوة وحزم ودراية وتقطع دابر الفساد والفتن والقلاقل، وأن يجعل الأمن والهدوء والأمان والاستقرار يسود في ربوع مكة.

امتاز الشريف ابي نمي بأنه كان سياسياً بارعاً استطاع أن يثبت في حكمه مدة طويلة وهذا ما أثبتته الأحداث المتلاحقة في فترة حكم الشريف ابي نمي رغم ما

---

(١) **نيل المنى**- ص١٧١.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٥٨.

اعترى هذه الفترة من اضطرابات وفتن وصراعات تحتدم بين آونة وأخرى إما للمنافسة حول إمرة مكة أو المشاركة في حكمها أو الحصول على نصيب من ايراداتها وقد أصبح هذا الصراع يشكل أحد العوامل الرئيسة التي تتميز بها الأحوال الداخلية في مكة، وكانت أعداد أبناء الأشراف الذين ينتمون الى البيت الحسني كبيرة، وفروعهم متعددة، وكان كل منهم يطمع الى الوصول الى إمرة مكة وتسلم مقاليد السلطة فيها[1] .

ومما زاد في حدة الصراع في عهد الشريف أبي نمي ما طرأ على مكة من تطور اقتصادي نشأ عن رسو السفن التجارية الهندية في ميناء جدة ولجوء العائلة السلطانية الهندية لمكة للهروب من الصراعات والحروب في الهند مصطحبين أموالاً طائلة تدفق جزء كبير منها على أمير مكة[2] وكان الأشراف يرون أنه لا بد من مشاركة الشريف أبو نمي أمير مكة في الايرادات وأن هذا المال حق موروث لهم ولا بد أن يتم اقتسام الدخل المالي إما بالمناصفة أو بالحصول على حصة معينة[3] .

واستمر الاشراف من آل أبي نمي في مناوأة الشريف أبي نمي ومناصبته العداء في بداية توليه لإمرة مكة وقد اشتد النزاع بينه وبين أبناء عمومته الشريف حميضة ورميح ابناء عمه الشريف محمد، ومحمد ابن عمه قايتباي مما أدى إلى استفحال القلق والنزاع، وانعدام الأمن وفقدان السيطرة، ولم يستسلم الشريف أبو نمي بل

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٣٨-٢٤١-٢٩٨-٣٠١ وصفحات متعددة.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٥١-٢٥٢-٢٢١-٣٤٦ وصفحات متعددة.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٥١-٣٤٦.

تصدى لهم، وأرسل قوة لملاحقتهم بعد فرارهم من مكة والاتجاه الى جدة، ثم كثف ذلك بإرسال قوة تلو الأخرى[1] ويروي لنا جار الله بن فهد ((إن الشريف ابا نمي أرسل الشريف عرار بن عجل النموي في خمسين فارساً، لطلب ابناء عمومته الهاربين منه الى الخيف، ثم أردفه بصهره بساط بن عنقاء بثلاثين فارساً، ثم بأخيه ثقبة في مائة فارس))[2] .

استنجد الاشراف المعارضين بنائب جدة التركي الذي تخلى عن مناصرتهم بعد وصول رسالة من شريف مكة ابو نمي إليه يحذره من مد يد العون والمساعدة مما جعله أن يكون حذراً بعدم الولوج في هذا الصراع بين أسرة الأشراف.

وفي شهر ذي القعدة من نفس العام توجهت القوات لمحاصرتهم في وادي مر مما أدى أن يتدخل أعيان الاشراف وحاكم مكة القائد جوهر بالصلح وانتهى النزاع بأن قدموا الى الشريف ابي نمي موالين له، وتبددت الوحشة بينهم وأقسموا له وحلفوا له على التناصر ومساندته وعدم إثارة الفتن كما أحسن اليهم بمال وزاد في أعطياتهم في النفقة والكسوة[3] .

وهنا نلاحظ أن الأشراف قلقوا لعقد الصلح بين أبي نمي، وأبناء عمومته يعود ذلك الى أن أوضاعهم الإقتصادية لا تتحسن إلا في زمن الفتنة فيما بينهم وأن تستفيد بعض الأطراف الأخرى من هذا الموقف.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩٩.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٩٩-٢٠٠.

وبعد مرور عام من إنهاء النزاع مع بعضهم فقد تمكن الصراع الأسري وأسباب التوتر وتدهور العلاقة بين الأشراف وشريف مكة أن يدب الخلاف من جديد فيقوم أبناء من الأشراف حميضة ورميثة وسيسد مع بعض اتباعهم بالثورة ضد سلطة شريف مكة أبي نمي وتطور الأمر عند قيامهم بالاستيلاء على ممتلكاته في وادي الدكناء[١] وأخذهم خيلاً له، ثم توجهوا الى وادي الخيف[٢] وتمركزوا في معاقلهم[٣] .

شق هذا التمرد على الشريف أبي نمي فأرسل اليهم يخوفهم عاقبة الخروج عليه ويرغبهم في الدخول في طاعته والعفو عنهم والإحسان اليهم، وعندما لم يجد استجابة منهم عقد العزم على محاربتهم وجهز نفسه وأصحابه[٤] . ((فأمر الشريف بدق الصفارة وليس الخيل وركوب العسكر لمحاربتهم))[٥] .

---

(١) الدكناء: قبلي أرض حسان وموالية لأرض خالد فيها نخيل جليلة وعين جارية جميلة كان يملكها اشراف مكة وقد ملكها ابو زهير صاحب مكة وزادها نخيلاً ثم ملكها ابو نمي، وتقع في وادي مر. انظر: محمد بن منصور-**العيون في الحجاز وبعض أوديته**- الطائف- دار الحارثي- ١٤١٥هـ- ص١١٥.

(٢) الخيف، قرية ظلت عامرة تسقيها عين لها ثم انقطعت وهي تقع على درب المدينة الى مكة العابر مع الصفراء الى بدر، تعرف بخيف الرواجحة من الاشراف، وكانت المياه تجري ولكنها جفت وانقطعت واليوم لا تزرع إلا على السيول ومياه الامطار. انظر: محمد الشريف-**العيون في الحجاز وبعض أوديته**- ص١١١-١١٦.

(٣) **نيل المنى**- ص٢٠٠.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٦.

(٥) **المصدر السابق**- ص٢٢٦.

ولم يلبث أن تراجع عما عزم عليه عندما تدخل الشريف عرار بن عجل النموي وطلب اليه بعدم انهاء النزاع عسكرياً وان يمهله فترة من الوقت قصيرة لا تتجاوز اليوم ليرأب الصدع بينهم وتعود المياه الى مجاريها وأن يسود الاستقرار في ربوع مكة[1] .

أما بالنسبة للشريف ابي نمي فطلب الأتراك المقيمين بمكة وعرض عليهم الأمر فاتته الوعود منهم بمساندته والوقوف بجانبه ومنع الاشراف المعارضين من انتزاع السلطة من يده واستعدوا بأسلحتهم، ثم جهز قوة بلغت السبعين خيالاً وغيرهم من المشاة، بقيادة أخيه ثقبة وأن تكون على أهبة الاستعداد للتحرك الى وادي الخيف لمحاربة الأشراف[2] .استطاع الشريف عرار أن ينجح في مسعاه في الصلح بين الشريف أبي نمي حاكم مكة، وبني عمومته من الأشراف، وأن يخمد نار الصراع على مال يبذله الشريف أبو نمي لهم[3] .

ويحدد لنا جار الله بن فهد مطالبهم بقوله: ((وطلبوا من الشريف إعطائهم نفقتهم المنكسرة عنده من مدة أشهر وأن يعفو عن جماعة منهم ابن القائد مفتاح الطيبي وبقية الصحبة التي أخرج رسمهم عنهم ويعطي لهم الفي دينار))[4] .

---

(١) نيل المنى- ص٢٢٨.

(٢) المصدر السابق- ص٢٢٨.

(٣) المصدر السابق- ص٢٢٨.

(٤) المصدر السابق- ص٢٢٩.

بذلك نلاحظ أن الشريف أبا نمي اتبع نفس الأسلوب السابق مع الأشراف المناوئين له حيث أغدق عليهم الأموال وخوفهم من عاقبة التمرد ومنحهم العفو والصفح ونجح في سياسته هذه، وفي نفس الوقت أظهر لهم قوته، وكثرة أنصاره من الأشراف أنفسهم ومن العرب والترك المقيمين بمكة أو بالقرب منها[1] .

لم يقتصر الأمر على الأشراف في إثارة الفتن والعبث بأمن مكة بل كان هناك طرف آخر يتمثل في القبائل القاطنة حول مكة المكرمة، وقد لعب هذا الفريق أيضاً دوره في إثارة الفوضى والإضطراب فيها، وذلك بانضمام بعض المجموعات المتمردة الى بعض القبائل وقيامهم بقطع طريق الحاج الى مكة أو إثارة القلاقل للسلطة فيها، ولقد لجأ الشريف ابو نمي الى سياسة تتسم بالشدة والقمع نحوهم.

ففي عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م أخضع القبائل الواقعة بالقرب من المدينة خاصة عندما كرر بنو لام السطو على القوافل التجارية، وخرق سلطة الشريف بإثارتهم الفزع والخوف على التجار والحجاج، وتحديهم لقوة السلطة المكية، فبذلك جمع شريف مكة قواته، واتجه صوبهم، والتقى بهم في موقع قريب من وادي مر، ونكل بهم، وألحق بهم خسائر فادحة، وبلغ عدد القتلى خمسين فارساً في صفوف بني لام و لم يقتل من قوات الشريف سوى مملوك وجرح آخرين.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٣١-١٥٨-٢١١-٢٢٨- وصفحات متعددة.

وغنم منهم أموالاً طائلة[1] رصدها جار الله بن فهد ((والخيل أمامه مجردة نحو العشرين يقال إنه كسبها من العرب مع أغنام كثيرة يقال نحو عشرة آلاف))[2] .

وبذلك تحقق له النصر وأسفر هذا الانتصار الساحق الى إستكانة بني لام ولقد أكد هذا الإنتصار على هيبة الشريف أبي نمي.و لم يقتصر الأمر على هذه القبيلة ففي عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م قام بغزو قبائل سبيع[3] ومطير[4] وحرب[5] التي تقيم شرق مكة لفرض سيطرته عليها، وجباية الأموال التي فرضها عليها سنوياً وكسب منهم أموالاً طائلة[6] ((فكسب مالهم من الخيل

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٤٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٤٠.

(٣) سبيع تتألف هذه القبيلة من أرومة عدنانية وهم بنو سبيع بن عامر بضم السين من بني عامر بن صعصعه بن بكر بن هوازان، وأماكن هذه القبيلة بعضها في نجد وبعضها في الخرمة ورنية ولها أفخاذ كبيرة، ويمتازون بالشدة والباس والشجاعة. انظر: القلقشندي- **نهاية الارب**- ص١١٨- حمد الحقيل- **كنز الأنساب ومجمع الآداب**- ص١٣٠.

(٤) مطير: قبيلة كبيرة منازلها من حدود الكويت والخليج العربي الى قرب القصيم غرباً وديار العجمان وبني خالد جنوباً وهي بطن من صبح من العدنانية، وأصلها غطفانية تعداد سكانها يربو على ٣٠,٠٠٠ نسمة يتفرعون الى كثير من الفخوذ والعشائر. انظر: القلقشندي- **نهاية الأرب**- ص١٥٨- محمد الحقيل- **مرجع سبق ذكره**- ص١٣٦.

(٥) حرب: يتألف بدو بني حرب من عشر قبائل يبلغ تعداد أصغرها ٥٠٠ فرد وتعداد اكبرها ٣٠٠٠ فرد، وهي تنتشر في جوار المدينة المنورة وفي اواخر القرن التاسع الهجري بلغ تعداد بني حرب عموماً حوالي ٢٠٠٠ فرد. انظر: عاتق غيث البلادي- **نسب حرب**- مكة- دار مكة للنشر- ١٣٩٩هـ/ص١٨.

(٦) **نيل المنى**- ص٤٠٥-٤٠٦.

والإبل شيئاً كثيراً فمن الخيل يقال نحو المائة ومن الابل والغنم بـالآلاف، ثـم إن شيخ بني حرب طلبه الصلح وأنه طائعه))[1] .

وبذلك سلك سياسة صارمة ضد كل مـن يثير الاضطرابات والفتن وتخويف التجار والحجاج، وكون قوة بقيادة أخيه ثقبة تكون دائماً على أهبة الاستعداد للتحرك ضد كل قوة تثير التمرد، وأصبحت الطرق تنعـم بنـوع مـن الاستقرار الأمـني ((فعـادت بعـض القوافـل الى جـدة ومكـة والطـرق الأخـرى وقلوبهـم مرتاحة... ثم عادوا منها بعد طمأنينة العباد))[2] .

كما واجهت سلطة الشريف أبو نمي التي شملت الحجاز بأكمله أول تحد لها في عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م فكانت بمثابة اختيار له فقد اشتعلت نار الفتنـة في المدينـة المنورة عندما قام أميرها محمد بن جامع الحسيني بإعلان العصيان والتمرد مما دعا الشريف ابو أبا نمي إلى تفويض ابن عمته الشـريف بـاز بـن فـارس بـن شـامان الحسني للتصرف في الأمر، وذلك في أواخر شهر رمضان من العام نفسه، ولقـد أثار هذا القرار أمير المدينة المعزول فاستولى على محتويات خزانة المسـجد الحـرام كما استطاع أن يستولى على كثير من المـال والتحـف وخـرج مـن المدينـة مـع بعض أعوانه لمحاصرة الطريق اليها، وكـان لابد للشـريف ابـي نمي أن يحسـم الموقف بأسرع وقت وبشتى الوسـائل والسبل فقـام بتجهيز جيـش يتجـه الى المدينة بقيادة الشريف باز[3] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٠٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٢٣.

وصل جيش باز الى المدينة ونودي بالأمان وعادت حالة الهدوء والسيادة المكية على المدينة الشريفة[1] .

و لم تقف طموحات أبي نمي عند ضم المدينة بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما عزم على ضم جازان، فيذكر لنا جار الله بن فهد أن الشريف ابا نمي قرر انتزاع السلطة بالقوة من حاكم جازان[2] واستطاع الشريف أبو نمي ان يجهز قواته ويجمع شملهم وأصبح يخطط للإستيلاء على جازان.

ويصور لنا جار الله بن فهد استعداد الشريف أبي نمي لهذه الحملة قائلاً:((في ليلة الأحد ١٠ وصل لمكة ابو نمي ونوى الجهاز الى اليمن لمحاربة صاحب جازان وجمع آلات الحرب في اول رمضان اهتم في جمع العساكر من اهل ينبع والصفروات والأودية والطائف وغيرهم وعرض لهم في طريقه قريب ساحل جدة في جهة اليمن ويقال بلغ عدد خيلهم ٧٠٠ فرس منها ٣٠ للأشراف وبني حسن جماعته ومن الرجل نحو ٣٠٠٠ غير الخيل والرجل في جهة اليمن على نية غزو أهل جازان وأميرها الشريف عامر بن العزيز يوسف

(١) **نيل المنى**- ص٢٣٨.

(٢) جازان: مدينة ساحلية تقع على البحر الاحمر وهي الآن من اهم موانيء المملكة في الجنوب من الجزيرة العربية وأصبحت تتضاهي كثيراً من المدن حيث شملتها النهضة العمرانية والحضارية بها أعداد كبيرة من السكان. انظر: محمود طه ابو العلا- **جغرافية شبه الجزيرة العربية**- القاهرة- ١٩٧٥م- ص١٦٨.

ابن ابي الغوائر احمد بن دريب بن خالد بن قطب الدين الحسني[1] السليماني لما وقع بينهما من الكلام))[2] .

وفي آخر شهر شوال وصل رسول الى مكة المكرمة قادماً من جهة اليمن أرسله أبو نمي يخبر حاكم مكة أن الشريف ابا نمي دخل الى حلي في ١٤ شوال، وعرض فيها بعسكره عرضة حسنة بلغت عدة خيله ستمائة، ومجموع قواته بلغت سبعة آلاف مقاتل[3] .

وفي شهر محرم عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م زحف الشريف ابو نمي بجيشه الى جازان، وهدم أماكن من سورها، وانتزع حكمها، و لم يستطع حاكم جازان الوقوف في وجهه أو صده، و لم يكن له به طاقة وأطاح بحكم الشريف عامر الذي نجا بنفسه وبصحبته أربعين فارساً متجهاً الى موقع يقال له الحمرة وفيه قبور لجماعة من المشائخ الصوفية ثم اتجهوا الى زبيد[4] .

وأسفرت هذه الحرب عن مقتل ثلاثمائة أو أكثر بقليل من أهل جازان منهم أربعة عشر من اشرافها وأعيانها ومن قوات الشريف ابي نمي نحو أربعة عشر

---

(١) عامر بن العز يوسف الحسني تولى إمرة جازان عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م وصفت له البلاد، استقدم كثيراً من المماليك حتى بلغوا ستمائة مملوكا فأكثرو الفساد و لم يطق طبعهم ففسدت بلاده وتزلزل ملكه من شريف مكة اغتاله احد رجال ابي نمي ليلاً في داره بأبي عريش عام ٩٤٤هـ/١٥٣٨م وكانت البلاد الجازانيه في ايامه مضرب المثل في العمران انظر: محمد الطبري- **اتحاف فضلاء الزمن**- ص٢٥- الشلي- **السنا الباهر**- ورقة٤٣٢.

(٢) **نيل المنى**- ص٣٦٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٦٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٨٤.

مقاتلاً، ثم أعلن الأمان في المدينة وعفا عن الضعفاء من النساء والشيوخ والغلمان[1] .

بعد استقرار الأمور للشريف ابي نمي في جازان وثبات حكمه والسيطرة على المناطق المجاورة لها وإخضاعها للسلطة واستمر هناك فترة من الزمن بلغت قرابة السنة أحسن الى الناس وسار بسيرة حسنة وشعر الأهالي بالراحة والاطمئنان[2].

بهذا الانتصار والعودة الى مقر سلطته احتفلت مكة وزينت شوارعها اسبوعاً كاملاً تدافع المجتمع المكي للشريف ابي نمي للسلام عليه وتهنئته بهذا الانتصار وأنشد الشعراء كثيراً من القصائد في مدحه[3] .

ومن أبلغها معلقة للقاضي عبد الرحمن عبد الله باكثير بلغت مائة وعشرين بيتاً[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٨٨.

(٢) **المصدر السابق**-- ص٣٩٠.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٠٣.

(٤) يقول في مطلعها:

لقد شرعوا دون الكواعب خُرصانا	**وقد طنّبوا الاخدار بيضاً ومردانا**
اجـل ملـوك الخافقين ابو نمي	**سليكاً حوى ملكاً كبيراً وسلطانا**
تـراه ربيط الجـأش ربط جنابه	**وتلـقاه ثبتاً بـاسم الثغر يقطانا**
إذا مـا غزا تقف الجوارح خشية	**على ثقة من نصره حيث ما كانا**
فسـل عنه اقطار الحجـاز وغيرها	**وسل عنـه ليثاً ثم مخوى وجازانا**
هنيئاً لك النصر الذي هـو سنة	**لك ا لله اجـراها دهوراً وأزمانا**

للمزيد انظر: محمد الطبري- **اتحاف فضلاء الزمن**- ص٢٤.

واصل الشريف أبو نمي إضعاف خصومه، ليطمئن على سلطانه، ولضمان عدم إثارة الفتن من جانبهم و لم يبق له إلا إخضاع بني ابراهيم، ويرجع السبب في ذلك الى أنهم من العناصر القوية المناوئة له وعدم اعترافهم بسلطته لأنهم دائماً مصدر قلق قديم لسلطة الأشراف في مكة، وبالفعل لم يستمر الهدوء من قبلهم طويلاً فسرعان ما عادوا الى إثارة الفتن والاضطرابات.

ففي شهر رمضان من عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م اشيع في مكة عن تجمع عدد كبير من قوات بني ابراهيم بلغوا ثمانين فارساً وثلاثمائة من المشاة، ناشرين الرعب في المنطقة وأخذوا ينهبون أموال المسافرين وقد نتج عن هذا الموقف ان رسم الشريف ابو نمي سياسة تتسم بالتدخل المباشر والسريع لقمع هذه الفتنة فجهز جيشاً وصرف لهم الرواتب المغرية واستعان بقوات نائب جدة اليازجي محمود الذي قدم إليه وأمده بثلاثين من قواته الذين يجيدون استخدام البنادق وجعل قائد الحملة شقيقه ابو القاسم وبصحبته القائد ياقوت بن عجلان[١] .

ويصور لنا جار ا لله بن فهد أعداد هذه القوة ((وفي يوم الخميس ٥شوال وصل لمكة الشريف ابو نمي واهتم في جهاز عسكره لينبع، وعين ٤٠ فرساً و٤٠ مملوكاً، صرف لكل واحد عشرين أشرفياً في الشهر وأربعين رومياً بالبندق لكل واحد اثني عشر اشرفياً وقيل دونهما، وجماعة من بني حسين لكل واحد تسعة أشرفية ومقدمهم عرار ورحلوا في يوم تاريخه والذي... بعضهم من مكة والباقي من فريق صاحبها بالبحرة قريب جدة))[٢] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٨٥-٢٨٦,

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٨٦-٢٨٧.

وتحركت الحملة متجهة الى ينبع لسحق قوة بني إبراهيم، وعندما علموا بحجم القوة التي أرسلت من مكة لمحاربتهم انتابهم الخوف واختاروا أفضل الحلول وهو الاستسلام والدخول في طاعة السيادة المكية، وطلبوا الصلح على أن يعطونه كثيراً من الخيل والدروع والرهائن ووافق الشريف أبو نمي على ذلك على أن يرابط العسكر في ينبع[1] .

بذلك استطاع الشريف أبو نمي أن يقيد بني إبراهيم بشروط الصلح وإضعافهم بأخذ أغلب خيولهم، وأسلحتهم التي يعتمدون عليها في إظهار قوتهم[2] .

كما حرص الشريف أبو نمي منذ اعتلائه إمرة مكة على تطبيق الحدود الشرعية الأمر الذي يضفي على حكمه نوعاً من الهيبة لدى العالم الاسلامي ويتضح ذلك في تنفيذ قانون الشريعة لمخالفي الحدود الاسلامية والضرب بيد من حديد واتخاذ أقصى العقوبات لمن تسول له نفسه الاعتداء بالقتل أو بالسرقة في المجتمع المكي.

ويلاحظ الباحث أنه خلال هذه الفترة من ثنايا المصدر الأساسي للبحث انه تم تنفيذ عقوبة الشنق فرداً أو جماعة عدة مرات لتوفير الأمن والقضاء على الصراعات الداخلية، واستطاع الشريف بركات، ثم من بعده ابنه أن يحفظا لمكة نوعاً ما من الهدوء للمجتمع المكي، وعلى سبيل المثال.

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٨٩-٢٩٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٩٢.

يرصد لنا جار الله بن فهد بدقة متناهية بعض حوادث القتل التي وقعت وكيف تم تنفيذ القصاص فيذكر أنه في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م تم تنفيذ عقوبة الشنق في المدعى عبداً قام بقتل غلاماً صغيراً في أحد أودية مكة كان يرعى بقرة أخذها منه وقام بذبحها(١) .

وفي عام ٩٣٣هـ/١٥٢٦م تم خنق البدوية التي قامت بقتل ولدين خنقاً في وادي جدة بعد محاكمتها واعترافها بالذنب الذي اقترفته(٢) .

وفي عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م تم شنق تسعة من عرب بني شعبة على جمرة العقبة لقيامهم بقتل حاج من اهل الشرق أمام منزله لإكتشافه أمرهم بأذية وسرقة الحجاج(٣) .

كما كان ينفذ قطع يد السارق لإرهاب الآخرين ففي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م أمر حاكم مكة مبارك بن بدر بقطع يد سارق ورجله بالمسعى لقيامه بسرقة كثير من البيوت(٤) .

وفي عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م نفذ حكم القطع في سارق من عرب مطير قام بسرقة أحد القضاة(٥) .

بهذه السياسة الحازمة التي اتبعها شريف مكة في تنفيذ الحدود وسياسته البارعة استطاع أن يثبت الأمن ويرعب اللصوص ويقلص حوادث القتل والسرقة.

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢١٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٢٠.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤٩.

(٥) **المصدر السابق**- ص٤٤٥.

وكان لا بد لشريف مكة في هذه الفترة من إحقاق الحق ونشر العدل وقمع الفساد.

ففي عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م أمر الشريف أبو نمي، حاكم مكة، أن يُتَّجهَ الى جهة الفلق وأسفل مكة أماكن يجتمع فيها أرباب الخمور وأن يقوم بتكسير أوانيهم وإحراقها[١].

كما أصدر شريف مكة في عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م قراراً بمنع سفر الفقهاء والعلماء والقضاة خارج مكة. ويورد جار الله بن فهد سبب ذلك قائلاً: ((منع صاحب مكة الشريف أبو نمي أهل مكة من الفقهاء السفر مع الحاج المصري كما كثر من الارذال من الفقهاء السعي في المناصب إلا من يسمح لهما. وكان يأمر عبيده بالتفتيش وحدث أن تعرض عبيده للقاضي سعد الدين ابن ظهيره وابن اخيه الخيري، ومنعوهما، بطَّلا السفر))[٢].

بذلك نستطيع من قراءة الأحداث أن نؤكد على أن مكة في عهد الشريف بركات وابنه أصبحت تتمتع باستقرار سياسي، وسيطرة على القبائل، والمناطق المجاورة وأن تدين بالولاء لهما وأن الشريف ابا نمي في فترة حكمه الطويل جعل من مكة مركزاً لبناء دولته، وتقوية أركانها.

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٤٧.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٢٩.

المبحث الثاني

ب) العلاقات الخارجية

علاقة العثمانيين بمكة المكرمة:

سيطر العثمانيون على الأقاليم التابعة لدولة المماليك بعد سقوطها في أيديهم عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م ومنها اقليم الحجاز.

ويتضمن هذا الفصل عرضاً لتطور اتجاه الدولة العثمانية نحو تطبيق سياسة شبه مركزية في حكم مكة المكرمة، تلك السياسة التي كانت تهدف الى تقوية قبضة الدولة على الأماكن المقدسة.

عند معالجة امتداد النفوذ العثماني الى الحجاز يكون من الجدير أن نشير الى طبيعة ما كانت عليه علاقات العثمانيين مع بلاد الحجاز في الفترة التي سبقت دخول مكة المكرمة في طاعة سلاطين آل عثمان حيث كانت هناك علاقات قوية قامت بينهما منذ أكثر من قرن من الزمان فمن المعروف أن الدولة العثمانية منذ كانت إمارة صغيرة قامت على نسق إسلامي كما حملت لواء الاسلام عند توسعها على حساب دولة المماليك المجاورة في آسيا الصغرى وأوربا(١)

وبداهة كانت هناك وفود تركية تأتي كل عام بغرض الحج الى بيت الله الحرام وظل الأمر هكذا حتى عهد السلطان با يزيد الأول(٢) الذي حكم

---

(١) اسماعيل احمد ياغي- **الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي**- ط١- الرياض- مكتبة العبيكان- ١٩٩٦م- ص٢٥.

(٢) بايزيد الاول، وهو تحريف للاسم العربي ابو يزيد، ويلقب باسم يلدرم أي الصاعقة وهو ابن السلطان مراد الاول ولد عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، وبويع له على اثر وفاة ابيه وهو بميدان معركه "قوصوه" استمر في انتصاراته في أوربا هزمه تيمور لينك واخذه اسيراً توفي عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م. ترجم له: محمد فريد بك - **تاريخ الدولة العلية العثمانية**- تحقيق د. احسان حقي- بيروت- دار النفائس- ١٩٨١م- ص٥٨.

في الفترة الممتدة بين عامي (٧٩٢-٨٠٥هـ/١٣٨٩-١٤٠٢م) حيث اصطبغت علاقات العثمانيين مع بلاد الحجاز بصبغة رسمية تمثلت في كونه اول سلطان يقوم بإرسال الصرة الى الحرمين الشريفين[١] وبذلك يكون قد استن سنة سار على نهجها خلفاؤه من بعده السلطان محمد الاول[٢] الذي حكم في الفترة الممتدة بين عام (٨١٥-٨٢٤هـ/١٤١٢-١٤٢٠م) ومن بعده كان مراد الثاني[٣] الذي حكم في الفترة الممتدة بين عامي (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م) حيث كان يتم إرسال الصرة بصورة أكثر انتظاماً عن ذي قبل[٤].

---

(١) النهروالي- **الاعلام**- ص٢٢٤.

(٢) محمد الاول جلبي ابن السلطان با يزيد وبعد المؤسس الثاني للدولة العثمانية للانهيار الناجم عن غزو تيمور لينك في عهد والده، تلقى تعليمه في بورصة ثم عين حاكماً لولاية اماسيا، كان مربوع القامة مدور الوجه عريض الصدر قوياً اشترك شخصياً في عدة معارك وجرح أربعين مرة، امتاز بالعدل والحكمة توفي في هـ/١٤٢١م. انظر: علي حسون- **تاريخ الدولة العثمانية**- ص٢٧.

(٣) مراد الثاني: ابن محمد جلبي وامه امينة خاتون، طويل القامة ابيض اللون طليق اللسان، امتاز بالشجاعة امتدت سنين حكمه الى ما ينوف عن ثلث قرن عرف في اوساط الجماهير متديناً عادلاً وكان سلطاناً محبوباً شيد كثيراً من المساجد العديدة والمدارس الاسلامية. توفي عام هـ/ ١٤٥١م. انظر: علي حسون- **مرجع سبق ذكره**- ص٢٨.

(٤) الفاسي- **العقد الثمين**- ج٤ ص٩٥.

وفي عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م أرسل ما مقداره (٣٥٠٠ فلورين)[1]، وأوقف محاصيل القرى الواقعة في منطقة باليق حصار من أعمال انقره[2] لفقراء الحرمين الشريفين وأوصى عند وفاته بتخصيص ضعف المبلغ المذكور مناصفة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة[3] .

لم يتوقف الأمر عند تبني السلاطين العثمانيين إرسال الصرر والهدايا إلى الحرمين الشريفين بل كان للانتصارات التي حققها العثمانيون دور كبير في تقوية صلات الود وتدعيم تلك العلاقة فكلما زادت تلك الانتصارات وما يترتب عليها من فتوحات إسلامية زادت الروابط بين الدولة العثمانية ومكة المكرمة، ففي عهد السلطان العثماني محمد الثاني الملقب بالفاتح[4] الذي تولى الحكم في الفترة الممتدة بين عامي (٨٥٥-٨٨٦هـ/١٤٥١-١٤٨١م) فقد

(١) وهي عملة ذهبية تسمى الفلورين وهو من ضرب فلورنسا وعرف في الاسواق العربية باسم افلوري وكان صرفها من ٢٤ الى ٢٦٠ درهما كان منافساً للدينار الافرنتي الايطالي والدينار الاشرفي المملوكي كان يمتاز بالدقة في سمكه ووزنه وعياره المرتفع وسمكه المحدود. انظر: القلقشندي- **صبح الاعشى**- ج٣ ص٤٤١- عبد الرحمن فهمي- **النقود العربية**- ص٩٨.

(٢) انقره أوانكورية، العاصمة السياسية لجمهورية تركيا من عام ١٩٢٣م تقع في نهر سقاريا في موقع متوسط على هضبة الاناضول، اشتهرت بأنواع من الاغنام والقطط التي تنسب اليها وتتميز بشعورها الطويلة، استولى عليها العثمانيون في عهد السلطان محمد الاول عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، واتخذها مصطفى كمال (اتاتورك) مقراً لحكومته. انظر: ابو معاويه- هزاع بن عيد الشمري-**المعجم الجغرافي لدول العالم**- القاهرة- ص٥٦.

(٣) النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- م٢- ص١٤١.

(٤)ولد في عام ٨٣٣هـ/١٤٢٩م سابع سلاطين بني عثمان تولى الحكم بعد وفاة ابيه مراد وامتاز بالشجاعة والفروسية بلغت الدولة في عهده اوج عظمتها وتم فتح القسطنطينية في عهده كان صبوراً على المصاعب جسوراً امام الأزمات امضى معظم حياته في الجهاد والكفاح امتدت فترة حكمه اكثر من ثلاثين عاماً. انظر ترجمته في: علي حسون- **مرجع سبق ذكره**- ص٤٠.

بادر بارسال رسول الى مكة هو العالم الحاج محمد الزيتوني[1] بخطاب[2] يحمل بشرى انتصاره في القسطنطينية[3] عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م مصحوبة بهدية قدرها ٢٠٠٠ قطعة ذهبية خالصة، وفيما عدا ذلك أرسل من مال الغنائم ٧٠٠٠ قطعة ذهبية لتوزيعها على السادة والنقباء والفقراء والخدم في مكة المكرمة والمدينة المنورة الى شريف مكة بركات بن حسن بن عجلان كما أن شريف مكة لم يدخر وسعاً في الرد عليه[4].

علاوة على تبادل المراسلات بينهما فقد كشف السلطان محمد الثاني من اهتمامه بإرسال الصرة السنوية الى الحرمين الشريفين وبعض الهدايا في مقابل الدعاء له في خطبة الجمعة[5].

---

(١) محمد بن محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد الجمال الزيتوني الشافعي، ولد عام ٨٣١هـ وحفظ القرآن الكريم والمنهاجين وألفية النحو كان خطيباً بجامع الطواشي، امتاز بالنظم كان كثير السفارات للدولة العثمانية. ترجم له: السخاوي: **الضوء اللامع**- ج٨- ص١٢٧.

(٢) ونورد هنا جزء من رسالة السلطان العثماني محمد الثاني الى شريف مكة ((... وبعد فقد أرسلنا هذا الكتاب مبشراً مما رزق الله لنا في هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت وهي تسخير البلدة المشهورة بالقسطنطينية الملاصقة بمرج البحرين وفي مقابلتها مدينة أخرى موسومة بغلطة وفي جانبها الشرقي بلدة أخرى معلمه باسكدار...)) راجع النص كاملاً في: محمد عبد اللطيف هريري- **شئون الحرمين الشريفين في العهد العثماني في ضوء الوثائق التركية العثمانية**- ط١- القاهرة- دار الزهراء للنشر، ١٩٨٩م- ص٦٩-٧١.

(٣) القسطنطينية: نسبة الى قسطنطين الكبير امبراطور بيزنطة وكانت عاصمة للدولة الرومية (الاستانة) وتمتاز بأهمية جغرافية نظراً لموقعها عند نقطة إتصال آسيا بأوروبا عن طريق مضيق البسفور الذي يصل البحر المتوسط بالبحر الاسود، وتعتبر من أقدم وأعرق المدن في العالم. انظر: احمد عطية الله- **القاموس الاسلامي**- ج٤- ص١١١.

(٤) فريدون بك، احمد- **منشآت الملوك والسلاطين**- ج١- انقره- مكتبة طوب قابى سرايا- ص٢٣٢.

(٥) النهروالي- **الاعلام**- ص٢٢٥.

ولقد سار السلطان العثماني بايزيد الثاني[1] (٨٨٦-٩١٨هـ/١٤٨١-١٥١٢م) على نفس النهج الذي اتبعه اسلافه من قبل حيث إنه كان يحسن إلى اهل مكة كثيراً وقد رتب لهم الصرر في كل عام وكان مقدار الصرة التي يبعثها أربعة عشر الف دينار ذهباً نصفها لفقراء مكة والنصف الآخر لفقراء المدينة، وكانت هذه الأموال ترسل عادة في عيد الأضحى من كل عام[2].

وعندما حج السلطان بايزيد الثاني في نفس العام الذي تولى فيه مقاليد السلطنة توثقت أسباب المودة بينه وبين الشريف محمد بن بركات، أمير مكة، في ذلك العهد كما توثقت مودته بكبار العلماء في مكة وأعيانها وأغدق عليهم من صدقاته ووزع الكثير من الأموال على فقراء مكة[3].

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا مدى حرص السلاطين العثمانيين الأوائل على تدعيم علاقاتهم مع بلاد الحجاز قبل نجاحهم في مد نفوذهم عليها بقرن من الزمان تقريباً.

وقد كانت منطلقاتهم في ذلك تقوم على عوامل دينية وسياسية فمن المعروف مكانة الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة في قلب كل مسلم وأن

---

(١) بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح ولد عام ٨٥١هـ/١٤٤٧م وخلف اباه عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م وأمضى السنوات الاولى من حكمه في القضاء على الثورات التي قادها بعض إخوته، انهزم في سياسته فأرغم على التنازل عن العرش لابنه سليم، لها مآثر جليلة وله صدقات ومبرات ومسجدان فاخران الاول باستنبول والثاني بأدرنه. انظر: محمد فريد بك- **مرجع سبق ذكره**- ص١١١.

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١١٣ب.

(٣) **المصدر السابق**- ورقة١٢٨أ.

حرص العثمانيين على تدعيم علاقاتهم بكل بقاع الأرض لم يكن إلا من قبيل تحقيق مكانة مرموقة ومتميزة لسلاطين آل عثمان دينية وسياسية حيث رأت الدولة العثمانية في نفسها ما يحقق لهم مقام الصدارة في العالم الإسلامي لا سيما بعد أن وطدت دعائمها في الأمصار المفتوحة في اوروبا.

وكانت هناك عوامل عدة جعلت السلطان سليم الأول[1] يحشد كافة امكانياته ليؤكد زعامة الدولة العثمانية للعالم الإسلامي آنذاك، من أهمها ما يتعلق بظهور دولة ناشئة منافسة على الحدود الشرقية مثل دولة الصفويين[2] التي قامت على مذهب مخالف لمذهب أهل السنة وجماعة المسلمين والتي كانت تبث الدعاية لمذهب التشيع في الأناضول، بل وتدعو لمبايعة الشاه إسماعيل الصفوي[3] (٩٠٧-٩٣٠هـ/١٥٠١-١٥٢٣م)[4] فضلاً عن ضعف

---

(١) سليم الاول او سليم باوز، ابن السلطان با يزيد الثاني ولد بمدينة اماسيه عام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م اشتهر بالحنكه السياسية والفروسية وقيادة الحروب استطاع ان يسقط دولة المماليك بمصر وحد الاناضول في عهده، وانتقلت الخلافة من العباسيين الى العثمانيين، كان يجيد اللغة الفارسية والعربية وينظم فيها شعراً، توفي عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م. انظر محمد فريد بك- **مرجع سبق ذكره**- ص١٣٨.

(٢) الصفويون: أسرة مالكة من شاهات ايران حكمت نحو ثلاثة قرون حتى عام ١١٤٩هـ/١٧٣٧م حين استولى نادر شاه الافغاني على العرش واشتقت اسمها من جدهم الأعلى هو صفي الدين كان شيخاً لصوفية اردبيل، اتخذت عقيدة الشيعة الامامية الدين الرسمي لها. انظر: احمد عطية الله- **القاموس الاسلامي**- م٤- ص١٤١.

(٣) اسماعيل الاول: مؤسس الاسرة الصفوية ولد عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م خلف اباه الشيخ حيدر وبدأ سلسلة من الفتوحات والتوسع الاقليمي واصبحت تضم تبريز وحمدان واذربيجان والواق وديار بكر وخراسان توفي بأردبيل عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م. ترجم له: السخاوي- **الضوء اللامع**- م١- ص٢٨١.

(٤) علي حسون- **الدولة العثمانية وعلاقاتها الخارجية**- ط١- دمشق- المكتب الاسلامي- ١٤٠٠هـ- ص٩٦.

دولة المماليك في مصر والشام واضطراب أحوالها الاقتصادية، والأمنية مما ادى الى عدم قدرتها على التصدي للأسطول البرتغالي في البحر الاحمر الذي بات يهدد أمن الحرمين الشريفين بعد إقامة مستعمرات في عدن وديو[1] وهرمز[2] وجاواه[3] مما أصبح يهدد الدولة العثمانية ذاتها[4].

لذا بادر السلطان سليم الأول بتوجيه ضربة قاصمة للصفويين في موقعة جالديران[5] أعقبها بضرب المماليك في موقعتي مرج دابق[6]

---

(١) ديو جزيرة صغيرة طولها سبعة أميال، تقع قرابة شاطيء الهند بالقرب من جوجيرات وتمتاز بقلاعها الحصينة، أغلب سكانها مسلمين. أنظر: الساداتي، احمد محمود- **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**- ج٢- مكتبة الآداب- القاهرة- ١٩٦٧م- ص٩٨.

(٢) هرمز: وكثير من الناس من يسميه هرموز بزيادة الواو، يعتبر في القرن العاشر الهجري من اهم الموانيء في الخليج العربي حيث تكثر فيه رسو السفن القادمة من الهند والعراق وبلاد فارس ويتميز الآن بأهمية استراتيجية اقتصادية وأصبح يعد من اهم المضايق البحرية لوقوعه بين الخليج العربي وبحر العرب. انظر: ياقوت الحموي- **معجم البلدان**- م٥ ص٤٠٢.

(٣) جاوه إحدى الجزر التي تتألف من مجموعها جمهورية اندونيسيا والتي كانت تعرف قبلا باسم ارخبيل جزر الهند الشرقية تقع جاوه بين خطي عرض٥,١٠ جنوب خط الاستواء، ويبلغ طولها ٧٦٠ ميلاً وعرضها ١٢٥ ميلاً، تمتاز بأهميتها الاقتصادية والسياسية وعدد السكان يبلغ ١٢٢ مليون نسمه وهي غنية بثروتها النباتية ديانتها الشريعة الاسلامية. انظر: احمد الشنتاوي- **دائرة المعارف الإسلامية**- م٣- ص٥٦.

(٤) علي حسون- **مرجع سبق ذكره**- ص١١٣.

(٥) جالديران: اسم معركة حاسمة بين العثمانيين والفرس جرت في سهل جالديران بالقرب من تبريز عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فعرفت بهذا الاسم انتهت بانتصار السلطان العثماني سليم على الشاه اسماعيل الصفوي. انظر: احمد السنتناوي وآخرون- **دائرة المعارف الاسلامية**- م٣- ص٣٨.

(٦) مرج دابق: وقعت بين الجيش العثماني بقيادة سليم الاول وجيش المماليك بقيادة قانصوه الغوري، وأسبابها خلاف على ترسيم الحدود بين الدولتين في طرطوس في الشام بالاضافة الى السلطان المملوكي ادى اليه بعض الامراء العثمانيين الهاربين من السلطان سليم وأراد أن يتخذ منهم اداة لإثارة القلاقل واستطاع سليم ان ينزل هزيمة ساحقة بالجيش المملوكي في معركة فاصلة بمرج دابق شمال حلب قتل فيها الغوري تحت سنابك الخيل, انظر: **الموسوعة العربية العالمية**- م٢٣- ص٨٦-٨٧.

والريدانية[1] (٩٢١-٩٢٣هـ/١٥١٥-١٥١٧م)[2] ونتيجة لذلك اصبح من السهل تحقيق آمال العثمانيين في تسلم مقاليد الزعامة في العالم الاسلامي[3].

كان تطلع الدولة العثمانية لإحلال نفوذها محل النفوذ المملوكي دفعة قوية في تحديد هذا الاتجاه فاعتبر العثمانيون أنفسهم ورثة الدولة المملوكية في السياسة ومن هنا كان على العثمانيين ان يتتبعوا خطى المماليك، ويمدوا نفوذهم في المناطق التي كانت خاضعة لدولتهم.

و لم يبق أمامهم إلا الحصول على سند ديني يدعم هذه الزعامة وكل هذه العوامل مجتمعة جعلت السلطان العثماني سليم الأول يتطلع الى بسط نفوذه على الأماكن المقدسة مما يحقق للدولة العثمانية الدعم الذي كانت تنشده ولتحقيق تلك الغاية اتخذ السلطان سليم الاول اولى الخطوات المتمثلة في تلقيبه بخادم الحرمين الشريفين لأنه لقب له مغزاه بالنسبة للدولة العثمانية وسلطانها.

وعندما أصبحت مصر في حوزة العثمانيين كان من الطبيعي أن يتبع ذلك انضمام الحجاز تحت لواء الدولة العثمانية لأن سقوط مصر في أيديهم اعقبه

---

(١) الريدانية: موقعة جرت بين العثمانيين بقيادة سليم الاول والمماليك بقيادة طومان باي في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م والتحم الجيشان بالريدانية من ضواحي القاهرة وانهزم المماليك بعد معركة طاحنة تكبد فيها الجانبان خسائر فادحة ودخل العثمانيون القاهرة وقبضوا على طومان باي وشنقوه على باب زويله. ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٥- ص٣٨٤.

الموسوعة العربية العالمية- م١١- ص٤٥٠.

(٢) علي حسون- **مرجع سبق ذكره**- ص١١٨.

(٣) محمد فريد بك- **مرجع سبق ذكره**- ص١٣٥.

سقوط كل الولايات التابعة للمماليك. فالحجاز كان يتبع مصر تبعية تلقائية كذلك، وهي تبعية تمثل دراسة طريفة في العلاقات بين البلدين(١).

ففي أغلب مراحل تاريخ العصور الوسطى كان لمصر نوع من السيادة على الحجاز ترجع أساساً الى أن الحجاز كان منطقة حيوية بالنسبة لمصر سواء من الناحية الدفاعية أو من الناحية الهجومية فمن الثابت أن كل سياسة دفاعية أو هجومية للدول القائمة في مصر تتخذ مجالها في شمال البحر الاحمر وجنوب بلاد الشام[١] .

غير أن لسيادة مصر التاريخية على الحجاز عوامل اخرى الى جانب الاعتبارات العسكرية فمصر مركز هام لقوافل الحج الوافدة من المغرب العربي ومن اواسط افريقية فهذه كلها تتجمع في مصر وتخرج الى الحجاز في حراسة الحكومة القائمة في مصر[٢] .

هذا الى أنه كان في مصر الكثير من الأوقاف المحبوسة على فقراء مكة والمدينة وعلى الحرمين الشريفين والحجاز نفسه بلاد فقيرة حتى إنه يمكن القول أنه كان يعيش على قوافل الحج ولا سيما القافلة المصرية[٣] .ولذلك فتبعية الحجاز لمصر أو سيادة مصر على الحجاز بعيدة كل البعد عن أن تكون نوعا من السيطرة المفروضة إنما هي سيادة تكلف الدولة القائمة في مصر أكثر بكثير بما تكلف الحجاز.

---

(١) ساطع الحصري- **البلاد العربية والدولة العثمانية**- القاهرة- معهد الدراسات العربية- ١٩٥٧م- ص٧٤.

(٢) عدوان، احمد محمد- **المماليك وعلاقاتهم الخارجية**- الرياض- مطابع الفرزدق- ١٤٠٥هـ-ص٦١.

(٣) المقريزي- **السلوك**- ج٤- ص٩٤٥- النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- ج٣- ص٥٢٩.

ثم إن الدولة القائمة في مصر حريصة أشد الحرص على هذه السيادة حتى يدخل تحت نفوذها الحرمين الشريفين فتكسب بذلك مكانة خاصة في نظر العالم الاسلامي.

فالحجاز لهذه الأسباب لا يرتبط بدولة معينة أو بسلطنة معينة في مصر إنما يرتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها، وهذا هو المقصود بالتبعية التلقائية.

فلما سقطت دولة المماليك في يد العثمانيين كان من الطبيعي أن يتبع ذلك سقوط الحجاز(١).

ولما أن تم للسلطان سليم بسط سلطانه على مصر واستقر بالقاهرة وجد بها بعض الحجازيين كان السلطان قنصوه الغوري قد اعتقلهم اثناء الاضطرابات التي وقعت في الحجاز ضد الحكم المملوكي، فأطلق السلطان سليم الأول سراح جميع المعتقلين الحجازيين وأحسن اليهم، وكان من بينهم قاضي مكة المكرمة صلاح الدين محمد بن ابي السعود بن ظهيره(٢) المعتقل بسبب الأحداث السياسية، وقيام الفتن في الفترة السابقة لحكم الشريف بركات(٣).

وقد استقبله السلطان، وأكرمه، وخلع عليه، ولما أراد السلطان سليم تجهيز جيش لأخذ الحجاز اتصل القاضي صلاح الدين بأحد رجال السلطان،

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٢٨أ.

(٢) قاضي الشافعية بمكة وأحد علماء بلد الله الحرام جامعاً لأشتات المفاخر كان يجيد صناعة الشعر صاحب همة عالية ومكانة مرموقة في الحجاز توفي بمكة ودفن بالمعلاه عام ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م ترجم له: عبد الله مرداد- **نشر النور والزهر**- ص٢٢٣.

(٣) النهروالي- **البرق اليماني**- ص٢٨- ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٥- ص٨٩-٩٥.

وطلب منه إقناع السلطان بعدم إرسال هذا الجيش، وأشار عليه بإرسال مكتوب الى صاحب مكة المكرمة يدعوه الى قبول السيادة العثمانية، وإعلان الدعوة للسلطان سليم وأن الأمر لا يحتاج الى تجهيز جيش[١].

أخذ السلطان سليم بهذا الرأي، وكتب القاضي صلاح الدين بن ظهيره من جانبه الى الشريف بركات في هذا المعنى، ويعرفه بما وقع وطلب منه ارسال ابنه محمد ابي نمي الى القاهرة للقاء السلطان[٢].

وبالفعل أثمرت هذه الحركة حيث أن الشريف بركات نفسه إبان الزحف العثماني على الشام ومصر كان في ظروف وملابسات حربية واقتصادية حرجة كان يعيشها الحجاز فمن ناحية كانت موانيء الحجاز وعلى الأخص جدة تعانى من اثر التهديدات البرتغالية العسكرية ومن اثر الحصار التجاري المفروض من قبل البرتغاليين على الموانيء العربية في البحر الاحمر والخليج العربي ولم يكن لدى الشريف بركات قوة عسكرية كافية يستطيع بها صد اعتداءات القوات البرتغالية.

لذلك فهو في حاجة ماسة الى مساعدة وحماية دولة إسلامية كبرى ضد هذه الاعتداءات هذا من ناحية ومن ناحية اخرى كما اشرنا سابقاً كان الحجاز يعتمد اقتصادياً على المخصصات السنوية الثابتة التي كانت ترسل من مصر لقلة موارده الطبيعية فكما هو معروف وثابت فإن الدول الاسلامية التي قامت في مصر وضمت الحجاز الى دائرة نفوذها حبست الكثير من القرى

---

(١) إبن إياس- **بدائع الزهور**- ج٥- ص٩٩-١١٦-١٣٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩٣.

في مصر على سكان الحرمين الشريفين إضافة الى المرتبات والمخصصات التي كانت ترسل سنوياً لأشراف مكة المكرمة ولبعض اهل الحرمين الشريفين وكانت غلة تلك الاحباس وتلك المخصصات تأتيه سنوياً صحبة امير الحاج المصري[1].

في ظل هذه الظروف التي كان يعيشها الحجاز أبان الفترة الانتقالية رد الشريف بركات على رسالة القاضي صلاح الدين بن ظهيره بقبول السيادة العثمانية على الحجاز كي يضمن تدفق الموارد المالية والعينية التي كانت تصل اليه من مصر ويعزز مركزه امام خصومه من الاشراف[2].

وقد توافق هذا المطلب العثماني مع مطلب الشريف بركات الذي أعلن تبعيته للسيادة العثمانية عن طريق الولاء السلمي لا القهري وقد عبر الشريف بركات عن هذا القبول بإرسال وفد من أعيان الحجاز برئاسة ابنه الشريف ابي نمي الثاني وكان عمره آنذاك ثلاثة عشرة سنة الى القاهرة لتقديم التهاني وفروض الطاعة والولاء للسلطان سليم الاول في ١٦ جمادى الثانية من عام ٩٢٣هـ/ ٦ يوليو ١٥١٧م. وهذا إقراره بالسيادة[3] .

استقبل السلطان سليم وفد الشريف بركات في القاهرة استقبالاً حافلاً يليق بمكانة امير مكة المكرمة قدم اثناءه الشريف ابو نمي الى السلطان بعض الهدايا الفاخرة وبعض الآثار النبوية التي كانت موجودة في مكة المكرمة والمدينة

---

(١) الفاسي- **العقد**- ج٣- ص٣٦٠- النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- ج٣- ص٥٢٩.

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٤٥ب.

(٣) إبن إياس- **بدائع الزهور**- ج٥- ص١٩٥.

المنورة[1] وأهم من ذلك كله قدم ابي نمي مفاتيح الحرمين الشريفين دليلاً على اقرار والده بالسيادة العثمانية على الحجاز وبمقابل ذلك اعطاه السلطان تفويضاً بحكم والده على مكة المكرمة والمدينة المنورة ونواحيها وتوابعها حاكماً وضابطاً فيها بمراسيم السلاطين القديمة كما جعل السلطان الابن شريكاً لوالده في إمارة مكة المكرمة.

وبعد تقديم الهدايا التي جلبها الشريف ابو نمي دعي الى الديوان في اليوم السادس عشر من الشهر نفسه أي بعد ثلاثة ايام من مجيئه حيث جلس على المقعد الموضوع بين قاضي العسكر والوزير الأعظم يونس باشا اما ابن عمه الشريف عرار الذي جاء معه بصفة رسول فقد جلس على كرسي في الجهة المقابلة وبعد سماع مذاكرة الديوان وانتهاء اعماله قوبل ابو نمي من قبل السلطان حيث قدم له الهدايا التي جلبها.

ولإهتمام السلطان العثماني وإجلاله لحكام مكة فإنه خلال فترة ضيافة ابي نمي ورسوله كان يذبح ثلاثين خروفاً يومياً كما امنت بقية احتياجاتهم بشكل زائد وبعد عدة أيام مثل الشريف ابو نمي في حضرة السلطان للوداع وقد البس الخلعة السلطانية[2] .

---

(١) إبن إياس- **المصدر السابق**- ص١٩٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٠١.

وقد احتفلت مكة المكرمة بعودة الشريف ابي نمي وقرأ فرمان التفويض على اهالي مكة المكرمة وألقيت الخطبة باسم السلطان سليم الأول، وتمت تصفية آخر مظاهر الحكم المملوكي بقتل الامير حسين الكردي[1]، والي جدة من قبل السلطان الغوري بذلك دخل الحجاز دخولاً سلمياً تحت السيادة العثمانية واحتفظ بنظام الشرافة كما كان عليه ايام المماليك، ومن سبقهم من الدول التي سيطرت على الحجاز[2].

وهكذا نجد أن العثمانيين حينما تم لهم فتح مصر وأعلنوا أنفسهم حماة للأماكن المقدسة الاسلامية قد واجهوا في نفس الوقت تهديداً سياسياً خطيراً في البحر الاحمر وانهياراً تاماً في تجارةالشرق التي قطع البرتغاليون أوصالها ثم تهديداً للأماكن المقدسة الاسلامية التي كانوا يعتبرون حمايتها شرفاً لايعدله شرف ومصدراً أساسياً لقوة نفوذهم في العالم الاسلامي كله، ومن ثم كان عليهم أن يحلوا محل المماليك فيما فشلوا فيه وأن يبدأوا عملياتهم لتأمين البحر الاحمر وكانت اولى وسائل هذا التأمين فتح عدن[3].

---

(١) حسين الكردي: من اشهر قواد المماليك خاض معارك عديدة في البحر الاحمر والهند ضد البرتغاليين تولى نيابة جدة وبنى لها سوراً واحكم ابراجها امتاز بتعسفه وظلمه، اصدر السلطان العثماني امرً لشريف مكة بركات بقتله فأخذه الشريف بغتة وقيده وشمت به وأغرقه في ميناء جدة. ترجم له: ابن العماد- **شذرات الذهب**- م٨- ص١٠٤- سيد قطب- **في ظلال القرآن**- ط١١- جدة- دار الشروق- ١٤٠٥هـ.

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٤٠ب- ابن اياس- **بدائع الزهور**- ص٢١٥.

(٣) النهروالي- **البرق اليماني**- ص٥٣- غسان رمال- **صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الاحمر خلال القرن العاشر الهجري**- جدة- دار العلم- ١٤٠٦هـ- ص٦٣.

يضاف إلى هذا أن السلطان سليم كان حريصاً على بسط نفوذه على العالم السني كله والحجاز يتمتع بأهمية خاصة في هذا العالم، ثم إن للحجاز أهمية خطيرة لمنع تسرب النفوذ البرتغالي في البحر الاحمر.

ولقد طبق العثمانيون نمطاً واحداً في أسلوب إدارتهم لمعظم الولايات التي تمكنوا من بسط نفوذهم عليها، تمثل ذلك النمط في الإبقاء على نظام الحكم الذي كان سائداً قبل دخول العثمانيين الى تلك الولايات، الأمر الذي جعلهم ينتهجون نفس السياسة عند دخول بلاد الحجاز في طاعتهم، حيث سمحوا لشريف مكة بممارسة كافة سلطاته اللهم إلا بعض القيود التي فرضوها والتي تعلقت بضرورة موافقة السلطان العثماني على تعيين الاشراف في بعض المناصب[1].

لم تكن السيادة العثمانية على الحجاز تمثل حكماً مباشراً بل كانت تقوم على نظام الشرافة، وهو منصب يتولاه أشراف مكة الذين ينتسبون الى الرسول صلى الله عليه وسلم، وأصبح الآن ممثلاً في أسرة واحدة من الأشراف اسرة ابي نمي يتوارثون هذا المنصب فيما بينهم وتتنازع حول هذا المنصب الأسر الشريفة كما كان الاشراف يحكمون باسم السلطان في مصر فيقيمون شعائر التبعية الاسمية أو الشكلية[2].

---

(١) ساطع الحصري- **مرجع سبق ذكره**- ص٧٦.

(٢) **نيل المنى**- ص١١-٤٣-٩٨.

ولم يكن الشريف يختار من القاهرة بل يختاره كبار الاشراف من بينهم في الحجاز ويطلبون الى سلطان مصر تثبيته في منصبه وتمتد سلطة شريف مكة الى اراضي الحجاز كلها[1] .

وإن كانت الدولة العثمانية انطلاقاً من رغبتها في المحافظة على موقعها في العالم الإسلامي تتصرف تجاه الاشراف برقة ولطف حتى إن السلاطين العثمانيين كانوا يظهرون تسامحاً كبيراً تجاههم حتى وإن بدر منهم بعض النشوز او التعصب على اعتبار انهم من سلالة النبي عليه الصلاة والسلام وقد حاول العثمانيون المحافظة على هذه الحماية وصيانتها الى آخر أيامهم. إلا أنه وضعت بعض القيود بغرض السيطرة غير المباشرة على الأشراف فعلى الرغم من السماح للأشراف بحرية اختيار من يتولى منصب الشرافة إلا أن السلطان العثماني سليم الاول قيد تلك الحرية بضرورة موافقته على تعيين الشريف في حكم مكة المكرمة والمدينة المنورة[2] .

وقد ارتبطت موافقة السلطان بالتقارير التي كان يرفعها الولاة في مصر والشام أو حاكم جدة، مما كان يؤدي الى نشوب الصراعات بين الاشراف أنفسهم هذا من جهة وبين بعض الأشراف والدولة العثمانية ذاتها من جهة أخرى[3] .

وعندما يقع الاختيار على الشريف يرسل اليه السلطان البراءة بتعيينه والخلعة مع رسول خاص يسمى "قطفان آغاس" آغا الخلعة وكانت البراءة شكلاً

---

(١) العصامي- **سمط النجوم**- م٤- ص٩٥.

(٢) **نيل المنى**- ص٣٦١-٤١٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٥٨-٩٦-٤١١.

ومضموناً تفيض احتراماً وتوقيراً يصل حد تعظيم ورضا السلطان ومن هنا فإن إرسال الخلعة الى أمراء مكة كانت بمثابة بشرى لهم ببقائهم في منصبهم[1] وعن مراسم التعيين فقد كانت تتم في حضور جميع الاشراف والاعيان والمشايخ إذ يتلى المرسوم السلطاني ويعطى للشريف فيقبله ثم يأتي آغا الخلعة فيلبس الخلعة للشريف فيجلس الشريف على الدرج من منبر الرسول صلى الله عليه وسلم[2] .

حينئذ يتوافد الجميع مهنئين ومبايعين بعد ذلك يتم تبادل الهدايا بين الشريف ومبعوث السلطان وينطلق المنادون والدلالون يعلنون الخبر في أرجاء مكة وشعابها، ومن ثم الى كل انحاء البلاد[3] .

يعود بعد ذلك امين الصرة الى السلطان بهدايا الشريف ورسالته الدالة على الطاعة والولاء وكان لشريف مكة الحق في تعيين نواب له في مختلف ربوع الحجاز وغالباً ما كانوا من الاشراف أقاربه[4] .

ويصف لنا جار الله بن فهد مظاهر الترسيم في شهر ذي الحجة من عام ٩٣٣هـ/١٥٢٦م بقوله: ((في صبح الاحد الرابع ركب الشريف أبو نمي من منزله ومعه عسكره ركباناً ورجالاً بالسيوف والرماح حتى دخل الى المسجد الحرام ووقف غالب العسكر محتاطين بحاشية المطاف بأسلحتهم، ودخل هو الى الحطيم وجلس فيه ومعه القضاة الأربعة ثم جاءهم أمير الحاج المصري...

---

(١) **نيل المنى**- ص١٨-٣٦-١١١-١٩٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٧-٩٨.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٩٨.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٩-١٤٧.

وصحبته قليل من جماعتــه ومعـه الخلـع والمراسـيم، فقـريء في المجلـس خمسـة مراسيم... ثم بعد الفراغ لبس الشريف الخلعة القفطانيـة وعلـى ولـده خلعـة وعصابه على العمامة المدورة... وتوجه الى منزله والخَلْق أمامه))[1] .

ومن مظاهر رعاية السلاطين العثمانيين للأشراف أنه منــذ دخـول الحجـاز في طاعة السلطان سليم الاول اخذ يجرى على اشراف الحجاز اموالاً يتــم دفعهـا سنوياً من الخزينة السلطانية بأسطنبول حيــث خصـص السـلطان سـليم الاول لشريف مكة مبلغاً سنوياً مقداره خمسمائة جنيه ذهب[2] فضلاً عــن ذلـك ان السلطان كان يرسل للشريف مع الصرة السـلطانية الـف ذهـب كـل عـام[3] وكذلك بقية الاشراف فلهـم مبـالغ نقديـة تـوزع عليهـم سـنوياً مـع الصـرة والغلال وكان لنساء الاشراف وجواريهم مخصصــات مـن هـذا المبلـغ وتلـك الغلال[4] .

علاوة على ما تقدم فإن الدولة العثمانية لم تكتف بشمول الاشراف بالرعايــة والاهتمام فيما يتعلق بالتوقير والاحترام وإغداق الاموال والهدايا فحســب بـل منحت للشريف عدداً من الجنود العثمانيين لحمايته فضلاً عن عدد كبــير مـن العبيد مما جعلنا نرجح بأن التفوق العسكري الذي حظي به الشـريف سـاهم مساهمة فعالة في احتدام الصراع بينه وبين نائب جدة التابع للدولــة العثمانيـة

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٢٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٥-٤٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٠-٨٣-٨٨-٣٩٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٤٥.

كما أنه من الملاحظ عدم تحديد سلطات الشريف والتي باتت غير واضحة المعالم.

أما على صعيد الأمن الداخلي فقد كانت الدولة العثمانية تهتم بالدرجة الأولى بتأمين وصول قوافل الحج الى الأراضي المقدسة وحفظ أموال الحجاج ومتاعهم الى أن يعودوا الى ديارهم بأمان من غارات القبائل البدوية كانت تعيش على طريق الحج الذاهب الى الشام وبجواره قبائل بدوية عديدة مثل بني حرب وبني صخر[1] وعنزه[2] وقد خصصت الدولة لهذه القبائل صرة تسمى (صرة العربان) وكميات من الحبوب سنوياً[3].

و لم تكن تلك بالمهمة السلهة حيث ترجع صعوبة تحقيق الأمن في الحجاز الى عدة عوامل أهمها اعتماد الدولة العثمانية على القوى المحلية في تحقيق الأمن مما كان يؤدي الى انعدام الأمن في بعض الأوقات عندما تحدث صدامات بين هذه القوى والدولة العثمانية أو بين بعضها البعض وتتمثل القوى المحلية في

---

(١) بني صخر او الصخارنه من بدو بني حرب وهم يقطنون جبل فقرا الواقع على مسافة ٣ ساعات من المدينة المنورة وكان تعدادها في بداية القرن العشرين حوالي ٣٠٠٠ فرد. وكانت لهم صرة مخصصة من قبل الدولة.انظر: محمد الجاسر- **معجم قبائل المملكة العربية السعودية**- الرياض- النادي الادبي-١٩٧٥م- ص١٩٨.

(٢) تقطن قبيلة عنزه شمال الجزيره العربية وهي تقسم الى اربعة اقسام كبيرة واحداها هي قبيلة اولاد علي القاطنة بين الزرقا وقلعة خيبر على طريق الحج وان اغلب افراد قبيلة طولوح وهي فرع من قبيلة اولاد علي، كانوا يتواجدون على طريق الحج وكانت لهؤلاء صرة وخلعة مخصصة لهم من قبل الحكومة. انظر: حمد الجاسر- **المرجع السابق**- م٢- ص٥٤١.

(٣) **نيل المنى**- ص٥٦-١١٧.

الحجاز في الاشراف حيث كان شريف مكة المكرمة من أهم ركائز الأمن في إقليم الحجاز[1] .

لذا لم تكن براءة التعيين التي ترسل اليه سنوياً تخلو من التوصية والنصح والاهتمام بتحقيق امن الحجيج[2] إلا أن الأشراف كانوا قوة بكثرة أتباعهم لم تكن تهدأ لهم ثائرة، فهم إما في صراع مع الوالي العثماني[3] او مع بعضهم البعض في تنافس على الإمارة[4] فضلاً عن القبائل المقيمة على طرق قوافل الحج. و لم يكن إرضاء هذه القبائل أمراً يسيراً حيث كثيراً ما كانت تتعرض قافلة الحج لأعمال القتل أو السلب نتيجة نقص هذا المبلغ او لطمع القبائل في المزيد فلم يتورعوا عن قتل الحجاج كما حدث في عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م عندما تعرض حجاج العراق للقتل والجرح والنهب من القبائل القاطنة على طريق الحاج[5]، كما كان يصحب قافلة الحج أمير الحج أيا ما كان الامر فلم يتوقف الامر عند حد توفير الامن لحجاج بيت الله الحرام كمظهر من مظاهر اهتمام العثمانيين ببلاد الحجاز وخصوصاً مكة المكرمة والمدينة المنورة بل كانت هناك مظاهر اخرى عكست مدى حرص السلاطين العثمانيين على تأكيد ارتباطهم الوثيق بالاماكن المقدسة ومن تلك المظاهر مجموعة الاوقاف

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٥-٨٦-١٣٥-٢٤٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩٨.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٢-٨٩-٢٠٠-٤١٤.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٠٠.

(٥) **المصدر السابق**- ص٢٣٤.

والصرر التي لم يتوان العثمانيون في إرسالهما الى الحرمين الشريفين[1] خاصة في فترة موضوع الدراسة متضمنة مسئوليتها عن إرسال الكسوة الى الكعبة المشرفة التي كانت ترد من مصر كل عام[2] فضلاً عن الاهتمام بالحياة العلمية[3] وعمل ما يلزم من اصلاحات وعمليات ترميم داخل الحرمين الشريفين.

ومن ابرز الأمثلة بناء منارة السلطان سليمان الذي أمر ببنائها في احدى مدارسه فيما بين باب السلام وباب الزيادة وهي منارة في غاية العلو والارتفاع مبنية بالحجر الشميسي الاصفر مسبوكة سبك الذهب الاحمر لها ثلاث دوائر مرفوعة وأساسات محكمة متينة رأسها على نمط منائر الروم قام ببنائها قاسم بك وانتهى منها سنة ٩٩٣هـ/١٥٨٥م[4].

كما إننا نجد إشارة لإعتنائهم بالحمامات العامة في مكة المكرمة ففي بداية بسط نفوذها على الحجاز وضمه تحت سلطتها السياسية عام ٩٢٣هـ/١٥١٨م أوقف السلطان العثماني سليم أوقافاً ومبالغ على تحسين

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٦-٤٨-٦٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص١١١-١٣٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٥-٦٧.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٤١.

وتطوير حمام سوق الليل المعروف بحمام النبي صلى ا لله عليه وسلم مع شراء كثير من المنازل بلغت ألف دينار لوقفها عليه[1].

كما خصص جزء من خزينة مصر في العهد العثماني لصالح سكان الحرمين الشريفين ويشار الى المبالغ التي كانت ترسل من خزينة مصر باسم الصرة الشريفة وقد بلغت تلك الصرة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي ٢٣ كيساً مصرياً ٨٠٠,٠٠٠ ياره[2] وكان تسليم الصرة يتم في اجتماع يعقد كل عام بصيوان امير الحج المصري في بركة الحاج قبيل رحيل الحج بيوم او يومين بحضرة عدد من كبار رجالات مصر بالإضافة الى كاتب الصرة وصراف الصرة ويتحرر في الاجتماع مقدار مبالغ الصرة وأوجه صرفها، وكما كان يصرف من الخزينة المصرية إعانات عينيه تشمل إخراجات غلال الحرمين الشريفين وإخراجات كسوة الكعبة وتعيينات الاشراف[3] .

ومن مظاهر علاقات الود التي أبرزها شريف مكة ابتهاج اهل مكة بجميع الانتصارات التي تحققها الدولة العثمانية في حروبها ضد اعدائها حيث صدر الامر للشريف محمد من قبل الشريف بركات ومن بعده ابنه ابي نمي بتزيين مكة وجدة وعمل العقود والاعلام والاعتناء بمظاهر الفرح وإقامة الحفلات التي تستمر اغلب الاحيان لمدة أسبوع[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٥٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٣-٥١-٨٧-٩٩-١٢٣.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٨٠-٢١١-٣٢٣-٣٣٧.

العلاقة بين الشريف ونائب جدة:

وضعت الدولة العثمانية (نائباً) أو والياً ممثلاً لها في الحجاز -ممن لا يعرفون لغة العرب ولا عاداتهم ولا خصائصهم- ومنفذاً لسياستها فكانت تلجأ الدولة العثمانية الى ازدواجية السلطة بين الاشراف والوالي ومن ثم فإن والي جدة كان يتمتع بأهمية ودور بارز في مجريات الأمور في الحجاز وهذا يرجع الى أن الولاة الاتراك كانوا يأخذون أوامرهم مباشرة من دار السلطنة وفي بعض الاحيان من الوالي التركي في مصر[1] ولم يتوان الوالي في جدة عن استغلال هذا الوضع والمشاركة في تسيير الأمور في مكة المكرمة بل والحجاز كلها[2].

وقد نتج عن ذلك بروز دوره في مجريات الأمور في مكة المكرمة وقد كان الوالي يتطلع بدوره الى نفوذ أكبر من ذلك بكثير فقد كانت مشاركته تكمن في المشاركة في عزل الأمير من الأشراف، وتعيين من وقع عليه الاختيار وحضور مراسم تنصيبه[3].

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل كان يرجح كفة شريف على شريف آخر[4]، ولم يتوقف دور الوالي الذي لعبه عند هذا الحد بل كان يدعم الصراعات بين الاشراف ويقويها حتى يسهل السيطرة عليهم جميعاً[5].

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٢-٣٨-١١٦-١٩٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص٩١-١٠٧-١٩٩-٢٣٥-٣١٨-٤١٤-٤٤٥.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٥-١٨٨-٢٠٠.

(٥) **المصدر السابق**- ص١٦١-١٩٩-٢٠٠-٢١٣.

ويتجلى ذلك عندما ساند الشريفين ابا الغيث ورميثه عمي شريف مكة ابو نمي عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م، ودعمها بالمال ثم تخلى عنهما عندما أحس بقوة شريف مكة[١].

و لم يكن دور الوالي مقتصراً على إيقاد نار الصراع بين الأشراف بعضهم وبعض بل تجده في بعض الاحيان عندما يحتدم الصراع بين الاشراف يلعب دور الوسيط بأمر من الدولة العثمانية لفض النزاع والقضاء على الأسباب المؤدية اليه بالطرق السلمية العرفية المتبعة[٢] ، وعندما تبوء وساطته بالفشل تتدخل الدولة العثمانية ذاتها الى الجانب الذي يراه الوالي صالحاً لتقلد منصب شريف مكة المكرمة. وكان الوالي يحظى بقوة عسكرية خاصة به كان لها قوام معين لا يقل عنه[٣] .

وكان شريف مكة يستعين بها ضد الخارجين عن طاعته كما حدث في عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م عندما اعلن ابناء عمومته العصيان عليه أو بعض القبائل الخارجة عن نفوذ سلطته وسيادته[٤] .

ولقد كان للوالي مهام أخرى أساسية يقوم بها، فمن اولى مهامه هو كسب احترام وقبول الشريف حتى يستطيع أداء واجباته واختصاصاته على أكمل وجه فقد كان على والي جدة تسيير الأمور في حدود الأحكام الشرعية

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٠٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٦٦-٢٣٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٨-٩٠-٩١-٢٩٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص١١٦-٢٣٥-٤١٤.

والعرفية المتعارف عليها بين الناس[1] وكان للشريف نائب في جدة كان يتشاور معه الوالي في الأمور التي تتصل بالشريف وماله من أمور في جدة[2].

وكان من أهم مهامه أيضاً هو ما يدره ميناء جدة من دخول جمركية من أنواع السلع والتجارة الواردة عليه من مدن الشرق والغرب فكان على الوالي النزول الى الدائرة الجمركية عند قدوم السفن الى ميناء جدة لكي يسمح لها بالدخول الى الميناء وتفريغ حمولتها من انواع السلع والبضائع. وفي حال تغيبه وعدم تواجده في جدة يعين شخصاً ينوب عنه في أخذ العشور ولا بد أن يكون من أبناء جلدته كما حدث عندما عين القاضي الرومي مصلح الدين الرومي قاضي مكة عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م لأخذ عشور المراكب الهندية[3] .

ولقد كانت السفن الواردة بالتجارة الى ميناء جدة لا تدخل الميناء إلا إذا اعطاها الوالي والشريف وعداً بحمايتها والمحافظة على بضائعها وكان الوالي يطبق هذا الواعد عملياً ويفي به إذ كان يعين أحد جنوده خفيراً على كل سفينة لحمايتها والمحافظة على بضائعها وبعد نزول البضائع يقوم الوالي بحساب العشر وتحصيل جمركها وكان الوالي يرصد كل هذا في دفاتر خاصة ويحدد نصيب الشريف من هذا المتحصل بحضور نائب الشريف الى جدة[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٦-٥١-٩٦-١٥١.

(٢) **المصدر السابق**- ص١١٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤١٤.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤١-٢١٦.

وعلاوة على ما تقدم فإن الوالي كان لم يأل جهداً من مباشرة مهامه في جدة ولقد كان من ضمن هذه المهام هو تحقيق الأمن والضبط في داخل جدة وإن كانت هذه المهمة لا تقل أهمية عن تحصيل الجمارك من ميناء جدة فكلما انتشر الأمن والطمأنينة في جدة توفرت مختلف السلع بها لأن وجود الأمن يعطي حافزاً للتجار ليقبلوا على تنمية تجارتهم بطمأنينة ويسر، وبذلك تزيد الرسوم الجمركية الواردة من ميناء جدة وحركة التجارة به لذا فإن الوالي كان يكرس جهوده لطمأنة التجار وبث روح الأمن والأمان فيهم والمحافظة على أموالهم وسلعهم وبضائعهم الواردة بها الى جدة[١] .

و لم يكتف الوالي بانتشار الأمن في جدة بل كان يرسل من قوة جدة التركية الى الشريف لكي يساعده في نشر الأمن في ربوع الحجاز كله[٢] .

كما أن له صلاحيات في ضبط الاسعار وعدم احتكار السلع ولو لزم الامر الى الضرب والسجن لمن خالف ذلك من التجار كما حدث في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م عندما سجن وضرب بعض الباعة عندما غالوا في اسعار القمح[٣] .

ومن المهام الأساسية التي عين الوالي من أجلها هو أن يكون عبارة عن حلقة اتصال بين الدولة العثمانية والشريف أمير مكة المكرمة، إذ كانت الدولة

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٥-٣٦-١١٨-٢٣٢-٢٤٣- وما بعدها.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٣-١٤٦-١٨٧.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٢.

العثمانية ترسل بعض توجيهاتها او أوامرها للشريف عن طريق الوالي الذي كان بدوره يقوم بإيصالها اليه فور وصولها ودون تأخير[١].

كما كان يقوم في بعض الأحيان بعملية الإشراف على الإصلاحات داخل الحرم المكي وخارجه[٢]، فلقد كان يقوم بعد انتهاء عملية الإصلاحات بتقديم تقرير شامل عن الأماكن التي تمت فيها عمليات الإصلاح وأيضاً المبالغ التي صرفت من اجل ذلك[٣] وإذا لزم الأمر كان يقوم بالكتابة الى الدولة العثمانية عن الأماكن التي تحتاج الى اصلاحها وعن المبالغ التي تلزم لإتمام هذه العملية[٤] وكان والي جدة يقوم أيضاً بالإشراف على بعض شئون الحرمين الشريفين مثل إشرافه على الغلال الواردة لأهل الحرمين الشريفين عن طريق ميناء جدة سواء كان من اوقاف الحرمين في مصر، أو من عطايا البلاد الأخرى فكان عليه عند وصولها وضعها في مخازن خاصة حتى يتم نقلها الى أهالي مكة المكرمة والمدينة المنورة[٥].

بدأت بعد هذه الفترة محاولات نائب جدة للتدخل بشكل أوسع في الشئون الداخلية للحجاز عامة، وميناء جدة بصورة خاصة. مما نتج عن ذلك أن تشتعل نار الفتنة وتسوء العلاقات بينه وبين شريف مكة بل يتطور الامر الى

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٤-٥٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٩٦-٢٩٧.

(٣) **المصدر السابق**- ص٥٨-٩٦-١١٣.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٥٣.

(٥) **المصدر السابق**- ص٢١-٣٦-٥٨-١١١- وصفحات متعددة.

حدوث قتال بين الطرفين كما حصل في الأعوام ٩٢٤هـ/١٥١٨م-٩٢٦هـ/١٥١٩م-٩٣٠هـ/١٥٢٣م- ٩٣٢هـ/١٥٢٥م.

ويصور لنا جار الله بن فهد نوعاً من هذا التصادم بقوله: ((في عصر الاربعاء أرسل الشريف عرار الى جدة عبداً له في طلب نائبها فرحان الرومي مملوكي احمد باشا المقتول لسمع مراسيم استاذه فاجتمع به في ثاني تاريخه))[1].

((واشيع بمكة عدم موافقته بالمجيء وقال: تأتيني مراسيمي الى جدة ولما سمع بقتل استاذه شحن غراباً في البحر بأمتعته وعبث الأروام في السوق عند شراء القوت بسفرهم وكانوا يظنون بطش جماعة الشريف بهم لأن حاكم جدة توجه لهم مع جماعة الشريف فرماهم الأروام بالبنادق وقتل من جماعة الشريف إثنان ومن الأروام واحد، وأن الحاكم نادى لهم بالأمان فمكثوا في محلهم ينتظرون صحة ذلك من جماعة الشريف))[2].

وفي ظهر يوم الجمعة ٣ من الشهر المذكور وصل عبد الشريف عرار الى مكة وأخبره بأن نائب جدة لم يوافق على عودته اليه. فتوجه له بنفسه وصحب معه نائب جدة الامير حسين الرومي المشد على عمارة عين مكة الآن فوصلا الى وادي جدة ولاقاهما بها قاصداً خبرهما بطاعة نائب جدة وأنه مقيم بها فرجع الأمير حسين منها لعبد مكة وتوجه الشريف عرار لجدة فواجه نائبها وأمره بالتوجه لمكة ليسمع مرسوم الخنكار، فعاد معه ووصل لمكة في ليلة الثلاثاء السابع وسكن في المدرسة الباسطية بعد فراغه من الطواف. فلما

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩٨.

دخلها قدم له قيد من حديد، وقالوا له الشريف بركات رسم به، فأجاب بالطاعة ووضعه في رجله بقية ليلته ويومه.

ولقد كان السلطان يرسل في العادة الفرمان لتعيين والٍ لجدة، يحدد فيه اختصاصاته وواجباته. ويتضمن فيه احترام الشريف وإطاعة أوامره[١] وبعض المراسيم فيها اعتذار من السلطان العثماني لما بدر من نائب جدة من سوء التصرف وإثارة الفتن والقلاقل[٢] .

بقراءة بعض النصوص من كتاب نيل المنى يتضح أن أغلب من تسلم زمام نيابة جدة من الأتراك اتصفو بالقسوة والطمع والجشع وتكوين ثروات ضخمة والاستفادة من هذا المنصب التجاري المهم واستغلال التجار وفرض الرسوم على بضائعهم مما جعل السلطة العثمانية ترسم سياسة التغيير السريع لتولي المنصب وفي بعض الأحيان ترسل مرسوماً سلطانياً بالقبض على نائبها وضبط أمواله[٣] .

ويورد لنا جار الله بن فهد صورة من ذلك بقوله: ((يوم الثلاثاء السابع عشر وصل لمكة (شاووش روجي) وبصحبته شيخ الدلالين بجدة (جعفر الرومي) واصلاً من القاهرة ودخلوا لجدة وتوجهوا لفريق الشريف واعطوه مراسيم لقبض نائب جدة (والي جلبي الرومي) ووضعوه في الحديد وضبط مخلّفة والإرسال به بحراً بعد التحفظ عليه مع القبض على جماعته وأركان دولته،

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٠٧.

(٣) **المصدر السابق**- ص٩٠-٩١-١٢٣-٢٩٦-٢٩٧.

فتوجه لجده الشريف عرار بن عجل بجماعته من القواد عبيد الشريف ابي نمي في يوم تاريخه أو قبله بيوم وأروه المرسوم بعزله والقبض عليه فقال له: معي مرسوم أني اذا عُزلت اكون ناظراً على العمائر الخنكارية بمكة. وكان قلبه حاساً بالشر فما أُمهل وجاؤوه بجنزير، وباشة، ووضعوها في رقبته، فضاقت عليه لغلظها، فوسعت له، وأرادوا النزول به من منزله إلى فرضة الشريف فسألهم في المكث به في محله الى الليل حتى لا يراه اهل البلد فترك في محله وقبض على خمسة أنفس من جماعته كمباشريه محمد يونس المصري والجمالي محمد ابن الشيخ محي الدين الناظر، وشيخ الدلالين المفصول محمد بن الخبازه والترجمان... الرومي ومقدم البحر، ووضع الجميع في الحديد وختم على منزليه بجدة ومكة.فأظهر الناس الشماته به لتجبره وتظلمه وإظهار العظمة والجبروت[1].

وفي ليلة السبت ٢٧ وصل لمكة نائب جدة وهو في الحديد وسكن في منزله والترسيم عليه من جماعة الشريف والشاووش الذي وصل لأجله وفي صباح تاريخه حضر القضاة الثلاثة ما عدا الحنبلي والسيد عرار والحاكم وجماعة الشريف والشاووش لضبط اموال الخنكار ونائب جدة ووجد من المال للخنكار ٣٤ الف اشرفي فضة واربعة آلاف عند الشريف ابو نمي وصرف في العمارة بمكة وجدة وغير ذلك نحو ٦٠ الف اشرفي ووجد من مال والي حلبي

(١) **نيل المنى**- ص١٢٥.

٢٢ الف دينار غير العروض من القماش وغيره وتعجب الناس من قلة ذلك فإنه يتهم باكثر من ١٠٠ الف"[١] .

و لم تكن هناك قوانين محددة لإدارة الحجاز عندما أعلن الحجاز تبعيته للدولة العثمانية لذا فقد ترك الأمر فيها للشريف الذي كانت الدولة العثمانية تحدد له بعض الواجبات التي يراها ذات أولوية خاصة وتضمن بشكل توصية في فرمان تعيينه لأول مرة أو عند تجديدها في كل عام وكانت أغلب هذه التوصيات والنصائح في الفرمان تنصب على ما يأتي:-

١- حماية الحجاج سواء في أموالهم أو أرواحهم عند المجيء لأداء المناسك أو عودتهم منها.

٢- أن يقسم بالعدل الصرة التي كانت ترسل سنوياً؟

٣- أن يكتفي بدخله ومخصصاته.

٤- ألا يطمع في ممتلكات التجار. أو غيرهم من الناس.

٥- أن يسعى لبسط الأمن على الطرق.

٦- أن يقسم المؤن الآتية من مصر على مستحقيها بالعدل والقسطاس.

٧- أن يسعى للحكم بين الناس بالعدل وألا يظلم أحدا[٢] .

---

(١) **نيل المنى**- ص١٢٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٤-٨٧-١٠٧-١٩٨.

كان من عادة السلاطين أن يرسلوا إلى جانب التوصيات بعض الهدايا والخلع، كالثياب الحريرية المزركشة التي تليق بمقام الشريف، صاحب الفرمان وتليق بمركزه(١) .

ويجيء الفرمان الجديد مع المحمل الشامي من قبل الدولة العثمانية، التي تجهزه بمالها وتبعث معه كسوة للكعبة المشرفة بمظاهر الأبهة وآيات العظمة، "ووصل مع الركب كسوة الكعبة من داخلها وهي حسنة كعادتها ووضعت محل الكسوة الأولى" وكثيراً من الخيرات والصدقات لسكان الحرمين الشريفين(٢) .

وكان شريف مكة يتحرك من تلقاء نفسه دون الرجوع الى السلطان لطلب تصديق او موافقة على كل تحركاته، كما كان يختلف عن الوالي بما يملكه من تأثير ونفوذ عظيم -في معظم الاحيان- بين سكان الحجاز وعشائر البدو التي كانت تسمع كلامه وتنفذه بدون تردد(٣) .

ولقد كانت الدولة العثمانية تحاول بين الحين والآخر الحد من نفوذ أمير مكة إلا أن ذلك لم يتم لها إلا لفترات قصيرة جداً حينما يكون الوالي العثماني يتمتع بشخصية قوية ولديه قوة عسكرية كبيرة العدد يحسب لها الشريف اكبر حساب(٤) .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢١-٥٦-٢٩٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٥٢-١٨٦-٤٣٢.

(٣) **المصدر السابق**- ص١١-٣٦-١١١-٣٢٥.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٦٧-٤١٩-٤٤٣.

العلاقة مع أمير الحاج:

إذاً نستطيع إجمالاً أن نقول أن العلاقات بين مكة المكرمة والدولة العثمانية قد تأثرت الى حد بعيد بكثير من العوامل والظروف الخاصة بكل منهما، وإنطلاقاً من جميع تلك الاعتبارات احتضنت الدولة العثمانية فكرة فرض السيطرة على مكة والتدخل في شؤونها خاصة من قبل المسؤولين العثمانيين كأمراء الحاج رغم ما يلاقونه من حفاوة وتكريم من قبل شريف مكة حيث كان يخرج إليهم بخاصته ويستقبلهم خارج مكة اثناء وصولهم ويصحبهم الى مقر إقامتهم موفراً لهم جميع وسائل الراحة[1].

ويصف لنا جار الله بن فهد كيفية الاستقبال: ((في صباح الخميس -شهر ذي القعدة- دخل امير الحاج، وتوجه الشريف ابو نمي بعسكره وغيرهم من التجار والاعيان والقضاة لأمير الحاج الشامي.. وعرض له بين الحجونين وهنأه بالشهر وخلع عليه ومشى معه الى محطة الابطح، وعاد الشريف وولده الى منزلهما))[2].

استغل امراء الحاج مكانتهم وما يتمتعون به من وجود قوة عسكرية مصاحبة لهم لحماية الحجيج وحراستهم حتى عودتهم بعد انقضاء الحج من اتخاذ سياسة قمعية سلكوها في مكة وتجاوز صلاحيتهم التي قدموا من أجلها وسحب صلاحية شريف مكة في تدبير شؤون إمارته.

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٨-١٥٣-٢٢١-٤٠١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٦٣.

ففي عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م يصدر أمير الحاج العثماني مصلح الدين الرومي أمراً بقفل ابواب المسجد الحرام ليلاً متخذاً حجة دخول الكلاب المسجد وقتل عبيد قاموا بالسرقة[١].

نتج عن هذا التدخل المباشر وإصدار مثل هذه الأوامر التي تمس مشاعر شريف مكة وسكانها أن شبت الفتنة وحدثت الاشتباكات واستمر الصراع بين شريف مكة وامير الحج عدة مرات في فترات متفاوتة ففي عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م قامت ثورة بين العسكر العثماني وبني حسن من الاشراف بسبب قتل العسكر أحد عرب بني شعبة بالسيف واستعد كلا الفريقين للقتال لولا حكمة شريف مكة بركات الذي قام بتأنيب بعض بني حسن وهدأت الفتنة[٢] على أن العلاقة بين شريف مكة ابي نمي وامراء الحج أصبح يشوبها القلق والتوتر حيث ازداد هذا التوجه الجديد في سياسة العثمانيين بالتدخل في شؤون مكة مما أدى إلى عدة إحتكاكات بين الطرفين[٣].

ففي موسم ٩٣٩هـ/١٥٣٢م يرصد لنا جار الله بن فهد هذه الحادثه أنه ((في صباحها كانت عرضة امير الحاج المصري وخرج للقائه من الزاهر صاحب مكة وولده احمد وقاضيها الشافعي وملك التجار السيد علاء الدين ودخلوا معه في عرضة حافلة. ونزل امير الحاج بوطافة عند باب المعلاة وتوجه من العرضة الى مدرسة الاشرف قايتباي بالمسعى، فلما وصل اليها رمى بعض

(١) **نيل المنى**- ص٤١٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢-٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٩٩-٢٣٢-٣٣٣.

الأروام مكحلة فأحرقته مع جماعة بجانبه فارتج الناس لذلك وظن الشريف ابو نمي وجماعته طلب الشر معهم فسلوا سيوفهم والتجؤوا لسيدهم، فلم يظهر لهم شيئاً وتوجه الشريف لمنزله بعد أن أشيع مسلكه وخاف اهل مكة الفتنة فأطفأها الله وأمن خائفهم))[1].

وقد استمرت العلاقات الودية بين الطرفين أغلب الفترة الزمنية التي نحن بصدد الدراسة فيها على أن هذا الوئام الذي حل بالعلاقات المكية العثمانية في عهد الشريف ابي نمي الذي يعتبر من أعظم الأشراف الحسنيين وأطولهم حكما إذا استمر يحكم من عام ٩٣١هـ/١٥٢٥م الى عام ٩٩٢هـ/١٥٨٤م اكثر من نصف قرن عمل خلالها على توطيد قوة الأشراف وإعادة هيبته، وتتميز سياسته في أغلب الفترات باتجاه جديد وهو توثيق الروابط مع العثمانيين وحرصه على إستمرار العلاقات التقليدية القائمة بينهما وتطويرها وتجنب كل ما من شأنه أن يعكر صفوها فقد تبادل المراسلات والهدايا مع السلطان العثماني سواء عن طريق والي في مصر أو مع السلطة العثمانية نفسها.

ففي عام ٩٣٣هـ/١٥٢٦م يتخذ شريف مكة ابو نمي قراراً بإرسال شخصيات مكية تتمتع بحنكة ودراية الى السلطان العثماني مصحوبين بهدايا لكسب رضا السلطان عن شريف مكة[2].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٠٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢١٦-٢١٧.

كما أرسل ابنه احمد ومعه الشريف عرار بن عجل الى نائب الدولة العثمانية في مصر عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م ثم التوجه من القاهرة الى السلطان العثماني في الاستانة[١].

كان لهذه السفارات خاصة مع نائب الدولة العثمانية في مصر أن توطدت العلاقة بينهما مما جعل خاير بك والي مصر أن يصدر قراراً بعدم إحداث امر عزل في ولاية الحجاز[٢]، بل تعدة الأمر أن ينقض الأوامر السلطانية العثمانية من الاستانة المتعلقة بأمور الحجاز السياسية. ويرصد لنا جار الله أمراً خطيراً يتعلق بشئون الحجاز بقوله: ((في يوم الثلاثاء السابع عشر وصل لمكة قاصد من العرب من جهة القاهرة، وأخبر أنه لاقى الحاج المصري في الحوراء، وهم سالمون، وأن نائب الديار المصرية الباشا سليمان الخصي ارسل معه مراسيم للشريف ابي نمي يخبره ان شخصاً يقال له قشعم وصل من الابواب الخنكاريه من الروم ومعه خلعه لنفسه لأجل ولاية المدينة وينبع وأنه بذل بها مائة الف اشرفي ويطلب مائة انكشاري للتوجه معه الى محل ولايته فقبض عليه وسجنه في القلعة واخذ خلعته وارسل يكاتب الخنكار في امره وانه يتولد من فعله خراب الحجاز فشكر الله سعى الساعي في ذلك وبلغه احسن المسالك))[٣].

إلا أن العلاقة بين الجانبين أخذت تتراوح بين مد وجزر، وكان القلق والخوف ينتاب الشريف عند قدوم موسم كل حج، ومنعاً لإحداث فتن بين

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٤٤-٤٤٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٧.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٨٥.

الحجيج انتهج سياسة عدم الإحتكاك وعدم الحضور في أغلب الفترات لإستقبال امراء الحج وإذا حضر يكون حذراً لئلا تقع الفتنة بين عسكره وعسكر امير الحاج ويتضح ذلك في اكثر من عام[1] ويؤكد ذلك صاحب نيل المنى أنه ((في صباح تاريخه [٩٢٦هـ] عزم القاضي الشافعي الجديد أمير الحاج المصري في منزله... وتخلف الشريف بركات وأولاده عن الحضور، والذي يظهر أن أمير الحاج طلب حضور الشريف بركات بنفسه، فامتنع من ذلك لتخيله الشر هناك منه وعادته يرسل اولاده فيلبسهم خلعة فلم يتفق ذلك))[2].

وفي عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م قدم الى مكة القبطان سليمان وبصحبته عسكر جرار يقارب الف رجل[3] متجهاً الى اليمن لإخضاعها، وأحدث العسكر فساداً بمكة وعاملوا أهلها بعنف وقاموا بالإعتداء على الممتلكات ويوضح ذلك النص التالي لجار الله بن فهد انه ((في يوم الثلاثاء وصل اولهم لمكة، وهاجموا بيوت التجار وبعض بيوت الناس الكبار وأخرجوا أهلها خصوصاً القريبة من الحرم، وانتهكوا حرمة الحرم، وتمادوا بالأذى وتجاهروا بالفسق في النساء، وأخذ المأكولات من السوق بثمن بخس وبعضهم لا يعطي شيئاً))[4].

اضطر شريف مكة ابو نمي بأن يصدر قراراً وان ينادي مناديه في شوارع مكة بعدم توجه أحد من الناس الى منى، واستعد بعسكره وقواته لتأديب القبطان

---

(١) **نيل المنى**- ص٩٥-٢١٥-٢٣٣-٣١٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٩٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٩٠.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٠٢.

سليمان وعسكره وكادت أن تقع الكارثة بين الطرفين لولا تدخل نائب جدة بالصلح بين الطرفين واشترط شريف مكة بأن تغادر القوات الاراضي الحجازية وتم له ما أراد[١].

وكان لهذه الفتنة وإهانة عسكر القبطان للعرب أثرٌ سيئٌ فأوجد الضغينة في نفوسهم فثار كثير من القبائل القاطنة على طريق الحاج خاصة بني لام ففي نفس العام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م يرصد لنا جار الله بن فهد ذلك ((وفي اثناء هذه الايام ثار العرب في البرية وأذاقوا الأروام بالقتل والنهب ومقابلة فعلهم بالحرب، وقتل منهم في طريق جدة أزيد من عشرين نفساً، وانقمعوا بذلك يقيناً لا حدساً، تواتر القتل فيهم بحيث زادت القتلى على المائة))[٢].

وفي ظروف غامضة قام امير الحاج الشامي بعد انتهاء موسم الحج ومغادرته لمكة واتجاهه الى بلاده ومكوثه في أحد الأودية القريبة من مكة قام بعمل عدواني على سكان الوادي واسر عدداً منهم واصطحبهم معه. ويورد لنا جار الله بن فهد ذلك بقوله: ((وكان من جملة المسوكين، عم زوجة صاحب مكة، الشريف محمد بن عنقاء... وكان مريضاً في منزله مع ولدين له دون البلوغ وولدين لأخي الشريف... فبذل لأمير الحاج الشريف محمد بن عنقاء مالاً لخلاص نفسه وأولاده، ولم يسلمه له. وسافر جميع الحجاج ومعهم الأولاد))[٣].

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٢-١٩٧-١٩٨-٢٠١-٢٠٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٥٤-٣٥٥.

كان لهذه الوقعة أثر كبير في نفسية شريف مكة وأهلها وجعل الأمور تزداد سوءاً، مما جعله يبادر الى جمع قواته ويأمر عسكره بالتجهيز لتأديب امير الحاج وقواته واستخلاص أقربائه وبالفعل تحرك بقواته متعقباً إياهم، ولقد تمكن من القبض على بعض ساقة الحاج وفر اكثرهم يلحق بأمير الحاج ويعلمه بشأن شريف مكة[1].

وعند وصول الفارين الى امير الحاج وإعلامه بالأمر، تخوف من قيام الحرب فأمر قواته بإيقاد المشاعل والأشجار في طريقه وازداد حذراً بعد ما علم أن الشريف ابو نمي استطاع القبض على عدد من العسكر وجدهم نائمين ومن جملتهم الدوادار علي بن طالو الدمشقي الذي استطاع ان يقنع شريف مكة بأن يطلق سراحه ويجعله يعود الى امير الحاج ويقنعه باطلاق سراح الاشراف الذين يحتجزهم[2]. ويقول جار الله بن فهد: ((فتوجه لأمير الحاج وأخبره بوصول الشريف بنفسه وعسكره لأجل اطلاق اولاد أخيه وأشار عليه بإطلاقهم فأطلقهم وأرسلهم راكبين على بغال بعد أن كانوا مشاة طول الطريق))[3].

بذلك سرعان ما زال الخطر من وقوع الإشتباك، وأكدت هذه الفتنة على هيبة شريف مكة ابو نمي وانصياع امير الحاج له، ونفوذ كلمته وسلطته، ووقوف الاشراف بجانبه وعدم خذلانه.

---

(١) نيل المنى- ص٣٥٤.

(٢) المصدر السابق- ص٣٥٥.

(٣) المصدر السابق- ص٣٥٥-٣٥٦.

ازدياد النفوذ العثماني:

يبدو أن التوتر في العلاقات بين الدولة العثمانيـة ومكـة المكرمـة، لم يلبـث أن ظهر ثانية حين أصدر السلطان سليم العثمـاني مرسـوماً للقـاضي زيـن الديـن عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م بالإنعام عليه بخلعة وتكليفه بنظـر جـدة على أن يقـوم بدفع مبلغ ثلاثة آلاف دينـار، وتحريـر مـا قبضتـه في زمـن السـلطة المملوكيـة خاصة في عهد السلطان قانصوه الغوري[١].

وهكذا نلاحظ أن سياسة العثمانيين قد اتخذت منعطفاً خطيراً حيث لم تكتف بالنفوذ الاسمي والتمتع بالسيادة الروحية على المشـاعر المقدسـة، كمـا حـدث مـع الخلفـاء السـابقين في بغـداد ومصـر وسـلاطينها منـذ أن تأسـس حكـم الاشراف بمكة، بل اخذت تطالب شريف مكة بدفع مبالغ باهظة لقاء إبقائهم في الإمرة، وأصبحت هذه الأمـوال ضرائـب يدفعهـا شـريف مكـة للسـلطان العثماني، كما حدث في عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م عندما التزم شريف مكة بدفع متحصل الرسوم من ميناء جدة التي بلغـت مئتـان وثمـانين الـف دينـار لنـائب جدة بأمر من السلطان العثماني معللاً ذلك بصرفهـا علـى عسـكره المجهزيـن لمحاربة أعدائه في الهند[٢].

وعند تأخيرها أو عدم الاستطاعة في ارسالها في الوقت المحدد يسارع الشريف الى إرسال رسله للسلطان العثماني للإعتذار وطلب رضاه[٣].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩٧.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٠١.

و لم يكتف السلطان العثماني بذلك بل تكرر ذلك عندما أرسل نائب السلطان بالقاهرة جانم الخمراوي رسولاً في عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م الى شريف مكة ابي نمي يطالبه بالأموال التي جعلت عليه اول ولايته لحكم مكة بعد وفاة والده وعن كل المدة التي تبلغ عشر سنين لتجهيز الجيش العثماني لحروبه ضد الشاه اسماعيل الصفوي(١) .

أقلق هذا الأمر تفكير الشريف وعلم أنهم قد تجاوزوا الحد في أطماعهم وأنهم يطلبون أموالاً ليست له القدرة على جمعها مما دعاه أن يستعين بالتجار "فجعل كل تاجر بقدر حاله من خمسمائة اشرفي ودونها"(٢) .

استطاع الشريف ابو نمي من تجميع المبلغ وقدره تسعون الف اشرفي وأرسلها مع الشريف عرار بن عجل مصحوبة بهدايا لنائب مصر جانم الخمراوي(٣) .

ومن مظاهر ازدياد النفوذ العثماني في الحجاز استحواذهم على الوظائف الدينية والقضائية وتنافس القضاة من الروم على منصب مشيخة الحرمين الشريفين لما لها من أهمية في الدولة لأن منصب القضاء في أحد الحرمين الشريفين يعتبر اعلى درجات القضاء في الدولة العثمانية ولأن ذلك يؤهلهم

---

(١) **نيل المنى**- ص٣١٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣١٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٢١.

فيما بعد لتسلم زمام قاضي استانبول، ولقد كان منصب القضاء في اوائل العهد العثماني في مكة في يد علماء مكة حتى عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م عندما صدر مرسوم سلطاني بعزل جميع القضاة العرب في الحرمين الشريفين(١).

وكان أول قضاة الأتراك في مكة القاضي منصور مصلح الدين افندي المعروف بمصطفى بن ادريس القاضي بحلب وفي المدينة المنورة عين قاضي مصر احمد جلبي(٢).

وفي عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م وصل لمكة خطيب يدعى محمد كان إماماً في استانبول(٣). ويرصد لنا جار الله بن فهد موقف المجتمع المكي من هذه التطورات قائلاً: ((وتعجب الناس من ولاية الأروام لوظائف القضاء والخطبة والنظارة والنيابة وعزل أربابها بسرعة وقبولهم الهدايا، والغالب على أهل الروم الطمع في أرباب أهل الوظائف لما رأوه من تكالبهم على السعي فيها))(٤).

فنتج عن ذلك استحواذ الأتراك المناصب والوظائف الدينية وإلغاء مكانة علماء وقضاة العرب من تولي أي منصب ديني مما أدى إلى تفشي الرشوة وتطلبهم لها ووضعهم قوانين جائرة خاصة فيما يتعلق بالمواريث(٥).

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٧٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٧٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص ٣٨٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٩٨.

(٥) **المصدر السابق**- ص٤٣٦.

أدى هذا الانتشار للنفوذ العثماني إلى سيادة العنصر التركي وتهميش العنصر العربي وهذا ما نلمسه في توزيعهم للصدقات والتفرقة بين العنصرين وتطور الامر الى منع العرب وعدم توزيع استحقاقاتهم من الصدقات ونستشهد بما هو مدون بنيل المنى أنه ((في يوم الثلاثاء السابع عشر، [٩٤١هـ] شرع الكاتب على الصدقة الرومية في تفرقتها على الربط... فحجز على ابناء العرب الساكنين به كثيراً ومنعهم من الإعطاء، ودفع للأروام والأعاجم استحقاقهم وقال: السلطان أرسل مرسوماً بأن من له منزل وزوجة لا يعطى، فلم يلتفت لهذا الكلام))[1].

ولا شك أن هذه السياسة التي تتميز بالتسلط والأنانية كان لها أكبر الأثر في خلق جو من الفوضى والاضطرابات وعدم الاستقرار الذي شهده المجتمع المكي وأصبحت العلاقة بين الدولة العثمانية ومكة المكرمة ينتابها نوع من الحرص والحذر وأصبح العثمانيون هم المسيطرون على النواحي الادارية والدينية.

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٨٧.

الفصل الثاني

التحركات العسكرية في الحجاز والبحر الاحمر

إن التحركات العسكرية المرصودة في ثنايا المصدر قليلة جداً مما جعلنا نعتمد على المصادر التاريخية التي كتبت أحداث القرن العاشر الهجري حتى يمكننا رسم صورة واضحة لها فنرى المادة التاريخية التي دونها جار الله بن فهد في مؤلفه قليلة جداً ومتناثرة في ثنايا مؤلفه.

فمنذ أقدم العصور والبحر الاحمر يعد شرياناً حيوياً للمواصلات ووسيلة للتبادل التجاري والحضاري بين البلدان المحيطة به من جانب، وبينها وبين البلدان الأخرى من جانب آخر.

ومع اتساع نطاق التبادل التجاري خارج النطاق المحيط به وبخاصة بين الشرق والغرب ازدادت أهمية هذا البحر، وتطلعت الدول التجارية للسيطرة عليه كطريق حيوي لنشاطها التجاري الذي أصبح يمثل عصب حياتها الاقتصادية فاهتمت به في باديء الأمر المدن الإيطالية التي كانت تحتكر نقل المتاجر الشرقية إلى أوربا[1].

ونشطت الحركة التجارية في البحر الأحمر وموانيه، وتبودلت السلع الهندية والمصرية واليمنية والحجازية بين بلدان البحر الأحمر المختلفة، وزاد من نشاط

---

(١) **نيل المنى**- ص٥٧-٩٨-٢١٣- عاطف السيد- البحر الاحمر والعالم المعاصر- ط٢- القاهرة- ١٩٨٥م- ص٢٦.

هذه الحركة التجارية أن التجار الأوربيين عملوا على نقل هذه التجارات إلى بلادهم، وترويجها نظراً لما أصبحت تدره عليهم من ربح وفير[1] .

وتعتبر الفترة من بداية القرن العاشر الهجري إلى قبيل نهايته من أهم الفترات في تاريخ الحجاز فقد أحاطت به عواصف سياسية وعسكرية هوجاء وتعرضت لتهديدات خطيرة كان من الممكن ان تغير وجه التاريخ الاسلامي في مطلع ذلك العصر.

فخلال هذه الفترة التي أشرت اليها ظهر البرتغاليون، وأفلحوا في الدوران حول رأس الرجاء الصالح، ودخلوا مياه المحيط الهندي، وهددوا مراكز تجارة التوابل وامتدت أطماعهم إلى الخليج العربي وسواحل بلاد العرب الجنوبية وتطاولوا الى اقتحام البحر الاحمر وتهديد ثغر عدن والتشوف الى الشمال بتهديد ميناء جدة، والجار[2] وينبع حتى إذا ازاحوا النفوذ الإسلامي من هذا البحر امكنهم ان يعبثوا بمقدسات الإسلام وتراثه الغالي في مكة المكرمة[3] .

---

(١) عبد العزيز سالم- **البحر الاحمر في التاريخ الاسلامي**- الاسكندرية- مؤسسة شباب الجامعة- ١٩٩٣م- ص٣٨-

(٢) مدينة على ساحل البحر الأحمر، كانت وقتذاك ميناء للمدينة المنورة ترد إليها السفن حاملة للتجارات من الحبشة ومصر وعدن والصين، وهي من المدن المندثرة وقتنا هذا ولا يعرف موقعها غير أن الاستاذ حمد الجاسر يذكر أن الجار هو ما يطلق عليه في الوقت الحاضر اسم الرايس. انظر: ياقوت- **معجم البلدان**- ج٢- ص٩٢- الجاسر، حمد- **في شمال غرب الجزيرة**- ص١٩٧ وما بعدها.

(٣) **نيل المنى**- ص٣١-٩٦-١١٣-٢٢٧- نوال حمزه الصيرفي- **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي**- مطبوعات دارة الملك عبد العزيز- الرياض- ١٤٠٣هـ- ص١٥-١٧.

وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الامر منذ تلك الفترة على أساس القضاء على كل نفوذ تجاري للتجار العرب في البحار الشرقية ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية واغراقها والعمل على طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والافريقية بأسلوب القرصنة البحرية[١].

ويجب ان نفرق هنا بين محاولات البرتغاليين ومحاولات من سبقوهم، فالقوى التي سبقتهم كان تهديدها يأتي من الشمال، او من داخل البحر الاحمر، أما في هذه الفترة فقد اتى الخطر من الجنوب، كما رسم بذلك المسيحيون منذ سنوات طويلة[٢]، وتهديد البرتغاليين للأماكن المقدسة الاسلامية، لا نستطيع معه ان نحدد زمن وصولهم الى البحر الاحمر، اذ ان هذا التهديد كان ضمن المشروعات البرتغالية ضد العالم الاسلامي منذ بداية الربع الأول من القرن العاشر الهجري لتحقيق اهداف سياسية واخرى اقتصادية تدفعها عوامل دينية صليبية كما رصدها مؤرخو القرن العاشر الهجري كالعز بن فهد وجار الله بن فهد[٣] وغيرهما، كما اكتسب البرتغاليون تأييد البابوية الكامل ومباركتها في تحقيق ذلك اتباع أقسى انواع القرصنة العسكرية فقد كانت الحركة البرتغالية في حقيقتها استمرار وتجسيد للحركة الصليبية في جميع افكارها ذلك انها ركزت على تحقيق الحصار الاقتصادي على مصر من ناحية الجنوب والسيطرة على مواطن التوابل وانتزاع احتكارها وتحويلها الى اسواق

---

(١) **نيل المنى**- ص٤١-٨٦-٢٣٣-٣٧١- محمد الطبري- **اتحاف فضلاء الزمن**- ص٣-٤

(٢) عبد العزيز سالم- **البحر الاحمر**- ص٦١.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٦٨ب- **نيل المنى**- ص٣٨-٧١-٨٦- وصفحات اخرى.

اشبونه[1] مباشرة، لتصبح المركز الرئيسي لتوزيعها في اوربا بدلاً من البندقية[2] التي استمرت فترة طويلة تتمتع بهذا الاحتكار التجاري [3] .

وازداد ظهور ذلك الضغط بمضي الوقت واصبح البرتغاليون من أخطر المنافسين والمزعجين في المنطقة خاصة وان هدفهم النهائي هو القضاء كلية على طريق التجارة السابقة ولذلك حاولوا جهدهم وبوضوح تام وقف سير التجارة الشرقية بين الهند والبحر الاحمر وكانت تلك المحاولة من جانب البرتغاليين تتطلب وقفة صلبة من التجار العرب الذين سيطروا على تلك التجارة منذ فترة طويلة، ولذلك فقد طلب -التجار العرب المقيمون في قاليقوط[4] وثغر عدن وهم الذين تأثرت مصالحهم الاقتصادية- المساعدة من سلطان مصر[5] ، وكانت مصر التي تأثرت بسبب التدخل

---

(١) اشبونه: من اهم الموانيء البرتغالية كما انها مركز حيوي عظيم للتجارة والثقافة والفن، وتعتبر الميناء البحري الاول، كما انها تشتهر بالتطور العمراني العظيم ويبلغ تعداد سكانها الآن ما يقارب مليوني شخص. أنظر: ابو معاوية، هزاع بن عيد الشمري- **المعجم الجغرافي لدول العالم**- القاهرة- مطبعة التقدم- ١٤٠١هـ- ص١٣٤.

(٢) البندقيه: او فينسيا من اهم المدن الايطالية لعبت دوراً تجارياً عظيماً في القرون الماضية وتعتبر اغرب مدينة في العالم إذ أنها مبنية على قنوات بحرية بالغة التنظيم وتقع على بحر الادرياتي ويبلغ سكانها نحو مليون نسمة. انظر: ابو معاويه- **مرجع سبق ذكره**- ص١٠٩.

(٣) فاروق عثمان اباظه- **اثر تحول التجارة العالمية الى راس الرجاء الصالح**- دار المعارف- الاسكندرية- ١٩٨٧م- ص٣٦-٤١.

(٤) قاليقوط تقع جنوب الهند في ساحل ملبار على شاطيء بحر العرب، وتعتبر من اشهر موانيء الهند، وقد ازدهرت بتجارة التوابل والاحجار الكريمة. انظر: ابن فهد- **اتحاف الورى**- ج٤- ص٣.

(٥) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٦٧أ.

البرتغالي على استعداد للدخول في صراع مع البرتغاليين[1].

(١) تعتبر حركة الكشوف الجغرافية التي تم شطر كبير منها في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي/ من اهم النتائج العلمية التي ترتبت على حركة النهضة الأوربية الحديثة التي ترتبط بموجة التعصب الغربي من قبل اوربا المسيحية ضد العالم الاسلامي كرد فعل للوجود الاسلامي في الاندلس لمدة ثمانية قرون من ناحية الغرب والحروب الصليبية التي شهدها عالم البحر المتوسط وامتدت بين القرنين (الخامس والسابع الهجري)، الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين وقد قدر للبحر الاحمر ان يلعب دوراً هاماً وحيوياً في التجارة العالمية في اواخر العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة حيث كان يمثل الطريق الثاني للتجارة العالمية من طرق اربعة كانت تجتازها هذه التجارة في تلك الفترة، فقد كانت التجارة تشق طريقها عبر الطريق البحري من الشرق الاقصى الى البحر الاحمر. اخذ فاسكو داجاما اثناء رحلته الاولى الى الهند في مهاجمة السفن العربية الاسلامية والاستيلاء على بضائعها ثم اغراقها بركابها وفي اثناء رحلته الثانية في عام ٩٠٧هـ/١٥٠٢م قام بتكليف احد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الاحمر لمهاجمة السفن العربية ولمنع جميع السفن الاسلامية من المتاجرة اثناء ابحارها في مياه المحيط الهندي الا بعد الحصول على تصريح خاص من البرتغاليين وقد نفذ هذا القائد تعليمات رئاسته بدقة عندما قام في رجب ٩٠٨هـ/ يناير ١٥٠٣هـ بمهاجمة سبع سفن عربية والاستيلاء عليها وقتل معظم ركابها واسر البقية الباقية.

وقرر البرتغاليون الوصول الى القس يوحنا للتحالف معه وضرب المسلمين من الخلف والامام والانتقام للهزائم التي تعرض لها الصليبيون في الشام، وكشف طريق بحري يصل الى الهند ولا يمر بالاراضي الاسلامية ووضع ايديهم على تجارة الشرق الاقصى وبذلك يحرمون المسلمين من المورد الاقتصادي الذي كانوا يستطيعون عن طريقه تكوين وتمويل قواتهم العسكرية التي يحاربون بها المسيحيين وقد رسم البرتغاليون خطتهم على اساس كشف ساحل افريقيا الغربي كشفاً منظماً ووضع ايديهم على ذهب وتجارة غرب افريقيا لتمويل عملياتهم الكشفية وحرمان مسلمي شمال افريقيا من ذلك المورد المالي الهام.كانت تجارة الشرق الاقصى مرتبطة بالعمل المقدس ونشر الديانة المسيحية بين المسلمين والوثنيين كما كانت تدر ربحاً كبيراً ولما كانت سيطرة البرتغال على تجارة الشرق تتطلب القضاء على مقاومة المسلمين بالمنطقة وهذا العمل يتطلب ارسال اسطول برتغالي قوي مجهز بقوة عسكرية مدربة تدريباً جيداً على القتال البحري، فقد جهز البرتغاليون اسطولاً من عشرين سفينة بقيادة فاسكو داجاما تحرك من البرتغال في العاشر من فبراير عام ٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م متجهاً الى المحيط الهندي وكان على دى جاما ابقاء خمس من سفن ذلك الاسطول بصفة دائمة في ميناء المحيط الهندي لحماية المحيطات التجارية البرتغالية، وابعاد العرب عن تجارة الهند ويتوالى استخدام البرتغاليين للطريق البحري الى الهند تبين للبرتغاليين ان الضرورة تتطلب تجول بعض سفن الاسطول البرتغالي امام مدخل البحر الاحمر وتدمير السفن العربية التي تحاول الخروج منه، وكذلك السفن العربية التي تتجول في المحيط الهندي وقد كان للوجود البرتغالي في مياه المحيط الهندي اثراً ضاغطاً على التجار العرب في البحر العربي والموانيء الواقعة على ساحل الهند الغربي.
للمزيد انظر: عاطف السيد- **البحر الاحمر والعالم المعاصر**- الطبعة الثانية- القاهرة- ١٩٨٥م- ص١٨.

ويجب ان نشير هنا الى أن البرتغاليين مع فشلهم في إلحاق الضرر بالأماكن المقدسة والوصول اليها تمكنوا من دراسة أوضاع البحر الأحمر، وعلى الأخص شاطئه الغربي الذي يضم الحليف التقليدي للبرتغاليين وهم الأحباش[1]، في وقت كانت الاتصالات فيه بين الطرفين تأخذ مجراها الطبيعي كجزء من الحرب الصليبية ضد المسلمين[2]، كذلك يجب أن نذكر هنا جهود الدولة المملوكية في بداية الصراع ثم ظهور الاتراك العثمانيين كقوة إسلامية كبيرة يخشى خطرها في مياه البحر الاحمر وكذلك مسلمي الهند في سبيل تحصين الأماكن المقدسة خاصة بعد ان ادرك الجميع ما يهدف اليه هذا الغازي الجديد[3].

ولقد أدرك هذا البعد السياسي والصراع العسكري صاحب نيل المنى عند اشارته الى الاحداث العسكرية التي وقعت في عصره.

ولسنا بسبيل تقصي مراحل ذلك الصراع، أو تتبع حركة الاسترداد، وأيا ما كان الأمر فلم ينته الصراع بين الشرق والغرب ونظراً لخطورة الوضع في المياه الهندية والبحر الأحمر تعلقت الآمال بالقوة المملوكية، وبعث كل من صاحب قاليقوط، وسلطان كجرات، وسلطان اليمن يستنجد بالسلطان المملوكي

---

(١) الأحباش: يعرفون بالحبش والحبشان اشتق من اسم قبيلة "حبشت" السامية التي عبرت البحر الاحمر من جنوب الجزيرة العربية واستقرت في هذا الاقليم في نحو القرن السادس قبل الميلاد واختلط بالقبائل الحامية الكوشية السمراء. انظر: احمد عطية الله- **القاموس الاسلامي**- ج٢ - القاهرة- مكتبة النهضة المصرية- ١٩٦٥م- ص٢٨.

(٢) النهروالي- **الإعلام**- ص٨٦.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٦٨أ- **نيل المنى**- ص٣٦-٤١-٩٨-١١٧.

الاشرف قانصوه الغوري ويحثه على تشكيل قوة سريعة لحماية التجارة الشرقية وممراتها البحرية[1].

وكان هذا الاستنجاد من العوامل الهامة التي شجعته على التفكير في استرجاع مركز مصر التجاري على ما كان عليه، غير ان الاستغاثة بالسلطان المملوكي لم تسفر عن نتيجة إيجابية سريعة، لأنها جاءت في ظروف استثنائية صعبة فالدولة المملوكية في تلك الفترة كانت في حالة ضعف ووهن بعكس ما كانت عليه من قبل فقد كانت تعاني كثيراً من المشاكل الداخلية والخارجية وكان هذا الغزو بمثابة آخر مسمار يدق في نعشها بعد ان دخلت طور الاحتضار[2].

والحقيقة ان السلطان قنصوه الغوري لم يكن اقل احساساً بالخطر الداهم خاصة بعد ان انخفضت ايرادات دولته من تجارة الشرق التي اخدت تتحول عن طريق مصر والبحر الاحمر الى طريق رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين لذلك فقد ارسل الغوري الى ملوك اوروبا تهديده وتحذيره طالباً منهم العمل على إيقاف الأعمال الوحشية والتوسعية التي يقوم بها البرتغاليون في البلاد الاسلامية، بل لقد حذرهم في بعض رسائله بأنه سيقوم بعمل مماثل نحو رعاياهم من النصارى[3] .

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٧٠أ- **غاية المرام**- ج٣- ص١٩٦- **نيل المنى**- ص٥٨-٩٦-١١١-٢٧٣.

(٢) إبن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٩٥-٩٦.

(٣) النهروالي- **الاعلام**- ص١٩- إبن إياس- **مصدر سبق ذكره**- ج٤- ص١٨٢.

و لم يكن اهتمام المماليك بهذا العدوان الخطير تحدوه نزعة اسلامية فحسب او مجرد رغبة في الجهاد وانما دفاعاً عن تجارة الهند المتدفقة الى البحر الاحمر، وما كانت تحصل عليه الدولة المملوكية من أرباح طائلة من تجارة التوابل، وقد فرض السلاطين في الدولة المملوكية المكوس على التجارة الآسيوية المارة في اراضي الدولة، بل فرضوا نظام احتكارياً قاسياً حتى أصبحت التوابل تباع للتجار الأوربيين في الاسكندرية ودمياط بسعر يفوق اربعين ثمنها المستورد[١] ووضح الخطر في عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م حين اغرق الاسطول البرتغالي بعض سفن التجار المصريين ومن بينها سفينة تابعة للسلطان الغوري كانت على وشك الابحار لجدة، وكانت محملة بالبهار[٢]، ثم تمادى العدوان البرتغالي. ففي عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م تعرض اسطول المماليك لهزيمة قاسية واعقب ذلك مهاجمة "فاسكودي جاما" لهرمز واستيلائه على سبع سفن عربية، وقتل من بها وترك بعض سفنه بالقرب من باب المندب لاغلاق البحر الاحمر، ومنع وصول السفن اليه او خروجها منه كما ترك بعض السفن ايضاً عند جزر كوريا موريا[٣] للقيام بأعمال القرصنة[٤].

---

(١) Kammerer,Lamer Rouge,Labyssinieet l,arabie Depuis L,antiguite, Paris,1922. pp487-488

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١١٩أ.

(٣) تتكون جزر كوريا موريا من صخور ترتفع قممها المخروطية بانتظام وتمتد موازية للساحل الشمالي لخليج كوريا موريا على مسافة تتراوح بين ١٩-٢٠ ميلاً الى الغرب منه. مساحتها ٢٥ ميلاً مربعاً تبعد عن عدن بحوالي ٧٠٠ ميلاً. للمزيد انظر: حمزه علي لقمان- **تاريخ الجزر اليمنية**- دمشق- العالميه- ١٩٨١م- ص٨٥.

(٤) العز بن فهد- **المصدر السابق**- مخطوط- ورقة١٤٥ب أ- Sousa. Mannueide Fariaj- The Portuese Asia Translatedinto Englishbj capjohn Steuensp.165

و لم يكتف البرتغاليون بذلك بل هددوا ميناء جدة عام ٩١١هـ/١٥٠٥م وتمكنوا من التسلل الى مكة ذاتها خاصة وان ملكهم كان قد اقسم ان يستولي عليها، وان يقوم بنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة وقد اهتز المسلمون جميعاً ازاء هذا الخطر كما ادى هذا التهديد الى حرص المماليك على صد أي عدوان قد يتعرض له ميناء جدة فقرروا بناء استحكامات عسكرية في المدينة لحمايتها من الهجوم، ووضعت قوات مملوكية في ميناء ينبع حتى لا تدهمه قوات معادية[1] .

ولذلك شرعوا في بناء سور ذي ابراج عالية ضخمة حول مينائها خوفاً من وقوع أي احتمالات هجومية من قبل البرتغاليين الذين كانوا يشيعون انهم سيهاجمون المدن المقدسة في الحجاز كذلك عمل الامير حسين الكردي على جلب البنائين والنجاريين وغيرهم من الفنيين المهرة الى جدة للشروع في تحصينها وقد اجتهد الامير المملوكي في تحصين المدينة فهدم كثيراً من بيوت الناس، مما يقارب موضع السور لوضع الاساس، واستخدام عامة الناس في البناء ليتم انجازه بسرعة وضيق على البنائين، والحجاريين، وتم بناء السور والابراج في أقل من عام وكان لهذا السور الحصين بوابتان وله ستة ابراج وتم ذلك في ذي الحجة عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م[2] .

---

(١) العز بن فهد- **المصدر السابق**- مخطوط- ورقة١٤٥أ ب- Souso:Theportuguese Asia Tome P.164

(٢) عز الدين بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٦١أ- جار الله بن فهد- **حسن القرى في اودية ام القرى**- مخطوط- ورقة ٩أ-٩ب.

ومع انفجار الأزمة تضاعف الضغط البرتغالي على التجارة العربية الاسلامية والتجارة الشرقية و لم يجد السلطان الغوري امامه الا الحل العسكري وانها الوسيلة الوحيدة الناجحة لمواجهة الرتغاليين لإحباط خططهم في ضرب الإسلام والقوة الاقتصادية الاسلامية واتخذ الاجراءات اللازمة لوقف البرتغاليين عند حدهم[١] .

ولذلك وجه جهوده لإعداد اسطول بحري كبير جهزه بالمدافع والأسلحة النارية واحتكر خشب السفن في مصر وعمل على استيراده من آسيا الصغرى ومن جمهورية البندقية التي أضر التهديد البرتغالي بتجارتها مع الشرق[٢].

وكنتيجة لتحرج البندقية وعدم موافقتها على امداد السلطنة المملوكية بالخامات اللازمة لإنشاء وتجهيز الاسطول إلا انه تنفيذاً لمشورتها فقد بادر السلطان المملوكي بتوجيه طلبه الى السلطان العثماني با يزيد الثاني الذي استجاب على الفور وسارع بإرسال الخامات والمعدات والتجهيزات اللازمة لإنشاء الاسطول[٣] فكان لذلك اثره في المساعدة على الانتهاء من بناء عدد من القطع البحرية وقد اختلفت المصادر في تحديد عدد تلك القطع ففي الوقت الذي لم يحدد فيه ابن اياس عددها نجد ان ابن الديبع الذي رصد عدد السفن المملوكية التي مرت بسواحل بلاده انها كانت إحدى عشرة سفينة،

---

(١) العز بن فهد- **مصدر سابق**- ورقة١٦٤أ - إبن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٨٥.

(٢) ابن طولون- **مفاكهة الخلان**- ج١- ص٣٤٥- النهروالي- **البرق اليماني**- ص٨- Kammerer:op.cit,t.II,pp-148-149

(٣) ابن تغري بردي- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**- ج٨- القاهرة- ١٩٥٦م- ص١٠.

أما المؤرخ المكي العز بن فهد فيحدد بدقة متناهية جملة القطع البحرية التي تم إنشاؤها خلال تلك المرحلة بخمسين غراباً[١] .

أما فيما يتعلق بالقوى البحرية العسكرية والفنية المدربة واللازمة للعمل على الاسطول فلم يكن الاعتماد في تكوينها على العناصر المملوكية كبيراً، ذلك ان تلك العناصر لم تكن على استعداد للتخلي عن اساليب الفروسية والاقتناع باستخدام الاسلحة النارية، لذلك كون السلطان الغوري ((عسكراً ملفقاً من اولاد الناس[٢] وبعض المماليك السلطانية، والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماه وتركمان[٣] وغير ذلك من الذين لهم خبرة في القتال البحري واستخدام المدافع))[٤] .

وأياما كان الأمر فقد اقلع هذا الاسطول من ميناء السويس بقيادة الامير حسين الكردي في السادس من جمادى الآخر عام ٩١١هـ/ ٤ نوفبر ١٥٠٥م في طريقه الى جدة وتم الاستعداد عسكرياً بالاستعانة بالأموال التي تم تحصيلها من ميناء جدة من رسوم تجارية لتقوية الحملة وإمدادها بالأموال اللازمة وشرع في إنشاء اسطول جديد مزود بالوسائل التي تمكنه من الإبحار لمسافات

---

(١) ابن اياس- **مصدر سابق**- ج٤- ص١٨٢- العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٥٢ب.

(٢) أولاد الناس هم فرقة خاصة من أبناء الأمراء والمماليك ولدو احراراً و لم يمسهم الرق كآبائهم حتى أولاد السلاطين. أنظر: القلقشندي- **صبح الاعشى**- ج٤- ص١٥.

(٣) نسبة الى قولنا ترك اسلام- قبيلة تركية اسلمت بكاملها دفعة واحدة ثم حرف الاسم الى تركمان انفسهم. انظر: القلقشندي- **المصدر السابق**- ج٤- ص٦٨.

(٤) النهروالي -**البرق اليماني**- ص١٠.

بعيدة[1] ، ومنها ابحرت بعض سفنه جنوباً مارة بسواحل اليمن في المحرم عام ٩١٣هـ/ مايو ١٥٠٧م[2] .

وفي ربيع الثاني من نفس العام انطلق الأمير حسين الكردي في مجموعة اخرى ووصلت المجموعتان تقدمهما الى المياه الهندية حيث تمكن الاسطول المملوكي من إلحاق الهزيمة بالأسطول البرتغالي في اول معركة بحرية بينهما في شوال عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م[3] .

كان لانتصار الاسطول المصري على الاسطول البرتغالي اثره على البرتغاليين وقد أثار هذا الإنتصار غضب البرتغاليين، وأحسو بالخطر الشديد الذي سوف تتعرض له مصالحهم في المنطقة خاصة وان وصول ذلك الاسطول الى مياه المحيط الهندي كان مفاجأة لهم، بالإضافة الى انضمام سفن عدد من الولايات الهندية الى سفن اسطول المماليك ولذلك سارع فرانشسكو داهيدا نائب الملك بالهند في الخروج على رأس اسطول آخر مكون من تسع عشرة سفينة لملاقاة الاسطول المصري والقضاء عليه واشتبك الاسطول البرتغالي مع الاسطول المصري عند "ديو" في الثالث من عام ٩١٥هـ/ فبراير١٥٠٩م. وفي ذلك الاشتباك انتصر البرتغاليون على المماليك وحلفائهم انتصاراً ساحقاً،

---

(١) عز الدين بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٣٩أ- إبن اياس- **المصدر السابق**- ج٤- ص١٥١.

(٢) عز الدين بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٦٨أ- النهروالي- **المصدر السابق**- ص١٣.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٩٠أ- إبن اياس- **المصدر السابق**- ج٤- ص٩٥.

ويرجع ذلك الانتصار الى رفض الامير حسين بالانسحاب بما بقي من سفنه الى جدة بينما سارع حاكم ديو بعقد معاهدة صلح مع البرتغاليين(١) .

وقد تمكن البرتغاليون عقب هذا الانتصار من التسلط والسيادة وترسيخ اقدامهم على البحار الشرقية لمدة قرن من الزمان.

واصبح الاسطول البرتغالي قادراً على الابحار بالجنود الى أية جهة أرادوا طالما لم تعد هناك أي قوة بحرية تستطيع اعتراض وحداتهم البحرية عقب تدمير الاسطول المصري في موقعة "ديو" وهذا بالتالي ما قاد البرتغاليين نحو تحقيق الكثير من الانتصارات سواء في البر او في البحر الاحمر وفي اماكن متفرقة من المحيط الهندي، كذلك فقد أعطى ذلك الانتصار للبرتغاليين الفرصة من جديد لمضاعفة جهودهم في سبيل فرض حصار قوي على مدخل البحر الاحمر لمنع السفن من الدخول او الخروج اليه، وكان من المتوقع عقب انتصار البرتغاليين على المماليك في موقعة "ديو" ان يلحقوا بفلول الاسطول المملوكي الى داخل البحر الاحمر ومن ثم التوجه الى مكة المكرمة والمدينة المنورة كما رسموا لذلك غير ان الاحداث السياسية في المحيط الهندي عقب موقعة "ديو" أخرت مؤقتاً الزحف البرتغالي(٢) .

وعمل البرتغاليون على تشديد الحصار على البحر الاحمر والخليج العربي حتى لا تصل تجارة التوابل الى دولة المماليك، وراقبت سفنهم مدخل البحر الاحمر

---

(١) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٣٦٥- النهروالي، **قطب** الدين بن علاء الدين- **البرق اليماني في الفتح العثماني**-تحقيق حمد الجاسر- الرياض- دار اليمامة- ١٣٨٧هـ- ص١٩. Kammever:op.cit,t.ll,pp-13-14

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٨٩أ- إبن إياس- **بدائع الزهور**- ج٤ ص٢٨٦.

لمنع السفن الاسلامية من الدخول او الخروج من ذلك البحر. وقد ادت تلك المراقبة وذلك الحصار الى استيلاء البرتغاليين في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م على بعض السفن اليمنية(١) .

و لم تستطع السلطات اليمنية وقف الاعتداءات البرتغالية او الرد عليها واضطر السلطان اليمني الظافر الثاني الى الاستنجاد بالسلطان الغوري ومطالبته بالاسراع باتخاذ عمل مضاد يقضي على استفحال الخطر البرتغالي(٢) .

أما في القاهرة فقد هزت تلك الهزيمة الغوري خاصة وهو يرى ان احتياطيه من الاموال والسلاح يأخذ في التناقص بينما تزداد قوة البرتغاليين في الهند يوماً بعد يوم وتتسع املاكهم وتنشط تجارتهم على ان نكسة "ديو" البحرية لم تضعف من عزم السلطان الغوري بل صمم على إرسال حملة ثانية للثأر من البرتغاليين ونتيجة لضعف إمكانياته اضطر السلطان الغوري لتوجيه طلبه في عام٩١٦هـ/يونيو١٥١٠م الى سلطان اليمن مبيناً له حقيقة الموقف في القاهرة والاستعدادات التي تقوم بها لمواجهة البرتغاليين وقد طلب السلطان الغوري في عام ٩١٦هـ/يونيو١٥١٠م من ملوك الهند مساعدته في القتال ضد البرتغاليين وكما طلب من با يزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية امداد مصر بالسلاح وتقديم العون له من أخشاب وأدوات لبناء الأسطول وكان من رأي با يزيد الثاني ان البرتغاليين سوف يحاولون الوصول الى مكة والمدينة وتدميرهما، ولذلك وعد بإرسال السلاح ومساعدة الدولة المملوكية

(١) (1) Kammerer:op.cit,t.ll,pp-157-230

(٢) قطب الدين النهروالي- **البرق اليماني**- ص١٩- ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص١٩٦-٢٠٤.

ووفى السلطان با يزيد بما وعد وحمل السفن المصرية وعددها ثماني عشرة سفينة بالسلاح والاخشاب والحديد والبارود والمكاحل والمجاديف والسهام والحبال والمراسي[1].

وكان ذلك مدعاة لتعديل سياسة مصر في البحر الاحمر اعتقاداً منها بأن دخول البرتغاليين في البحر الاحمر وتوغلهم شمالاً كان امراً قريب الاحتمال والحقيقة التي لا ريب فيها أن النفوذ البرتغالي كان قد بدأ يزداد في خطورته في البحر الاحمر فقد اتصل البرتغاليون بدولة مسيحية كبيرة في البحر وهي الحبشة بقصد التعاون بين البلدين ضد القوى الاسلامية[2].

فقرر قادة الحملة ضرورة تأمين البحر الاحمر اولاً وقبل أي شيء ووجد القادة أن هذا التأمين لن يتم إلا بإنشاء خطي دفاع، أما الخط الأول فقد تقرر ان يكون على السواحل التهامية لليمن فاتجهوا الى احتلال بعض المواقع الصغيرة على الساحل التهامي بعد ان وجدوا التشجيع الكافي من الامام الزيدي الذي كان ينافس الطاهريين في سلطتهم[3].

اما الخط الثاني فقد تقرر ان يكون في جدة و لم يستمر قادة الحملة كثيراً في

---

(١) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص١٩٧.

(٢) Sousa:the portuguese Asla,1,p.397

(٣) با مخرمه- **البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية للسيطرة عليه**- تحقيق محمد عبد العال- دار المعارف- الاسكندرية- ١٩٨٩م- ص١٣١-١٣٢.

كمران[1] عقب عودتهم من عمان[2] اذ رجع كل من الكردي وسلمان الريس الى جدة لتركيز الدفاع عنها بعد وصول اخبار تفيد بقرب وصول حملة برتغالية الى البحر الاحمر[3].

وأخيراً هناك عامل مهم لا يمكن تجاهله وهو ان الطريق الآن اصبحت مفتوحة وميسرة للبرتغاليين للدخول الى البحر الاحمر وهو الامر الذي جعل القائد المملوكي حسين الكردي يتراجع مسرعاً خوفاً من تعقبه وبالتالي مهاجمة الأماكن المقدسة[4].

عاد الكردي الى جدة مسرعاً قبل حدوث أي طارىء جديد وفي الوقت نفسه محاولاً إكمال التحصينات والاستعداد لمواجهة أي غزو محتمل ويقال أنه لم يعد الى القاهرة خوفاً من فشله في حملته في الهند فأقام بجدة ويؤخذ على الكردي في هذه الفترة انه رجع الى القسوة مع سكان جدة التي تمثلت في

---

(١) كمران: تقع في أقصى شمال حدود اليمن على بعد ثمانية اميال فقط من الارض اليمنية وقبالة زبيد وهي قليلة السلكان فلا يزيد عددهم عن عدة آلاف، وكانت تجلب معظم دخلها من صيد المرجان ونقل البضائع في قوارب خفيفة. انظر: ابو معاويه الشمري- **مرجع سبق ذكره**- ص٣٦٥.

(٢) عمان سلطنة عربية اسلامية تقع في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة العربية وتبلغ مساحتها ٢٧٢,٠٠٠كم وتمتد بين دائرتي العرض ١٦°/٢٥° شمالاً وخطي الطول ٥٣° و٦٠° شرقاً وكانت عمان في تلك الاثناء بيد الامام محمد بن اسماعيل الاسماعيلي الذي تقلد الحكم عام ٩٠٦هـ/١٥٠٠م وكانت سلطته داخلية فقط. للمزيد انظر: محمد السيد غلاب وآخرون -**البلدان الاسلامية**- القاهرة- مكتبة الانجلو- ١٩٧١م- ص٩٢.

(٣) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٢٤١.

(٤) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٩٨أ.

هدم بيوت اصحابها غصباً وضمها الى بناء السور وحمل التجار التراب والأحجار[1] .

فأنشأ في اقصر وقت ممكن حائطاً احاط بجدة من جوانبها الثلاث دون البحر اذ بلغ طول الحائط المواجهة لليمن ٨٠٠ ذراعاً وبلغ الحائط الشرقي ٦٠٠ ذراع، أما الحائط المواجه للشام فقد تعدى الـ ٨٠٠ ذراع[2] وعزز هذا السور بمجموعة من الأبراج بلغ ارتفاعها عن الأرض ١٥ ذراعا اما البوابات فقد تم صنعها من الخشب المصفح إضافة الى خندق أحاط بسور البلد وبلغ مجموع ما صرف على بناء التحصينات مائة الف دينار غوري[3] .

اما مسلموا الهند فعندما اوضح لهم حسين الكردي مدى الخطر البرتغالي على جدة، وما يتبع ذلك من ضرر على مكة ومدى حاجته لبناء سور حول جدة لم يبخلوا عليه اذ وصلته من السلطان محمد محمود شاه ملك جوجيرات ومن امراء آخرون معونة عبارة عن ثلاث سفن مليئة بالتوابل والبهار كان لها دور في اكمال التحصينات اما ينبع فقد قرر لها بعض الوحدات المملوكية خوفاً من نزول البرتغاليين بها[4] .

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٩٨ب، Sousa: Tneportugheseaslatome.l.p193

(٢) الذراع: وهو مقياس معروف يتألف من ست قبضات يسمى ذراع العامةاما الذي يتألف من سبع قبضات فيسمى ذراع الملك. الشنتناوي- **دائرة المعارف الاسلامية**- م٧- ص٣٨٦.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٩٩ب- الجزيري- **الدرر الفرائد**- ج٣- ص٣١٤.

(٤) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٣١٤- النهروالي- **الاعلام**- ص١٢٨.

ولم تكن تلك التحصينات قد اقتصرت على ما قام به الكردي فقط وانما شارك فيها ايضاً قادة آخرون ففي عام ٩١٧هـ/١٥١١-١٥١٢م قام والي جدة من قبل حسين الكردي بتحصين الساحل امام الحصن الذي كان مكشوفاً دون حماية حيث انشأ مجموعة من الابراج وسط البر امام الساحل واقام برجين بحريين نزل بهما في البحر اثني عشر ذراعاً وأوصل الابراج السالفة الذكر بسور جدة[١] وحتى عندما خرجت حملة الهند الثانية عام ٩٢١هـ/١٥١٥م بقيادة كل من حسين الكردي وسلمان الريس نجد ان الكردي ومع الايام الاخيرة لدولة المماليك لم يألو جهداً في سبيل زيادة التحصينات اذ دعم تلك الاسوار بمجموعة من الابراج ومدها بأسلحة الحرب المكونة من المدافع الثقيلة والأسلحة الصغيرة وهي التي اظهرت فائدة كبيرة عندما حاول لوبو سواريز ٩٢٣هـ/١٥١٧م النزول بجدة لتنفيذ المخطط البرتغالي[٢].

وعندما نرصد الاوضاع في مكة المكرمة آنذاك نجد أنه قد ترتب على وصول الاسطول البرتغالي الى البحر الاحمر خوف امير مكة من نزول البرتغاليين في ميناء جدة اثناء وجود الامير حسين الكردي في مصر فتحرك بقواته الى جدة وبعث برسالة الى السلطان الغوري بين فيها خطورة الموقف في المنطقة وطلب

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٩٩ب- الجزيري- **الدرر الفرائد**- ج٣- ص١٦٣.

(٢) العز بن فهد- **المصدر السابق**- مخطوط- ورقة٢٠٠أ- ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٢٠٦.

الاسراع في ارسال الامدادات الى جدة لمنع نزول البرتغاليين بها، والاستيلاء عليها واستجاب السلطان الغوري لطلب امير مكة فأمر الامير حسين الكردي بالاسراع بالتوجه مرة أخرى الى جدة[1].

كما ارسل معه احد الامراء لاستقصاء اخبار البرتغاليين كما أمر بسرعة تجهيز السفن التي كان يتم انشاؤها في السويس وتزويد الحملة المرتقبة بحاجتها من الجنود والفنيين[2].

ولم تتوقف جهود السلطان الغوري على هذا الحد فقد توجه بنفسه الى ميناء السويس في عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م للاشراف على انزال السفن الجديدة الى مياه البحر الاحمر[3] وتتابعت مساعدات السلطان الغوري لأمير مكة فأرسل له قوة عسكرية اخرى في عام ٩٢١هـ/١٥١٥م بقيادة سليمان العثماني الذي انضم الى حسين الكردي بمجرد وصوله واشترك معه في قيادة الاسطول المصري ضد البرتغاليين[4].

وأبحرت الحملة إلى قاعدة جدة عام ٩٢١/١٥١٥م وتجمعت القوة البحرية كلها في مينائها وظلت بها طوال شهر رمضان، ثم أبحرت بعد عيد الفطر في ١١ من شوال عام ٩٢١هـ/١٥١٥م بقيادة الأمير حسن الكردي يساعده

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة٢٠١أ- الجزيري- **الدرر الفرائد**- ج٣- ص١٦٦.

(٢) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٢١٣.

(٣) **نفس المصدر** والجزء ص٢٢٨.

(٤) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة٢٠٣- Kammerer:op.cit,t,ll,pp.161-230

الامير سليمان العثماني إلى عدن، وبلغت جزيرة كمران في ١٧ من ذي القعدة من نفس العام[1].

وكانت الظروف كلها مهيأة لأن تجد الحملة كافة التسهيلات في كل الموانيء الاسلامية التي تمر بها.

لكن الحملة انصرفت عن غرضها الأساسي وانتهى الأمر إلى صراع مرير بين المماليك الجراكسة وبين السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب، وكان ذلك وصمة عار في أثناء ذلك الصراع ضد البرتغاليين[2].

ولكن الأحداث لم تمهل "حسين الكردي" كثيراً فبعد وصوله الى جدة بقليل سقطت مصر في أيدي السلطان سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) وسارع أشراف مكة بالدخول في طاعة العثمانيين والقبض على حسين الكردي وقتله غرقاً وذلك للانتقام منه جزاء ما ارتكبه أثناء ولايته لجدة[3].

وكان البرتغاليون يرقبون باهتمام هذا الصراع بين القوى الاسلامية فلما رفع الحصار المصري عن عدن وعاد الاسطول المصري الى جدة يذكر المؤرخ البرتغالي فاريا سوزا قيام البرتغاليون في سنة٩٢٣هـ/١٥١٧م بمظاهرة بحرية فحشدوا اسطولاً يتكون من اربعين سفينة وحملوا على ظهره الفين من المقاتلة.

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة٢٠٢أ.

(٢) ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٤- ص٤١٦.

(٣) النهروالي- **الاعلام**- ص١٢٨.

وكانت مهمة ذلك الاسطول مهاجمة الأسطول المملوكي في البحر الاحمر وتدميره والإتصال بالحبشة بقيادة الادميرال لوبو سواريز دي البرجاريا **Lopo Soures de albergoria** وبعثوا بتلك التجريدة الى عدن فلما وصلت اليها لم تقم بأي بعمل عدواني ضد المدينة بل عملوا على إقرار الامور سلمياً مع حاكمها وحاولوا ان يجتذبوه الى جانبهم ضد المماليك الذين هاجموا بلاده وحاولوا الاستيلاء عليها واعلن البرتغاليون مساعدتهم لشعب عدن ضد المماليك وخشي حاكم عدن رفض المطالب البرتغالية وما قد يؤدي اليه ذلك الرفض من مهاجمتهم لعدن وتدميرها[1] ولقد اقدم الامير مرجان الظافري حاكم عدن على الاحتفاء بمقدم العدو وأجابهم الى ما طلبوه من ربابنة عرب للمشاركة في غزو جدة فأمدهم بحاجتهم من المؤن والمرشدين البحريين لكنهم وجدوا الاسطول المصري في الميناء، فعادوا من حيث اتوا، خشية رد الفعل المصري و لم يحقق البرتغاليون أهدافهم الاستعمارية[2].

ورغم تلك الاعمال الوحشيه التي كان ينتهجها المماليك في جدة الا انه لا يمكن انكار فضل الامير حسين الكردي في التحصينات التي اقامها في جدة لصد الهجوم البرتغالي الذي شنوه خلال عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وذلك بعد مقتل حسين الكردي حيث انهم باءوا بالفشل الذريع نتيجة التحصينات التي

(١) ابن الديبع- **قرة العيون في أخبار اليمن الميمون**- مخطوط- ورقة١١٢- Sousa:Theportguese Asia.tom,1,189

(٢) ابو مخرمه- **تاريخ ثغر عدن**- ج١- ص١٦.

اقيمت فيها إبان فترة المماليك كما ينبغي الاشارة الى قيام سليمان الرومي بالبقاء في جدة مدة وجيزه بعد مقتل حسين الكردي والذي بادر بصد الهجوم البرتغالي المذكور، ومن ثم قام بملاحقته البرتغاليين اثناء هروبهم مما مكنه ذلك من الاستيلاء على إحدى سفنهم وأسر بحارتها[1].

ومما لا شك فيه ان خطة المماليك في البحر الاحمر كانت تعبر عن حرص كبير للسيطرة على سواحل هذا البحر لحمايته من السيطرة البرتغالية ومن ثم المحافظة على الاماكن المقدسة من أي محاولة برتغاليه لفرض نفوذها على المنطقة ومن ثم التمكن من فرض السيطره البرتغالية على الطرق التجارية عبر البحار العربيه وقد عمل المماليك جاهدين لاتخاذ عدن قاعدة لهم في جنوب البحر الاحمر ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل كما ذكر سابقاً وهذه الخطة هي التي اتخذها العثمانيون فيما بعد في هذا البحر قبل ان يرسلوا حملتهم الكبيره الى الهند عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م.

وفي خضم الصراع وبنفس الفترة الزمنية كانت القوة الناشئة -قوة الاتراك العثمانيين- توجه جهدها كله الى الاناضول وشبه جزيرة البلقان[2] ، ثم

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة٢٠١أ.

(٢) البلقان: ومعناها التلال المرتفعة وهي وعرة تكسوها الغابات واشتهرت بجبالها الممتدة من جنوب حوض الدانوب الى راس تومين وفروع البلقان الشمالية والجنوبية كثيرة وتقترب من البانيا والصرب ولا يفصلها عنها سوى جبل سكاردولس القريب من البحر الادرياتيك اشتهرت بكثرة الانهار والثروة المعدنية. أنظر: احمد الشنتناوي وآخرون- **دائر المعارف الاسلامية**- م٤- ص١٠٧.

بـدأت تتجـه الى الشـرق الاسـلامي متحدية النفـوذ الصفـوي في ايـران[1] ومناوشة النظـام المملوكـي عنـد اطـراف الشـام توطئـة للإندفـاع نحـو مصـر وتفويـض هـذا النظـام مـن اساسـه وتـرك بـاب البحـر الاحمـر مفتوحـاً علـى مصراعيه يتدفق منه أي تيار غريب[2] ، قبل ان تتمكـن الدولـة العثمانيـة مـن وراثة نفوذ مصر في هـذا الجـانب الحيـوي مـن عـالم الاسـلام وكـانت تركـة الدولة المملوكية المثقلة بالمسئوليات وفي مقدمتها الخطر البرتغـالي الـذي يهـدد البحر الاحمر فسارت الدولة العثمانية بصفة عامة في نفس الخطط التي كـانت تسير عليها الدولـة المملوكيـة في مواجهتهـا للخطـر البرتغـالي، وذلـك ببسـط نفوذها في الحجاز واليمن باعتبار هذين البلدين قواعد ارتكـاز لمحاربـة النفـوذ البرتغالي ليس فقط في البحر الاحمر بل كذلك في المحيط الهندي.

من هذا نرى أن الخطوات الاولى للكشوف الجغرافية البرتغاليـه حققـت قـدراً كبيراً من النجاح للبرتغاليين في السيطرة على التجـارة في الشـرق وفي تحويـل معظمها الى طريق رأس الرجاء الصالح فبينما كـان البرتغـاليون يعملـون علـى التوغل في البحر الاحمر ومهاجمتهم ميناء جدة خلال عام ٩٢٢هـ/١٥١٧م[3]

---

(١) ايران: الاسم الحديث الذي اطلق على بلاد فارس أو بلاد العجم، وايران مشـتقة مـن اريانيـا وهـي دولـة قديمة كانت تحتل الهضبة التي تمتد بين النهرين السند وقزوين وينتسب الاريـون الـذي قيـل انهـم نزحـوا غربـاً وسكنوا أوربا وأقاموا الحضارة الاوربية. انظر: عطية الله- **القاموس الاسلامي**- م١- ص٢٢٥- ابو معاوية- **المعجم الجغرافي**- ص٩٣.

(٢) **نيل المنى**- ص١٦-٣٩- احمد فؤاد متولي- **الفتـح العثمـاني للشـام ومصـر ومقدماتـه**- القـاهرة- دار الكتاب- ١٩٨٢م- ص٣٣.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٢٠٥أ.

كـان العثمـانيون قـد نجحـوا في اوائـل هـذا العـام في الاسـتيلاء علـى امـلاك المماليك وفي مد سيادتهم الى البحر الاحمر فبدأ حينذاك الصـراع المباشـر بـين العثمانيين والبرتغاليين وبدأ الشرق العربـي كذلـك طـوراً جديـداً مـن اطـوار تاريخه. ورغم كل ذلك فإن الدولة المملوكية لم تأخذ فرصتها كاملة للتصدي للبرتغاليين.

وبهذا انتقل عبء مواصلة الكفاح ضد البرتغاليين الى العثمانيين الذين اكتفـوا بالاعتماد على بقايا القوات المملوكية التي كانت قد اعلنـت ولاءهـا لهـم ولم يقـم العثمـانيون بعمـل حاسـم وسـريع، فأسـهموا بقضـائهم علـى الدولـة المملوكية، في مساعدة البرتغاليين على تثبيت وجودهم في المياه الشـرقية، ومـا ترتب على ذلك من تغييرات انعكست آثارها على الاقتصـاد العـالمي، وعلـى موازين القوى الدولية وقت ذاك[1].

وبحلول العثمانيين مكـان الممـاليك في إدارة شـؤون العـالم الاسـلامي، عقـب دخولهم القاهرة كان عليهم ان يواجهوا ذلك الخطـر البرتغـالي الداهـم الـذي كان يهدد أمن المسلمين في تلك المنطقة باعتبارهم ورثة الممـاليك وقـد بـدأوا في حمل لـواء الحـرب ضـد البرتغـاليين في البحـار الشـرقية وخاصـة في البحـر الاحمر، وكان على العثمانيين ان يعالجوا اهم المشاكل السياسـية والاقتصاديـة التي واجهوها في مصر بعد ان حول البرتغاليون طريق التجارة العالمية عنها الى طريق رأس الرجاء الصـالح ممـا جعـل الحـرب مـع البرتغـاليين ضـرورة. ومـن

---

(١) اسماعيل احمد ياغي- **الدولة العثمانية في التاريخ الاسلامي الحديث**- ط١- مكتبة العبيكان- الرياض- ١٩٩٦م- ص٥.

الملاحظ هنا ان العثمانيين باستقرارهم في مصر لم يشتبكوا مع البرتغاليين في موقعة فاصلة تحدد مصير تجارة المحيط الهندي[1] .

و لم تتوقف تلك التهديدات على الرغم من علم البرتغاليين بمدى قوة الدولة الجديدة في وقت كان فيه العثمانيون يهددون اوربا بالفتح لهذا عاود البرتغاليون مرة اخرى محاولة تهديد الاماكن المقدسة الاسلامية، وتتميز هذه الفترة الجديدة بأن البرتغاليين اصبحوا اكثر جرأة في محاولة الوصول الى اقصى شمال البحر الاحمر.

ففي عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م دخل لوبو سواريز قائد البحرية البرتغالية البحر الاحمر وكان قد مر بعدن اولاً ثم الحديدة، ومنها اتجه رأساً الى جدة[2] التي كان يتولى حمايتها "سلمان الريس" وما ان علم بمقدم الاسطول البرتغالي حتى بدأ في الاستعداد لمواجهته، وخرج بأسطوله وقابله امام مياه جدة[3] الا انه كان لهذا الحادث صداه ففي مكة خرج الشريف بركات الثاني مسرعاً الى جدة ومعه جماعة من المحاربين، وأقاموا بها خوفاً من هجوم مفاجيء عليها ولكن لوبو سواريز لم يستطع الوصول اليها بسبب شدة الرياح كما فشل في تدميرها او الاستيلاء عليها ويرجع هذا الفشل الى قوة التحصينات التي قام بها المماليك في الماضي[4] .

---

(١) جمال محمود حجر- **التوسع العثماني في الشرق العربي**- مكتبة العلي- الدوحة- ١٩٨٩م- ص٤٢.

(٢) Kammerer:op.cit,t,ll,pp.262-263

(٣) **نيل المنى**- ص٢٨.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٠.

ويذكر جار الله بن فهد أن السلطان العثماني أرسل مرسوماً يتضمن فيه "الاحتفاظ بالمراكب التي بجدة وغير ذلك من آلاتها"[١] .

ونستشهد بما ذكره المؤرخ البرتغالي أن لوبو سواريز اضطر بعد فترة الى العودة الى جدة بعد ان ثبتت خيانة احد المسيحيين المسئولين عن المدفعية في سفينته عندما قام بإفساد بارود مدافعه، وتمكنت القلعة من صد الهجوم البرتغالي نتيجة تحصيناتها السابقة[٢] .

و لم يلبث اسطول لوبو سواريز ان انسحب من أمام الميناء حيث تعرض لعواصف شديدة دمرت بعضا من قطعه وقام سلمان الريس بإرسال مجموعة من سفنه لحقت بهم بالقرب من اللحية، حيث تمكنت من أسر مجموعة منهم، عادوا بهم الى جدة ومن ثم أرسلوا إلى السلطان العثماني في عاصمته[٣] . مما جعله يرسل قوة اضافية الى ميناء جدة ((وأمرنا بتجهيز خمسمائة رومي في البحر ليقيموا بجدة حفظاً للمراكب التي بها من الفرنج المخذولين))[٤] .

بذلك نستطيع أن نحدد اهداف السياسة العثمانية في البحر الأحمر:

---

(١) **نيل المنى**- ص٣١.

(٢) Sousa:The portuese Asia,I,p.434

(٣) **نيل المنى**- ص٧١.

(٤) **المصدر السابق**- ص٨٦.

ونرى أن هذه السياسة كانت تقوم على أساس واحد هو إنقاذ البحر الأحمر من الخطر البرتغالي الزاحف من المحيط الهندي، وليس على أساس إحياء تجارة الشرق في البحر الأحمر ومصر.

يدلنا على ذلك أمران هامان:

أولاً: إن الدولة العثمانية حين خرجت إلى البحر الأحمر وإلى الصراع ضد البرتغاليين لم تحاول أبداً أن تكون من القوى الإسلامية المبعثرة في المحيط الهندي بل عملت على أن تكون جبهة موحدة تعمل في نظام وتناسق[(١)].

وبهذا لم تستطع التفرغ للنزاع البرتغالي. وكل هذا صحيح ولكنه لا يمنع من أن السياسة العثمانية لم تبن أصلاً على أساس إحياء تجارة الشرق[(٢)].

ثانياً: إن الدولة العثمانية قد فرضت تقليداً جديداً يقضي بمنع دخول المراكب المسيحية في البحر الأحمر لأنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز وأخذهم بسياسة الحذر والحيطة[(٣)].

---

(١) وقد يرد على هذا بأن العثمانيين نزلوا متأخرين إلى المحيط الهندي بعض الوقت بعد أن كان البرتغاليون قد بسطوا نفوذهم هناك. وقد يقال أيضاً إن الدولة العثمانية قد شغلت نفسها بميادين حربية متعددة:

١- جبهة المجر ضد النمسا.

٢- جبهة شمال افريقيا ضد أسبانيا.

٣- جبهة العراق ضد إيران.

للمزيد انظر: نيقولاي إيفانوف- **الفتح العثماني للأقطار العربية**- ترجمة يوسف عطا الله- بيروت- دار الفارابي- ١٩٨٨م- ص٧٨.

(٢) غسان علي الرمال- **صراع المسلمين مع البرتغاليين**- دار العلم- جدة- ١٩٨٥م- ص٢٢٥.

(٣) **نيل المنى**- ص٩٢.

لقد سار العثمانيون في البحر الأحمر على نفس السياسة الحربية التي سار عليها المماليك وهي اتخاذ اليمن بصفة عامة وعدن بصفة خاصة قاعدة الارتكاز ضد البرتغاليين في المحيط الهندي والسيطرة في البحر الأحمر لذلك قرر السلطان العثماني سليمان القانوني أنه لا محيص من إخضاع الموانيء اليمنية للسيطرة العثمانية المباشرة كي تشكل بذلك خطاً دفاعياً أمامياً وإبعاد الخطر البرتغالي عن تلك الأماكن المقدسة التي باتت تشكل خطاً دفاعياً ثانياً[1].

ولعل من اولى الدلائل التي قد تفسر لنا اهتمام العثمانيين بمد نفوذهم الفعلي على اليمن هي جعلهم ميناء جدة القاعدة الأساسية في سبيل انطلاقهم الى اليمن وفرض السيطرة عليه، وما لبث خاير بك حاكم مصر أن اصدر أوامره في سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م الى نائب جدة حسين الرومي بأن يضم اليه ولاية السواحل اليمنية الى جانب ولايته لجدة[2]، وبذلك رتبت الدولة العثمانية الخطوات الأولى لفرض سيطرتها على اليمن، ولم يتبق لها سوى تنفيذها على الواقع، والذي بدأ في نفس السنة عندما خرج حسين الرومي نائب جدة بحملة صغيرة الى ميناء البقعة[3] اليمني، إلا أنه لم يوفق في ذلك خاصة بعد ما

(١) **نيل المنى**- ص١٨-٣٦-٦١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٨٩.

(٣) البقعة: ميناء في البحر الاحمر على ساحل اليمن عدد سكانها قليل يعتمدون على صيد الاسماك. انظر: يحيى بن حسين- **غاية الاماني في اخبار القطر اليماني**- ج٢- تحقيق سعيد عاشور- ص٦٤.

رأى مدى استعداد مماليك اليمن بقيادة اسكندر الجركسي المخضـرم لمقاومتـه فآثر المسالمة وعاد إلى جدة[1] .

ويصور لنا جار الله بن فهد المكيدة التي دبرها سلطان اليمن اسكندر "اجتمع نائب جدة الرومي بالاسكندر الجركسي لمحاربة الافرنـج المخذولـين فقـال لـه اسكندر: توجه لها من البحر وانا من البر وسأله في إمداده بعسكر من الأروام والجراكسة مع آلة نفط فأعطاه قريب مائة نفس بآلتهم من المدافع وغيرهـا... ثم أشاع وصول الفرنـج الى بـاب المنـدب وانهـم متوجهـون الى بنـدر جـدة فارتجف نائبها... ثم تحقق عدم صحة ذلك"[2] .

و لم يقتصر الأمر على هذه القوة بل ان الشريف بركات أمر قائده مبـارك بـن بدر بالنداء في شوارع مكـة للجهـاد والتوجـه الى مينـاء جـدة[3] مصطحبـين معهم بالاكراه البنائين والسقائيين لعمـارة الـبرج الشـامي والـبرج اليمـاني في سور جدة وتحصينها ضد البرتغال[4] .

و لم ييأس البرتغاليون بسبب الفشل الذي تعرضت له حملـة سـواريز في البحـر الاحمر و لم يحاولوا الاستسلام مرة اخرى وقرروا تنفيذ مخططهم فأرسلوا حملـة كبيرة بقيـادة لويـودي سـكويرا نـائب الملـك في الهنـد الـذي خلـف سـواريز

---

(١) نيل المنى- ص١١٢-١١٣.

(٢) المصدر السابق- ص١١٦.

(٣) المصدر السابق- ص١١٤.

(٤) المصدر السابق- ص١١٥-١٧٠.

ووصلت الحملة الجديدة الى مدخل البحر الاحمر في اوائل سنة ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م(١) وكانت اغراض الحملة في هذه المرة تتكون من شقين الأول: منهما مهاجمة جدة والاستيلاء عليها(٢) .

الثاني: انزال اول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية لإنشاء علاقات دبلوماسية مع مملكة الحبشة والتكاتف معها للقضاء على النفوذ الاسلامي في موانيء البحر الاحمر(٣) .

و لم يحاول سكويرا الرسو بميناء عدن بل توجه مباشرة الى ميناء جدة مستغلاً في ذلك موسم الرياح، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب الرياح المعاكسة، كما وصلته انباء تشير إلى وجود قوات عسكرية بالاضافة الى وجود شريف مكة بركات بقواته(٤) بها، فاتجه الى ميناء مصوع حيث انزل دي ليما المبعوث البرتغالي لملك الحبشة(٥) .

وبفشل حملة لويودي سكويرا كان الخطر البرتغالي قد خف تدريجياً على الأماكن المقدسة الاسلامية بسبب اتجاه البرتغاليين إلى تعزيز علاقاتهم مع الأحباش وقد اهتم البرتغاليون بعدن بعد فشلهم في محاولة الوصول الى جدة

---

(١) Sousa:The portuguese Asia II,p.451

(٢) نيل المنى- ص٩١.

(3) Sousa:The portuguese Asia II,p.450

(٤) نيل المنى- ص١١٥.

(5) Sousa:The portuguese Asia II,p.463

ولهذا رأوا مـن الأفضـل لهـم أن يسـيطروا علـى عـدن قبـل أن تقـع في قبضـة العثمانيين[1] .

وبناء علـى إصـرار البرتغـاليين علـى اخـتراق البحـر الاحمـر لتهديـد الأمـاكن المقدسة بدأت الدولة العثمانية في تأسيس الأسطول المصري الجديـد علـى يـد الوالي العثماني خاير بـك[2] في دار الصنـاع ببـولاق عـام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م. هذا وباعتلاء السلطان سليمان دست الحكم نهج العثمانيون طريقاً جديداً في امر الثغور المصرية حيث تم ترتيـب نظـام خـاص لإدارة السـواحل المصريـة[3] وأصبح مرجعهم المباشر السلطان العثمـاني نفسـه نظـراً لأهميـة الصـراع مـع البرتغـال في البحـار العربيـة بالإضافـة إلى أن اهتمـام الدولـة بحمايـة الأمـاكن المقدسة الإسلامية وكذلك اهتمامها بمصالح المسلمين[4] .

ومنذ عـام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م بـدأ يتطـور اهتمـام العثمـانيين بـالبحر الأحمـر وكمرحلة جديدة في هذا الميدان وقعـت المجابهـة بـين العثمـانيين والبرتغـاليين

---

(١) **نيل المنى**- ص٩٣- النهروالي- **البرق اليماني**- ص١٥٨-١٦٢.

(٢) خاير بك بن بلباي: هو المعروف بملك الامراء وهو أحد عظماء الامراء الجراكسة جركسي الجنس كـان من مماليك الاشرف قايتباي ثم اعتقه وتدرج في المناصب حتى عينـه الغـوري نائبـاً لمدينـة حلـب، وكـان مـن الخونة الذين كان لهم دور كبير في هزيمة الغوري امام السلطان سليم في موقعة مـرج دابـق ثـم عينـه السـلطان سليم نائباً عنه في مصر، توفي في ذي القعدة عـام ٩٢٨هـ/١٥٢١م بعـد أن نـاب في مصـر للعثمـانيين خمـس سنوات وعدة اشهر للمزيد انظر: ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٥- ص١٩٣.

(٣) قسمت السواحل المصرية الى ثلاث قبودانات أحدهم لثغـر دميـاط والثـاني لثغـر السـويس والثـالث لثغـر الاسكندرية للمزيد انظر: سعاد ماهر -**البحرية في مصر الاسلامية وآثارهـا الباقيـة**- القـاهرة- دار الكتـاب العربي- ١٩٦٧م-ص١٣٦.

(٤) **نيل المنى**- ص٤١-٦٨-٩٥-١٢١-٢١١.

وذلك لأن اغلاق مداخل البحر الاحمر والخليج العربي من قبل البرتغاليين امر يتعارض مع المصالح السياسية والتجارية للدولة العثمانية التي أصبحت خادمة الحرمين الشريفين وتولت حمايتها من كل عدو داخلي او خارجي(١) .

كما أنها كانت قد فتحت لنفسها باباً للجهاد في أوربا المسيحية، ولكي تتمكن من المضي والاستمرار في جهادها كان عليها أن تسيطر على ينابيع القوة والثروة ومنها طرق البهارات والحرير(٢) .

ومن اهم الاسباب التي كثفت الاهتمام والاستعداد للمواجهة مع البرتغاليين أن حاكم كجرات قد لجأ الى طلب النجدة من العثمانيين ضد الاعتداءات البرتغالية فبعث سلطان كجرات نادر شاه رسولاً الى السلطان العثماني يطلعه على ما تعانيه بلاده من اعتداءات عليها من قبل المغول في البر والبرتغاليين في البحر، حتى انه ذكر في رسالته الى السلطان العثماني انه اودع ثلاثمائة وخمسون صندوقاً من التحف والنقد ذهباً وفضة امانة في مكة المكرمة وطلب منه صرف هذا المبلغ في تجهيز اسطول لمجابهة البرتغاليين(٣) .

وبالفعل استطاع نائب جدة الرومي الاستيلاء على هذه الاموال وإرسالها الى السلطان العثماني(٤) .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢١٣-٢١٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٩-٢٦-٨٥-٨٦-٩٢-١١٤-٣٦٩.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٩٠-١٩٨.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٣٤.

لذلك سارع السلطان سليمان العثماني بإعداد حملة بحرية ثانية من مصر منذ عام ٩٣٦هـ/١٥٣٠١م حيث ارسل السلطان سليمان امراً الى والي مصر حينئذ سليمان باشا الخادم ببناء ثمانين سفينة من مختلف الانواع والاحجام، كما امده بالأخشاب والأدوات اللازمة لبناء هذه السفن، ولكن السلطان بعد أن امر بإعداد تلك الأساطيل قد طلب من سليمان باشا ان يلحق بالحملة الثانية[١].

غادر والي مصر العثماني سليمان باشا الخادم ميناء السويس في يونية عام ١٥٣٨م/٩٤٥هـ على رأس اسطول عثماني كبير قاصداً القاعدة البرتغالية في ديو[٢] وبعد أن توقف الاسطول العثماني في ميناء جدة للاستعداد، ويصف لنا جار الله بن فهد تماديهم بالأذى وإضرارهم بالسكان حيث بلغ عددهم أربعة عشر سنجقاً ويقال مع كل سنجق خمسون رجلاً جملتهم سبعمائة رجل[٣] .وبعد مضي فترة وجيزة قدمت قوة عسكرية إضافية للمساندة بلغ تعدادها حوالي ألفي رجل[٤] ولقد امد نائب جدة هذه الحملة بأموال طائلة من الضرائب والرسوم من ميناء جدة بلغت مائتين وثمانين الف دينار صرفت على عسكر الحملة[٥] .

(١) الجزيري- **الدرر الفرائد**- ج٣- ص٣٥٦.

(٢) النهروالي- **البرق اليماني**- ص٧٨- ٧٢١.

(٣) **نيل المنى**- ١٩٠-١٩٣.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٩٦-١٩٧.

(٥) **المصدر السابق**- ص١٩٧.

ثم توجه الى عدن وفي طريقه اليها استولى على المناطق الساحلية العربية المطلة على البحر الاحمر ثم استولى على عدن في يوليه عام ٩٤٥هـ/ ١٥٣٨م بعد ان فتك بحاكمها عامر بن داود غدرا بعد اعتقاله بالحيلة وبعض اتباعه ممن اساء الى سمعته لدى القوى الإسلامية على السواحل العربية والهندية فقضى بذلك على الأسرة الطاهرية الشافعية في اليمن، وعين اياس باشا والياً عثمانياً عليها وعهد اليه اخضاع الامام الزيدي في صنعاء للحكم العثماني المباشر[١] .

وبذلك إستطاع إخضاع اليمن لنفوذهم تقديراً منهم لأهمية اليمن الاستراتيجية في صراعهم ضد البرتغاليين واتخذ سليمان باشا الخادم من عدن وموانيء اليمن الأخرى قواعد بحرية لمهاجمة المحطات والمراكز البرتغالية في موانيء الجزيرة العربية[٢] ثم غادر متوجهاً الى "الديو" ومع انه قد تمكن من الوصول الى "ديو" ومحاصرة قلعتها وتهديد القوة البرتغالية الا انه لم يتمكن من تحقيق اهدافه فاضطر الى العودة الى المياه العربية[٣] فوصل الى ميناء الشحر اليمني واستولى على حضرموت ثم اتجه الى عدن لاخضاع المماليك في زبيد للسيطرة العثمانية[٤] وتوكيد هذه السيطرة على سواحل البحر الاحمر والاشراف على النشاط التجاري فيه ولكن يبدو ان سوء تصرفه في عدن

---

(١) النهروالي- **البرق اليماني**- ص٨٢.

(٢) **نيل المنى**- ص٨٥.

(٣) Sousa: The Portughese Asla Tome. 1.p.464

(٤) **نيل المنى**- ص٢١١.

اساء اليه بشكل حاد مما جعله يفشل في هذا السبيل فعاد ادراجه الى مصر دون ان يحقق الاهداف الرئيسية التي كان يقصدها السلطان في حملته[1] .

ومهما يكن من امر، فقد كانت حملة سليمان باشا الخادم لتحدي السيطرة البرتغالية في المياه الشرقية محاولة عثمانية جريئة وطموحة على الرغم من فشلها في طرد البرتغاليين من ديو، وقام سكان عدن بتسليم مدينتهم للبرتغاليين نكاية بالعثمانيين لسوء صنيع سليمان باشا الخادم بهم وبحاكمهم عامر بن داود[2] .

وقد لعبت الاحداث في أوائل العقد الرابع من القرن العاشر الهجري/ اوائل العقد الرابع من القرن السادس عشر دوراً كبيراً جعلت السلطان العثماني سليمان القانوني، يتخذ خطوات جادة وفعالة لتوجيه ضربة قوية الهدف منها القضاء على الوجود البرتغالي بالبحر الاحمر والمحيط الهندي قضاء مبرماً ولا ريب في ان فتح العثمانيين للطرق عام ٩٤٠هـ/١٥٣٤م[3] أدى الى ازدياد الاهتمام والحرص من قبل السلطان سليمان بالمعركة مع البرتغاليين وذلك نظراً لامتداد النفوذ العثماني في ذلك الوقت الى سواحل البحر الاحمر حيث اصبحوا في مواجهة البرتغاليين. وتمثلت تلك الاحداث في استيلاء البرتغاليين على مواقع استراتيجية بالمحيط الهندي مثل "ديو" في ٩٤٣هـ/١٥٣٧م[4] فضلاً

---

(١) النهروالي- **البرق اليماني**- ص١٠٣-١٠٤.

(٢) **نيل المنى**- ص٢٢٣- النهروالي- **البرق اليماني**- ص١٢٥.

(٣) Sousa: The Portughese Asla Tome. 1.p.433

(٤) **نيل المنى**- ص٣٦٦.

عن الاستنجادات المتكررة من الامير "مرجان" حاكم عدن عن طريق ارسال خطاب موقع عليه من كبار العلماء والفقهاء بعدن[1] ، إضافة الى ذلك فهناك عامل مهم ساعد السلطان سليمان على الإسراع بإرسال تلك الحملة ألا وهو استنجاد سلطان "كجرات" مرة اخرى حيث بعث برسول في سنة ٩٤٣هـ/١٤٣٧م إلى السلطان سليمان يستغيث طالباً إرسال المدد العسكري إلى "كجرات" كي تتمكن من الوقوف أمام البرتغاليين الذين تمكنوا من الاستيلاء على ميناء "ديو" ثم قاموا بقتل السلطان بهادر شاه صاحب "كجرات" وهذا بدوره أثار السلطان سليمان واوغر صدره ضد البرتغاليين لذلك أخذ يستحث سليمان باشا الخادم على ضرورة الاسراع الى الهند لنصرة الإسلام والمسلمين فيها[2] .

وقد كان لقتل سلطان كجرات على يد البرتغاليين، وفرار عائلته، ووزرائه الى مكة المكرمة[3] اثر بالغ على تغير الأوضاع بالمحيط الهندي والبحر الاحمر لصالح البرتغاليين وعامل رئيسي شجع السلطان سليمان القانوني على تكليف باشا مصر سليمان الخادم بإعداد حملة قوية ضخمة الى المحيط الهندي في عام ٩٤٤هـ/١٤٣٨م[4] لوقف تفوق البرتغاليين الذين ما لبثوا ان الحقوا بالتجارة

(١) **نيل المنى**- ص٣١١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٣٤.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٦٨.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٨١.

العربية خسائر فادحة تمثل ذلك العامل في عقد الهدنة بين السلطان العثماني وبعض القادة الأوربيين[1] .

ومن هنا يتضح ان الهدف الرئيسي لحملة سليمان باشا الخادم يتعلق بصفة مباشرة وبرغبة السلطان العثماني في الحد من التغلغل البرتغالي وما يعقب ذلك من تهديد مباشر للأراضي المقدسة الإسلامية هذا من جهة ومن جهة اخرى مدى ما يشكله الوجود البرتغالي من عقبة امام الحركة التجارية الإسلامية[2] .

وبناء على هذه الأهداف وبحلول عام ٩٤٤هـ/١٤٣٨م تمكن سليمان باشا الخادم من التحرك من السويس بحملته المكونة من تسعين سفينة وعشرين الف جندي منهم سبعة آلاف جندي انكشاري[3] كما ضمت الحملة عدداً من البنادقة الموجودين بالإسكندرية من بحارة فينيسيا[4] وبعد سبعة أيام من إبحاره من السويس وصلت الحملة الى جدة مما سبب الاضطراب لسكانها الا انه لم يسمح للعسكر بالنزول فيها[5] .

ويرصد لنا جار ا لله بن فهد صورة إحتفال شريف مكة ابي نمي بهذه الحملة "فاهتم ابو نمي لملاقاة الباشا وشرع في تحصيل هدية فجمع كثيراً من العسل والسمن والغنم نحو الألفين وغير ذلك من المأكولات... وجهزت على ثلاثين

---

(١) Sousa: The Portughese Asia Tome.1.p.446

(٢) **نيل المنى**- ص٣١١-٣٦٨-٣٩١-٤١١-٤١٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤١٧.

(٤) Sousa: The Portughese Asla Tome.p.474

(٥) **نيل المنى**- ص٤١٨.

جملاً... مع ابنه السيد احمد ابي نمي ... و لم يـنزل الباشـا مـن مركبـه حفظـاً لعسكره، و لم يحدث شيئاً من الأمور، ولكنه امر بطلب الماء والحطب، وملئت له الصهاريج... فأمر الباشا بسفر المراكب جميعها وهي نحو تسعين وفيها مـن العسكر ما لا يعلمه إلا الله"[1] .

بعد ذلك غادر سليمان باشا مكة متجهـاً لليمـن إلا أنـه توقـف أثنـاء رحيلـه لإخضاع ميناء جيزان للسـيادة العثمانيـة بعـد ان كـان خاضعـاً للاشـراف في الحجاز حيث قام بطرد أميرها من قبل اشراف مكة المكرمة وعين عليها امـيراً يتبع مصطفى بك والى زبيد العثـماني، وفي أثنـاء ذلـك ارسـل مرسـولاً الى شريف مكة ابي نمي يطلب فيه خيلاً لتساعده في تثبيت السيادة العثمانية على اليمن، ولقد نفذ الشريف طلبه، وأرسل اليه خيلاً بلغت المائتين[2].

وهكذا واصلت الحملة سـيرها عـــائدة إلى مصـــر بعـــد إخضاعهـا لمينـاء جيزان حيـث وصلـت الى جـدة في الثـاني والعشـرين مـن شـوال عـام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م، وامر سليمان باشا الاسطول بمواصلة سيره الى السـويس[3] اما هو فقد توجه الى مكة المكرمـة لأداء فريضـة الحـج[4] واسـتقبله الشـريف

---

(١) نيل المنى- ص٤١٨.

(٢) المصدر السابق- ص٤٢٤.

(٣) المصدر السابق- ص٤٢٤.

(٤) المصدر السابق- ص٤٢٦.

احمد استقبالاً ابتهجت به مكة المكرمة نيابة عن والده شريف مكة ابي نمي وألبسه الخلعة السلطانية، واستمر بها حتى انهى اداء فريضة الحج[١] .

وفي هذه الفترة اجتمع بالشريف أبي نمي في المسجد الحرام ((فدخل المسجد الحرام فوجد الباشا يصلي للإحرام... فاجتمع به هناك وحصل الأمان لكل قاطن وسالك فأقبل الباشا عليه وأظهر الفرح والسرور لديه وقال له انت والدي وولدك السيد احمد ولدي... واكرمه بجلوسه على كرسي بحذائه واعطاه مراسيم من الابواب الخنكارية فيها إكرام الشريف وتعظيمه وشكره في قتال الأفرنج المخذولين))[٢] ثم أنه غادر مكة عائداً الى مصر حيث مكث فيها خمسة اشهر توجه بعدها الى اسطنبول حيث عينه السلطان سليمان وزيراً في الديوان مكافأة له على أعماله[٣] .

وخلاصة ما سبق نستطيع القول أن الصراع العثماني البرتغالي في البحر الاحمر اتخذ اشكالاً مختلفة تحكم فيها عوامل متعددة منها ما تعلق بدوافع كلا الدولتين في خوض غمار الحرب داخل البحر الاحمر فقبيل مجيء العثمانيين كانت البلاد العربية عموماً والواقعة على البحر الاحمر بوجه خاص تعاني من ازمات اقتصادية حادة، وقد ترتب على ذلك بطبيعة الحال فوضى سياسية نتيجة لاضطرار المماليك لاستخدام سياسة اكثر تشدداً تجاه رعاياهم لسد

---

(١) نيل المنى- ص٤٢٧.

(٢) المصدر السابق- ص٤٣١-٤٣٢-٤٣٣-٤٣٥.

(٣) المصدر السابق- ص٤٤٤.

احتياجاتهم للمحافظة على سيادتهم[1] لا سيما وان البرتغاليين لم يكتفوا بالسيطرة على طريق التجارة وتحويله الى رأس الرجاء الصالح فحسب بل عملوا على تحقيق أهدافهم الصليبية منتهزين الآثار الناجمة عن احتكارهم للتجارة وتوجيه ضربة قاتلة للاقتصاد العربي الاسلامي.

وعلى الرغم من موقف العثمانيين الحرج وإضطرارهم لاستخدام سياسة التشدد مع رعاياهم فقد ظهر بوضوح دور اشراف مكة المكرمة امثال الشريف بركات ثم ابنه الشريف ابي نمي[2] وبعض قادة المماليك المحليين في التصدي للمحاولات البرتغالية التي هدفت الى احتلال الأراضي المقدسة الاسلامية وكانت جهود هؤلاء الأشراف والعثمانيين ذاتية وعليه فقد كان مجيئهم في ذلك الوقت ضرورة حتمية لوقف هذه الهجمة الصليبية الشرسة على البقاع الإسلامية المقدسة من جهة، ولإنقاذ الاقتصاد العربي والاسلامي من جهة اخرى. وبالفعل دخل العثمانيون في مواجهات مع البرتغاليين في الطور الأول من حكمهم للحجاز[3] .

وهكذا نجت الموانيء العربية في البحر الأحمر من الخطر البرتغالي الى حين. غير أن البرتغاليين فرضوا حصاراً شديداً لمنع السفن القادمة من الهند من الوصول الى الموانيء العربية في البحر الاحمر وبخاصة موانيء جدة[4] .

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- مخطوط- ورقة١٢٨١أ.

(٢) **نيل المنى**- ص١٣-٢١-٦٣-٤٣٠-٤٣١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٩٨-١١١-٢١٣-٤٤٤.

(٤) **المصدر السابق**- ص٩٦-١٥٢-٢١٣-٢٣٠-٢٣١.

ولكن الحصار البرتغالي لم يكن محكماً، مما مكن التجار العرب من الافلات منه، وجلب كميات متواضعة من البضائع بواسطة سفنهم الخفيفة الى الحجاز ومنها الى جدة وعدن ومصر ولكنها لم تكن كافية لبعث الازدهار الاقتصادي السابق في الموانيء والمراكز التجارية العربية، مما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في موانيء البحر الاحمر وخاصة ميناء الحجاز جدة[١].

وهكذا فإن جهود الدولة العثمانية السابقة لم تؤد الى نتائج حاسمة على الرغم من نجاحها في منع العدوان البرتغالي من الامتداد والتوسع نحو الداخل ونجاحها في الحيلولة دون قيام جبهة برتغالية حبشية ضد القوى العربية والاسلامية في البحر الاحمر. ونجاحها في اغلاقه في وجه السفن الأوربية[٢] ولا سيما بعد ازدياد سيطرتها على عدن منذ استردادها في عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م[٣] لإدراكها لأهميتها في السيطرة على مدخل البحر الاحمر وفي ارسال الحملات البحرية الى موانيه من ناحية، كما ان القوة البحرية الكافية لأحكام الحصار على مدخل البحر الاحمر كانت تعوز البرتغاليين من ناحية أخرى[٤].

وعلى ذلك فمن الممكن تلخيص الموقف في الشرق العربي في ذلك الوقت بما يلي:

---

(١) **نيل المنى**- ص٧٨-١١٩-٢٣٠-٢٧٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٣-٧٨-١١٩- النهروالي- **الاعلام**- ص٢٢١.

(٣) الجزيري- **الدرر الفرائد**- ج٣- ص٤٦٦.

(٤) Sousa: The portugaese Asla. 1,p.474

أولاً: انهيار تام في تجارة المنطقة.

ثانياً: تفوق برتغالي ساحق في الخليج العربي.

ثالثاً: لم ينجح البرتغاليون في الدخول الى البحر الاحمر. ولكن تحالفهم مع الحبشة كان بمثابة نذير للخطر البرتغالي في هذا البحر.

من خلال الاستعراض السابق نستطيع أن نتبين الحقائق التالية:

أولاً: رأت الدولة العثمانية أن من واجبها الديني الدفاع عن البلاد الاسلامية التي تتعرض للخطر البرتغالي بخاصة البلاد الواقعة على الخليج والبلاد الجنوبية والغربية من شبه الجزيرة العربية الواقعة على ساحل البحر الاحمر وبحر العرب اضف الى هذا البلاد الاسلامية في الهند وبذلك تحقق نجاح العثمانيين في السيطرة على البحر الاحمر وتأمينه بما ذكرناه سابقاً، وبذلك أصبحوا المهيمنين على السواحل الشرقية والغربية للبحر الاحمر.

ثانياً: ان العثمانيين اعتمدوا على البحر الاحمر والنشاط في مياهه في سبيل السيطرة عليه وعلى سواحله وموانيه، وكان ذلك على نقيض سياسة الدولة المملوكية التي فضلت الاستناد إلى اليابس والاعتماد على القوة البرية لتحقيق أغراضها.

ثالثاً: أنه في الوقت الذي كان فيه العثمانيون يقومون بتنفيذ سياستهم في البحر الاحمر، كان البرتغاليون عاجزين تماماً عن عمل أي شيء إزاء التوغل العثماني وانتشاره على سواحل البحر الأحمر بعد ما سيطروا على عدن والسواحل اليمنية، وبعض المراكز الاستراتيجية على السواحل العربية للبحر

الاحمر وابرزها ميناء جدة[1] وفي هذا الاجراء العثماني وسيلة ضغط كبيرة على النفوذ البرتغالي النصراني من جهة وعلى القوى المؤيدة للبرتغاليين بخاصة الحبشة النصرانية من جهة أخرى.

فبذلك كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي للبحر الاحمر والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. فعلى الرغم من أن الدولة أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي. إلا أنها نجحت في منع تغلغله الى الحجاز حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته، وهو دخول البحر الاحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة، ثم الزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام، وهدم الكعبة المشرفة، ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ثم استئناف الزحف على تبوك ومنها الى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الاقصى. وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة في أيدي البرتغاليين.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٦-٢٣-٣١-٤٨-٥٠- وصفحات أخرى.

الفصل الثالث

الحياة الاقتصادية

تبرز الناحية الإقتصادية في طليعة المسائل الحياتية الباعثة على الرفاه والرخاء لأنها تعتبر عصب الحياة في المجتمع الإنساني وتظهر أهمية الإقتصاد عندما يتناول تفسير الحياة وأحداثها وظواهرها وربط تلك الأحداث والظواهر بالأسباب والعوامل العامة التي تتحكم فيها.

كما يعتبر النشاط الإقتصادي في أي بلد من البلدان، المرآة الصادقة التي تعكس مدى ما وصل إليه هذا البلد من رُقيٍّ تجاري وازدهار اقتصادي. فمن خلال تتبع مستوى حركة التبادل التجاري، وملاحظة أنواع البضائع التجارية يستطيع المرء أن يقف على حقيقة الأوضاع الاقتصادية في بلد ما[١].

من المؤكد أن الظروف الاقتصادية التي هي من نتاج البشر تختلف بين قطر وآخر وتختلف في القطر الواحد من جيل لآخر لذا فليس من الممكن أن يكون للأقطار كافة وللأدوار التاريخية جميعاً اقتصاد سياسي واحد[٢].

ويعتبر النشاط التجاري في مكة المكرمة في هذه الفترة شاهداً على الحالة الاقتصادية فيها، غير أن التجارة في مكة قد خضعت تحت تأثير مجموعة من العوامل التي أثرت فيها تأثيراً قوياً، إيجاباً أو سلباً، إلا أن العوامل الإيجابية في هذه الفترة كان دورها أكبر وأكثر تأثيراً.

---

(١) الحشيشي عادل احمد- **تاريخ الفكر الاقتصادي**- بيروت- دار النهضة- ١٩٧٤م-ص٣٥.

(٢) فهمي، نعيم زكي- **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور**- القاهرة- الهيئة المصرية-١٩٧٣م- ص٤٦.

العوامل الإيجابية المؤثرة في التجارة:

سأنتهج في كتابة هذا المبحث على نفس المنوال السابق حيث نضع ما رصده جار الله في إطار موضوعي، وكل ما ذكرناه من عناوين أو ايضاحات وتقسيمات إنما هو لتكملة بعض الفراغات التاريخية ووضعها في الإطار المناسب للموضوع.

العامل الأول: الموقع الجغرافي:

لقد حظيت مكة بموقع جغرافي فريد ذلك أن وقوعها على تخوم جبال السراة وعلى أطراف تهامة جعلها في بيئة جغرافية ممتازة[1] وأصبحت ملتقى الطرق التجارية البرية عبر الجزيرة العربية من شتى الجهات الأربع، كان لذلك أثر كبير في حياتها الاقتصادية حيث احتلت مكان الصدارة في الميدان التجاري منذ أقدم العصور وغدت محطة تجارية مهمة تتوقف فيها القوافل للراحة والبيع والشراء من ناحية، وكي تتزود بالماء والمؤن من ناحية أخرى لتستأنف رحلتها[2].

وعلى الرغم من كونها ﴿بواد غير ذي زرع﴾[3] كان للنشاط التجاري أثره في أن يجلب إليها ثمرات كل شيء ولهذا نرى الأقوات والثمار وسائر أصناف

---

(١) الحموي ياقوت- **معجم البلدان**- ج٢- ص٢١٨.

(٢) ابن خلدون- **العبر وديوان المبتدأ والخبر**- م٤- ص١٠٥.

(٣) سورة ابراهيم- الآية٣٧.

البضائع والسلع متوفرة فيها ولايقتصر وجودها على وقت الحج بل لا تكاد تنقطع طول العام، وهذا ما يؤكده جار الله بن فهد حيث لا يخلو كتابه من ذكر وصول القوافل التجارية برية أو بحرية الى ميناء جدة أو مكة المكرمة[1] .

العامل الثاني: القداسة الدينية:

تتمتع مكة المكرمة بمكانة عظيمة في نفوس المسلمين فهي مهبط الوحي، وفيها بزغ شعاع الإسلام حينما بعث النبي عليه السلام برسالة التوحيد- وقد كرمها الله سبحانه وتعالى بأن خصها بالبيت الحرام فقال عز وجل: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين﴾[2] .

ويندر أن يكون لمكان ما في العالم ما لمكة من تداعيات تاريخية ونفسية غير محددة، فقد تركزت حولها أحاسيس ومشاعر مئات الملايين من مسلمي العالم فهي قبلتهم الى يوم الدين يتجهون إليها في صلاتهم اينما كانوا ومهما تباينت لغاتهم واختلفت الوانهم وأجناسهم.

ولعب العامل الديني دوراً مهماً في تاريخ مكة الاقتصادي فكان وجود الكعبة الشريفة أكبر الأثر حيث يقصدها ألوف عديدة من المسلمين كل عام في موسم الحج. مما أدى إلى نشاط البيع والشراء بين الحجاج القادمين إليها بمختلف البضائع من كافة أنحاء العالم الإسلامي[3] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٦-١٢-١٥-٤٦-١٩٦-٢١٥- وصفحات متعددة.

(٢) سورة آل عمران- الآية رقم٩٦.

(٣) **نيل المنى**- ص١٦-٤٨-٥١.

كذلك مما زاد في أهمية مكة التجاري هو قربها من ميناء جـدة الواقعة على ساحل البحر الأحمر. فالمسافة بينهما لا تزيد على أربعين ميلاً[1] .

على أن مكة المكرمة التي كانت وما تزال أهم مـدن الحجـاز والـتي ازدهـرت ونمت وأصبحت في القرن العاشـر الهجـري/ السـادس عشـر الميـلادي قـاعدة إقتصادية تجارية انفردت بميزات دينية وتجارية لعبت دوراً هامـاً في حيـاة مكـة الاقتصادية.

العامل الثالث: موسم الحج:

اتفق أغلب المؤرخين على أن هذه البلدة المباركة سبقت لهـا ولأهلهـا الدعـوة الخليلية الإبراهيمية وذلك أن الله عز وجـل يقـول حاكيـاً عـن خليلـه: عليـه السلام ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهـم وارزقهـم مـن الثمـرات لعلهـم يشكرون﴾[2] وقال عز وجل: ﴿أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يجبـى إليـه ثمـرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾[3] فبرهان ذلك فيها ظاهر متصـل الى يـوم القيامـة، وذلـك أن أفئـدة النـاس تهـوى إليهـا مـن الأصقـاع النائيـة والأقطـار البعيـدة فالطريق إليها ملتقى الصادر والوارد... والثمرات تجبى اليها من كـل مكـان، فهي أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر[4] .

(١) البلادي- **معجم بلاد الحجاز**- ج٥- ص٧٤.

(٢) سورة ابراهيم آية رقم٣٧.

(٣) سورة القصص آية رقم٥٧.

(٤) **نيل المنى**- ص٨٦-٩٧-٢١١-٢٦٣.

تعتبر مكة المكرمة بحق مركز رواج اقتصادي أيام موسم الحج حيث تمثل قمة النشاط التجاري المزدهر فتشهد فيها ذروة الرواج والحركة التجارية وتكثر المتاجر المختلفة وتعقد بها الصفقات التجارية الكبيرة فالأعداد الكبيرة من الحجاج لابد أن يصاحبها نشاط كبير في حركة البيع والشراء فكان لذلك أعظم الأثر في أن تتبوأ المكانة العالية في الميدان الاقتصادي.

ويذكر لنا جار الله بن فهد أنه في موسم عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م بلغ عدد الحجاج القادمين من الشرق فقط عشرين ألف نسمة ومعهم كثير من البضائع الرائجة في بلادهم خاصة الأقمشة المزركشة للمتاجرة بها[1].

وقد كان لفريضة الحج وما يتعلق بها من مناسك دور في الحياة الاقتصادية العامة، حيث ارتبطت هذه الفريضة بأنواع عديدة من الأنشطة المالية والمهنية. كما ازداد التبادل التجاري بين المسلمين خلال تأديتهم لهذه الفريضة، وذلك بما يجلبونه معهم للتجارة، أو بما يبتاعونه من أسواق الحجاز خلال هذه المواسم العامرة[2].

إن إباحة الإسلام للتجارة في مواسم الحج رفع عن المسلمين التحرج من البيع والشراء وهم مُحْرِمون فللحاج أن يتاجر ويتكسب وهو يؤدي فريضة الحج مما كان له الأثر الكبير في إنعاش الحياة الاقتصادية في مواسم الحج.

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٥٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٩٦-١١٣-٢٠٥-٢٨٧.

وتشير بعض الآيات القرآنية إلى هـذه الإباحـة، حيـث يقـول تعـالى في محكـم كتابه: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يـأتين مـن كـل فج عميـق ليشـهدوا منـافع لهـم ويذكـروا اسـم الله في أيـام معلومـات علـى مارزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾[1] .

فتعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دورها أيضاً في اكتفاء الحجـاج غذائيـاً خلال توجههم لتأدية مناسك الحج، ومكوثهم بالمشاعر المقدسة. فقـد حبـب الإسلام للحاج بأن يتزود بالطعام عندما ينـوي الحـج لأنـه يغنيـه عـن سـؤال الناس، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿الحج أشهر معلومات فمـن فـرض فيهـن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وما تفعلوا من خـير يعلمـه الله وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[2] .

وقد فُسر الـتزود هنـا[3] بأنـه حمـل الحـاج لمـا يكفيـه مـن الطعـام والشـراب كـالدقيق والتمـر والسـويق[4] ومـن جهـة أخـرى، يبـدوا أن قـدوم الحجـاج بطعامهم وشرابهم إلى الحجاز قد ساهم نسبياً في زيادة التبادل التجـاري بـين الحجاج، كمـا أدى لإدخـال أصنـاف جديـدة مـن الأغذيـة والأشـربة والـتي أوجدت تنوعاً وتعدداً للسلع النباتية والمنتوجات الحيوانية المعروضة[5] .

---

(١) سورة الحج آية رقم٢٧.

(٢) سورة البقرة آية رقم ١٩٧.

(٣) ولقد ذكر الالوسي في كتابه أن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: كـان أهـل اليمـن يحجـون ولا يتزودون، ويقولـون نحـن متوكلون ثم يقومون فيسألون الناس فنزلت- فالتزود بمعناه الحقيقي- هو اتخاذ الطعام- محمود الالوسي- **روح المعاني**- ج١- بيروت- احياء التراث- ١٤٠٥هـ- ص٨٦.

(٤) **نيل المنى**- ص٤٨-٦٩-١٢٢-١٩٨.

(٥) **المصدر السابق**- ص٥٦-١١١-١١٧-١٢٥.

وأصبح سوق مكة يزداد ازدهاراً كبيراً في مواسم الحج والعمرة، فقد كان لها موسمان كبيران أحدهما في أول رجب والثاني في موسم الحج، حيث يتوافد الحجاج والمعتمرون على البلد الحرام من شتى أرجاء العالم الإسلامي ولقد ذكر جار الله بن فهد أنه ينفق في هذين الموسمين كل ما جلب إليها[1] .

أصبحت مكة تستقبل في هذين الموسمين عشرات الآلاف من الحجاج والتجار الذين يفدون إليها لقضاء فريضة حجهم هذا إلى جانب المنافع التجارية التي يحصلون عليها في تلك البقعة الطاهرة[2] .

والخلاصة أن رواج سوق مكة كان متصلاً عبر القرون، وخيراتها التي تأتيها من كل أرجاء المعمورة لا تكاد تنقطع فكان التجار يأتونها من كل مكان حاجين ومنتفعين، وكان هؤلاء التجار يسمون مكة المكرمة عروق الذهب[3] وكانت الأسواق التي تقام في منى وعرفة من أشهر أسواق هذا الموسم حيث يصل اليها أعداد كبيرة من تجار الشرق والغرب وحددوا وقت ورودهم بنظام المدة لأن نظام الأسواق السنوية في الأعياد كان يختلف تبعاً لمدار السنة[4] .

كما أن هناك سوق موسمية أخرى تنعقد عند وصول أهل السراة الذين كانوا يجمعون بين أداء العمرة وميرة البلد، ولهؤلاء أثر كبير في الحياة الاقتصادية

---

(١) **نيل المنى**- ص ١٨-٣٣-٤٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٤٩-٣١٩-٣٥١.

(٣) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة٣٨أ.

(٤) **نيل المنى**- ص١٠٨-١٣٩-١٤٦.

بمكة فوصولهم يعني الرخاء ورخص الأسعار حتى لقد كان يفيض الكثير من المؤن التي يجلبونها فيخزن أهل مكة والمجاورون هذا الفائض ويدخرونه حتى وقت وصول الميرة التالية[١] .

ويذكر جار الله بن فهد أنه لولا وصول هذه الميرة لكان أهل مكة في شظف من العيش، كما أن تأخرهم عن الوصول أو عدم مجيئهم يعني ارتفاع الأسعار وشدة الغلاء. ويرصد لنا في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م "في يوم الخميس خامس الشهر وصلت قافلة من بجيلة فتباشر الناس به بعد إياسهم، فكان وصوله على التجار من الفرج بعد الشدة"[٢] .

وكانت مكة مهيأة لاستقبال مثل هذا العدد الضخم الذي يعتمد عليه اقتصادها فقد وصفت حينذاك أن بها شوارع وأسواقاً وخانات ودوراً كبيرة في أماكن متفرقة. بل انتشرت حتى شملت المشاعر المقدسة خاصة منى حيث نرى جار الله بن فهد يستنكر كثرة البناء بها ومضايقة الحجيج ويعتبر أن البناء بها بدعة ((...وبنى بأرض منى وكثرة ما حدث من البناء فيها للدور والخانات والاحوشات مع ضيقها ومشاهدة الآية في اتساعها))[٣] .

وكان عشرات الألوف من الحجاج يزورون مكة سنوياً ويقيمون بها حوالي شهر من الزمن، حتى اذا انقضى موسم الحج ظلوا فيها حوالي العشرة أيام

---

(١) نيل المنى- ص٤٦.

(٢) المصدر السابق- ص٣٩.

(٣) المصدر السابق- ص٤٣٥-٤٣٦.

ينتظرون اذن أمير مكة بالرحيل، فلا يأذن إلا بعد انقضاء هذه المدة لينفق الحجاج ما معهم ويشترون ما يريدون من أسواق مكة التي يحدث فيها موسم الحج رواجاً عظيماًولا يتأخرون أكثر من ذلك حتى لا يثقلوا كاهل المدينة المقدسة بعد نفاذ ما معهم من دراهم[1].

ويعد الموسم الذي يحج فيه السلاطين والأمراء وأصحاب الثراء من أكثر المواسم رواجاً للتجارة إذ يقوم هؤلاء بالكثير من أعمال البر ويتصدقون على أهل مكة والمجاورين بالأموال والعطايا وقد كان هذا يؤدي إلى زيادة النشاط التجاري.

ولقد نما وارتفع النشاط التجاري عندما قدم الى مكة في موسم عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م أمير الصعيد داود بن عمر حيث قام بتفرقة الف ومائتي أردب قمح حمله معه إلى أهل مكة[2] .

وكما حدث في موسم عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م عندما حج سلطان البصرة راشد المسعفي ومعه أعداد كبيرة من الحجاج مصحوبين بكثير من السلع والأقمشة حتى رخصت بعض السلع في مكة[3] .

والواقع كانت مواسم الحج مواسم اقتصادية مزدهرة بالنسبة للحجاج والتجار معاً، ويقصد الحجاز في تلك المواسم تجار الهند والصين بطريق عدن أو جدة.

---

(١) نيل المنى- ص٤٣٩.

(٢) المصدر السابق- ص٢٦٦-٢٦٧.

(٣) المصدر السابق- ص٣٥١.

كما يفـد إليهـا تجـار الشـام والعـراق ومصـر والمغـرب لنفـس الغـرض الحـج والتجارة ومن لم يستطع الحضور استعان بمندوبين عنـه في شـراء المتـاجر الـتي يرغبها[1] .

العامل الرابع: الاحاطة بالمناطق الزراعية:

اتصفت مكة بجفافها وقلة أمطارها وإنعدام الأنهار فيها وبالتالي ندرة المحاصيل الزراعية، فتجدها تكاد أن تكون قليلة الأمطار ومحاصيلها قليلة جداً لا تكفـي بأي حال من الأحوال حاجة سكانها[2] ، ناهيك عـن آلاف الحجـاج الذيـن كانوا يأتونها سنوياً.

ولكن هناك عامل خفف من قسوة التضـاريس والطبيعيـة القاحلـة لمكـة وهـو قربها من المناطق الزراعية حيث احاطت بها القرى التي تكتـظ بسـكانها مـن المزارعين ورعاة الماشية فكانوا يرتادون مكة في كـل يـوم ليبيعـوا محصولاتهـم الزراعية من حبوب وفواكه وخضار وحيوانات وبالتالي يشترون ما يحتـاجون إليه من السلع التي لا تتوفر إلا في أسواق مكة.

وأهم المناطق منطقة الطائف التي تعتبر من أهم مخـاليف مكـة الزراعيـة وبينهـا وبين مكة ستون ميلاً وهي مدينة تمتاز بكثرة بساتينها المنتجة للرمان والعنـب والليمون والفواكه الحسنة والتي تجد طريقها إلى أسواق مكة، ويشير الى هـذه الحقيقة جار الله بن فهد في قوله ((وفـرغ الرطـب مـن مكـة... ووصـل مـن

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٧-٨١-٩٦-١٦١.

(٢) ريتشارد مورتيل-**الاحوال السياسية والاقتصادية بمكة**- ص١٨١.

الطائف العنب والخوخ والتوت والتين والرمـان... واشـتد الحـر لقلـة وجـود المطر))[1] .

كذلك كان لوجود القرى الزراعية القريبة منها مثل قرى بطن نخل وهـي إلى الشرق من مكة ذات عيون ومزارع وأغلب فواكه مكة وبقولها منها[2] .

أما بطن مر فيقع الى الشمال من مكة بمسافة ستة عشر ميلاً وهو واد خصيب كثير النخل تجرى به المياه الـتي تسقي الأراضـي الزراعيـة الـتي بهـا الخضـار والثمار والميرة ويمتلـك أغلـب مزارعهـا شـريف مكـة أبـو نمـي، الـذي اهتـم بالناحية الزراعية واستثمر كثيراً من الأراضي، وقـام بزراعتهـا وأصبـح أغلـب الأحيان كثير الترحال إليها لتفقدها والمكوث بها خاصـة أيـام جـني الثمـار[3] فيقول جار الله بن فهد "الشريف ابـو نمـي يعـود للـوادي... لأجـل بيـع ثمـر النخيل قبل إحمراره وإصفراره"[4] .

وبذلك أصبحت مكة تعتمد في مؤونتها على ما يـرد إليهـا مـن المنـاطق الـتي خارج حدودها.

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٨٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٦٣-٧٩-١١٨-١٢٣-١٢٤.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٨-٧٦-١١١.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٤٨.

العامل الخامس: الطرق التجارية:

للطرق أهمية بالغة في تنشيط الحركة التجارية وانعاش الاقتصاد داخلياً وخارجياً. والجدير بالذكر أن السلطة العثمانية اهتمت كثيراً بتأمين طرق التجارة سواء تلك التي تربط المدن الداخلية ببعضها أو التي تربط ميناء جدة بمكة المكرمة، وبصفة خاصة تلك الطرق والمسالك التي تيسر للحجاج سبل أداء فريضة الحج في كل عام.

وقد برزت أهمية الدور الذي تلعبه الطرق الممهدة في تيسير سبل الاتصال بين مختلف أجزاء المنطقة بهدف سرعة توصيل الاحتياجات والخدمات المختلفة للأهالي.

ولقد تحدثنا في الفقرة السابقة عن أهمية موقع مكة الفريد، وأنها تقع على طريق القوافل القادمة من اليمن إلى الشام والعراق وبالعكس. وهي طرق تجارية قديمة من قبل الإسلام ثم اهتم بها ولاة الأمر بعد الإسلام وارتبطت طوال تاريخها الاسلامي بكثير من المراكز الاسلامية بطرق برية معروفة ارتادتها القوافل محملة بالبضائع التي كانت تلقى رواجاً كبيراً في موسم الحج[1].

لقد تركزت طرق المواصلات في إقليم الحجاز على الطرق البرية بصورة رئيسية، وهذا لاينفي وجود الاتصال البحري بين ميناء جدة، وبعض موانيء

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٦-٤٨-١٣٥-١٤٣.

الحجاز الأخرى، كالقنفذة، ورابغ، وينبع، وغيرها من موانيء اليمن، ومنها عدن والحديدة وموانيء الهند والموانيء المصرية[1] .

ومن أهم الطرق:

طريق مكة جدة:

وهذا الطريق أكثر الطرق أهمية لمكة المكرمة والذي يسلكه كثير من المسافرين، تجاراً وحجاجاً والذي كانت تحميه البيوت المتراصة في مسافات متقاربة، وهو مزود بمحطات للاستراحة[2] ويمتد هذا الطريق ويتفرع منه طريق تهامة وعسير واليمن[3]، وهو مزود بأماكن للاستراحة، ولكنها كانت لعدم الاهتمام بها رديئة، وكذلك آباره لم تكن أحسن حالاً من استراحاته، ويمر عبر أرض قاحلة رملية[4] .

اهتم شريف مكة اهتماماً فائقاً بطريق جدة الواصل إلى مكة وحماية القوافل التجارية القادمة بالبضائع والسلع والتحف الى أسواق مكة. ويورد جار الله بن فهد نصاً يوضح فيه أن استتباب الأمن للتجار القادمين بتجاراتهم في موسم عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م قائلاً ((في أول الشهر حصل الأمن في طريق

(١) نيل المنى- ص١٢-١٨-١٩-٣٥-٦٨-١٦٣.

(٢) المصدر السابق- ص١٨-٥٦.

(٣) المصدر السابق- ص٣٦-٣٧-٦١-٣٣٢.

(٤) العز بن فهد-بلوغ القرى- ورقة٦١ب.

جدة والأودية وسلكتها القوافل وجلبت الأقوات إلى مكة، وسافرت المراكب الهندية وعدتها ستة))[1] .

وهناك الطرق الداخلية التي تربط بين مكة والقرى والبوادي المجاورة، ومنها:

طريق جدة- عسفان:

وديار بني سليم ماراً ببعض أجزاء من بلاد حرب[2] ، ولقد ازدهر هذا الطريق بكثرة ما يمر به من القوافل التي كانت تحمل إلى ميناء جدة ومكة المكرمة البضائع الكثيرة[3] .

ويذكر جار الله بن فهد أن أكثر من كان يرتاده من التجار التاجر اليمني الشيخ عفيف الدين عبد الله مرزوق اليمني خاصة بعد موسم الحج متجهاً إلى المدينة لبيع البضائع المحملة من مكة بعد انتهاء الموسم[4] وكانت تعود هذه القوافل على نفس هذا الطريق محملة من مكة وجدة بالبضائع التي تحتاجها القرى والبوادي في هذه المناطق[5] .

كما أن هناك الطريق التجاري القديم الموصل الى اليمن فقد كانت القوافل اليمنية تأتي عبر الطريق الغربي المحاذي لساحل البحر الأحمر محملة بالسلع

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٥.

(٢) البلادي- **بلاد حرب**- ج٣- ص١٢٠.

(٣) **نيل المنى**- ص١٣-١٦-٤٨-٥١-٦٩-١٤٣.

(٤) **المصدر السابق**- ص٩.

(٥) **المصدر السابق**- ص١٣-٥١-٩٨-٢٦٧.

اليمنية والحبشية والهندية وتعود محملة بالمنتجات الشامية والعراقية والحجازية ثم تعمل على تصديرها عن طريق البحر الأحمر(١) .

ولقد كانت القوافل التجارية تتبع الطرق الأقل وعورة والأكثر أمناً، متفادية المناطق المرتفعة الجدباء والمناطق الخالية من آبار المياه(٢) ، وكانت أفضل الحيوانات ركوباً على هذا الطريق هي حمير مكة التي تقطع هذه الرحلة في حوالي سبع ساعات(٣) .

ولم تكن هذه الطرق ممهدة أو صلبة أو ذات أرصفة، ولكنها من كثرة السير عليها أصبحت صالحة لعبور القوافل.

وتجدر الاشارة إلى أن طرق الحج هي نفسها طرق التجارة ذلك أن قوافل التجار كثيراً ما كانت تصحب قوافل الحجيج لما كانت تجده في كنفها من أمن وحماية.

كما حدث في موسم عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م عندما استطاع أمير الحاج الشامي قاسم بك الرومي ان يرهب كثيراً من أفراد قبيلة بني لام وعلى رأسهم شيخهم جغيمان وملحم اللذان كانا يتربصان لقافلة الشام ونهب مافيها(٤) .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٤-٣١-٥٠-٨٦-٩١.

(٢) **المصدر السابق**- ص١١-٢٦-١٢٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٤-٥٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٥٧.

وقد لعب طريق البحر الأحمر دوراً متميزاً في نقل السلع الشرقية الى المدن الشامية، واعتبر البحر الأحمر أحد شريان التجارة الدولية منذ أقدم العصور حيث كان يمثل اهم طرق التجارة بين الشرق والغرب وكان هناك طريقان مهمان عبر البحر الأحمر وهما:

"طريق جدة السويس" ثم طريق "جدة عدن" كما يعتبر الطريق الآخر والأكثر ازدهاراً لميناء جدة هو الطريق البحري الذي يربط الشرق بالبحر الأحمر حيث كان يبدأ من الصين الى البحر الأحمر ماراً بالساحل الهندي الغربي فساحل عمان ثم ساحل اليمن في البحر الاحمر الى ميناء جدة[1] .

ونهضت مكة في وسط الحجاز كمركز تجاري له أهميته، وارتبطت بعلاقات تجارية مع الهند والصين واليمن والعراق والشام والساحل الافريقي واعتمد اقتصادها على التجارة بالدرجة الأولى.

العامل السادس: المنشآت التجارية:

تعد المنشآت التجارية أساساً تنظيمياً للحركة التجارية وبقدر استكمال ذلك الأساس يتحدد مدى الازدهار التجاري، وهذا لا يمنع في الوقت نفسه أن يكون تدفق السلع على أحد المراكز التجارية الرئيسية هو الدافع إلى إيجاد تلك التنظيمات أو المنشآت التجارية أو يكون من العوامل المؤدية إلى تعديلها أو استكمالها بما يناسب حجم وأهمية تلك الحركة، ولكي تقوم تلك المنشآت بتحقيق الهدف من إنشائها وضعت تحت إشراف محكم محدد

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٧-٥١-٧٩-١١٣-١٩٨-٢٤٤-٢٦٧.

الاختصاصات بما يتناسب مع القواعد والأصول الشرعية للتجارة فقد كـانت الأسواق والوكالات والخانات من المنشـآت التجاريـة الـتي قـامت علـى أنهـا أسـاس تنظيمـي للحركـة التجاريـة وكـان الإشـراف عليهـا لتحقيـق الرقابـة والضرب على أيدي العابثين بها[١].

وليس من شك في أن إنشاء مثل هذه القواعد التجارية في مكة قد تمخض عن نتائج ايجابية فعالة امـتزجت فيهـا طبيعـة المكـان الدينيـة بتحركـات اقتصاديـة دائمة متميزة بقوة اندفاعها وبتطورها المستمر.

ورغم قدم ذلك فيما يتعلق بمكة فإن الوضع صـار اكـثر وضوحـاً منـذ بدايـة الإسلام فقد أخذت قوافل الحجيج تفد علـى مكـة المكرمـة مـن كـل حـدب وصوب فكان طبيعياً أن تنشط الحركة التجاريـة في مكـة، وأن تـزداد مرونـة أهلها ومحترفي التجارة الإسلامية[٢] . ومن أهم المنشآت التجارية:

(أ) الأسواق:

تعتبر دراسة الأسواق الداخليـة في بلـد مـا، وفي فـترة تاريخيـة معينـة، مدخـلاً حقيقياً لدراسة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في ذلك البلد.

---

(١) مصطفى الهمشري- **النظام الاقتصادي في الإسلام**- دار العلوم- الرياض- ١٤٠٥هـ-ص٢٩٥.

(٢) **نيل المنى**- ص٢٢-٤٦-٧١-٩٦-١١٣.

بذلك كانت الأسواق بمثابة القواعد الأساسية اللازمة لاستمرار الحياة الاقتصادية وهي أقدم أشكال النظم التجارية وقد نشأت ونمت في إطار من احتياجات المجتمع واجتذبت طلاب الرزق وأصحاب رؤوس الأموال[1] .

ولقد نشأت في مكة قبل الإسلام أسواق متعددة أخذت صورتها المنتظمة الواضحة بعد استقرار المجتمع الاسلامي، وقد أضفى عليها صفة الانتظام والاستقرار توافد الحجاج والمعتمرين في مواقيت معروفة من كل عام. ولقد عرفت الأسواق في تلك الفترة الزمنية نوعاً من التخصص في نوع البضائع التي يبيعها كل منها وهو ما يتفق مع طبيعة الحياة الاجتماعية في تلك الفترة[2]

ومن الأمور المهمة التي يجب الإشارة إليها في إطار الملاحظة عن الأسواق أنها لم تكن دائماً تحمل اسماً مشتقاً من نوع النشاط الذي يمارسه السوق، إذ أننا نجد في مصادر تلك الفترة إشارات لبعض الأسواق التي اتخذت أسماءها من أسماء المكان الذي أقيمت فيه كسوق منى وسوق المسفلة[3] ولقد تعددت الاسواق المكية في تلك الفترة ونستطيع تقريبياً أن نصنفها إلى: "**اسواق محلية**" تقام داخل المدن وتتميز باستمرار النشاط التجاري فيها بصفة يومية ودائمة، "**وأسواق موسمية**" تعقد في مناسبات ومواسم مختلفة على مدار السنة، ثم تأتي بعد ذلك "**الأسواق السنوية**"، وتعقد في وقت معين في كل سنة وسوف نفصل كل منهما على حده.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٨-٤٦-٦٧-١١٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٨-٤١-٢١١-٣٧١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤١-٨٦-٨٩-٩١.

الأسواق المحلية الدائمة:

وهي الأسواق الدائمة التي اشتهرت بمكة على مر العصور إذ جرت العادة أن يجتمع أصحاب الحرفة الواحدة وتجار الصنف الواحد في حي أو عدد من الأحياء الخاصة مؤلفين بذلك سوقاً.

ويبدو أن الأسواق المحلية التجارية كانت تحتل موقعاً مجاوراً للمسجد الحرام، وربما كان ذلك هو الموقع المثالي الذي ينبغي أن تكون فيه السوق، حيث يجتمع الناس ونستطيع أن نبيِّن هذا الأمر من خلال تمركز الحركة التجارية اليومية بمكة في أسواق قريبة من المسجد الحرام، مثل سوق البزازين عند باب بني شيبة وقد اختصت ببيع النسيج والقماش[1].

على أن كبرى أسواق مكة كانت في المسعى، في المسيل بين الصفا والمروة، حيث كانت تباع فيه الحبوب واللحوم والتمر والخضروات والفواكه[2]، ويشير جار الله بن فهد إلى ((أن الساعين كانوا يلقون مشقة في مواصلة سعيهم بسبب ازدحام الباعة على الحوانيت في المسعى))[3].

كما كان يوجد سوق كبير الى الشرق من سوق المسعى، وكانت تعرف بسوق العطارين وكانت بقرب باب بني شيبه أحد أبواب المسجد الحرام[4] وقد اختصت ببيع انواع العطارة والبهار والبخور على اختلاف انواعها

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٥٦أ-٩٨أ-١١١ب/ **نيل المنى**- ص٣-١٦-٤٨-٥١-٥٨-٩١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣-٤٨-٦٦-٧١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٩-٤٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٢-٣١-٥٨-٦٦.

وكانت من اكبر الاسواق واكثرها رواجا في تلك العصور لاشتداد الطلب على تلك الانواع التي كانت في مقدمة السلع المطلوبة.

كما كان يوجد سوق آخر يحده النازل من جبل المروة ويسمى السوق الصغير غربي المسجد الحرام وهو أهم سوق للخضروات واللحوم[1] .

ويعتبر سوق الليل الواقع شرقي المسجد الحرام من أشهر أسواق مكة، ويباع فيه جميع لوازم الحجاج[2] ويوجد به مرافق عامة وبه حمام كان يعد الثاني في الأهمية بعد حمام أجياد[3] .

وإلى جانب هذه الأسواق التي تمتاز بقربها من الحرم الشريف والمرافق العامة كان هناك العديد من الاسواق المنتشرة في بقية أحياء مكة وكانت تلك الأسواق تتميز أيضاً بطابعها التخصصي المميز مثل سوق الحطب وسوق المسفلة وأسواق اخرى بالزاهر[4] .

وعلى كل يمكننا أن نتصور بحق أسواق مكة التقليدية المحلية وهي تموج بجموع من الناس على اختلاف اجناسهم وألوانهم من مشترين ومتجولين وأصحاب حرف وتجار وباعة وغيرهم يتبادلون المنافع والمصالح ويتدافعون فرادى وجماعات وسط الشوارع الضيقة والأسواق المسقوفة قريباً من الحرم في أسواق العطارين والتمارين والبزازين وسوق الليل والسوق الصغير وغيرها.

---

(١) **نيل المنى**- ص٣-٦٦-٩٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٥-٢٣-١١١.

(٣) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة٦٦أ-١١٠ب.

(٤) **نيل المنى**- ص١١-٣٨-٤١.

وبطبيعة الحال كان تجار هذا النوع من الأسواق إما تجاراً مستقرين لهم حوانيتهم ودكاكينهم ومستودعاتهم وإما باعة متنقلون يقون في السوق معظم النهار ثم يبارحونه ليعودوا إليه في اليوم التالي.

ومما لا شك فيه أن ربط مكة بريفها أو باديتها بشبكة من الطرق البرية قد أسهم بشكل كبير في توثيق العلاقات الاقليمية بينهما وفي انتعاش التجارة والأسواق المحلية بشكل دائم ومتواصل.

الأسواق الموسمية:

أدى نشاط الحركة التجارية بين الشرق والغرب وازدهار تجارة التوابل في العصور الوسطى الى ظهور الأسواق الموسمية التي كانت تعقد في مواسم ورود التوابل من الهند والصين الى اسواق مكة وجدة وهي خاضعة لمواعيد هبوب الرياح الموسمية ويؤقت وصولها في مواعيد سنوية ثابتة لا تتغير.

والحق أن الخريطة التجارية لهذه الأسواق قد اتسعت في القرن العاشر الهجري وخاصة عندما استطاعت الدولة العثمانية أن ترث ممتلكات الدولة المملوكية بعد سقوطها على ايديهم[1] وهي تعكس نتائج التحول الكبير الذي طرأ على المركز التجاري لجدة وازدهار حركة التجارة بصورة رائعة وتعرف هذه الأسواق بمكة والحجاز باسم "الموسم الهندي" لكثرة وصول السفن والمراكب الهندية من الديو وكنابية[2].

(١) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة٢٦٥أ/ **غاية المرام**- ج٣- ص١٠٥.

(٢) **نيل المنى**- ص٢٦-٣١-٣٢-٤٧-١٥٠.

وفي عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م وصل الى ميناء جدة أحد عشر مركباً من الهند متأخرة عن موعدها لإعاقة الرياح لها وفي مقدمتها المركب المشهور بالناجي[1]، وكان لوصول السفن الهندية في هذا الوقت أهمية قصوى لدى شريف مكة حيث كان يرسل بعض القضاة ليباشرون عملية أخذ العشور ويذكر جار الله بن فهد أنه في شهر جمادى الأولى من عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م "توجه قاضي القضاة الشافعي الصلاحي إبن ظهيره القرشي الى جدة المعمورة بسبب موسم الهندي، ولقبض اللاك الواصل من الهند"[2].

كما كانت هناك سوق موسمية أخرى تنعقد عند وصول أهل السراة الذين كانوا يجمعون بين أداء العمرة وتسويق منتجات بلادهم التي يعتمد عليها أهل مكة في ميرتهم، ولهؤلاء أثر كبير في الحياة الاقتصادية في مكة فوصولهم يعني الرخاء ورخص الأسعار حتى لقد كان يفيض الكثير من المؤن التي يجلبونها فيخزن أهل مكة والمجاورون هذا الفائض ويدخرونه حتى وقت وصول الميرة ولقد استشهدنا بنص تاريخي لجار الله بن فهد في الصفحات السابقة[3] لأهمية القوافل التي تتواصل باستمرار منها عائداً ذلك لقربها من مكة المكرمة[4].

---

(١) **نيل المنى**- ص٥٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٣.

(٣) انظر: ص٢٠٠.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤٦.

الأسواق السنوية:

هي النوع الثالث من الأسواق، وكانت تعقد في مكة المكرمة في مواسم الحج إذ يفد اليها اعداد هائلة من الحجاج والتجار المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها[1] وسرعان ما تصبح مكة مركزاً حافلاً بمظاهر التبادل التجاري فبعض الحجاج يلتمسون مع أداء فريضة الحج في هذا الموسم ضروباً من النفع المادي، فينقلون المتاجر من شتى البلاد الى مكة المكرمة ويبيعونها هناك ويتزودون لبلادهم وأهلهم من الطرائف المكية ومما يحمله اليها الناس من سائر البقاع[2].

ولعبت أسواق مكة ايام الموسم دوراً كبيراً في النشاط التجاري والتحكم في الأسعار نتيجة لكثرة المتاجر والسلع التي يحملها الحجاج والتجار وما تؤدي إليه هذه الكثرة من انخفاض في اسعار السلع فقد اخبر جار الله بن فهد عن ذلك وضرب لنا مثالاً بموسم مكة عام ٩٣٨هـ /١٥٣١م ((كانت الوقفة بالجمعة و لله الحمد والخلق كثير والحج هنيء والأسعار رخية في جميع الأقوات خصوصاً الفاكهة من العنب والرمان والرطب والبطيخ الاخضر، وكثرة الكباش بحيث بيع الفحم باشربتين وزيادة يسيرة ودونهما المن والسمن بتسعين كبير))[3].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٥٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٩٧-١٦٣-١٩١-٢٦٣-٢٦٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٠٥.

ومن أسواق مكة العامرة وقت الحج، سوق منى، حيث يقيم الحجاج اثناء أيام التشريق الثلاثة، من الحادي عشر إلى الثالث عشر من شهر ذي الحجة.
وتقع منى على فرسخ من مكة، وهي جزء من الحرم طولها ميلان، وهي تعمر في المواسم وتخلو بقية السنة وهي عبارة عن أزقة ضيقة والمسجد في الشارع الأيمن ومسجد الكبش بقرب العقبة وبها آبار وبرك للمياه وكان بمنى حوانيت حسنة البناء قد بنيت بالحجر وخشب الساج[1].
وتعتبر منى في تلك الأيام الثلاثة سوق من أعظم الأسواق يباع فيها من الجوهر النفيس الى ادنى الخرز الى غير ذلك من الامتعة وسائر سلع الدنيا لأنها مجتمع أهل الآفاق. ولقد رصد لنا جار الله بن فهد ذلك بأنه في موسم عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م وصلت مراكب عديدة قادمة من الهند محملة بشتى أنواع البضائع والسلع "وكثر الجلب من جميع الجهات مع رخص الأسعار في القوت والدقيق والسمن والعسل واللحم والماء كثير في برك الحاج بمنى ورخص الغنم والسمن"[2].
ومما يدل على عظم ذلك الرواج الاقتصادي في أسواق المواسم أن البيع والشراء قد عم في منى حتى وصل الأمر أحياناً إلى تواجد الباعة بمسجد منى وقد لقي ذلك معارضة وامتعاضاً من بعض علماء المسلمين[3].

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٨-٩٦-١١١- إبن جبير-**الرحلة**- ص٨٧.
(٢) **نيل المنى**- ص٣٢٨.
(٣) **المصدر السابق**- ص١٨٦.

ويحق لنا القول أن أسواق مكة بمنى وعرفة اشتهرت خاصة في موسم الحج بوجود الأنواع المختلفة من المنسوجات التي يرد بها التجار من الشرق والغرب حيث تلاقي رواجا عظيما وتقام لها الأسواق العامرة.

وقد سجلت أسواق منى والمشاعر نشاطاً تجارياً عالياً فالتجمع الإسلامي الكبير كان يصاحبه على الدوام حركة دائبة ونشطة في البيع والشراء لدرجة أن الحجاج كانوا يظلون في منى بعد النزول يوما آخر لرغبة التجار في ذلك[1].

وكانت تعتمد أسواق منى والمشاعر على السلع التي يحملها الحجاج معهم إلى مكة من اليمن وبلاد الشام والعراق وخراسان وغيرها من البلاد الإسلامية فضلاً عن المتاجر التي كانت تجلب الى مينائها جدة، من الهند والشرق الاقصى عن طريق ميناء عدن في جنوب شبه الجزيرة العربية[2].

ولايقتصر النشاط التجاري في موسم الحج على اسواق منى وعرفة فقط فجميع اسواق مكة تكون في حركة وتبادل تجاري مزدهر ومستمر فقد كان الحجاج يرتادون هذه الأسواق في النهار اذ يظل المد التجاري قويا فيها ولعل من ابرز الدلائل على ازدهار التجارة في هذا الموسم ان الاسواق كانت تقام في المسجد الحرام وكثيراً ما يحدث بها التعطيل للساعين بين الصفا والمروة نتيجة ازدحام الناس على الباعة[3] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٣١٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٦-٣٣-٣٤-٧١-١٩١-٢٢٣-٢٤٧-٣١١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٦١.

ويرد كثيراً في ثنايا **نيل المنى** وصول قوافل الحجاج القادمة من مكة وإشارات لما تحمله من متاجر الشرق ونصائح بعض التجار الى شركائهم بألا يشرعوا في شراء متاجرهم الى ان يرجع الموسم[1] .

ونلاحظ هنا ان المكيين كانوا يتحكمون في الموسم سواء في نقدهم او في سائر معاملاتهم لأن الموسم هو فرصتهم الوحيدة لجني ارباح طائلة، ولكن يظهر ان البعض منهم قد غالى في استغلال مواسم الحج والعمرة لتلك الغاية، حتى أن جار الله بن فهد يتضجر مما يحدث مشيراً إلى تلك الإحتكارات في موسم عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م فيقول ((ووصلت قافلة من اليمن فيها سمن فاشتراه بعض السوقه لكون السعر بها بلغ ثلاثة ارباع الدينار فعدم السمن من السوق، فلله الأمر من قبل ومن بعد ذلك))[2] .

كما تأسف على ما يحصل من أمراء الحاج في زمانه وشحنهم المراكب بالأحمال للمتاجرة ومنع الباعة والمتسببة عن الحاج حتى ينتهي ما عندهم كما حدث في موسم عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م عندما منع امير الحاج الشامي الجلاب اليمنية من دخول مكة حتى يستطيع ان ينفق السلع التي يتاجر بها بأغلى الأسعار[3] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٤١-٥٣-٨٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٩

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٧.

ومما سبق يتضح أن مواسم الحج ترسم لنا أصدق صورة لأسواق مكة المكرمة والمشاعر في ذلك الوقت وتوضح لنا طبيعة الحركة التجارية الهائلة فيها فأسواق العطارة والبخور تعج بأنواع التوابل والعقاقير الشرقية والعطور الثمينة التي تملأ الجو عبيرا وشذى واسواق الصاغة تزخر بأجود الحلي واثمن الأحجار الكريمة والجواهر النفيسة واللآليء الحرة[1] .

وأسواق النسيج والبز تمتليء بمختلف المعروضات من الأقمشة الحريرية والكتانية والقطنية والمطرزة والسجاجيد الفارسية الفاخرة الى غير ذلك من السلع والبضائع ولا غرو ففيها مجتمع المشرق والمغرب واليها ترد المتاجر في قوافل عظيمة من مصر والشام وحلب وبغداد والحسا ونجد واليمن وبحر الهند والحبشة والشحر وحضرموت وعربان جزيرة العرب وطوائف اخرى[2] .

بذلك نستطيع القول أن أغلب منتجات العالم الإسلامي الضرورية والكمالية في هذه الفترة يتم طرحها في أسواق مكة ويزداد تأكيد ذلك أن سلاطين بني عثمان كانوا يبعثون من يشتري لهم بعض ما يحتاجون إليه من السلع كالتحف والهدايا الثمينة من اسواق مكة ايام المواسم.

ففي عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م وصل مرسوم من السلطان العثماني سليم يتضمن عدة امور ومن ضمنها مرسوماً يتضمن ((... شراء بهار وقماش وغير ذلك بعشرة آلاف دينار للخنكار))[3] .

(١) **نيل المنى**- ص٣١-٨٦-٢٧١-٣٤٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٦-٣١-٨٥-٢٧١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٢.

وبذلك نجد أن جار الله بن فهد اهتم بحركة المجتمع الاقتصادية وبيان أهمية الاسواق -بأنواعها المختلفة- في ازدهار الحركة التجارية والحياة المعيشية لأهل مكة.

فسجل لنا كل ذلك بعين خبيرة لاقطة وكأنه أحد خبراء إقتصاد السوق في العصر الحديث.

أسواق النخاسة:

اشتهرت أسواق النخاسة في عدد من مدن الحجاز إذ كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتجارة الرقيق التي ازدهرت في مكة المكرمة بشكل واضح خلال هذه الفترة، فقد تبوأت مكان الصدارة بين أقطار العالم الإسلامي في الإتجار بالرقيق واستلزم ذلك وجود أسواق النخاسة يعرض فيها الرقيق من الغلمان والجواري الذين جلبوا بواسطة الحملات العسكرية المملوكية أولاً ثم العثمانية ثانياً[1] أو عن طريق التجار.

كانت تجارة الرقيق تجارة مربحة ومزدهرة في مواسم الحج والواقع أنها أو عن طريق التجار تجارة رابحة ضاربة في القدم في الحجاز، إذ يُجلب الرقيق من الأسواق الخارجية، ويعرض للبيع في المواسم، حيث يزداد الطلب عليه[2].

---

(١) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة١٨٦ب/ **نيل المنى**- ص١١٦-١٤٨.

(٢) توفيق عامر- **الرق وأحكامه في التشريع الاسلامي**- مجلة المؤرخ العربي- العدد٢٧- بغداد- ١٩٨١م- ص١٤.

ويشير جار الله بن فهد إلى انتعاش حركة البيع والشراء في الرقيق خلال مواسم الحج(١) . وكان بعض تجار الحجاز يجنون من هذه التجارة أرباحاً عظيمة ويرجع ازدياد الطلب على شراء الرقيق الى حاجة الحجاج لمن يخدمهم في ركوبهم وحمل متاعهم وإعداد طعامهم(٢) .

كما كان أهل مكة المكرمة يقومون بشراء الرقيق لاستخدامهم في منازلهم او في أعمالهم الخاصة أو الزراعة، او كعمال يدويين، ومما لا شك فيه أن تجارة الرق كانت حكراً في أغلب الأحيان على التجار المحترفين الذين كانوا يحققون نسبة عالية بها من الأرباح(٣) .

والجدير بالملاحظة هنا، أن تجار الرقيق كانوا يتخذون أساليب متنوعة للترغيب والترويج لهذه السلعة القيمة. فقد كانت الجواري تُزين وتُعرض للبيع في مواسم الحج كما كان يُطاف بهن في المواسم حول البيت في المسجد الحرام ثم يعرضهن للبيع بدار الندوة الى جهة باب بني شيبة(٤) .

وكانت هناك أسواق خاصة لبيع الرقيق داخل بيوت يمتلكها تجار الرقيق في الموانيء المهمة، مثل ميناء جدة وميناء الليث، حيث يباع فيها الرقيق الجيد(٥)

---

(١) **نيل المنى**- ص١٢٦-٣٨٠-٣٩١-٤١٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٨٠.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٤٠.

(٤) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٨٠أ.

(٥) **نيل المنى**- ص١٣١.

ونستطيع أن نؤكد أن تجارة الرقيق تمثل وضعاً اقتصاديا هاماً في مكة المكرمة حيث يباع عدد ليس بالقليل منه إلى الحجاج، ينقلونه معهم إلى أوطانهم على أمل أن يحققوا ربحاً بعد بيعه، كما يباع قسم من الرقيق في جدة الى العسكر المقيم من العثمانيين الذين يخدمون في مكة المكرمة وميناء جدة[1] .

نتيجة للثراء الفاحش من هذه التجارة قرر شريف مكة ابو نمي أن يستفيد من الأموال الطائلة التي يجنيها دلالي الرقيق فأصدر مرسوماً على دلالي الرقيق بزيادة المكوس عن الفترة السابقة لتصبح خمسمائة دينار اشرفي[2] .

وتشير كثير من المصادر التاريخية[3] . ومن أبرزها **نيل المنى** حيث يؤكد مؤلفه في عدد من المواضع ان المكيين كانوا يعاملون رقيقهم معاملة طيبة حسنة، حيث كان وجود الرقيق يعتبر نوعاً من الوجاهة الاجتماعية والثراء والرفاهية الاقتصادية.. التي يحافظ عليها سيدها. وقد كان الأسياد يحرصون على تعليم الرقيق القراءة والكتابة وخاصة النبهاء منهم ليتفاخروا بهم، واستطاع كثير من الأرقاء أن يترقوا ويتقلدوا مناصب مهمة في مكة وخير مثال على ذلك ما حدث في عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م عندما عين الشريف بركات عتيق جده بركات ويدعى شوفان بن بيشه ولاية الْحسْبَة في مكة وكان قبلها قائداً

---

(١) **نيل المنى**- ص١٣١-١٨٨-٤٤٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٤٠.

(٣) الفاسي- **شفاء الغرام**- النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- العز بن فهد- **غاية المرام**- الجزيري- **درر الفرائد**- العصامي- **سمط النجوم**-.

مشهور[1] و لم يكن تعيينه حالة نادرة فقط بل ان من هؤلاء الأرقاء من وصل الى مرتبة اعلى من ذلك فلقد كان حاكم مكة -عتيق للشريف بركات- يدعى القائد زين الدين مبارك بن بدر السحرتي واستمر في حكم مكة حتى وفاته في عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م[2].

ولقد اشتهر هؤلاء الأرقاء بصفات جميلة وأخلاق حميدة وعرفوا بالصلاح والخير وبذلك استحقوا هذه المناصب الهامة. كما كانت نظرة الكثير منهم للرق هي إخراج المسترقين من ربقة الشرك إلى حظيرة الإيمان، ويختنون على الطريقة الإسلامية بعد إسلامهم. وفيما يبدو أن النظرة كانت على عكس ما هو سائد في أوروبا، حيث كان الرق وسيلة للقهر والاستذلال وطريقة لاستنفاد طاقات الانسان وتسخيرها لمصلحة السيد من غير هوادة ولا رحمة.

(ب) الخانات:

امتازت مكة المكرمة بوجود منشآت تجارية عرفت باسم الخانات وفي مصر تعرف باسم الفنادق أو النزل[3] ويبدو أن اسم الخان كان الغالب والمعروف

---

(١) **نيل المنى**- ص١١٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٨١.

(٣) اصل كلمة فندق مأخوذة من اليونانية Pando Keion وصممت في القرن التاسع والعاشر الهجري على شكل مباني فخمة مربعة الشكل ولبعضها اكثر من طابق ولها فناء داخلي مكشوف أي غير مسقوف تحيط به الحوانيت في الطابق الأرضي حيث توجد المخازن وفوقها مساكن للتجار ولقد تطورت الفنادق وأصبحت كما نراها في الوقت الحاضر من روعة التصاميم وفخامة البناء. انظر: محمد التونجي- **معجم المعربات الفارسية في اللغة العربية**- دار الادهم- دمشق- ١٩٨٨م- ص١٢٣.

في الحجاز على أنه يمكن القول بأن الخان وان اشترك مع الفندق واشبهه في بعض النواحي باعتبارهما من المؤسسات التجارية الهامة فهو عبارة عن مبنى ضخم معد لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم وغيرهم من المسافرين والحجاج ويحتوي على مجموعة من المستودعات والحوانيت الكبيرة والصغيرة ويتوسطة فناء واسع على هيئة رواق مغطى لحفظ بضائع التجار وبه اصطبل للدواب وفي أعلاه عدة أدوار ومساكن[1] .

ويؤدي الخان وظيفة حي قائم بذاته تتوفر فيه المرافق الهامة فهو يشمل مسجدا صغيراً وبئر ماء وميضأة وخزينة عامة وتقام في حاراته وطرقاته الضيقة المزادات التجارية فتزدحم بالتجار وغيرهم[2] .

ولا شك أن اقامة مثل هذه المشروعات قد ساعد إمرة مكة في تنظيم الحركة التجارية وازدهارها كما ساعد على توفير الفرص في مجال الاستثمار والتوظيف وتنشيط التجارة ورفع مستوى المهارة في التعامل والمعاملات التجارية[3] أدى كل ذلك الى تحقيق المصلحة للاقتصاد المكي وللتاجر المستثمر وبعد أن كانت الخانات تعمل اول الامر في التخزين وتنشيط التجارة العابرة تطورت في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) وأصبحت بمثابة أسواق للجملة فكانت الصفقات الكبيرة تتم فيها بين رجال

---

(١) دهمان، محمد احمد- **معجم الألفاظ التاريخية**- ص٤٥.

(٢) سعيد عاشور- **العصر المماليكي**- ص٣٠٩.

(٣) **نيل المنى**- ص٣٦-٣١٢.

الأعمال المحليين والتجار القادمين وأصحبت من أهم حقول الاستيراد والتصدير فكان يجرى فيها التعاقدات وعمليات التخزين والتصريف والنقل والعمليات المصرفية التي تتمثل في ايداع التجار لما يملكونه من ذهب وفضة لدى أمين الخان.

واشتهرت مكة بخاناتها ذات الطابع الخاص المميز فإن كل خان منها اختص بنزول فئة من التجار المختصين ببيع نوع معين من البضائع ومن أشهرها خان البزازين بالمسعى وقد أدخلت عليه بعض التحسينات في أواخر القرن التاسع الهجري وبالتحديد عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م وأنشيء به سبيل على يمين الداخل اليه كما أشار تاجر السلطان قايتباي ووكيلة الخواجا شمس الدين بن الزمن والمهندسون بهدم السبيل القديم الذي كان امام الخان حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله وعندما هدم استحسن السلطان ذلك لأن المسعى صار مكشوفاً وعمارة الخان والسبيل ظاهرة[1] ومن اشهر الخانات المنسوبة الى التجار في مكة خان ملك التاجر عَجْل بن عرار الذي أنشيء سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م بالمسعى وكان يضم عدداً من الدكاكين والمتاجر وأصبح من أميز الخانات بمكة لوجود كثير من السلع والبضائع المتنوعة لما يتمتع به عجل بن عرار من نفوذ وسلطة وقرابة والسفير الاول لدى شريف مكة ابي نمي[2].

---

(١) العز بن فهد- **غاية المرام**- ج٢- ص٨٦.

(٢) **نيل المنى**- ص٢٥٧-٣٣١-٣٥٩.

وفي عام ٩٣٥هـ/١٥٣٠م عندما أصبح حاكم مكة القائد مرشد بن مفتاح الحريري أخذ يشدد الحراسة على الخانات وحماية البضائع الثمينة والسلع الغذائية خوفاً من اللصوص خاصة خان عجل بعد أن تعرض بعض دكاكينه للسرقة[١] .

(١) **نيل المنى**- ص٢٥٧.

أهم الوظائف الإقتصادية

وتظهر براعة جار الله بن فهد في رسم صورة متكاملة للنشاط الاقتصادي في مكة المكرمة فلم يكتف برصد أنواع السلع وأثمانها وأشهر الأسواق وانما ذكر أهم الوظائف المتعلقة بالأنشطة الاقتصادية وكتب عنها وبين صلاحياتها وأهم الواجبات التي كلف بها المباشرون لتلك الوظائف والشروط الواجب توافرها فيمن يشغلها ولعل من أهم ما ذكره:-

١) وظيفة المحتسب* :

لم تترك المنشآت بغير مراقبة، بل خصص لها المشرفون للقيام بالاشراف والمراقبة وتحقيق الضبط والربط لتلك الأسواق والمؤسسات التجارية باعتبارها مركز لتجمع السلع والمتاجر وآخر مكان تستقر فيه البضائع ومن أهم تلك الوظائف الاشرافية وظيفة المحتسب.

ويسير نظام الحسبة والقائمين عليها في الأسواق وفق النظام الاسلامي مع العمل على توفر الاشراف بما يضمن عدم المخالفة.

ويشترط في المحتسب أن يكون من المشهود لهم بالعلم والرأي والفطنة كما يختار من بين القضاة لأن عمله مرتبط بالقضاء[1].

---

* لقد أوردنا حيزاً موسعاً لوظيفة المحتسب في الفصل الخاص بالناحية العلمية لأنها أيضاً من ضمن الوظائف الدينية.

(١) موسى لقيال- **الحسبة المذهبية نشأتها وتطورها**- الطبعة الاولى- الجزائر- الشركة الوطنية للنشر- ١٩٧١م- ص٣٢.

وكما يختار من غيرهم وتصبح وظيفة مستقلة لها صلاحيات كثيرة ومن أهم واجبات المحتسب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشراف على الاسواق والطواف بها ليلاً ونهاراً لمنع الغش والتلاعب في الاسعار والأوزان ويتفقد عيار الصنج والحبات وغير ذلك على حين غفلة من أصحابها فإن وجد فيها خللاً صادرها والزم صاحبها بشراء غيرها أو اصلاحها كما يقوم بالكشف على أنواع البضائع[1].

ويجمع أغلب الوظائف المسندة إليه نصاً ((واذا عثر بمن نقص المكيال او بخس الميزان او غش بضاعة او صناعة استتابه عن معصيته ووعظه وخوفه وأنذره العقوبة والتعزير فإن عاد الى فعله عزره على حسب ما يليق به من التعزير بقدر الجناية ولا يبلغ به الحد))[2]. أو يقوم بتجريسة حيث يركب على حمار بالمقلوب ويدور به طرقات مكة[3]. وله الحكم في الدعاوى المتعلقة بالغش والتدليس بالاضافة الى العديد من الوظائف الأخرى[4].

وتبلغ رقابة المحتسب اشدها على الأطعمة فيتفقد اللحوم والمأكل والمطبوخات والمشروبات التي تباع في الأسواق والطرقات للتأكد من سلامتها ونظافتها

---

(١) الشيرزي، عبد الرحمن بن نصير- **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**- تحقيق الباز العريني- بيروت- ١٩٧٣م- ص١٢.

(٢) الشيرزي- **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**- ص٤٥.

(٣) **نيل المنى**- ص٢٢٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٧٣-١٥١.

حرصاً على الصحة العامة للناس فإذا وجد بعضها فاسداً أخذ البائع بشدة[1].

وكان للمحتسب اعوان يطوفون بالأسواق فيما يشبه الحملات التفتيشية، للكشف عن نظافة القدور والأواني التي تباع فيها الأطعمة، ومراعاة عدم غش البضائع ومصادرة وإعدام البضائع الفاسدة.

ويحفل **نيل المنى** بالأمثلة الدالة على مهام المحتسب وعلاقته بالأسواق، ويضيق بنا المقام عن تتبع الكثير من الأمثلة، ومن ثم فإننا نسوق بعضها لكشف مهام المحتسب، ففي عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م، ((ضبط نائب المحتسب جبناً فاسداً لدى الجبان فقام باتخاذ اشد الإجراءات حيث تم إزالة بضاعته الفاسدة وتغريمه وقسى آخر عليه باللفظ وأراد سجنه لولا أن شفع فيه))[2].

ويورد لنا جار الله نصاً لمعاقبة تجار السوق من قبل المحتسب عام ٩٣٣هـ/١٥٢٦م ((في أوله رفع الحب من السوق وارتفع السعر قليلاً بزيادة محلق صغير[3] ر، فإنه كان بثلاثة صغار ودون ربع فجرّس المحتسب جماعة من الباعة له))[4].

(١) **نيل المنى**- ص٦٣-١٧٣-١٩٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢١١.

(٣) المحلق: نسبة الى انه اصبح حلق وقد اخذت الفكرة من العملات وهو نوع من النقود الفضية ضربت في مكة وراج استعمالها من اواخر القرن التاسع واوائل القرن العاشر الهجري، وكان سعر صرف المحلق يقدر باثني عشر درهماً مسعودياً. انظر: د. ضيف الله يحيى الزهراني- **اسعار المواد الغذائية**- مطابع جامعة ام القرى- مكة -١٤١١هـ- ص١٠٨.

(٤) **نيل المنى**- ص٢٦٥.

ويقدم لنا نفس المصدر نماذج لبعض الشخصيات التي وليت الحسبة دون ان تكون اهلاً لها، مما زاد في تدهور هيبة المحتسب، ففي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م خلع على محتسب مكة شوفان بن سعيد السحرتي وبلغ من العمر سبعين عاماً وكان منفرداً لايحب التجمع مع الناس فلم يباشر الحسبة بل أناب عنه فيها بشيخ دلالي الخضر حتى وفاته عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م[١].

وهناك أمثلة تدل على أن بعض من تولوا وظيفة الحسبة لم يكونوا على مستوى الشروط والمواصفات الواجب توافرها في المحتسب، وتتمثل هذه الصفات في شخصية محتسب مكة الحمالي محمد بن علي بن عوض المواز وكان من اسوأ من تقلد مهام المحتسب عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م وما اشتهر به من ظلم واضطهاد مريع للباعة مما جعل الموقف يتأزم وينفجر تجار السوق بعد صبرهم المرير وقاموا بشكواه الى شريف مكة بركات الذي اوكل الأمر الى حاكم مكة الذي قام بمحاسبته وعزله عن مهام وظيفته[٢].

رغم ذلك إلا إننا نلاحظ بين فترة وأخرى أن تخف قبضة إمرة مكة على الأسواق، وتتلاعب الباعة بالأسعار، فيصبح المحتسب بالتالي عرضة للتحقير والإمتهان في أحيان كثيرة وتبدي ذلك بوضوح أكثر في النصف الاول من القرن العاشر الهجري فيروي لنا جار الله بن فهد سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م أنه ((نادى المحتسب في الشوارع بالنداء أن اللحم الضاني يباع كل رطل بمحلق وربع والرطل الماعز بمحلق، واللحم الجملي رطل ونصف محلق واللحم

---

(١) **نيل المنى**- ص٩١.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٢٢.

البقري رطل وربع بمحلق، واللبن يباع في السوق للدكاكين ولايشتريه الجبانه، ومن خالف ذلك لايسأل مايجري عليه فلم يلتفت أحداً إلى كلامه))[1] .

وكثراً ماتعرض المحتسب لغضب العامة بسبب سوء سياسته في الاسواق من ناحية، وبسبب انعدام هيبته من ناحية أخرى ففي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م حاول المحتسب تسعير السمن، فكانت النتيجة أن تعذر الحصول عليه في الأسواق مما جعل العامة يهاجمونه مراراً[2] .

ولكن على الرغم من وضوح الدلالة -من هذه النصوص السابقة- على فساد أمر الحسبة، إلا أن هذا الفساد كان يمكن تداركه لولا ما انتهى إليه أمرها من انحلال تام في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري. وذلك أن ارتباط وظيفة الحسبة بالحياة الاقتصادية جعلها أكثر الوظائف تأثراً بحالة التدهور الاقتصادي الذي بدأت مكة تعاني من آثاره منذ أوائل القرن العاشر الهجري، وما حدث بعد ذلك من مضاعفات عديدة في منتصف القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

والمتتبع لتطور وظيفة الحسبة في هذه الفترة الزمنية يلاحظ أن انهيارها جاء نتيجة لثلاثة عوامل مباشرة:

١- تدخل كبار الأمراء، أصحاب السلطة والنفوذ في الإمرة، في تولية أعوانهم في هذه الوظيفة خدمة لمصالحهم، ومن المعروف أن شريف مكة

(١) **نيل المنى**- ص٤٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٣.

وكثيراً من خاصته كانوا يشتغلون بالمتاجرة. ويرصد لنا جار الله بن فهد أن شريف مكة بركات في عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م عين أحد عتقائه محتسباً لمكة ويدعى شوفان بن سعيد السحرتي الذي كان يخدمهم ومعه جنود ابيه الخاصة[1].

٢- ان الأمر لم يقتصر على تولي هذه الوظيفة بالرشوة والبراطيل وإنما استقر الحال على توليها -حسب مصطلح العصر- عن طريق "البذل" أي شراء الوظيفة بمبلغ من المال يدفع مقدماً، مع تعهد من يحصل عليها بأن يدفع للسلطان مبلغاً من المال مشاهرة مما جعل جار الله بن فهد يظهر التضجر لخطورة هذا المرض المتفشي في أمر الحسبة فيروي أنه في عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م "اتفق في آخر الشهر أن صاحب مكة ابو نمي خلع خلعة للجمالي محمد المدعو البقرة من اجل ولاية حسبة مكة. وكان بذل له فيها زيادة على الذي قبله النوري علي بن المهتار... فلا حول ولا قوة إلا با لله"[2] أدى هذا إلى كثرة الطامعين في هذه الوظيفة، وإلى المزايدة فيما بينهم، وبالتالي لم يعد الأمر بالنسبة للمحتسب مجرد تناول رشوة مقنعة أو خفية، وإنما اتخذ صورة فرض مقررات شهرية على الباعة والتجار وأصحاب الحرف والصنائع.

---

(١) **نيل المنى**- ص١١٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤١٤.

٣- لم يعد تولي هذه الوظيفة الدينية قاصراً على الفقهاء والمتعممين، وإنما تعداها منذ عهد الشريف بركات إلى القواد أصحاب السيوف ثم اقتصرت أخيراً عليهم وعلى أيدي هؤلاء انتهى أمر الحسبة(١) .

ومن أشهر من باشر الحسبة في مكة وكان أنموذجاً للصفات التي يتحلى بها المحتسب حسب المواصفات والشروط القاضي زين الدين المحتسب الذي اتسم بالرحمة والعدل والفطنة والذكاء والأخذ بشدة على كل من يحاول التلاعب بالأسعار أو التدليس أو الغش كما كان هناك نواب تمتعوا بسمعة حسنة في مهام الحسبة وأصبح لهم مكانة لدى المجتمع المكي لمحاولة التخفيف عليهم من الأزمات الاقتصادية ومن أبرزهم النوري علي بن ابي الوفاء فيورد لنا جار الله بن فهد أنه في عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م "في يوم الثلاثاء حادي الشهر امر النوري علي بن ابي الوفاء... ان يباع الحب بخمسة محلقة فخالفه بعض السوقه فعزل بعضهم وجرسه"(٢) .

---

(١) **نيل المنى**- ص١١٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٦٥.

٢) وزارة جدة:

تعتبر جدة في القرن العاشر الهجري مركزاً للبضائع الشرقية بل أصبحت سوقاً دولية للمنتجات بأنواعها وكانت السفن القادمة من الهند والصين وعدن وغيرها من الموانيء الإسلامية تفرغ حمولتها في ميناء جدة حيث يتم تحصيل الرسوم الجمركية عليها، ثم تنقل إلى مكة بطريق البر وكانت تبلغ ذروتها خلال الموسم الهندي او موسم الحج[١].

أدى ذلك إلى اهتمام شريف مكة بهذا المورد وأن يتخذ إجراءات اقتصادية تضمن له استمرار تدفق هذا المنبع الاقتصادي المهم فأستحدث "**وظيفة**" مهمتها مراقبة البضائع وتحصيل الاموال وسميت "**بوزارة جدة**" ويطلق على حاملها "**وزير جدة**".

وقد كانت المنافسة شديدة بين التجار والأعيان لتولي هذا المنصب الإقتصادي الخطير بالإمتيازات المالية والمكانة الاجتماعية والسلطة التجارية ويورد لنا جار الله بن فهد في ثنايا كتابه أن من تولى هذا المنصب عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م شخصية اتصفت بالسطوة وحب الذات ((وفي يوم الاثنين وصل الى مكة الخبر أن السيد الشريف زين الدين بركات وليّ وزارة جدة للجمالي محمد بن راجح بن شميله الحفيصي ولقد ولي هذا الأمر لما كان يتمتع به من خبرة بخدمة اهل الدولة والمباشرة))[٢] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٧-٢٨-٦٣-٦٧-١١٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٣.

ولقد استفاد الجمالي محمد من الصلاحيات الممنوحة له فأثرى ثراء فاحشاً حيث وصف بإحتكاره للسلع الضرورية كالأقوات والمتاجرة بها[1] واستمر في وظيفته التي جنى منها أموالاً طائلة حتى ان أهل مكة تضجروا منه لأنه من الأسباب المتعلقة بإرتفاع الأسعار للسلع الغذائية[2] خاصة ومختلف السلع عامة.

ولقد توفي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م وفرح الناس بموته وأنشد بعض الشعراء فيه قائلاً:

هَلَكَ الكَلبُ فَجْأة　　　أَيُّهَا النَّاسُ كَبِّرُوا

واشعلا قبره لظى　　　يانكيرُ ومنكرُ[3]

ومما يجدر ذكره أن من أراد أن يتقلد هذا المنصب لابد له أن يدفع مبالغ طائلة للشريف من أجل إصدار قراراً بتعيينه وتفويض أمر جدة إليه، ولقد استأثر بهذا المنصب في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م يحيى بن سبيع الجدِّي بعد أن دفع مبلغاً يقال بلغ سبعة آلاف دينار للشريف بركات[4].

ولم يستمر طويلاً في منصبه حيث تم عزله عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م عندما دفع الشهابي المريسي مبلغاً يقدر بخمسة عشر ألف دينار لشريف مكة بركات، واستمر في هذا المنصب فترة طويلة لأنه في عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م دفع

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص٥٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٦٧.

لشريف مكة أبي نمي مبلغاً ضخماً قدر بأربعين الف اشرفي مما أدى ذلك إلى زيادة الضرائب على التجار وتضرر المجتمع المكي من القرارات المتسرعة مما ترتب عليه كثير من الأزمات الاقتصادية[١] .

وممن تولى هذا المنصب الجمالي الظفاري مشاركة للشهابي احمد المريسي بمال دفعه للشريف ابي نمي[٢] .

بذلك نستطيع التأكيد على أهمية هذا المنصب الإقتصادي الذي نستشهد من خلال هذه النصوص أن أغلب من تولوا هذا المنصب لم يقوموا بالإنصاف وإحقاق الحق بل كان همهم الأول والأخير الإستفادة الذاتية وتنمية ثرواتهم وتكديسها من عرق وجهد واضطهاد الآخرين.

٣) وظيفة "نائب جدة":

لم يكن هناك ما يجذب مماليك مصر إقتصادياً إلى مكة المكرمة قبل القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) بل كان الحجاز كله يعتمد في اقتصاده على ما تمنحه القاهرة واسطنبول من قبل سلاطينها لمكة المكرمة على أن ما حدث في بداية القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) من تطور إقتصادي بتحول تجارة الهند من ميناء عدن الى ميناء جدة، لم يلبث أن

---

(١) نيل المنى- ص٦١.

(٢) المصدر السابق- ص٤٤٠.

أوجد نوعاً جديداً من العلاقات بين السلطة المملوكية أولاً ثم السلطة العثمانية أخيراً وبين إمارة مكة[1].

انتهج سلاطين المماليك والعثمانيين استغلال التطورات الاقتصادية الجديدة والتدخل في امور التجارة المكية التي بلغت القمة في دنيا المال والاقتصاد وخاصة في موسم الحج، فقد تطلب هذا التطور استحداث نظم تجارية جديدة تضمن تحصيل نصيب السلطان من ضريبة العشور من التجار[2]، واستلزم الأمر إنشاء هيئة مهمتها الإشراف على تحصيل المكوس من التجار والحجاج بذلك عين المماليك لجدة حاكماً عاماً يطلق عليه لقب "نائب جدة" واستمرت سلطته تزداد عندما تولى زعامة العالم الإسلامي الدولة العثمانية وكان مقر إقامته يطل على ميناء جدة يشرف منه على حركة التجارة في الميناء[3].

وكان يطلق على المقر "دار النيابة" أو "فرضة السلطان". وكان يتم تعيينه من قبل السلطان العثماني، وترسل له خلعة سنوية مع المحمل الشامي، ويقرأ مرسومه في الحرم الشريف.

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٢٢٣أ/ **غاية المرام**- ج٣- ص٣١١/ **نيل المنى**- ص١٣-١٩-٣١-٨٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص٦٨-٨٩-٢١١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٣-٣٩٨.

ويسرد لنا جار الله بن فهد وصفاً دقيقاً لمراسيم تعيين نائب جدة فيقول "اتفق في يوم الجمعة الرابع والعشرين عمل عرضة حسنة لنائب جدة من الزاهر خرج للقائه الشريف ابو نمي وعسكره وقاضي القضاة الشافعي وخلق من العامة فخلع على الشريف أبو نمي وأخيه ثقبة والقاضي الشافعي والناظر بجدة فدخلوا من باب المعلاة في أبهة عظيمة وقد أمهم العسكر بعضهم على خيل وغالبهم مشاة وأمامهم النفط وخلفهم السناجق السلطانية وطبلخانة الشريف والطبل والزمر فلما وصلوا الى باب السلام دخلوا منه الى المسجد الحرام وجلسوا بالحطيم، فقرى مرسومان من ملك الأمراء... وثانيهما لنائب جدة ومضمونها الإخبارية بولاية نائب جدة المشار اليه... والوصية بالنائب الجديد والشكر منه ووصف بأوصاف حسنة من العقل والدين والمعرفة التامة"[1].

وأصبحت وظيفة "نائب جدة" من الوظائف السلطانية وأول ما بدأت النيات في عام ٨٢٨هـ/١٤٢٥م ويخلع على صاحبها الذي يتوجه الى مكة في كل عام في موسم ورود مراكب الهند الى جدة،[2] ومن أوائل من تولوا جمع العشور والضرائب في جدة المالي القبطي سعد الدين إبراهيم بن المرة، وكان محنكاً ماهراً في المسائل المالية شديد القسوة على التجار وقد جمع من استغلال منصبه أموالاً طائلة[3] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٩١-٩٢-١٥١.

(٢) تقي الدين الفاسي- **العقد الثمين**- ج٤- ص٩١.

(٣) تقي الدين الفاسي- **المصدر السابق**- ص٩٦.

أما في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي فقد أورد لنا جار الله بن فهد أسماء من تولوا وظيفة نيابة جدة من بداية العهد العثماني حتى منتصف القرن العاشر الهجري ويعتبر قاسم الشرواني من اعظم نواب جدة، فقد ولي هذه الوظيفة في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م[1] ويقول جار الله بن فهد عنه في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م "قسم الأمير قاسم الشرواني نائب جدة مبرة من عنده، يقال خمسمائة دينار على أرباب الشعائر بالمسجد الحرام وغيرهم من الفقراء كل واحد بحسب حاله بهناوة من غير مشقة"[2] .

ولقد كان هناك تنافس محموم مصحوب بالعدائية بين شريف مكة بركات ونائب جدة قاسم الشرواني، انتهى بمرسوم سلطاني مضمونه عزل نائب جدة وإرساله مقيداً بحراً الى مصر وذلك في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م[3] "ويقال أن السبب في عزله والقبض عليه مكاتبة الشريف بركات بالحط عليه، وقيل سخط ملك الأمراء عليه لكونه بلغه انه يتعاظم عليه ويقول انا مثله عمل ولقب قبله وكل منا صاحب سنجق وقيل السبب أعظم من ذلك لأن الخنكار بلغه أنه يكاتب الصوفي الخارج (شاه ايران اسماعيل الصفوي) وله ميل إليه، بل أحرق الأغر به وأبقى بعضها للسفر فيها إليه"[4] وخلفه في

(١) نيل المنى- ص٢٤.

(٢) المصدر السابق- ص٧٧.

(٣) المصدر السابق- ص٩٠.

(٤) المصدر السابق- ص٩٢.

النيابة الامير حسين بك الذي اشتهر بورعه وإخلاصه وإهتمامه بالمقدسات الشريفة ولقد نادى في شوارع مكة بالأمان والإطمئنان وقام بتنظيف الطرقات وأبواب المسجد الحرام وأمر بجمع نظار الأوقاف وأمرهم بإصلاح الأربطة وطلب المساعدة منه إذا لزم الأمر وتميز بعطفه على الفقراء والوقوف بجانب المحتاجين والموعزين واتصف بأنه صاحب سياسة ودبلوماسية[١] .

و لم يكن خلفاء الامير حسين بك في نيابة جدة يتميزون بحنكته وحسن تدبيره، وقد ترتب على سوء تصرف بعضهم إلحاق الضرر بتجار الهند وعدن الذين كانوا يفدون الى جدة في كل موسم ومثال ذلك نائب جدة داود باشا الذي ولي النيابة عام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م وكان يتشدد في جباية العشور وينهب اموال التجار مما ترتب عليه إعراض عدد كبير من تجار الهند عن السفر الى جدة، أو من جدة الى خارجها وتوجيه نشاطهم الى ميناء عدن وتضرر ميناء جدة إقتصادياً[٢] .

ويورد لنا جار ا لله بن فهد مثالاً على ذلك ففي عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م ((وفي أواخر هذا الشهر سافرت المراكب الهندية بعد منع نائب جدة لمراكب كنباية والديو وسافر قبلها مراكب كاليقوط... وكان أولاً يحتج عليهم بعدم سفرهم لكون الفرنج المخذولين ملكو الديو... ففاتهم سفرهم أيام النيروز))[٣] .

(١) نيل المنى- ص٩٢.

(٢) المصدر السابق- ص٢١١.

(٣) المصدر السابق- ص٣٨٨.

ومما يجدر ذكره أن السلطة العثمانية إضطرت إلى عزل نائب جدة داود باشا الرومي الذي أساء التصرف بمهام منصبه والقبض عليه ومصادرة أمواله في عام ٩٣٧هـ/١٥٢٥م ولقد ازداد الأمر تطوراً، ووضع قيد من حديد في رجليه يوماً وليلة حتى شفع له لدى الشريف أبي نمي، ففك القيد وأبقى الحراسة عليه.[١] ولقد كثرت حالات عزل نواب جدة في هذه الفترة حيث نلاحظ أن في خلال ثلاثة عقود تم تغير خمسة من النواب.

٤) ناظر جدة:

ومن الوظائف الاشرافية على التجارة هناك "**ناظر جدة**" وهي من أهم وأرقى الوظائف السياسية والتجارية الحساسة وأهم شروط مواصفاتها أن يكون متوليها في الغالب قاضياً حيث يسند اليه أمر قضائها وحسبتها. ويورد لنا جار الله بن فهد نصاً للتعيين لهذه الوظيفة ذكره في أحداث عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م "في صبح تاريخه خلع على القاضي زين الدين العجمي المحتسب بولاية جميع وظائفه التي بجدة وهي النظر والصرف والحسبة وكتابة السنابيق وبرز بحمله في يوم تاريخه"[٢].

نظراً للمهام الجسيمة على عاتق صاحب هذه الوظيفة لابد من موظفين يشدون أزره ويساندونه فقرر أن يعاون الناظر قباني وصيرفي، وشهود

---

(١) **نيل المنى**- ص١٨٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص٨.

تقررت لهم رسوم زيادة على العشور الـتي تؤخـذ مـن التجـار لسـد نفقـاتهم ودفع مرتباتهم[1] .

حركت مميزات هذه الوظيفة الكثير من القضاة وأصبحوا يتنافسون ويطمعون في نظارة جدة ويدفعون مبالغ باهظة لشريف مكة لتولي النظـارة لأن البعـض سيقوم باستنزاف التجـار وإختلاسـهم ونهبهـم مما يجعلـه في وقـت قصـير أن يصبح من الأثرياء وخير دليل على ذلك ثراء القاضي عبد المعطي الطبري ففي عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م تولى نظارة جدة والتزم للشريف ابي نمـي بدفـع مبلـغ ثلاثة آلاف دينار اشرفي[2] .

كما استرعى إنتبـاه جـار الله بـن فهـد حـرص شـريف مكـة في اسـناد هـذه الوظيفة لمن يستطيع أن يرصد له مبلغاً كبـيراً مـن المـال معرضـاً عـن الجـانب الأخلاقي المتصف بالنزاهة والحرص والعدل[3] .

استحدث على منصب نظارة جدة شروط جديدة حيث أصبح يؤكـد تعيينـه لهذه الوظيفة من قبل السلطان العثماني فلقد تولى وظيفة نظارة جدة القـاضي الشافعي محب الدين ابن ظهيره، وتم تعيينه بمرسـوم سـلطاني عثمـاني حـدث ذلك في عام ٩٣٨هـ/١٥٣٢م وكان نـص المرسوم يتضمـن "للقـاضي محـب الدين الشافعي لولايته لنظارة جدة ووصيته لضبط المتحصل فيها والقبض على

(١) **نيل المنى**- ص٤٨-٩٦-١١٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٧٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٧٥-١١٣.

مـال الأمـوات والكتابـة بهـا الى الأبـــواب الخنكاريـــة حتـــى يثبـــت الورثـــة استحقاقهـم"[١]

بقراءة النص التاريخي نستطيع أن نرجح أن وظيفة ناظر جدة أصبح التعيين لها وإسنادها الى قاضي معين يتم مـن قبـل السـلطة العثمانيـة ولكـن بتزكيـة مـن شريف مكة.

٥) الصيارفة:

سـاعد النشـاط التجـاري في الأسـواق آنـذاك نظـام الصيـارف، فقـــد كـــان الصيارف يجلســون في حوانيتهـم بـالقرب مـن بـاب السـلام[٢] طيلـة النهـار، واضحت اسواق مكة مركـزاً للصيرفـة يدفـع فيهـا التجـار اثمـان السـلع الـتي يطلبونها من مختلف البلاد وبحكـم مكانتهـا الدينيـة اصبحـت مصبـا لمختلـف العمـلات النقديـة واسـتطاع التجـار ان يحولـوا نقودهـم منهـا الى أي مكـان يشاءون.

ولقد مارس بعض الصيارفة اللعب وزيادة الأسعار في العملات كما حدث في عام ٩٢٧هـ/١٥٢٠م عندما زاد بعـض الصيارفـة في صـرف العملـة الجديـدة المساعيد من ثمانية محلقات الى اثنى عشر محلقاً مماجعل حاكم مكة مبـارك بـن بدر الحسني أن يقبض عليهم ويضرب بعضاً منهم ويتهددهم"[٣] .

---

(١) نيل المنى- ص٣٠٣.

(٢) المصدر السابق- ص٤٢٦.

(٣) المصدر السابق- ص١٧١.

ويزداد الإهتمام بهم ويرتفع شأنهم في مواسم الحج حيث كانوا امـراء الحـاج الشامي والمصري لايستغنون عنهم خاصة اثناء موسم الحج عندما يحين توزيـع الصدقات فيذكر جار الله بن فهد قائلاً: ((... وكان في المجلس عدة صيارف يعدون ويزنون الدراهم بالفضة عن كل اشرفي سلطاني خمسة وثلاثون))[1] .

ومن اشهر صرافي مكة في القرن العاشر الهجري التاجر الصيرفي الشرفي يحيـى المكي وكانت له ثروة واسعة وصار يدايـن النـاس كثـيراً وذاع صيتـه بسـبب ذلك. وكان يستعين بـه الخواجـا خليـل الكيلانـي مـوزع الصدقـة الهنديـة في موسم الحج حيث يستعين به في صرف الصدقات علـى المستحقين مـن أهـل مكة[2] .

٦) الدلالين والسماسرة:

تعتبر وظيفة الدلالين من أهم وظائف السوق أيضاً حيث كانت أسواق مكـة يوجد بها عدداً من الدلالين الذين تميزوا بأنهم الصلـة بـين البضـائع والتجـار وكانوا يقومون بالدلالة للحنطة والـدواب والرقيـق وشـتى السـلع ويخضعـون لرقابة نائب المحتسب حتـى لا يزيـدوا في السـعر أو ينقصـوا في الكيـل وكـان للدلالون دكاكين يخزنون فيها الغلال انتظاراً لبيعها وكان وكلاء التجار بمكة

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٦٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٥٦.

يرسلون الغلال الى دكاكين الدلالين ليتولـوا بيعهـا، ويـأخذوا أجرتهـم نظـير ذلك[1].

ولقد ازداد دخل الدلالين وارتفع مؤشر الإقتصاد لديهم ولكنه ينخفض عندما تـزداد الرسـوم والضرائـب خاصـة بعـد موسـم الحـج ففـي شـهر محرم عـام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م أصدر شريف مكة ابو نمي قراراً بزيادة المكوس علـى جميـع الدلالين في شـتى المبيعـات بمكـة اربعـة آلاف دينـار اشـرفي زيـادة عـن العـام الماضي بألف دينار اشرفي[2].

ويذكر جار الله بن فهد أن الدلالين كـانوا يتولـون الدلالـة في أسـواق الغنـم والدواب التي عمرت بها أسواق مكة، وورد أسماء الدلالين والمنادين في ثنايـا كتابه فيورد لنا أن للدلالين كبير لهم ويسمى معلم الدلالين وشـيخهم وكـان التعيين على هذه الوظيفة من قبل نـائب السـلطات العثمانيـة في مصـر ويـدل على ذلك النص التالي الذي أورده في عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م "في يـوم الاحـد السـادس والعشـرون وصلـت لمكـة أوراق مـن جـدة فيهـا الإخبـار أن معلـم الدلالين علي العباسي وصل الى بنـدر ينبـع... وأخـبر أنـه ولي وظيفتـه علـى عادته"[3].

---

(١) نيل المنى- ص٧٨-١٨٩-٣٢١.

(٢) المصدر السابق- ص٤٣٩.

(٣) المصدر السابق- ص١٦٧.

ورغم ذلك لم يمنع أن يكون للدلالـين شيخ لهـم يحترمونـه ويقدرونـه ويقـوم بفض النزاع بينهـم وأشـهرهم جعفـر الرومـي[1] ومحمـد الخبـازه[2] وشـهوان جمال الدين[3] والجمالي محمد بن عمر[4].

---

(١) نيل المنى- ص٢٩٤.

(٢) المصدر السابق- ص١٤٦.

(٣) المصدر السابق- ص١٩.

(٤) المصدر السابق- ص٣٧٥.

فئات التجار:

لقد كانت المجاورة مظهراً بارزاً من مظاهر الحضارة البشرية في مكـة المكرمـة ولا شك أنه على قدر العمران البشري تتقدم الامصار وتنشط الأسواق ومكة كانت وما زالت منطلق الحضارة الانسانية.

ويمكن القول دون مغالاة أنه من النادر أن يخلـو مصـدر تـاريخي مـن مصـادر العصر القرن العاشر[1] خاصة مصدر **نيـل المنـى** مـن ذكـر المجـاورين في مكـة وأثرهم الايجابي في تطور أحوالها وتاريخها، بل كانوا من أهم أسباب انتعـاش الحيـاة الاقتصاديـة حيـث كـانت مكـة بمثابـة البـؤرة الـتي تستقطب خطـوط حركتهم وتنقلاتهم. ولقد تكاثر التجـار الأعـاجم في مكـة بشـكل استدعى إنتباه جار الله بن فهد وأصبح يطلق عليهم التجار الأعاجم[2] .

وكان طبيعياً أن يسهم هؤلاء المجاورون في النشاط التجاري في مكة واتخاذهـا قاعدة تجارية في مجال التبادل المتنوع والعلاقات ذات المـدى الجغـرافي الواسـع فكان أن بلغت ذروة ازدهارها في هـذا العصـر فقـد حـرص المجـاورون علـى المجيء الى مكة قبل شهر رمضـان فيحصـل لهـم صيـام رمضـان فيهـا مـع أداء العمرة والمجاورة وفي غضون ذلك يحصل لكثير منهم المكاسب[3] .

---

(١) بلوغ القرى- غاية المرام- الاعلام- درر الفرائد.

(٢) نيل المنى- ص٢٢.

(٣) المصدر السابق- ص١٨-٣٩-٥٦-١١٨-٢٠٤.

ويعد فئات تجار مصر والشام أشهر التجار الذين ترددوا على مكة كثيراً، حيث يورد لنا جار الله بن فهد مئات القوافل القادمة من مصر حيث ترد إليها بمعدل مرتين أو ثلاثاً كل عام وكانت قوافلهم التجارية أضخم القوافل التي تصل اليها وهي محملة بروائع البضائع والسلع المصرية والشامية والإفريقية وآسيا الصغرى ومن مكة كانت تنقل معظم هذه البضائع عن طريق القوافل البرية(١).

كما تصل مختلف البضائع والسلع من الهند عن طريق البحر الاحمر وميناء جدة كما يحدث في كل سنة حتى أصبح معروفاً كما أسلفنا في مكة موسماً يسمى الموسم الهندي وتعود محملة بطرائف الشرق(٢).

كما أسهم فئات تجار فارس والعراق بدور كبير في تنشيط الحركة التجارية بمكة فكانوا يصلون اليها مع قوافل الحجيج ويحملون معهم نفائس العراق وبلاد فارس -وماوراء النهر- ولهم آثار حميدة في مكة المكرمة(٣).

ومن الفئات التجارية التي كثر ترددها على مكة للتجارة فئات تجار اليمن فقد كانت القوافل التجارية تسير من بلاد اليمن محملة بالسلع والبضائع الآتية من الهند والصين وافريقية ومن اليمن نفسها متجهة صوب مكة لتحل في مواسم الأسواق حيث تنشط التجارات وتعقد الصفقات التجارية على أوسع

---

(١) **نيل المنى**- ص٩٨-١٠١-٢٢٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤١-٨٧-٢١٠.

(٣) **المصدر السابق**- ص٩٨-١٠١-٢١١.

نطاق[1] ونستشهد بنص يبين أهمية الطبقة التجارية العالية وكثرة سفراتهم من أقصى البلاد الى مكة والعكس كذلك صحيح. ففي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م يحدثنا جار الله بن فهد أنه ((سافر فيهم خلق من التجار المجاورين بمكة من الأروام والشاميين واليمنيين والحلبيين والأعاجم لأجل التجارة والربح الذي ما سمع بمثله في الزمن الماضي))[2].

خلاصة القول أن مفتاح التجارة العالمية في العصور الوسطى كان في يد التجار العرب المسلمين اذ كانت لهم السيادة الاقتصادية لتجارة العبور بين الشرق والغرب ولا ريب في ذلك فقد كان العرب تجاراً بالفطرة كما أن الإسلام يشجع على التجارة ويحث على السعي في طلب الرزق، وقد تطورت النظم التجارية في الاسلام في مختلف فروعها وتم ضبطها بضوابط ساعدت على جعلها وسيلة من وسائل الدعوة الى الله، فقد كان فئة قليلة من التجار الفقهاء، وكان لذلك أكبر الأثر في قيامهم بالدعوة الاسلامية الى جانب التجارة وظل كبار التجار من المجاورين مصدر خير لهذا البلد الأمين فكانت لهم الأيادي البيض والمآثر الحميدة في هذه البقعة الطاهرة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر. أشهرهم وأبرزهم الذي حصل على ثروة طائلة التاجر عباس المصري تاجر السلطان، ونائب ملك الأمراء بالديار المصرية وكان صاحب ثراء فاحش وله كلمة نافذة لدى أصحاب السلطة ويعتبر من

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٣-٤٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص٧٢.

كبار التجار المهتمين بالتجارة وتعددت محطاته التجارية بين مكة ومصر وكان يمتلك كثيراً من العقار بمكة وفي عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م أشيع عنه أنه سيتولى نظر جدة وحسبتها ولكن لم يتحقق له ذلك[١] .

ومن أثرياء التجار الذين كانت لهم صلات تجارية مع اليمن خاصة منطقة زبيد يوسف الجركسي المقتول عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م، اكتسب بسبب التجارة شهرة ووجاهة لدى المجتمع المكي واليمني ويورد لنا جار الله بن فهد ما يؤيد ذلك ((أن الأمير إسكندر متملك جهزه من بلده بعد الإنعام عليه بمائتي دينار من ثم نزل الى ساحل الحديده وأنزلوه من الجلبه وقتلوه بالحديده وأخذوا ما معه))[٢] .

ومن التجار المسافرين الذين تركوا الترحال بعد ثرائهم وغناهم واكتفوا بالتجارة المحلية التاجر المكي جمال الدين محمد بن جابر العدني الشهير بابن الزمن في عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م اقترن بإبنه جمال الدين بن عمر الرضي وأقام عرساً أصبح حديث اهل مكة لما صحبه من ترف وبذخ[٣].

وممن رسم سياسته التجارية على أساس التعامل المباشر مع الهند نزيل مكة الخواجا شمس الدين الأعجمي ولكنه كان سيء الطباع جشعاً يحب تنمية الأموال وعدم الإنفاق في وجوه الخير مما أدى الى كراهية الناس له وتعرضه

---

(١) **نيل المنى**- ص٧-١٢٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٦٢.

لمحاولة اغتيال من قبل بعض العبيد من بني حسن عام ٩٤٥هـ/١٥٣٩م حيث تم طعنه عدة طعنات لم تؤد إلى وفاته ولكن ألزمته البيت مريضاً بعد ذلك عدة شهور[١].

(١) **نيل المنى**- ص٤٢٧.

الأزمات الإقتصادية:

لا يخفى على دارس تاريخ مكة المكرمة ذلك التأرجح الكبير في أسعار سلعهافعلى الرغم من كونها ملتقى الصادر والوارد ومجمع المتاجر الشرقية والغربية وعلى الرغم من تمتعها بالمركز الرئيسي في تجارة بلاد الحجاز فإن شأنها شأن أي مدينة تجارية كان لابد ان تتأثر بما يتأثر به غيرها من ظروف وأزمات من شأنها أن تؤدي الى تفاوت اسعار السلع والبضائع زيادة ونقصاً غير أن الغالب على أسعارها الغلاء خاصة فيما يتعلق بالاقوات.

ولا تعني الأوقاف والصدقات الكثيرة ومواسم الحج والتجارة أن مكة لم تتعرض لهزات وأزمات اقتصادية. فالملاحظ في اقتصاديات الدول أن تلك الدول التي تعتمد على موارد غير ثابتة لأنها مستمدة من الغير وغير ذاتية تظل عرضة للأزمات الاقتصادية في كثير من الاحيان أيا كان مبلغ ما تتمتع به من رفاهية في وقت من الأوقات.

ذلك أن ازدهارها لا يكون رهناً بعمل سكانها وجهدهم، بل بمشيئة وارادة اناس آخرين وبالنسبة لمكة فإن حالتها الاقتصادية كانت تسوء عندما لا يسقط المطر لأن زراعتها الموسمية القليلة تعتمد على الأمطار فإذا لم يسقط المطر لاتزدهر الزراعة كما أنها تسوء أكثر عندما تجرفها السيول وتصاب بفترات ركود في التجارة لتأثير عدة عوامل سلبية ومن هذه العوامل السلبية عندما لايكون موسم الحج ناجحاً بسبب القحط[1] أو الفتن[2] أو الثورات

(١) نيل المنى- ص٤١-٣٣٣.

(٢) المصدر السابق- ص٣١-١٨٤-٢٢٥-٣٥٣.

أو قطع الطرق[1] في الداخل أو اجراءات سلاطين الدولة العثمانية[2] أو اليمن[3] وتسوء أخيراً عندما لا يقدم اليها التجار بسلع الشرق فيتخذونها محطة من جدة والشام ومصر[4] .

كما شهدت بعض أوقات هذه الفترة تذبذباً في مستوى الأسعار مما أدى إلى قلة المعروض في الأسواق كما أن الأزمات الاقتصادية المستمرة التي عانت منها مكة في بعض الأوقات وما نتج عنها من عنت ومشقة في جلب الرزق وضنك في المعيشة أدى ذلك الى عدم استقرار الأسعار[5] .

والواقع أن المؤرخين لم يعتنوا كثيراً بتدوين أسعار السلع الغذائية وغيرها من المواد الأخرى إلا في حدود ضيقة جداً تأتي في معرض الحديث عن قضية عامة تهم المجتمع كالغلاء، ولكن المؤرخ جار الله بن فهد رصد لنا بدقة متناهية اتصفت بالعمق والنقد التحليلي هذه الظاهرة متابعاً ارتفاع وتدني الأسعار المهمة كالقوت اليومي لحياة الناس وتناول أثر الأزمات الاقتصادية بين حين وآخر.

ويطول بنا القول إذا ما تتبعنا أسباب هذه الأزمات الاقتصادية ومظاهرها المختلفة. ويكفينا- في هذا الصدد- أن نذكر أن هذه المضاعفات العديدة التي

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٧-٢٣٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص٦٨-١١١-٢٤٣-٣٥٨-٤١٤.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٩-١٦٣.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٣-٤٧-٢٨٥.

(٥) **المصدر السابق**- ص١٣-٢٥-٣٨-١٦٣-١٨٧.

صاحبت هذه الكـوارث الطبيعيـة الـتي تعرضـت لهـا البـلاد في أواخـر القـرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري قد جعلت من المتعذر التغلب علـى هـذه الأزمة الاقتصادية الحادة، فظلت تخيم على البـلاد طـوال بقيـة عصـر الدولـة العثمانية.

وسوف أقوم بتفنيد أهم العوامل المؤثرة للأزمات الإقتصادية في مكـة المكرمـة خلال الفترة التي نرصدها تاريخياً من كتاب نيل المنى لجار الله بن فهد.

العامل الأول: الكوارث الطبيعية:

تعد المجاعات وانتشار القحط والأوبئة من أهم العوامل الطبيعية التي كثيراً ما تسببت في ارتفاع الأسعار ولعل القحط الذي أصاب الحجاز في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م واستمر حتى عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م لم يسمع بمثله في ذلك العصر فقد دام ثلاث سنوات واشتدت وطأته على الناس وعمهم الغلاء والبلاء وهم صابرون محتسبون. ولقد وصفها جار الله بن فهد وصفاً دقيقاً فيقول ((استهلت سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م، وهي متتابعة الغلاء قاسى أهل مكة لذلك شدة البلاء فالله تعالى يرخيها ويكتب السلامة فيها، فإن حوادثها مظلمة والأنفس مظلمة وتحتمل كتابتها مجلدة، والمطولات في الصحف مخلدة رحم الله بعض الناس، حيث قال في هذا القياس:

ولو كتبت كلَّ ما علمته   لضاقت الأنفاس والقرطاس

لكنني أذكره مختصراً   مبتغياً لما عليه الناس[1]

ويذكر أن اعظم غلاء شاهده بمكة كان عام ٩٤٢هـ/١٥٣٦م فقد بيعت الكيلة الحنطة المصرية نحو أربعة صغار[2] وثلاثة عثمانه واكل الناس سائر الحبوب واختبزوها وجاء هذا الغلاء مصحوباً بانتشار الوباء الذي راح

---

(١) **نيل المنى**- ص٤١.

(٢) الربع: مكيال مصري، اكبر من الصاع، يتسع لأربعة اقداح، وهو يعادل بالمقاسات الحديثة ٨,٢٥ او ٦,٢٥ كغم من القمح. د. الزهراني- ضيف الله يحيى- **اسعار المواد الغذائية**- ص١٠٦.

ضحيته كثير من الناس حتى انه كان يموت بمكة في اليوم الواحد اربعون شخصاً[1] .

ومن الأزمات الاقتصادية التي وقعت بالحرمين ما وقع من قحط في أعوام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م و ٩٤٢هـ/١٥٣٥م و ٩٤٥هـ/١٥٣٨م بسبب ندرة الأمطار مما جعل الأئمة على المذاهب الأربعة في الحرمين الشريفين يستمروا في دعاء القنوت[2] ويضيفون الى ذلك قراءة صحيح البخاري واستمرار دعائهم عقب ذلك أن يرفع المولى الشدة عن المسلمين[3] .

ومما يسترعي الإنتباه الى العمل الذي قام به إمام مقام الشافعية خير الدين محمد ابي السعادات الطبري فيورد لنا جار الله بن فهد أنه في عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م يقوم "في جمع جماعة من الرجال والضعفاء أولاد الكُتاب ودخل بهم المطاف الشريف ضحوة نهار الأحد ووقف بهم أمام البيت الشريف والتجوؤا الى الله تعالى والمصاحف الشريفة على رؤوس أولاد الكتاب بالدعاء والنحيب وكانت ساعة مقبولة بحمد لله واستمر خير الدين يقنت بالناس في الصلوات الخمس... ثم في أثناء الجمعة الثانية منَّ الله تعالى على العباد والبلاد بمطر قوي بمكة وغالب نواحيها وأرخصت الأسعار قليلاً))[4] .

---

(١) نيل المنى- ص٣٣٣.

(٢) المصدر السابق- ص٤٣-٤٢٣-٤٤١.

(٣) المصدر السابق- ص٤٢٣.

(٤) المصدر السابق- ص٣٣٤.

وفي عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م وقع الغلاء بمكة وبلغ مبلغاً لم يسمع بمثله مند دهر طويل بحيث بيعت الغرارة[١] القمح الزيلعيه[٢] بخمسة كبار و لم يتيسر ذلك لكل واحد والغرارة الذرة والدخن بتسعة وبيع اللحم والتمر رطل[٣] ونصف رطل وربع رطل بمحلق واستمر ذلك طوال الموسم[٤].

وفي عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م حدث أيضاً قنوت استمر زهاء نصف شهر قام به إمام الشافعية وبيعت الربعية الحب المصرية بكبيرين وعثماني وأن السبب في ذلك قلة الواصل من البحر حيث استمر سعر المواد الغذائية في إزدياد[٥].

يتضرر بشدة من الأزمات الإقتصادية التي تنهك المجتمع المكي أولئك الذين لا يملكون شيئاً وهم بمكة كثرة من الفقراء والمجاورين الذين يعتمدون على صدقات السلاطين والأمراء وكبار التجار، فإذا اضطربت أحوال السلطنة و لم يهتم رسل السلطان العثماني بارسال متحصل الأوقاف أو الصدقات أو

---

(١) الغرارة: مكيال لأهل الشام، يتألف من ١٢ كيلاً أو ٧٢ مُدّاً، وبالنسبة لأهل مكة بأنها ٢,٥ غرارة مكية وهي تعادل ٢٠٤,٥ كغم قمح أو حوالي ٢٦٥ لتراً. الزهراني- ضيف الله- **اسعار المواد**- ص١٠٥.

(٢) الزيلعية: نوع من الحبوب الجيدة، تنسب الى قرية (زيلع) الواقعة على ساحل البحر الاحمر من جهة ارض الحبشة، كانت من اشهر البلدان التي تصدر الحبوب الى مكة المكرمة، وقد اشتهرت بجودة قمحها وكثرته. د. الزهراني- ضيف الله يحيى- **اسعار المواد الغذائية**- مطابع جامعة ام القرى- مكة- ١٤١١هـ- ص١٠٨.

(٣) الرطل: وحدة من وحدات الوزن الاسلامي، اختلفت مقاديره باختلاف الامكنة، فكان مقداره في العراق، (١٣٠) درهماً، وفي مكة في صدر الاسلام كان الرطل = ١٢ اوقية (٤٠) درهماً، وكان الرطل المصري يزن (١٤٠) درهماً، بما يعادل في النظام الوزني الحديث ٤٣٧,٥ غرام. انظر: ضيف الله يحيى- **زيف النقود الاسلامية**- مطابع الصفا- مكة- ط١- ١٤١٣هـ- ص٢٠٩.

(٤) **نيل المنى**- ص٣٨٨.

(٥) **المصدر السابق**- ص٤٢٣.

تأخيرها -أو اذا ساءت العلاقات بين التجار والمتصرفين بالصدقات- لاقى فقراء مكة والمجاورين فيها مجاعة محتمة. ويتهكم جار الله بن فهد ساخراً من الغلاء المزمن تقريباً لأهل مكة قائلاً: "وابتهج الغرباء بها لكثرة فلوسهم وتضيق على أهل البلد لقلة وجود الدراهم وغلو الأوقاف وسبحان مقسم الأرزاق"[١].

و لم تكد تنجلي هذه الأزمة حتى عاد القحط للظهور مرة أخرى، ففي عام ٩٤١هـ/١٥٣٤م اشتد القحط وارتفعت الأسعار، وبلغ ربعية القمح المصري خمسة محلقة وقد ساد القحط معظم مدن الحجاز وصاحب ذلك برد شديد قارس ودام فترة ليست بالقصيرة فأهلك خلقاً من أهلها خاصة في شهر محرم وبلغ أعداد من هلكوا فيه مائة وتسعون نفساً كبيراً وصغيراً أغلبهم من الفقراء الذين لا يوجد لهم مسكن يلتجئون إليه[٢].

وقاسى الحجاج عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م في سفرهم مشقات كبيرة من قلة الماء وغلو الأسعار بمكة بحيث بيع الرطل السمسم بعشرة محلقة، والكبش بدينار وبيع الأردب القمح في مكة بمائتي درهم، وشكوة اللبن الصغيرة بقريب الدينار ويعلق على ذلك جار الله بن فهد قائلاً: "فقاسى الحجاج من ذلك شدة أزالها الله بوجود الأمن والبركة))[٣] ومن أسباب ذلك أن الشريف

---

(١) نيل المنى- ص٤١٨.

(٢) المصدر السابق- ص٣٤٥.

(٣) المصدر السابق- ص٤١.

بركات خرج الى جدة ومنع تجار اليمن من عبور مكة، فعز بها صنف المتجر وهلك كثير من مشاة الحجاج[1] .

واشتد الغلاء في عام ٩٣٨هـ/١٤٣٤م فجأة زمن الحج لاحتكار متصرفي السلطان العثماني لبعض السلع حتى بيع الحب كل ربعية مصرية بأربعة محلقة والربعية الحجازية بخمسة محلقة والرطل السمن بسبعة محلقة والجبن بأربعة محلقة والذرة والدخن بأربعة محلقة ودام الغلاء شهرين بعد الحج[2] وقد أدى احتكارهم الى مزيد من التضييق على المسلمين لأنهم لو خلوا سبيل الناس في البيع لحصل الرفق ورخص السعر وحصل النفع للمسلمين[3] .

وفي عام ٩٣٩هـ/١٥٣٢م تكرر الغلاء واشتد ارتفاع حمى الأسعار مما أدى إلى اضطراب الأمن ويصف لنا جار الله بن فهد إتجاه الناس الى إرتكاب حوادث السرقة فيقول عنه ((ظهر في هذه الأيام السرقة في البيوت والشوارع حتى في أخذ الأبواب والخشب وذلك لجوعهم))[4] .

ثم كان الغلاء الأعظم الذي صاحب الوباء الكبير بإقليم الحجاز خاصة الطائف وبجيلة معا والقرى المجاورة لمكة المكرمة هذه المرة وزاد من حدته ازدياد الوباء الأسود (الطاعون) حتى هم سكان مكة بالخروج منها ونزول بطن مَرّ لإنقاذ أرواحهم والمكوث فترة من الوقت، الى أن أنجاب الوباء شيئاً

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٩-٤٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤٩.

فشيئاً فدخل التجـار مكـة فهبطـت الأسـعار ثـم تبـع ذلـك سـقوط الأمطـار ولكنها لم تستمر طويلاً[1] مما نتج عنه أن كثرت المؤلفات عن الطـاعون وأنـه لا يدخل مكة والمدينة وكان جار الله بـن فهـد مـن أبـرز مـن ألـف في هـذا الشأن[2] .

وفي عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م تأخر سقوط المطر فحصل بمكة غلاء عظيـم حتـى بيعـت الكيلـة مـن القمـح بكبـير عثمـاني وعـز وجــــود الأقـوات وخلـت الأسواق من الحبوب والتمر الا قليلا مـن اللحـم والخضـر حتـى أكـل النـاس الجراد وبيع في السوق كل كوم عدتـه ثمـاني جـرادات بدرهـم وهلـك منهـم جماعة كثيرة ونزح من مكة اكثر اهلها[3] فوصل الخبر الى حـاكم بنـدر عـدن الأمير مرجان حيث امر أصحاب الجلاب الذين يتواجـدون إليـه بالتوجـه الى زيلـع[4] وشـحنها حبـاً وبـالفعل جهـز الى مكـة الفـي اردب قمحـاً وواصـل الارسال حتى خفف الضغط الإقتصادي المجـاعي عـن مكـة وفرقـت الحمولـة كلها على الناس فعم النفع بها[5] .

(١) **نيل المنى**- ص٣٨٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٨٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٣٨.

(٤) زيلع: ثغر على الشاطيء الافريقي لخليج عدن وتعتبر في مضى قصبة مملكة عدن وهي الثغر الوحيـد الهـام في الصومال وكانت فيما مضى مركزاً تجارياً هاماً أما اليوم فليس فيها إلا بقايا قليلة الشأن لمنشآت ترجـع الى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي, انظـر: يـاقوت الحمـوي- **المعجـم**- ج٢- ص٩٥٦. احمـد الشـنتناوي- **دائرة المعارف الاسلامية**- م١١- ص٢٧-٢٨.

(٥) **نيل المنى**- ص٣٤٥.

وهكذا كانت الحال في السنوات التي تحدث فيها أزمات القحط، لا تخلو في كل مرة من ارتفاع في الأسعار مما ينتج عنه جوع جماعي يصاب به الفقراء.

وبالاضافة الى شح المياه وقلة الأمطار، فقد كانت مكة تعاني أحياناً من السيول الجارفة في بعض مواسم الحج، مما كان لها أثره الكبير في تدهور التجارة، ونتائج سيئة على الأسواق.

ويشير صاحب **نيل المنى** الى العديد من السيول التي أصابت مكة، فيقول ((ولكن أشد هذه السيول دماراً للأسواق وترويعاً للحجاج الذي صبح الحجيج يوم التروية في موسم حج عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م فذهب بمتاع الناس وماالهم، وهدم الدور وقتل الهدم أناساً كثيراً، حتى إن الناس تسلقوا الجبال وفروا الى الشعاب للنجاة بأرواحهم))[١] .

كما يروى لنا جار الله بن فهد وصفاً معبراً لهذا السيل وأثره، إذ يقول: ((... حصلت... سيول كثيرة و لم نعهد مثلها، وتهدم كثيراً من الأصائل الكبار وقلت الزرع وأخافت الحجيج وقتل في السيل أكثر من سبعين نفساً غرقاً))[٢] .

ولقد شمل مكة وأضربها ضرراً كبيراً حتى لم يسلم فيه مؤلفنا جار الله بن فهد حيث يذكر ((أنه سقط داره الذي يقطن فيه))[٣] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٥.

وفي عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م أصيبت مكة بأضرار جسيمة من جراء استمرار هطول الأمطار بشدة على مكة ونواحيها وأغلق الناس حوانيتهم ومنازلهم ولقد سقطت كثير من الدور على ساكنيها وكان نصيب بعضهم الموت تحت الدمار والركام ولم يسلم المسجد الحرام، فلقد تضررت بعض الأعمدة وكثير من الأبواب وامتلأ المسجد الحرام بالتراب والحصى حتى فصل ما بين المسعى والصفا، بما تطلب الأمر الى تنظيفه الذي استغرق وقتاً قرابة الشهر ومالاً بلغ الألفين دينار اجرة العمال لأن التراب المكوم بالمسجد بلغ نحو ثلاثين كوماً[١]

ويقدم لنا أيضاً جار الله صوراً جميلة من صور التراحم الذي كان يسود المجتمع المكي المسلم في مثل هذه الأوقات الصعبة، فقد تصدى بعض كرام القوم إلى وضع حد لمعاناة المتضررين من هذه الأزمات، وسعى إلى مساعدة المحتاجين من الفقراء وغيرهم، ففي عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م اضطر شريف مكة ابو نمي الى مواساة من اصيبوا وأصبحوا بلا ملجأ من جراء السيول المستمرة وصرف لهم إعانات مالية ليستعينوا بها في ترميم منازلهم[٢] .

كما أن الخواجا عبد القادر القاري الدمشقي يبادر الى انفاق الطعام من مخازنه ويتصدق به في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م عندما اشتدت المجاعة وفتك الجوع بالناس وتعدى الأمر الى أن أصبح يخدمهم ويدعوا لهم أن ترخص الأسعار[٣] .

---

(١) نيل المنى- ص١٨٨.

(٢) المصدر السابق- ص٥٤٥.

(٣) المصدر السابق- ص٣١.

و لم تكن هذه الحالة منفردة فقط في شخصية عبد القادر الدمشقي بل تنافس التجار والموسرين في مواساة الفقراء و لم يقتصر الأمر عليهم بل استمر الحث على فعل الخير من قبل العلماء وحث الناس الى تخفيف الكرب عمّا يعانيه ضعفاء الناس وفقرائهم ويروي لنا جار الله بن فهد صورة أخرى من هذا التراحم الإنساني فيقول أنه ((في الجمعة كثر الفقراء الأطفال والكبار لوصولهم لمكة من البراري لشدة جوعهم وغلاء القوت فصاروا يلحون في السؤال في المسجد الحرام والسوق وأزقة البلد بل سمعت ان بعضهم مات جوعاً... فقيض الله لهم الشيخ شهاب الدين احمد محمد النشيلي وكتب قائمة لجماعة من التجار يسألهم في أعانتهم بما فرضه الله عليهم من الزكاة فسمحوا له بمبلغ خمسين دينار من جماعة وأعطاه قاضي الروم مصطفى أربعين ديناراً... وصار يشتري لهم لحماً ورزاً ويوزع لهم الغداء... واجتمع على ذلك نحو خمسمائة طفل من الفقراء))[1] .

أما الذي كان يخفف الأزمات الاقتصادية في مكة فكان مايجلبه معهم سراة اليمن الذين كانوا يأتون الى مكة مرتين في السنة لأداء العمرة والحج، فكانوا يغمرون مكة بالبضائع والسلع مما كان يؤدي الى رخص الأسعار بها[2] .

كما كانت السلطة العثمانية عبر واليها بمصر ترسل مساعدات سنوية لمكة، منها ما كان أموالاً ومنها ما كان مواداً تموينية[3] .

---

(١) نيل المنى- ص٣٦.

(٢) المصدر السابق- ص٨٦.

(٣) المصدر السابق- ص٤١-٥٦-١٩٨.

العامل الثاني: قطع الطرق:

يعتبر عدم الأمان على الطرق من أخطر ما يواجه المسافرين من مشكلات خاصة على الطرق الداخلية، حيث انتشار اللصوص وقطاع الطرق من القبائل القاطنة على طرق الحج والقوافل التجارية وتهديدهم لحياة الناس وممتلكاتهم. ولقد تضاعف خطرهم مع اضطراب صمام الأمن في مكة المكرمة.

لم تكن هذه الحركة لتقتصر على العبث بالقوافل التجارية ونهب أموال الناس وتهديد الأمن على الطرقات وحسب، وانما امتدت آثارها على المدى البعيد لتساهم في انحطاط المدن، ذلك أن الأخطار التي تهدد المسالك والمتمثلة في حركة قطع الطرق بالدرجة الأولى، قد أرغمت كثيراً من السالكين على هذه الطرق غير المأمونة الى هجرها والبحث عن مسالك جديدة تكون أكثر أمناً.

ولقد وجد السرّاق في ضعف الإمرة خلال حكم الأشراف وعدم قدرتهم على ضبط الأمن داخل مكة فضلاً عن الطرق، وجدوا في ذلك فرصة ثمينة للسلب والنهب، فيذكر جار الله بن فهد أنه في موسم عام ٩٢٤هـ/١٥١٩م تعرض الركب المصري الذي يتولى إمرته زين الدين بركات بن موسى لمجموعة من العرب فقطعوا عليه الطريق وسلبوا ماقدر بنحو مائتي حمل فيهم زيت الحرم الشريف[1].

(١) نيل المنى- ص٣٧.

كما حدث في موسم عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م عندما اعترض حجاج البصرة أهل وادي نخلة وحصل بينهم قتال أدى الى قتل وجرح الكثير منهم ونهب ما معهم من سلع وأقمشة(١) .

و لم يسلم كذلك منهم الراكب الشامي حيث تعرض امير الحاج الشامي وهو في طريقه للعودة لبلاده بعد إنتهاء موسم عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م حيث قطع الطريق عليه من القبائل القاطنة على طريق عودته(٢) .

ويورد لنا جار الله بن فهد عن اكبر عملية قطع طريق حدثت لحاج الشام ويصفها بأمانة ويحدد لنا المبالغ بدقة متناهية وذلك في موسم عام٩٢٥هـ/١٥١٩م(٣) .

ورغم ذلك لم يقف الاشراف مكتوفي الأيدي لمثل هذا العنف الدموي والتخويف المروع لحجاج بيت الله فنرى شريف مكة بركات يستعمل اسلوب الترهيب والترغيب حيث انه قام بإجراء معاهدات مع القبائل بعدم التعرض للحجيج وتقديم العون المادي لهم لإنقاذهم من شبح الجوع والفقر وفي نفس الوقت كان يرسل فرقه من جنده لتأديب القبائل القاطنة على طرق الحج والقوافل التجارية وزرع الخوف والقلق في أنفسهم إذا مافكروا في محاولة ترويع الحجيج(٤) ومن الأدلة على ذلك ان شريف مكة امر الأمير باز

---

(١) نيل المنى- ص٢٣٤.

(٢) المصدر السابق-ص٣٥٧.

(٣) المصدر السابق- ص٥٣.

(٤) المصدر السابق- ص٦٨-١٣٩-٣٥٧.

بن فارس بن شامان الحسني امير المدينة عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م بالخروج بعسكره بصحبة أخو وزير الهند حميد الدين حتى يبلغه مكاناً مأموناً[١] .

ويزداد التأكيد لذلك ما ذكره النهروالي في عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م أن الأمير سودون قام بقطع جميع أشجار السيلم والشوك الذي كانت على جانبي طريق عرفة "وكانت الحرامية تكمن تحت الأشجار وتنهب جميع ما تظفر به من الحاج... ورفع عنهم شر السراق"[٢] .

ومن جهة ثانية، انتهز بعض عرب الحجاز -وخاصة بنو ابراهيم وبنو زبيد- عدم استقرار الأوضاع السياسية في إمارة مكة لنهب جدة والاعتداء على من بها من التجار فاختطف عرب زُبيد التاجر الكبير الخواجا شمس الدين محمد بن يوسف القاري من بيته بجدة في عام ٩١١هـ/١٥٠٦م، ولم يطلقوه إلا بعد أن دفع فدية قدرها ثمانية آلاف -وقيل عشرة آلاف دينار[٣] .

كما صمم الشريف ابو نمي في عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م على معاقبة بني ابراهيم بعد أن كثر جمعهم من القادمين والمقيمين والتجؤوا الى ينبع متمركزين بها لقطع القوافل التجارية القادمة من ميناء ينبع ولكن أدت إلى المفاوضات بين الطرفين على أن يقوم بني ابراهيم بإعطائه الخيول والدروع والرهائن[٤] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٥٧.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٣٦.

(٣) العز بن فهد- **غاية المرام**- ج٣- ص٥١.

(٤) **نيل المنى**- ص٢٩٢.

و لم يكن قطاع الطرق جميعهم من القبائل العربية القاطنة على طريق القوافل التجارية التي كانت تتوشح الفقر وتتوسد الجوع وتلتحف بالوباء و لم تلق عناية وإهتمام وتوفير القوت من قبل الدولة العثمانية بل تعدى الأمر واستشرى قطع الطرق على القوافل التجارية سواء في البر أو البحر من قبل الأتراك أنفسهم الذين يمتلكون الأموال الطائلة.

ومن ابرز هؤلاء المشهورين بقطع المراكب التجارية في البحر الأمير سنان الرومي المعين من قبل السلطان العثماني سليم وكان أميراً في اللحية باليمن ثم أصبح خصماً للدولة العثمانية وكون قوة لديه تثير الإضطراب والخوف لدى المراكب البحرية المحملة بالبضائع[1].

يوصف لنا جار الله بن كيف استطاع شريف مكة بركات أن يقنعه بالعودة الى طريق الحق والسماح للمراكب التجارية بالوصول الى جدة لتفريغ حمولتها من السلع والبضائع وذلك في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م "في يوم الخميس الخامس عشر وصل الخبر الى مكة أن الأروام الذين كانوا في البحر يقطعون الطرقات اجتمعوا بالشريف بركات فعمل لهم عرضة بفريقه في اليمن، وخلع على كبيرهم سنان الرومي، وعاتبه على فعله، فاعتذر وسأله العفو فعفا عنهم ورتب لهم مرتباً وأقاموا[2] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٥٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص٥٢.

العامل الثالث: السيطرة البرتغالية على الطرق التجارية:

اتسم بداية القرن العاشر الهجري بالصراع على منافذ البحار بين القوى الكبرى الاسلامية والأوربية ويعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور التجارة في إمارة مكة محاولة البرتغاليين الاستيلاء على تجارة الهند، وتهديدهم المتفاقم للبحر الاحمر والحجاز، فقد ظهر تأثير النشاط البرتغالي في التضييق على التجارة الإسلامية في الهند والمحيط الهندي منذ عام ٩٠٨هـ-١٥٠٣م[١].

وفي أواخر عام ٩١٢هـ/١٥٠٧م، دخل البحر الاحمر أكثر من عشرين مركباً برتغالياً قطعت الطريق على مراكب تجار الهند، ثم نهب البرتغاليون بضائعهم[٢].

ازدادت حالة التجارة بمكة سوءاً بعد انتصار البرتغاليين على أسطول القائد المملوكي حسين الكردي في معركة ديو البحرية قرب ساحل شمال غربي الهند، في شهر شوال من عام ٩١٤هـ/١٥٠٩م[٣].

وفي مطلع عام ٩١٩هـ/١٥١٣م، قدم الأسطول البرتغالي إلى عدن في محاولة للاستيلاء عليه، غير أنه لم يتمكن من ذلك ثم دخل البرتغاليون البحر الاحمر واستولوا على جزيرة كمران وكان لهذه الجزيرة أهمية بالغة كمحطة للمراكب التجارية بين الهند وجدة، حيث تتمون بالماء والميرة بها[٤].

---

(١) العز بن فهد- **غاية المرام**- ج٣- ص٤٨.

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٦٢أ.

(٣) **المصدر السابق**- ورقة١٨٨أ- **غاية المرام**- ج٣- ص٤٩.

(٤) **مصدر سبق ذكره**- ورقة٢١٠ب/ إبن إياس-**بدائع الزهور**- ج٤- ص٢٩١.

تحقق للبرتغاليين جـزءاً ممـا خططـوا لـه مـن توسـيع نفوذهـم المـائي في العـالم الإسلامي ولكنهم أرادوا مواصلة سيرهم في مياه البحر الاحمر نحو جدة، غـير أنهم لم يتمكنوا من ذلـك لعـدم هبـوب ريـح مناسـبة(١) وقـد أثـار استيلاء البرتغاليين على جزيرة كمران مخاوف أهل مكة، فتوجه الشريف بركات بـن محمـد بـن بركـات، أمـير مكـة، الى جـدة في شـهر ربيـع الأول مـن عـام ٩١٩هـ/١٥١٣م، وبصحبته أمير العسكر المملوكي المرابط بمكة، وجماعة مـن المماليك، وأقاموا بها لتوقعهم هجوماً برتغالياً(٢) .

وفي محاولـة لإعـادة الأمـن الى البحـر الأحمـر ولصـد العـدوان البرتغـالي جهـز الشـريف بركـات عـام ٩٢٦هـ/١٥١٩م قـوة عسـكرية مصحوبـة بالبنـائين والمهندسين الى ميناء جدة لبناء أبراج لحمايتها وأعلن الجهاد في شوارع مكـة ونتيجة لهذا ارتفعت الأسعار في شتى أنواع السلع(٣) .

ومما يجدر ذكره أن أغلب المراكب الهندية لم تقدم إلى ميناء جدة وذلك مابين عـامي ٩٣٧هـ/٩٣٩هـ-١٥٣٠-١٥٣٢م بسـبب الصـراع المريـر المسـتمر وفرض شبه سيطرة على موانيء البحر الأحمر مـن قبـل البرتغـاليين وانعدمـت اكثر البضائع الهندية من اسواق مكـة ولكنهـا لم تسـتمر طويـلاً فسـرعان مـا

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٢١٠ب.

(٢) العز بن فهد- **المصدر السابق**- ورقة٢١١أ- إبن إياس-**بدائع الزهور**- ج٤- ص٣٠٧.

(٣) **نيل المنى**- ص١١٤-١١٥.

عاودت إبحارها ورسوها بميناء جدة محملة بالبهار والعود الصيني والأقمشة وحدث ذلك في شهر شوال من عام ٩٣٩هـ/١٥٣٢م[1] .

وجاء هذا التحول في طرق التجارة العالمية نذيراً بنضوب معين التجارة بالنسبة للبحر الاحمر عامة والحجاز خاصة، وأصبحت تجارة الهند والصين في أيدي البرتغاليين بعد أن خرجت من أيدي العرب# .

العامل الرابع: الاحتكار التجاري:

كان من أثر إزدياد النشاط التجاري وعدم تدخل شريف مكة بشكل مباشر في تنظيم الأمور التجارية وتمديد اسعار السلع وإهتمامه فقط بالمكوس والضرائب التي يفرضها على التجار والدلالين[2] أن نتج عن ذلك تكوين طائفة من التجار قامت بإحتكار أغلب السلع الضرورية مما أدى إلى اشتعال الأسعار وتضجر سكان مكة من إزدياد الغلاء وعدم الاعتراف من قبل التجار بالمراسيم التي يصدرها شريف مكة تمنع إحتكار التجارة[3] . ففي شهر رمضان من عام ٩٢٤هـ/١٥١٩م اشتد غلاء الحب وجميع الأقوات فأصدر

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٠٧.

ولقد قمت بالتوسع والتوضيح للتحركات العسكرية البرتغالية ومحاولة إنهائها من قبل السلطة العثمانية في الصفحات السابقة في الفصل الأول.

(٢) **نيل المنى**- ص١٩-١٤٦-

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٦.

الشريف بركات مرسوماً بمنع الإحتكار وتخفيض الأسعار و لم يخصص التجار والباعة أسعارهم وكأن الأمر لا يعنيهم[1] .

ولقد اشتهرت شخصية تجارية في هذه الفترة بإحتكار البضائع والسلع وإستغلال الوظيفة المسندة إليه في تحقيق ما يصبو إليه من ثراء سريع حيث احتكر الوزير الجمالي محمد بن راجح بن شميله المسؤول عن نظارة جدة الحبوب الواصلة عن طريق البحر فيقوم بشرائها ثم يحدد الأسعار التي يريدها بل تعدى الأمر ذلك.

ففي شهر صفر من عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م منع أغلب القوافل القادمة من اليمن من دخول جدة و لم يسمح لها حتى استطاع أن ينفق ما تحتويه مستودعاته من حبوب على أسواق مكة[2] .

العامل الخامس: الازدياد السكاني:

قد تكون الكثافة البشرية عاملاً من عوامل الغلاء وبسبب جاذبية المركز الديني لمكة المكرمة يظهر هذا العامل وهو يبرز في أثناء قدوم المعتمرين للعمرة الرجبية -ويزداد خاصة في موسم الحج وان كان الأخير يشكل في معظم الأحيان مواسم الازدهار التجارية في مكة حتى مع كثرة التجمع البشري فالعناصر المرتبطة بالخصائص الطبيعية للمكان جعلت من الصعب الاعتماد على اهمية الموقع التجاري وحركة التجارة التي قد تتأثر في بعض الأحيان

---

(١) نيل المنى- ص٢٤.

(٢) المصدر السابق- ص٤٧.

بعوامل معينة تؤدي الى نقص الواردات وفي هـذه الحالـة –لم تكـن التجـارة– وخاصة في هذه المنطقة القاسية من الناحية الطبيعية قادرة على كفاية الاعـداد المتزايدة علاوة على انعدام التخطيط المسبق لمواجهة مثل هذه الحالة ولعل هذا ما يفسر شدة الغلاء عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م يقول جار الله بن فهـد: ((وجـاء الى الحج عالم كبير من البر والبحر لم يسمع مثله فيمـا مضـى وحصـل للنـاس أيام الموسم عطش شديد))[١] .

كمـا يؤكـد ذلـك نـص تـاريخي أورده جـار الله بـن فهـد في أحـداث عـام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م "وكان سليمان باشا سأل عـن سبب غلـو الأقـوات بمكـة فقيل له: كثرة التجار بها والمجاورين من الغرباء، فـأمر بـالنداء أن يرجـع كـل غريب إلى أوطانهم قبل سفره الى مكة و لم يظهر لذلك نتيجة"[٢] .

والجدير بالذكر أن الغـلاء يـزداد نمـواً ويتضـرر كثـير مـن أهـل مكـة خاصـة متوسطي الحال الإقتصادي بقـدوم العسـكر العثمـاني القـادم في أيـام مواسـم الحـج[٣] حيـث يصـل في بعـض المواسـم عـدة آلاف ممـا يثقـل ذلـك كـاهل الإقتصاد المكي.

---

(١) **نيل المنى**– ص٤٧.

(٢) **المصدر السابق**– ص٤٣٩.

(٣) **المصدر السابق**– ص٨٨.

العامل السادس: الاضطراب الاقتصادي في الدول الكبرى:

قد ترتفع الأسعار في مكة نتيجة لسوء الاحوال الاقتصادية في البلاد التي تمدها بالسلع والمواد الغذائية وبطبيعة الحال كان لابد أن تتأثر مكة بذلك لانقطاع وصول الإمدادات اليها.

ففي عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م قل فيضان النيل بمصر وترتب على ذلك فساد الزراعة وقلة المحصول فتزايد بها الغلاء واشتد البلاء ولم يكن ذلك قاصراً على مصر انما عم الجدب والقحط ممالك المشرق والمغرب ومكة المكرمة(١) .

كما كانت الفتن والثورات التي تؤدي إلى الإضطراب السياسي في البلاد التي تكون شرياناً إقتصادياً لمد مكة المكرمة بالمؤن والسلع الغذائية أن تتأثر بها مكة فترتفع فيها الأسعار في شتى أنواع السلع.

يشير جار الله بن فهد أنه في عام ٩٢٤هـ/١٥١٩م حدث صراع دموي بين الخواجا عبد الله الذمي الحضرمي وسلطان دهلك وقام الخواجا عبد الله بتجميع قوة بلغت نحو مائتي مقاتل عبر بهم البحر في ثلاثة مراكب لقتال سلطان دهلك فحصل بينهم إشتباك عنيف كان ضحيته قتل عدد كبير من الطرفين وعلى رأسهم سلطان دهلك ونتج عن هذا الصراع إرتفاع في أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة ((بيعت الربعية الحب بمحلقين وزيادة ونقصان قليل بحسب الحبوب من الحنطة والذرة والدخن... ويلطف الله بالمسلمين ويرخص أسعارهم))(٢) .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٦٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٥-٢٦.

وفي آخر شهر محرم من عام ٩٢٧هـ/١٥٢٠م كان الصراع العنيف بين القوتين الاسلاميتين بين نائب ملك الأمراء بمصر ونائب الديار الشامية بدمشق عم بسببها الغلاء الفاحش في الاسعار وخاصة مكة المكرمة حيث لحقها ضرر كبير وكثرت المجاعات ويعلق جار الله بن فهد قائلاً ((غليت الأسعار بمكة فبلغت الربعية الحب اللقيمية بـاربعة محلقة ونصف والنخيلة بأربعة والمصرية بأربعة والدخن والذرة بثلاثة والرطل السمن بسبعة وسبب الغلاء عدم الواصل من الجلاب بحراً من مصر))[1] .

العامل السابع: الفتن والثورات بين الأشراف:

لعل انعدام الأمن بسبب الأوضاع السياسية المتردية في بعض الأحيان من أهم العوامل التي كان لها أثر كبير في ارتفاع الأسعار بل في فرار التجار من مكة وخوفهم من دخولها فالتنافس بين الأشراف أنفسهم على الحكم في بعض الفترات كان له أسوأ الأثر في الحياة الاقتصادية في مكة فتنقطع عنها الأقوات ويقل وجود المؤن وترتفع الأسعار.

تعتبر من أبرز الفتن التي حدثت بمكة في مطلع القرن العاشر الهجري واشتدت فيها موجة الغلاء الفتنة التي كانت نتيجة الصراع السياسي والتنازع بين أولاد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان حول ولاية إمرة مكة، وبخاصة في الفترة مابين عام ٩٠٦هـ/١٥٠١م، وعام ٩١٠هـ/١٥٠٤-

(١) **نيل المنى**- ص١٥٦.

١٥٠٥م. وتدهورت الحركة التجارية وعدم البيع والشراء في مكة بل تعدى الأمر ذلك فشملت جدة مركز التجارة الدولية[1] .

وكان أشد أولاد الشريف محمد نقمة على التجار، الشريف احمد المعروف بجازان. في شهر ربيع الأول من عام ٩٠٨هـ/١٥٠٢م، فسار جازان إلى جدة واستولى على عشرة آلاف دينار من مال العشور التي جباها ناظر جدة للسلطان قانصوه الغوري[2] ثم في شهر جمادى الأولى من السنة نفسها، قبض الشريف جازان على جماعة من التجار بمكة، واضطروا أن يبيعوا دوراً ومزارع لهم حتى يحصلوا على المال الذي اشترطه عليهم مقابل الإفراج عنهم[3] .

ولما ذاع بمكة أن أحد كبار تجارها، ويعرف بالخواجا شمس، قد توفي باليمن، اقتحم أعوان الشريف جازان بيته بمكة واستولوا على ما به من البضائع وباعوها للتجار بمبلغ ألف وثلثمائة دينار ولما تبين أن الخواجا شمس مازال حياً، لم يردّ إليه ماله[4] .

كما اضطرمت نار الفتنة واستفحل الصراع المرير مرة أخرى ففي شهر ذو القعدة من عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م تنازع الشريف ابو نمي مع عمومته وفرارهم الى جهة وادي الخيف لإثارة الفتن والإضطراب ولم يكن تنازعهم على

---

(١) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة١٩٨أ.

(٢) العز بن فهد-**المصدر السابق**- ورقة١٩٨ب.

(٣) العز بن فهد-**المصدر السابق**- ورقة١٩٩أ.

(٤) العز بن فهد-**المصدر السابق**- ورقة٢٠١ب.

الإمامة بمكة هو العامل الوحيد الـذي أثـار الإضطرابـات[1] فقـد كـان هنـاك عنصر آخر ساعد على زيادة حدة التوتر داخلهـا وأعـني بذلـك وجـود أولاد الشريف حميضه الذين طالبوا بمبالغ باهظة لتوفير سبل الراحـة والرفاهيـة لهـم وأدت هذه الفتنة الى نتائج سلبية على المجتمع المكي حيـث ارتفعـت الأسـعار بشراهة وقلت أو اختفت بعض السلع والمؤن من الأسواق[2] .

و لم يكن الاشراف وحدهم هم العامل الاساسي لقيام الفتن والإضطرابات بل تعدى ذلك الى الفئة المملوكة التي يقومون بخدمتهـم وحراسـتهم ففـي بعـض السنين كان عبيد الأشراف وخاصة عبيد شـريف مكـة يثـيرون الاضطرابـات بمكة، مما كان يلحق ضرراً بالغاً بالتجار. ويشير جـار ا لله بـن فهـد في عبـارة موجزة في موسم عام ٩٣٣هـ/١٥٢٧م "فغلا الماء وبعض الأقـوات لاسـتيلاء عبيد الشريف"[3] .

و لم تخلـو مكـة مـن الاضطرابـات والفـتن بـين الأشـراف وممثلـي السـلطة العثمانية[4] فغالباً ما كان يحتد الـنزاع وتظهـر علامـات السـخط علـى كـلا الطرفين ولكن نادراً ما يحدث إشتباك وإذا حدث ظهرت الفتن وانعدم الأمـن وساد التوتر وكانت أبرز الفتن تلك التي استمرت قرابة الشهرين بين الشريف ابي نمي والأمير خير الدين الرومي وذلك في عام ٩٣٢هـ/١٥٢٦م واستفحل

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٠١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٠١-٢٠٢.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٢٥.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣١-٣٥٣.

الصراع وامتدت دائرة الحرب حتى شملت العرب الذين على اطراف مكة فقاموا بقتل رعايا الدولة العثمانية وانتهت بصلح بين الطرفين[1] .

ويشير جار الله بن فهد الى ذلك ((في أثناء هذه الأيام الفتنة قل الواصل من جدة وغيرها وغلت الأسعار في الحبوب... وقاسى الناس شدة وذلك لخوف الطريق من العرب[2] مما نتج عن ذلك إلحاق أقصى الضرر على المجتمع المكي من الناحية الاقتصادية)).

العامل الثامن: الكوارث البحرية:

ومن أسباب ارتفاع الأسعار في المواد الغذائية الحوادث أو الكوارث التي تعتبر من أسوأ الحالات التي تصيب التجار والتي كثيراً ما يتعرضون لها وخاصة فيما يتعلق بالسلع الآتية عن طريق البحر حيث الشعاب المرجانية التي قد تتسبب في اغراق كثير من المراكب العابرة فيه.

وتبرز الكارثة التي حدثت في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م عندما غرق احد المراكب القادمة من كابول بالقرب من ميناء جدة ولم ينج من ركابه البالغ عددهم المائتي راكب سوى عشرة أنفس بالإضافة إلى الخسائر الفادحة لكثير من التجار من بضائع وسلع وأقمشة[3] .

---

(١) نيل المنى- ص١٨٤.

(٢) المصدر السابق- ص١٩٥.

(٣) المصدر السابق- ص٢٧.

وعلى الرغم من الحذر والحرص الشديد من قباطنة المراكب ومعرفتهم لأحوال البحر ومسالكه وإلمامهم بالرياح واتجاهاتها ومعرفتهم بالموج مده وجزره والإهتمام الشديد من قبل ربان وملاحي السفن والمراكب بالوصول بالحمولات والبضائع التجارية إلى شاطيء الأمان إلا أن أوضاع البحر لاتعرف الاستقرار.

وتعتبر الكارثة التي فجعت أهل مكة وأقلقهم ما حدث في شهر ذو القعدة عام ٩٣٨هـ/١٥٣٢م حيث تعرضت عدة سفن محملة ببضائع وسلع لأهل مكة بالغرق في مرسى أم المسك بالقرب من ميناء جدة وزهقت أنفس كثيرة ويصور جار الله بن فهد تضخيم القلق الذي انتشر في مكة قائلاً ((فيها جماعة من التجار منهم: بعض أولاد الخواجا قاسم ابن الجمال الحلبي وغيره وبجلبة لأمير الصعيد لابن عمر جاءت من القصير وكورت الباحة فيها الخواجا مصطفى مشد العين والعمائر بمكة المشرفة وخلق، وكثر القال فيها وفي ركبتها))[1] .

بذلك شاركت المساحات المائية المساحات البرية في إرباك الإقتصاد المكي.

---

(١) نيل المنى- ص٣٠٠.

الصادرات والواردات

كان لتباين الخصائص البشرية بين مختلف الناس أثر في تنوع التجارة بين كل هذه الفئات مما نتج عن ذلك ظهور عدد من أنواع التجارة المختلفة منها:

تجارة المواشي:

كانت لظروف مكة البيئية ولمكانتها الدينية وإشتغال جزء من أهلها بالرعي والتجارة ان ازدهرت تجارة المواشي في مكة وخاصة في موسم الحج حيث يذبح أعداد كبيرة منها هديا وأضاحي اقتداء بنبي الله ابراهيم عليه السلام وامتثالاً لأمر الشريعة الغراء وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال في الأضحية: ﴿لصاحبها بكل شعرة حسنة ويروى بقرونها﴾[1] كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه ضحى بكبشين أقرنين أملحين[2].

ولقد ترتب على قدوم الآلاف من الحجاج سنوياً إلى المشاعر المقدسة أن ازدهرت تجارة الإبل والأغنام والأبقار، كما زاد المعروض منها لازدياد الطلب عليها. ولا عجب في ذلك فهي سلع اقتصادية ذات منفعة ومطلوبة في مواسم الحج. ويشير جار الله بن فهد الى انتعاش هذه التجارة ونشاط الأسواق التي تعرض فيها[3] .

---

(١) البخاري، محمد بن اسماعيل- **صحيح البخاري**- ج٣- القاهرة- المطبعة الاميرية- ١٣١٢- ص٨٦.

(٢) النسائي-**باب الضحايا**- رقم الحديث ٣٠-ج٢- ص١٨٦- إبن الأثير، علي بن محمد الشيباني-**الكامل في التاريخ**- ج١-بيروت- ١٩٦٦م- ص١٥٢.

(٣) **نيل المنى**- ص٣٨-٢٤٤-٣١٣.

وقد كانت هذه التجارة مرتبطة إرتباطاً كبيراً بـالحج ومناسكه إذ يقـول ا لله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله فـإن أحصـرتم فمـا استيسـر مـن الهـدي ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدي محله﴾[1] .

و لم تقتصر تجارة الماشية على ما يقدم كهدي وأضاحي، بل شملت أيضاً تجارة البغال والحمير التي تستعمل للركوب وحمـل المتـاع والأثقـال وبذلـك كـانت تجارة المواشي مزدهرة بالبيع والشراء وخصوصاً في أيام موسم الحج[2] .

مهنة الكراء:

وجدت في مواسم الحج بعض المهـن والحـرف ذات العلاقـة الوثيقـة بفريضـة الحج ومناسكه كالكراء، والحلاقـة والحجامـة، والحطابـة، بالإضافـة إلى مهـن وحرف أخرى.

ويلاحظ أن الوسـيلة المميزة للمواصلات في هـذه الفـترة هـي الإبـل، ولقـد حصل تطـور في كيفيـة استعمالها وركوبهـا، فـإذا كـان المسـلمون في بدايـة الإسلام يحجون على الرواحـل والزوامـل، وهـي الإبـل وعامـة الـدواب فقـد تطور الأمر بعد ذلك الى اتخاذ المحامل وهمـا شـقان علـى الإبـل يُحمـل فيهـا الشخصين وكانت المحامل تؤجر إلى مكة[3] .

---

(١) سورة البقرة- الآية رقم١٩٦.

(٢) **نيل المنى**- ص٥٦-٢٧٤.

(٣) العنقاوي، عبد ا لله عقيل- **المحمل نشأته وآراء المؤرخين فيه**- مجلة كلية الآداب- م٢- الرياض- جامعة الرياض- ١٣٩١- ص٣٠٠.

كما كـانت المحامل ترتفع أسعارها في مواسم الحج وتؤجر بمبالغ باهظة لحجاج الشام ومصر عند مغادرتهم لمكة بعد إنقضاء موسم الحج[١] .

كانت مهنة كراء الرواحل وهي الإبل السريعة والقوية، من المهن الرائجة في مواسم الحج، فقد كانت الراحلة هي الوسيلة المفضلة عند الحجاج لنقلهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج وقد تميزت الرواحل بتحملها للجوع والعطش خلال قطعها للمسافات الطويلة.

وكان من يتولى مهنة الكراء يعرف باسم المكاري، وهو الذي يؤجر دابته من الإبل وغيرها مقابل ثمن معين واشارت أغلب المصادر المكية إلى رواج مهنة الكراء وازدياد الطلب عليها في مواسم الحج، فقد كانت الإبل تُكرى للحج الى مكة كانت أسعارها تتذبذب في أغلبها الى الارتفاع فيشير جار الله بن فهد أنه في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م بلغ كراء الجمال من جدة الى مكة كل حمل بخمسين ديناراً[٢] وترتب على انتعاش مهنة الكراء في مواسم الحج، زيادة الطلب على شراء الإبل وازدهار هذه التجارة في أسواق الحجاز عامة ومكة المكرمة خاصة وبلغ السعر أعلاه ففي موسم حج ٩٢٥هـ/١٥١٩م وصل سعر كراء الجمل من مكة الى المدينة "أربعين ديناراً أو أكثر أو أقل، وذلك لقلة الجمال وضعفها"[٣] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٨-٨٦-٩١-٢٠٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٧.

(٣) **المصدر السابق**- ص٩٩.

لقد كان تجار الإبل يتجهون الى الأماكن التي يرتادها الحجاج حتى أن تجارتهم تتعدى حدود مكة بل شملت أسواق المدينة لبيع إبلهم والتكسب منها ويذكر جار الله بن فهد أنه في شهر ذو القعدة من عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م "اتفق المكارون أن كراء كل حمل بخمسة اشرفية"(١) وكان لهذا الثراء المادي من وراء هذه التجارة أن التحق بهذه المهنة المربحة بعض أقرباء شريف مكة(٢) .

ومما لا شك فيه أن تعاليم الإسلام المتعلقة بالحج كان لها دور في رواج مهنة الكراء، إذ سهلت على المُكارين تأدية مهنتهم في مواسم الحج حيث أجاز الإسلام حج من يُكري الرواحل إذا أدى جميع مناسك الحج ولقد حدد لنا **نيل المنى** أجرة الراحلة المُكرية الى مكة خلال مواسم الحج تقريباً، ولكن يبدو أن السعر يحدده بعد أو قصر المسافة من مكة وإليها. ويلاحظ هنا أن بعض المسلمين كان لايحبذ المساومة لإنقاص الأجرة في الكراء إلى مكة لأنهم كانوا يعتبرون ما يدفعونه كأجرة مما يتقرب به إلى الله.

دباغة الجلود (الادم):

كانت قد راجت في مكة بعض الحرف المحلية نذكر منها صناعة الجلود، حيث اعتبرت صناعة ودباغة الجلود من أهم وأنشط الصناعات التي لقيت رواجاً شائعاً في مكة بصفة خاصة وفي اقليم الحجاز بصفة عامة، ولا غرابة في

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٤٤.

استخدام العرب الجلود لحفظ المياه والعسل والزيت وجميع السوائل الأخرى، كما انهم وضعوا التمور في جرابات من الأديم الجيد وكذلك كانت تدخل الجلود في مجالات متعددة ومهمة خاصة في بناء دورهم وما يتزينون به من ألبسة لذلك تميز العرب وبلغوا شأوا بعيداً في دباغة الجلود وتصنيعها.

ودباغة الجلود ترتكز الى عوامل ثلاثة: **الأول**: تهيئة موقع يمتاز بالمناخ الجيد الصالح للدباغة، **والثاني**: وفرة الحيوانات المميزة والمشهورة بجلودها لسلخها والاستفادة منها، **والثالث**: ان تمتاز المدينة بالموقع الاستراتيجي وسهولة الوصول اليها[1].ولقد توفرت هذه العوامل الثلاثة فالموقع المميز الاستراتيجي لمكة المكرمة مع مخاليفها ولا سيما مدينة الطائف اصبحت مناسبة لدباغة وصناعة الجلود هذا الى جانب وفرة الحيوانات الجيدة في المناطق المحيطة بها وما تتمتع به من موقع مميز يجعل أغلب التجار من شتى أنحاء العالم الاسلامي يتصلون بها في سهولة ويسر، علاوة على ذلك وفرة المواد الأساسية التي تدخل في دباغة وصناعة الجلود مثل الأشجار[2] .

وقد اشتهرت تجارة الأدم في مكة المكرمة وخصوصاً في أشهر الحج. ويبدو أن ذلك راجع لكثرة ماينحر ويقدم كهدي وأضاحي فيها من إبل وبقر وأغنام. ويورد لنا جار الله بن فهد أن الأغنام والجمال ارتفعت أسعارها لكثرة الحاج القادم من الشرق إذ يستفيد أصحاب الأدم من جلود تلك الحيوانات بدبغها ومن ثم المتاجرة بها[3] .

---

(١) احمد الزيلعي – **مكة وعلاقاتها الخارجية**- الرياض- ١٩٨١م- ص١٨٩.

(٢) الفاسي- **شفاء الغرام**- ج١- ص٨٦. احمد الزيلعي- **المرجع السابق**- ص١٨٩.

(٣) **نيل المنى**- ص١٤٦.

وكانت تجارة الأدم رائجة في مكة ومما يدل على ذلك وجود حوانيت خاصة بأصحاب الأدم والتي كانت تُكرى في مواسم الحج بالدنانير الكثيرة[1] وقد عُرفت مكة المكرمة بصناعة الأدم ودباغة الجلود وكانت تتنافس أسواق مكة، كسوق الليل والسوق الصغير وأسواق منى، التي تعقد في مواسم الحج بأجود أنواع الجلود[2].

ويبدو أن اكثر استخدام الصناعات الجلدية يدخل في صناعة النعل حيث كانت من الصناعات النشطة بأسواق مكة وذلك لحاجة الحجاج الى النعل للبسها عند تأديتهم لمناسك الحج. والمرجح أن بعض الحجاج كانوا يشترون النعل، بالإضافة إلى أعواد السواك، يقدمونها كهدايا عند عودتهم لبلادهم وبعد تأديتهم لمناسك الحج[3].

واذا ما انتقلنا الى أنواع الصناعات الأخرى التي كانت موجودة في بلاد الحجاز، فإننا نلاحظ أن المعلومات التي وصلتنا عنها قليلة جداً، ومتناثرة بين سطور معدودة في بعض المصادر مثل صناعة الفئوس والمحاريث والمناجل وغيرها من الآلات الزراعية التي يحتاجونها في أعمالهم الزراعية.

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٦٥أ.

(٢) **نيل المنى**- ص٤٦-٨٣-٢٩٣.

(٣) الشلي-**السنا الباهر**- ورقة١٩٩ب.

إيجار وبيع الدور:

يتمثل انتعاش العقار في بيع أو إيجار الدور والحوانيت، ذات المردود المالي الكبير، الذي حصل عليه أصحاب هذه الأملاك في مواسم الحج. ولا شك أن قدوم الآلاف من الحجاج سنوياً الى مكة كان له أثره في إنعاش كراء العقار من دور وحوانيت فيها أيام الموسم[1].

وقد كان الحجاج يستأجرون دور مكة للإقامة بها، كما كان التجار يستأجرون الحوانيت لعرض بضاعتهم طلباً للكسب والربح خلال وجود الحجاج بأعداد كبيرة في تلك الأوقات[2].

ويشير جار الله بن فهد الى ازدهار كراء الدور والحوانيت بمكة، فقد كان القاضي الحنفي شهاب الدين احمد الغوري يؤجر داره لممثلي السلطة العثمانية[3].

توجد كثير من النصوص في ثنايا **نيل المنى** عن تأجير البيوت من قبل القضاة والعلماء والتجار للقادمين الى مكة في مواسم الحج خاصة الأغنياء، كما كانت حوانيت مكة تُكرى أيام موسم الحج بالدنانير الكثيرة. وبالإضافة إلى الكراء، ازدهر بيع العقار بمكة، وكان ذا مردود مالي كبير.

---

(١) **نيل المنى**- ص٩٨-١٠٦-٤٤٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٥-٦٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٧١.

فيورد لنا جار الله بن فهد أنه في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م اشترى الأمير مصلح الدين الرومي عدة بيوت بسوق الليل بمبلغ يقدر بألف دينار[١] .

كما نافس شريف مكة أغلب تجار العقار وخاصة وزيره الجمالي محمد بن ابي علي حيث استطاع الشريف ابو نمي عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م أن يشتري أغلب بيوت وزيره التي في المدعى ويحاول بشتى الوسائل والطرق أن يشترى الدور التي بجانبها فيرتفع سعر الدار من مئة دينار الى أربعمائة دينار اشرفي[٢] .

وعلى الرغم من أن كِراء الدور بمكة كان رائجاً ومربحاً لمن يزاوله، فقد كان هناك جدل حول كِراء بيوت مكة خلال مواسم الحج، فقد أباحه البعض وكرهه البعض الآخر وبالرغم من ذلك، فقد كان الكراء موجوداً، وأصبح الناس يتنافسون في كراء بيوتهم ونستشهد بما قاله جار الله بن فهد في موسم عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م "تتابع جماعة آخرون من الأروام وسكنوا ببعض البيوت وعينوها لأصحابها الواصلين مع الحاج... وشكوا أمرهم لنائب جدة فوعد بإعطاء كرائها وكتبت ضمن من عين بعض بيوته"[٣] .

ويعود السبب في ارتفاع اسعار العقار من دور وحوانيت سواء للبيع أو الإيجار الى كثرة الطلب وقلة العرض حيث يفد الى مكة اعداداً هائلة ويتضح ذلك أنه في عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م اصبح العسكر العثماني القادم لموسم الحج

---

(١) نيل المنى- ص٥.

(٢) المصدر السابق- ص٤٤٨.

(٣) المصدر السابق- ص٢٠٢.

كل مائة نفس او خمسين نفساً تقطن في دار وذلك لقلتها حتى ان المسجد الحرام أصبح مبيتاً لأعداد كبيرة[1] .

والجدير بالذكر أن كثيراً من أصحاب الأملاك العقارية أو الدور كثيراً ماكانوا يتعرضون لهضم حقوقهم من ايجارهم للدور وخاصة من قبل رعايا الدولة العثمانية خاصة الفئة العسكرية حيث نستشف هذا الظلم من نص أورده جار الله بن فهد "تتابع جمع من الأروام وهجموا بعض البيوت ولكن الأمير مصلح الدين الرومي ونائب جدة علي الشاووش داروا على بيوت العسكر بمكة وأمروهم بإعطاء كراء كل منزل لأصحابه ومن لا يكون معه نفقة يعطى له من مال الخنكار... و لله الأمر من قبل ومن بعد"[2] .

نتج عن إرتفاع أسعار الدور أن أصبح الكثير يقوم بعملية بناء مساكن وحوانيت إستثمارية ويتضح ذلك في إقبال شريف مكة ابو نمي وكثير من التجار بشراء الدور القديمة وهدمها وإعادة بنائها بشكل معماري رائع وجلبهم لأحدث البنائين والدهانين[3] عائداً ذلك لعدم توفر البنائين العرب في مكة لأنه لم يكن للعرب من الأزمان السابقة معرفة بصناعة البناء لأنهم كانوا يعيشون عيشة البداوة والتنقل، وإذا ما احتاج زعماؤهم الى بناء القصور

---

(١) **نيل المنى**- ص٢١٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٠٠.

(٣) **المصدر السابق**- ص١١٩.

كانوا يستعينون بمهندسين وبنائين من الروم مبانيهم معظمها بالحجارة لوفرتها بالحجاز أو بالأجر الذي كانوا يصنعونه في مكة[1] .

ونظراً لقرب المحاجر بمكة كمحجر جبل خندمة وجبل الهيلاء. فقد أدى ذلك الى انتشار البيوت المبنية بالحجر في مكة[2] ، ومن البديهي أن العمران يتطلب قيام صناعات تتعلق بالبناء من نحت ونجارة وصناعة أبواب وما شابه ذلك.

---

(١) الفاكهي، عبد القادر بن احمد- **المنتقى في أخبار ام القرى**- بيروت- دار الكتاب-١٩٦٠م- ص١٨٦.

(٢) الفاسي- **شفاء الغرام**- ج١- ص٧٨.

أسلوب التعامل النقدي في الأسواق:

ذكر ابن فهد في مؤلفه القيم نيل المنى كثيراً من أسعار السلع في زمانه ورأيت اتماماً للفائدة أن أُعرف بأهم النقود المتداولة والتي ورد ذكرها في مذكراته عن ذلك العصر.

إن نشاط الحركة الاقتصادية وتطورها يقتضي ابتكار أساليب جديدة، وعلمية في مسألة التعامل التجاري، تواكب هذا الازدهار الاقتصادي.

مما لا شك فيه أن استخدام الوحدات النقدية مقياساً لقيمة السلع ثم وسيطا للتبادل يعد أرقى ما وصل اليه النظام التجاري حيث أن وجود عملة معدنية يتم التعامل التجاري على أساسها يعد من ضروريات التطور التجاري فقد اكتشف الانسان فيها خصائص مهمة من حيث المظهر والندرة والبقاء والتجانس والتجزئة المادية والاقتصادية، وقد ذلل ذلك جميع الصعوبات التي تكتنف نظام المقايضة وتشكل قيدا على نطاق المعاملات التجارية[١].

ويمكن أن تعد النقود بمثابة العمود الفقري للنظام الاقتصادي ذلك أن قيمتها أو قوتها الشرائية قد ساعدت في اتساع نطاق السوق، وزيادة حجم المعاملات التجارية، وأصبح بإمكان الإنسان توجيهها لتحقيق مطالبه في المجتمع بالطريقة التي تناسبه والتي تحقق أقصى إشباع لرغباته. كما أقر رسول الرسول صلى الله عليه وسلم التعامل النقدي، كما أقر وسيلة ضبط الاشكال فقال: "الذهب بالذهب مثلاً بمثل والفضة بالفضة مثلاً بمثل"[٢].

---

(١) صبحي الصالح- **النظم الاسلامية نشأتها وتطورها**- بيروت- ١٩٧٨م- ص٣٩٧.

(٢) صحيح البخاري- ج٢- ص٥١.

ومن هنا يستمد التجار المسلمون نظم معاملاتهم من احكام الشريعة الاسلامية التي نظمت الجانب الاقتصادي وشجعت الوان التجارة الخالية من الربا والخداع قال تعالى: ﴿وأحل الله البيع وحرم الربا﴾[1] .

بذلك يجب علينا أن نتطرق الى العملة في هذه الفترة الزمنية بمكة المكرمة باعتبارها مؤشر حقيقي عن أوضاعها الاقتصادية ومدى ضبط هذه الإمرة للعملة المتداولة.

كانت الوحدات النقدية في القرن التاسع والعاشر الهجري تتألف من ثلاثة انماط اساسية هي الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية.

الدينار:

يعتبر "الدينار" هو العملة الأقوى في التعامل الاقتصادي، ويتم تداولها على هيئة مسكوكات معدنية ذهبية، وهي ذات قيمة ذاتية أي تتعادل قيمتها على أنها نقد مع قيمتها على أنها سلعة وكان الذهب قاعدة التعامل المالي ولأهميته كانت تقوم به وحدات النقود الأخرى[2] .

واصله في اللاتينية Denarius ويطلق لفظ مثقال على الدينار الوزن الشرعي للدينار الاسلامي هو ٧٢ حبة من الشعير[3] أو ٤ر٢٥ جرام[4] .

---

(١) سورة البقرة- آية رقم٢٧٥.

(٢) عبد الرحمن فهمي- **النقود العربية ماضيها وحاضرها**- القاهرة- دار المعارف- ١٩٦٤م- ص٥.

(٣) عبد الرحمن فهمي- **المرجع السابق**- ص٨.

(٤) إبن خلدون- **المقدمة**- ص٢٢٠- صبحي الصالح- **النظم الإسلامية**- ص٤٢٧.

ولقد نجح السلطان المملوكي الأشرف برسباي في أواخر القرن التاسع الهجري في إعادة بناء النظام النقدي للعملة الذهبية فضرب الدينار الأشرفي بوزن الأفرنتي (٣ر٤٥جرام) فكانت معاملته كما يقول ابن اياس "من أحسن المعاملات، من أجود الذهب وسيما الاشرفية البرسبيهية فإنها من خالص الذهب والى الآن يرغب اليها الناس في المعاملات"[١] .

ومن قراءة أغلب النصوص في **نيل المنى** نجد أن التعامل النقدي في المجال الإقتصادي هو الدينار الأشرفي[٢] . وكان كل أشرفي يصرف بخمسة وثلاثين كبير أو أقل من ذلك عندما تحدث أزمات إقتصادية[٣] .

الدرهم:

من الواضح أن الفضة نافست الذهب باعتبارها قاعدة للنقد في العصر المملوكي، وأصبحت هي النقود الرئيسية بعد ان انتقلت الدولة من نظام المعدن الواحد المتمثل في الدنانير الذهبية الى نظام المعدنين وفيه تحددت قيمة الوحدة النقدية بالنسبة لمعدنين هما الذهب والفضة فكانت قيمة الرواتب والخدمات والاسعار تقدر بالدنانير الذهب ويتم الدفع بالدراهم الفضية[٤] .

---

(١) إبن إياس-**بدائع الزهور**- ج٥- ص٩٠.

(٢) **نيل المنى**- ص١٨-٤٥-٩٦-١١٨.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٩٣.

(٤) سامح عبد الرحمن فهمي- **الوحدات النقدية المملوكية**- جدة-١٤٠٣هـ- ص٢٧.

ولفظ درهم ليس عربياً، بل أخذه العرب من لفظ Dirsm في الفارسية وهو يوناني الأصل[1] .

والدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة من سبعة مثاقيل أي $\frac{7}{10}$ الدينار ووزنه خمس وخمسون حبة من الشعير أي ما يوازي (٢٫٩٧٥ جرام)[2] .

ومن اشهر الدراهم التي استعملت في القرن العاشر الهجري بمكة المكرمة دراهم النقرة حيث كان عيارها ثلثين فضة وثلث نحاس، وهذا هو الذي عليه العيار الصحيح، وربما زاد عيار النحاس على الثلث شيئاً يسيراً بحيث يظهره النقد ولكنه يروح في جملة الفضة[3] .

الفلوس النحاسية:

يعود استخدام النحاس الى عدة قرون وذلك رغبة في تسهيل المعاملات في المبيعات الصغيرة التي تقل قيمتها عن درهم أو جزء من الدرهم، لذلك لم تكن له منزلة المعدن الثمين من ذهب أو فضة، ولا يشترى بها شيء من الأمور الجليلة وانما هي لنفقات البيوت ولأغراض ما يحتاج اليه من الخضر والبقول ونحوها. بذلك يعتبر أدنى عملة للتعامل النقدي بها[4] .

---

(١) المقريزي- **السلوك**- ج٤- ص٧١٠- عبد الرحمن فهمي- **النقود العربية**- ص٩٩.

(٢) محمد ضياء الدين الريس- **الخراج**- بيروت- دار الكتاب- ١٩٨٦م- ص٢٥٤.

(٣) القلقشندي- **صبح الأعشى**- ج٤- ص٢٧٥.

(٤) المقريزي- **السلوك**- ج٤- ص٦٢٩- **إغاثة الأمة**- ص٧.

وفي عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨-١٤٧٩م، ظهر لأول مرة بمكة نوع من النقود يُعرف بالمحلق[1] ، وما لبث أن راج في أسواقها، إلى أن أصبح النقد السائد لبيع جميع أنواع السلع وشرائها[2] وتقرر سعر صرف المحلق باثني عشر درهماً مسعودياً، وسعر الدينار الأشرفي بخمسة وعشرين محلقاً ونصف محلق في شهر ربيع الاول من عام ٨٨٩هـ/١٤٨٤م[3] ولم يتغير هذان السعران لما اضربت دراهم مسعودية جديدة بمكة في شهر ربيع الآخر من عام ٩٠١هـ/١٤٩٥-١٤٩٦م[4] غير أن سعر صرف المحلق ارتفع إلى عشرين درهماً مسعودياً في شهر المحرم من عام ٩٠٩هـ/١٥٠٣م، فأمر أمير العسكر المملوكي المرابط بمكة، الأمير بك باي، أن لا يزيد سعره على ستة عشر درهماً[5] .

ولقد راجت بمكة الفلوس الجدد فضُربت بمكة في عام ٩٢٧هـ/١٥٢٠م في عهد الشريف أبو نمي عندما أشار عليه الشيخ محمد بن عراق فضربت سكة المساعيد وكتب عليها اسم الشريف أبو نمي، وصرف كل محلق من المساعيد بثمانية[6] .

---

(١) النجم بن فهد- **اتحاف الورى**، حوادث سنة٨٨٣.

(٢) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٥٢ب- ٦٢أ- ٧٢ب- ١٢١ب- ١٢٩ب- ١٣١أ- ١٤٤ب- ١٤٨أ- ١٦٣أ- ١٦٥ب- ١٦٧ب- ١٧٥ب- ١٧٧ب- ٢٠١ب- ٢٠٢أ- ٢٠٢ب- ٢٢٣ب- ٢٢٨أ- ٢٢٩أ.

(٣) **المصدر السابق**- ورقة٢٢أ.

(٤) **المصدر السابق**- ورقة٨٨أ.

(٥) **المصدر السابق**- ورقة١٣٧أ.

(٦) **المصدر السابق**- ص١٦٩.

و لم تستمر استعمال عملة المساعيد في البيع والشراء رغم الحرص الشديد من قبل حاكم مكة ومحتسبها فسرعان ما عادوا الناس الى التعامل بالفلوس وكما يشير جار الله بن فهد "تركت المساعيد واستراح اهل مكة من الربا المنحوس"[1] .

ولقد تكررت المحاولة مرة أخرى في ضرب فلوس جديدة ففي عام٩٤٤هـ/١٥٣٧م قام نواب شريف مكة ابو نمي بتنفيذ وضرب فلوس جديدة ضربت في المسعى وفرقت على جميع التجار والباعة والمتسببين والصيارفة[2] .

وكانت زنة كل أربعين فلساً صغيراً بمحلق كبير وكل عشرين فلساً كبيراً بمحلق كبير ويورد لنا جار الله بن فهد الضرر الكبير الذي لحق بالناس من جراء ضرب هذه العملة.

"وكان السبب في فعلها رأس المعاشرين بجده الجمالي محمد بن احمد المريسي، وكثرت الشكوى فيه لأجل ذلك وغيره فالله ينتقم منه بعدله، وأما أهل جدة فتحاملها السوقة وأعادوا صرفها الأول على حالة ثمانين فلساً بكبير وخسروا في الأشرفي نحو نصفه، وحمدوا على فعلهم، ثم تبعهم سوقة أهل مكة بعد التشكي بما لايفيدهم والله تعالى يخلف عليهم جميعهم ويعينهم"[3] .

---

(١) نيل المنى- ص١٧١.

(٢) المصدر السابق- ص٤٠٣.

(٣) المصدر السابق- ص٣٩٨.

يتضح لنا مما تقدم أن إمرة مكة في القرن العاشر الهجري أرادت أن يكون إستقلالها تاماً وأن تصبح لها عملة سوقية يتعامل بها المجتمع المكي بجميع فئاته ولكن قوة الدينار والدرهم أضعفت هذه العملة مما جعل عمرها الإقتصادي قصيراً جداً ولايتعدى حدود مكة المكرمة.

وحدة الوزن:

أما وحدة الوزن في مكة فكانت المنّ المعروف في جميع أنحاء العالم الإسلامي غير أن المكيين كانوا يسمونه رطلا، وكان الرطل المكي يساوي مائتي درهم وهو يختلف في وزنه عن الرطل البغدادي الذي كان سائداً آنذاك خارج حدود بغداد في اليمن وعمان[1].

وكانت معظم الحوائج والعطورات في مكة تباع بالرطل او المن الا ان هناك حوائج اخرى يستدعي بيعها ارطالاً اخرى ذات وزن يختلف عن الرطل الرسمي فكان منّ اللحم[2].

أما وحدة الكيل في مكة المكرمة فكانت الصاع والمد، وكان المد يزن خمسة أرطال وثلثا غير انه لم يلبث ان طبق النظام الرباعي بحيث اصبح الصاع يساوي اربعة امداد وكل مد يساوي رطلاً[3].

---

(١) الفاسي- **شفاء الغرام**- ج٢- ص١١٨.

(٢) **نيل المنى**- ص٤٨-٩٦-١١٣-١٤٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٣-٩٦-٩٧-١٠٢-١٩٧-٢٤٤.

تزييف العملة:

احتلت ظاهرة تزييف العملة حيزاً قلقاً في تفكير شريف مكة خاصة والمجتمع المكي عامة لأن عملية انتشار تزييف النقود عامل من العوامل السلبية المؤثرة في التجارة، ومؤشراً خطيراً في المعاملات التجارية، فقد وجد من الناس من يعمل في تزييف النقود، واجتهدت الدولة في مكافحة هذا الغش عن طريق حاكم مكة ومحتسبها[1].

و لم تقف جهود امرة الشريف أبو نمي في مكافحة الغش عند هذا الحد، بل حرصت على بث طائفة من الفقهاء داخل الأسواق للفتوى وتذكير الناس با لله وحثهم على نبذ الغش من معاملاتهم التجارية[2].

ويورد لنا جار ا لله بن فهد أن الشريف ابو نمي كان حريصاً على ضرب الذهب الخالص والفضة الخالصة، وأن الدراهم الفضية قبل ذلك لم تكن خالصة فيما يبدو. ولعل السبب في ذلك هو قلة الأموال بأيدي الناس، نتيجة للاضطرابات الداخلية التي عمت أنحاء مكة مما أدى إلى اضطرار بعض من الناس إلى التعامل بالنقود المزيفة[3].ففي عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م وجدت لدى شخص بعد وفاته يدعى الشريف عبد ا لله بن محمد الحسيني مبلغاً من المال قدر بنحو المائتين من الفلوس المزيفة[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٠٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٧١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣١-٢٢٥.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٠١.

كما وجدت أيضاً بمكة عملات مزيفة وانتشرت الدراهم المغشوشة في موسم عام ٩٣٩هـ/١٥٣٣م مما نتج عن ذلك أن نقص صرف الدرهم بثلاثة كبار محلقة[١] .

ويعد اضطراب العملة المتداولة في مكة المكرمة مؤدياً إلى زعزعة الحياة الاقتصادية في كثير من حلقات تلك الفترة وربما أدى ضعف ثقة الناس في قيمة النقود إلى انهم عمدوا إلى نظام المقايضة.

والمقايضة بمعناها التقليدي هي ((مبادلة كمية من السلع بكمية سلع اخرى بحيث تكون الكميتان متساويتين في القيمة))[٢] ولا شك أن طريقة التعامل هذه قديمة قدم التاريخ فقد كانت اول مظهر من مظاهر التجارة قبل اختراع النقود وما تزال مستخدمة حتى وقتنا الحاضر.

أما في مكة في منتصف القرن العاشر الهجري فقد اتسع نطاق المقايضة مع أهل السراة وبجيلة الذين يجلبون الحبوب والسمن والعسل والزبيب واللوز ويأخذون بدلاً منها الخرق والعباءات والشمل والأمتعة والملاحف.

ومما يسترعي الإنتباه في عملية المقايضة الصعوبة التي يجدها الطرفان في تطبيق النظام المقايضي والمتمثل في تحديد الأثمان بالدقة والعدالة الواجبة فقد يتعرض أحد طرفي العملية للخسارة وذلك لعدم تساوي قيمة السلعة المتبادلة فتكون النتيجة في بعض الأحيان محاولة الرجوع في المقايضة.

---

(١) **نيل المنى**- ص٣١٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص٦٨-١٢٩-٣٨٦-٤١١.

السلع:

تغلبت مكة على ظروف البيئة الشحيحة واستثمرت موقعها وعلاقاتها الاقتصادية الخارجية والاقليمية باعتبارها قبلة المسلمين لسد النقص الذي تعاني منه في الموارد الغذائية فقامت حركة تجارية متواصلة في مجموعة من الطرق العرضية والطولية. وأصبحت أسواق مكة مركزاً لحركة اقتصادية مزدهرة تغشاها القوافل المحمّلة بمختلف السلع(١).

وما دمنا قد أعطينا فكرة مسبقة عن سوق مكة في تلك الفترة يجدر بنا أن نتناول السلع التي كانت تباع في هذا السوق في أيام الموسم، وهي ما يمكن إدراجها تحت شيئين رئيسيين هما المواد الغذائية ثم السلع الكمالية.

فأما الغذائية فكان سوق مكة عامراً ورائجاً يغص بالفواكه كالتين والعنب والرمان والسفرجل والخوخ والأترج والجوز والمقل والبطيخ والخضروات كالقثاء والخيار كالباذنجان واليقطين والشلجم والجزر والكرنب الى سائرها وكانت جميع الفواكه متوفرة في مكة حتى في الشتاء(٢).

الحبوب والأطعمة:

ومن أهم السلع الغذائية في أسواق مكة تجارة الحبوب كالقمح والشعير والذرة وهذه الأطعمة من التجارات الرائجة في مواسم الحج وذلك لوجود

---

(١) **نيل المنى**- ص١٥-٢٨-٤٦-٢١٣-٢٩٦-٣٨١-٤٢٣- وصفحات متعددة.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٨-٦١-٧٧-٩٧-٩٩-١١١.

الآلاف من الحجاج سنوياً في مكة الفقيرة في مواردها الطبيعية والغذائية مما أدى إلى ندرة السلع الغذائية المتاحة لأهل مكة، وكانت الحبوب والأطعمة تُجلب إلى مكة بواسطة القوافل سواء من خارج الجزيرة العربية، أو من داخلها[1] .

تميزت قوافل الحجيج القادمة من العراق بأنها كانت غنية ومحملة بالحبوب والسلع[2] حيث كان التجار العراقيون ينقلون كميات كبيرة من الحبوب كالحنطة والشعير الى مكة لبيعها في مواسم الحج، وكان وادي القرى -وهو طريق تجاري قديم ويمر به الحجاج- محطة استقبال البضائع العراقية ومنها تنقل إلى مكة[3] .

كما انتعشت تجارة الحبوب في موانيء الحجاز كجدة وينبع التي أصبحت أسواقاً عامرة خصوصاً لحجاج البحر الذين يقيمون بها قبل انتقالهم إلى مكة. ويلخص صاحب **نيل المنى** العلاقة التجارية بين مكة وينبع بالعبارة التالية ((في يوم الأربعاء السادس عشر سافر قفل "بمعنى قافلة" الى ينبع واختاروا من مكة سمناً كثيراً فطلع السعر بها... وصار لا يوجد في السوق))[4]، وتعود بعض الحجاج المصريين أن يجلبوا معهم بعض ما تنتجه بلادهم من سلع وحبوب لبيعها في مدينة جدة، ثم شراء ما يحتاجونه منها قبل انتقالهم إلى مكة[5].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣١-٣٦-٥٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٨.

(٣) **المصدر السابق**- ص٩٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤٨.

(٥) **المصدر السابق**- ص٨٦-١٥٩.

ويشير جار الله بن فهد إلى أهمية ميناء جدة كمحطة لاستقبال السفن المحملة بالحبوب، فقد كانت هذه السفن تأتي محملة بالقمح الى جدة في مواسم الحج[1] .

وتأتي الحنطة في مقدمة الحبوب وهي أنواع أجودها ما يعرف بالحنطة اللقيمية[2] ثم المصرية وأوردها المابية ثم الذرة والشعير والدخن "الذرة الشامية"[3] .

وتعود أهميتها الى كونها أساس الطعام لأهل مكة في ذلك الوقت وكانت شحنات الغلال والدقيق تصل الى مكة من السراة معدن الحبوب والخيرات ومن اليمن وسواكن وزيلع.

ففي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م وصلت عدة قوافل بلغت إحدى عشر قافلة من اليمن وسواكن إلى مكة فيها شتى أنواع الحبوب[4] .

كما كانت تصل إلى أسواق مكة باستمرار حبوب قادمة من الطور والقصير وزيلع[5] وهكذا نلاحظ تدفقاً مستمراً في وصول القوافل التجارية البرية والبحرية المحملة بالسلع خاصة الحبوب إلى أسواق مكة من شتى البلاد الإسلامية ووجود أكثر من صنف من الحبوب لأنه القوت الرئيسي لأهل مكة بجميع فئاته.

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٨-٥٦-٨١-٢٣٥-٢٨٦-٣١١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٨-٦٩.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٢-٤٨-٨٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤٣.

(٥) **المصدر السابق**- ص٣٨-٤٣-٤٨-٥٤-٩٦-١٠٢-٢٠٤-٣١١.

التوابل:

كانت توابل الشرق وتحفة وكنوزه ترد إلى جدة ثم إلى مكة حيث يتم تنظيم حركة نقلها إلى كل من مصر والشام تمهيداً لإعادة تصديرها من موانيء البحر المتوسط الى أوربا، ونظراً لازدياد الطلب الأوربي عليها أخذت اوربا تستهلك كميات ضخمة منها وأصبحت من الضروريات وغدت جزئاً لا يتجزأ من حياة الأوربيين لما كان يشاع عنها من أنها كانت تأتيهم من الفردوس الأرضي وكانت تحقق ارباحاً خيالية للمتاجرين فبها والعاملين على نقلها[1].

والحق ان تجارة التوابل كانت عنصراً مهماً في القطاع التجاري في العصور الوسطى، وكانت تمثل المركز الأول في التجارة العالمية، وكانت جدة تعتبر من أكبر مراكز تلك التجارة، وخاصة بالنسبة لموانيء البحر الأحمر[2].

وليس من شك في أنه كان لتجارة التوابل أثر كبير في إقامة العلاقات والاحتكاك بين الشعوب في ذلك الحين وفي ايجاد اتصال دائم ومستمر بين الشرق والغرب، وكان لكل من مكة وجدة وسواكن وعيذاب والقاهرة والاسكندرية أهمية عظمى لا بوصفها من المراكز التجارية ببلاد الشرق فحسب بل باعتبارها همزة الوصل ايضاً بين الهند والصين وغيرهما وبين

---

(١) سونياهاو- **في طلب التوابل**- ترجمة محمد عزيز رفعت- مراجعة محمود النحاسي- القاهرة- ١٩٥٧م- ص١١.

(٢) **نيل المنى**- ص٣٦-٨٨-١٩١.

اوربا سواء كان هذا الاتصال عن طريق التعامل المباشر أو عن طريق الوساطة في النقل[1] .

ويورد لنا جار الله بن فهد أنه في شهر ربيع الثاني من عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م ((رست بميناء جدة عدة مراكب هندية كبيرة أبرزها مُنِيرَ والفَيجِي والسَاجُور محملة بكميات كبيرة من شتى أنواع التوابل والبهار))[2] . ومن أهم التوابل:

أهم أنواع التوابل:

يعتبر الفلفل أبرز أنواع التوابل، وشجره ينبت في بلاد الهند والشرق الأقصى وبلاد افريقية والمليبار هي بلاد الفلفل[3] ، ويوجد أيضاً في بلاد الكولم، وهي آخر بلاد الفلفل[4] ومنها يصدر إلى عدن وجدة ثم ينقل بواسطة الجلاب الى مكة المكرمة[5] .

ويعد من أكثر التوابل رواجا وشهرة في مكة في القرن العاشر الهجري لاستعماله في تحسين نكهة الطعام، وصناعة الشراب، وحفظ الأطعمة واللحوم وهو هاضم للطعام مدر للبول، كما أن له فوائد كثيرة اذا استخدم

---

(١) **نيل المنى**- ص٨٧-١٣٥-٣١٦.

(٢) **المصدر السابق**- ص١١٢.

(٣) سونياهاو- **في طلب التوابل**- ص٢١- نعيم زكي فهمي- **طرق التجارة الدولية**- ص١٩٩.

(٤) سونياهاو- **في طلب التوابل**- ص٢٢.

(٥) **نيل المنى**- ص١٨-٣٦-٥٧.

عقاراً طبياً "فهو عندما يمزج بالشراب يفيد في النزلات الشعبية والتهاب الرئة وعندما يمزج بالزيت يكون مرهما مفعوله بعيد الاثر))[1] .

ويتميز الخلنجان بميزة تختلف عن غيره من التوابل كثيراً فكان يستعمل في الأغراض الطبية، وقد عرفه المكيون من بين التوابل التي عرفت في تلك الفترة، واستخدم في طهي الطعام وفي الطب، وتعرف أشجاره باسم "خسرو دار"[2] ولها عروق متشعبة ذات عقد بين السواد والحمرة، ويرد من الهند والصين إلى ميناء جدة وينقل منها إلى مكة المكرمة[3] .

كذلك كان الزنجبيل من أكثر التوابل شيوعاً واستعمالاً في بلاد الحجاز كافة فهو لا يقل أهمية وطلباً عن الفلفل والبهار والقرنفل[4] .

ولقد ورد ذكره في القرآن الكريم على أنه من شراب الجنة ﴿ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً﴾[5] وقد شاع استعماله في حفظ الأطعمة والمشروبات وفي تركيب الأدوية فهو يذهب البرد ويعين على هضم الطعام[6] ومن هذه السلع الرئيسة أيضاً الراوند والكافور والعود الهندي والزعفران والكركم والهال (الحبهان) وجوزة الطيب التي استعملت في أنواع كثيرة من

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٦-١٢٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص٨١-١٢٧-٢٩٩- سوناهاو- **في طلب التوابل**- ص١٠.

(٣) **نيل المنى**- ص٣٦-٧٨-١٩٣.

(٤) سونياهاو- **في طلب التوابل**- ص١١.

(٥) سورة الإنسان- آية رقم١٧.

(٦) إبن القيم الجوزية، شمس الدين محمد- **الطب النبوي**- مكة- دار الثقافة-١٣٩٩هـ- ص٢٤٦.

الطعام كما استخدمت في الطب وتحضير بعض الأدوية لعلاج بعض الأمراض[1] .

ولا يفوتنا أن نذكر شيئاً عن نبات البن الذي صار له شأن في أواخر العصور الوسطى، وبداية العصور الحديثة، وأهميته في بلاد اليمن. ويذكر أن بعض الرعاة هم الذين اكتشفوا مزايا شجيرة البن إذ أحسوا أن الماعز الذي أكل من شجرة البن وهو في الرعي أخذ يقفز نشطاً مرحاً[2] .

ولقد شاع استخدامه في مكة وأثير حوله كثيراً من الآراء حول تحليله وتحريمه وألفت في ذلك عدة مؤلفات ومن ضمن المؤلفات كتاب ألفه جار الله بن فهد في تحليل البن ويوضح عاتباً لمن أنكرها من العلماء وسماه "قمع الشهوات في رد كذب ناظم القهوات"[3] .

ولم يكن النشاط التجاري في مكة المكرمة مقصوراً على تجارة التوابل بل كانت أسواق مكة تزخر بأنواع الطيب من المسك والكافور والعنبر والعود والند وخشب الصندل وكانت ترد إلى مكة من بلاد الشرق الأقصى وفارس (ايران حالياً)[4] . فضلاً عن العقاقير الهندية والى جانب هذه السلع اشتمل النشاط التجاري على الذخائر النفيسة والأحجاز الكريمة، مثل اللؤلؤ والعقيق والبخور والياقوت وكانت تتوفر بكثرة في أسواق مكة أبان موسم الحج

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٦-٤٩-٧١-١٩٣-٢١١-٣١٧.

(٢) سونياهاو- **في طلب التوابل**- ١٢.

(٣) **نيل المنى**- ص٤٠٢.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٧-١٩٨-٢٣٠-٤١٣.

وكثيراً ما كان تجار الهند يقدمون لشريف مكة ابو نمي وأعيان وعلماء مكة هدايا من هذه التحف[١] .

ومن البضائع التي كانت تنقل إلى جدة ومكة من مواني‌ء الهند، وخاصة كنباية الأقمشة الثمينة بمختلف أنواعها والثياب المنسوجة من القطن والحرير[٢] أما الشاشات -وهي قطع من القماش تلف حول العمامة فكانت ترد إلى مكة من الهند أيضاً، ولقد جلب وزير الهند (آصف) كميات كبيرة من الشاشات يقوم بتوزيعها هدايا يتقرب بهم لأصحاب السلطة والقضاة والعلماء[٣] وقد لقيت رواجاً كبيراً في أسواق مكة، وخاصة بين التجار المصريين[٤] .

أهمية ميناء جدة:

تقع جدة على ساحل البحر الأحمر وطولها ست وستون درجة وثلاثين دقيقة وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة بينها وبين مكة أربعون ميلا (٧٥كم) [٥] وهي بذلك أقرب المدن الساحلية إلى مكة، فأصبحت ميناء لها بل وأهم ثغور الحجاز الواقعة على ساحل البحر الأحمر[٦].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣١١-٣٥٨- ٤١٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٥-٦٩-٧٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٧٦-٩٨-٢١٦-٢٦١.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤٨-٩١-٩٧-١٣٨.

(٥) عبد القدوس الأنصاري- **تاريخ مدينة** جدة- ط٣- القاهرة- دار مصر للطباعة- ١٤٠٢هـ- ص١٧- ياقوت الحموي- **معجم البلدان**- ج٢- ص١١٤.

(٦) **نيل المنى**- ص١٥-٤٣-٥١-٨٦.

ويتفق بعض المؤرخين الذين كتبوا عن جدة أن أول من شيدها الفرس وقيل أن سلمان الفارسي وعشيرته من التجار سكنوا جدة، وجعلوا حولها سوراً وخندقاً وأنها تخربت بعد أن تركوها[1] ولعل ما أورده الحضراوي (أن بجدة أثر رسوم قديمة تدل على قدم اختطاطها)[2] .

وكانت جدة قبل الاسلام قرية صغيرة يسكنها -وما حولها- قوم من قضاعة. ولما كانت خلافة عثمان بن عفان -رضي الله عنه- جعلت ثغراً لمكة وقبل ذلك كان ثغرها قرية تسمى (الشعيبة)[3] تبعد عن جنوبي جدة نحو اثنى عشر ميلاً[4] .

أصبحت جدة تزيد في عمرانها شيئاً فشيئاً تبعاً لازدهار التجارة فيها كما تندر بها الينابيع العذبة فهي تقع على شاطيء بحر مالح شديد الملوحة هو البحر الأحمر، وكان أهلها يشربون من مياه الأمطار التي يجمعونها في خزانات وصهاريج، ويسقون منها الحجاج، ويكسبون بذلك ثمن الماء الذي يجمعونه في الشتاء[5] .

---

(١) الحميري- **الروض** المعطار- ورقة ٨٧.

(٢) الحضراوي، احمد محمد المكي-**الجواهر المعدة من فضائل جدة وتاريخها**- نسخة مكتبة الحرم المكي رقم٢٧- تاريخ دهلوي- ورقة٦أ.

(٣) الشعيبه قرية على ساحل البحر الأحمر على طريق اليمن تبعد عن جنوب جدة ٦٨كم وهي من ديار زبيد بن حرب والآن تابعة لمنطقة مكة المكرمة لا يوجد فيها سوى بعض المرافق والخدمات السياحية. انظر: الحموي- **معجم البلدان**- ج٣- ص٣٥- البلادي- **معجم معالم الحجاز**- ج٥- ص٧٤.

(٤) الفاسي- **الشفاء**- ج١- ص٨٧- إبن المجاور- **صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز**- ص٥١.

(٥) **نيل المنى**- ص٥٦-١٧٨.

وبذلك كانت المياه أعظم المشاكل التي كانت تواجه السكان خاصة عند ماتزدحم بالتجار والحجاج في أيام الحج.

وقد زادت أهمية ميناء جدة من الناحية التجارية فلم تعد ميناء مكة التجاري بل غدت ميناء الحجاز بأسره. ومما ساعدها على ذلك أنها أكثر اتساعاً من ميناء ينبع وغيره من الثغور الحجازية[1] .

كما كانت ترتبط بعدة طرق تجارية مع بعض البلدان الأخرى مثل الطريق الذي يربطها بمكة المكرمة شرقاً والشام شمالاً وأيضاً ببلاد اليمن جنوباً، وكل هذا جعل ميناء جدة أهم الموانيء في البحر الأحمر وأنشطها تجارياً[2] .

امتدت ونمت جدة في تجارتها حتى وصلت الى الهند حيث أنه أبحرت منه عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م عدة مراكب تجارية الى سواحل الهند تضم أعداداً كبيرة من تجار مكة على أن تجارتها مع موانيء البحر الاحمر ولا سيما المصرية فيها وصلت في هذه الفترة الى درجة طيبة من النجاح[3] .

واستمرت جدة في النمو شيئاً فشيئاً تبعاً لزيادة دخلها بزيادة عدد الحجاج وقوة الحركة التجارية التي تقوم فيها في مواسم الحج ثم بدأ التجار يردون اليها بعد نزولهم بعدن فيمرون بها في طريقهم الى مكة، ويتجرون في اسواقها

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص٧٧-٩١-٢٤٣-٣٥٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٨٦.

ويتهيأون منها لدخول البيت الحرام لاستبدال سلعهم والسير الى الشام بعد المقام بمكة عدة أيام[1] .

ويبدو أن جدة تحولت الى مرفأ عالمي في عشرينات القرن العاشر الهجري ويورد جار الله بن فهد في هذا الصدد أخباراً متناثرة من غير تعليق، لكنها في غاية الأهمية في فهم ما كان قد حصل من تحول في حجم التجارة ونوعيتها في ميناء جدة، حيث يرد إليها في فترات متفاوتة خلال السنة أعداد كبيرة من المراكب التجارية قادمة من عدن والهند والقصير وسواكن والطور[2] .

ونشير الى نص لجار الله بن فهد يبرز لنا الأهمية التجارية لميناء جدة الذي يقول فيه إن ميناء جدة كان يستقبل مراكب الهند المسماة بمراكب الديو وكنباية في وقت واحد، ويدل ذلك على اتساع مينائها، ويزداد رسو المراكب في مينائها في مواسم الحج المحملة بالبضائع[3] واهتم أشراف مكة بها اهتماماً خاصاً من شتى النواحي العمرانية والاقتصادية والأمنية ليجعلوها مركزاً مرموقاً في التجارة الدولية فضلاً عن أهميتها كبوابة الحجاز للوافدين من مصر وإفريقيا والمغرب وبلاد السودان.ونظراً لهذا الاهتمام وصل مرسوم سلطاني من الدولة العثمانية للشريف أبو نمي عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م يشكر فيه الشريف لعنايته بميناء جدة والتطور الذي شهده الميناء في عهده[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٤١-٦٢-١٣٥-٢٤٨..

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٦-٥٤-٨٦-١١٢-١٧٤-٤٠٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص٨٦-١٩٩-٢٥٣-٤٠٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٣٣.

ازدادت البضائع والأرزاق التي كـانت تصـل إلى جـدة أو مكـة مـن الداخـل فكانت تخضع أيضاً للمكوس. وهذه المكوس التي كانت تؤخذ على البضـائع تعتبر مكوساً معتدلة إذا ما قورنت بتلك التي كانت تؤخذ على الحـاج، كمـا أن هذه المكوس التي كان يدفعها التجار بميناء جدة من شـأنها ان تؤمـن لهـم الطريق الى مكـة المكرمة، وبالتـالي فهـي تحقـق لهـم الحمايـة والخفـارة سـواء أقاموا بجدة أو تحركوا منها إلى مكة المكرمة.

وما أن تصل المتاجر الى ميناء جدة حتى تنقلها القوافل التجارية الحجازية بـراً من ميناء جدة الى مكة المكرمة، كذلـك كـانت الحـال بالبضـائع الـواردة الى ميناء ينبع الذي يعتبر منفذ المدينة المنورة على البحر الاحمر[1] .

وأخذت جدة تزدهر اقتصادياً نظراً لازديـاد مواردهـا الماليـة نتيجـة تضـاعف عدد الحجاج والتجار القادمين اليها من شتى أنحاء العالم الاسلامي.

---

(١) نيل المنى- ص٨٣-٩٦-١٢٢.

مصادر الدخل:

المورد الأول: العشور* (الجمارك الداخلية):

نظمت الشريعة الاسلامية النظام المالي ووضعت من التشريعات ما يصون التوازن الانساني ويحقق العدالة الاجتماعية والأحوال الاقتصادية وفق تقرير العليم الخبير من منع للاحتكار الى نهى عن الربا، ومن تنظيم للعقود الى تحريم للغش ومن أمر بحسن المعاملة الى حض على الصدق والأمانة والوفاء في الكيل والميزان ومن نهي عن اكتناز الاموال الى امر واجب بالزكاة والبذل، ودعوة الى التكافل واشاعة الحب والخير.

والجدير بالذكر أن العشور كان لها أصل في الجاهلية، وكان يفعلها ملوك العرب والعجم، ونستدل في قدمها بما كان يكتبه الرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الأمصار مثل ثقيف، والبحرين، ودومة الجندل، وغيرهم ممن أسلم "أنهم لايُحْشرون ولا يعشرون"(١) فعلمنا بهذا أنه قد كان من سنة الجاهلية ثم أصبحت مستمرة ومتطورة.

وتعد العشور من أهم ما في النظام المالي الاسلامي وهي تتنوع بتنوع الحاجات الاجتماعية في الدولة الاسلامية، ويتصل منها بالتجارة ما يدفعه التجار المسلمون وغيرهم.

---

* ويقصد بالعشور عشر قيمة التجارة أو البضائع (السلع التجارية) التي في حوزة التاجر. انظر: نيل المنى- ص٣٨-٩٦-١٤٥.

(١) صحيح البخاري- ج٣- ص٧٣.

وكان أشراف مكة يحرصون على بسط سيطرتهم على التجارة الدولية التي كانت تمر بمدن الحجاز للاستفادة من أموال العشور التي كانت تُجبى من التجار، وكانت تؤخذ العشور على التجارة وكانت هذه العشور مورداً هاماً من موارد مكة، هنا كان حرص أمراء مكة في الاستيلاء على جدة[1].

أما الموارد المالية غير الشرعية فيقصد بها المكوس المتنوعة على الحجاج التي لا يوجد لها سند شرعي وإنما توارث الحكام فرضها وجبايتها. ولم نجد نصاً تاريخياً في ثنايا كتاب **نيل المنى** مثالاً يوضح ذلك ويبدو لنا أن هذا المكس قد اسقط لوجود البديل وهو العشور على التجارة التي بدأت تنمو وتزدهر.

وتطلق ضريبة المكس على الجباية أو ما يأخذه العشار ويقال له الماكس، وفكرة فرض المكوس قديمة وقد أبطل الاسلام المكس بأنواعه فقد جاء في الحديث: ﴿لا يدخل الجنة صاحب مكس﴾[2] ثم فرضت الزكاة عوضاً عنه، وهي حق معلوم يؤخذ من أغنياء المسلمين ويرد الى فقرائهم.

عادت جباية المكوس وعرفت بمكة منذ مطلع القرن الرابع الهجري، إذ تذكر المصادر أن الشريف علي بن عيسى قد أبطل المكوس بمكة المكرمة وجباية الخمور بها[3].

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٥٧أ- **نيل المنى**- ص٤٦-٨٨-٩٧-١١٥.

(٢) الدارمي- **سنن الدارمي**- ج١- ص٣٩٣.

(٣) النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- ج٢- ص٣٨٧.

ومنذ ذلك الحين صار (المكس) على التجارة مقرراً لا يجادل احد في احقية الشريف في تحصيلة بـ (جدة) الا ان الصراع بدأ حول مقداره، ونصيب كل امير من الامراء فيه.

ففي عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م رفع الشريف أبو نمي المكس على القبانين والدلالين وبلغت نحو ألفي أشرفي[١] واستمر هذا الإرتفاع مدة من الزمن واشتكى المتضررين إليه من الزيادة المفرطة في المكوس "وعفا عنهم في إبطال ما أحدثه عليهم من المكس عام تاريخه فكثر الدعاء له والثناء عليه"[٢] .

وتضاف عائدات الضرائب والمكوس الى الموارد المحلية لأمارة مكة المكرمة، وهي تشكل مردوداً هاماً كبيراً وثابتاً لإمرة مكة استطاع أن يسهم بقدر طيب في انعاش الحالة العامة لسكان البلد المقدس غير أن هذا الدخل الكبير يذهب أغلب الأحيان الى جيوب حكام مكة المكرمة[٣] .

وارتفع مؤشر الاقتصاد بزيادة الضرائب خصوصاً بعد أن تحولت التجارة من عدن الى جدة وصار التجار يتعمدون ان يكون وصولهم الى جدة إبان موسم الحج ويزداد مؤشر الارتفاع حين يصل الى مكة في بعض المواسم التجارية وصول سفن الهند وأصبح هناك مصطلح أشرنا إليه سابقاً يطلق عليه "الموسم الهندي"[٤] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٤١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٤٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٦٧-٩١-٢١٠.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٣-٥٦.

وجاء وقت كان المكيون يتقاضون فيه مقداراً عينياً أو قيميا على السلع الداخلية الى مكة من كل الجهات. ويبلغ ذلك مقداراً عظيماً في كثير من السنوات. هذا بالاضافة الى ما يحدثه تبادل السلع في اسواق مكة من رواج في الحركة التجارية وزيادة في دخل القاطنين بها، وما ينفقه هؤلاء التجار في شراء السلع الجديدة ويجعل ذلك كله أن تصبح مكة مركز التجارة الرئيسي الذي يبيع فيه تجار الشرق سلعهم ثم يتبضعون ليسيروا عائدين[1] .

من هنا كان حرص امراء مكة على السيطرة على جدة، وكانت جرأتهم في صراعهم مع السلاطين المماليك أولاً ثم العثمانيين أخيراً عندما دخل هؤلاء شركاء في اقتضاء الضرائب من التجار.

فقرروا مشاركة أمير مكة في المتحصل من أموال العشور، ولم تجر بذلك عادة من قبل، بل كان المعروف أن المماليك كانت تحاول دائماً إسقاط المكوس عن الحجاج بمراسيم يصدرها السلاطين والعمل على زيادة واردات الأمراء من حكام مكة حتى لايطمعوا في أموال الحجاج لتعويضهم عن المكوس بأموال وصدقات تدفعها مصر وليس العكس. وقد دخل هذه السياسة بعض التعديل في أواخر أيام الجراكسة عندما بدأ أمراء الحرمين خصوصاً حكام مكة يدفعون رشاوى ضخمة للسلاطين لتعيينهم أمراء ثم يلجأون الى تحصيلها من المكوس التي يتقاضونها على التجارة الواصلة الى مكة من جدة والشام والعراق وغيرها.

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٧-٥٨-٩١.

ونستدل على وجهة نظرنا هذه أن مؤرخاً منصفاً ناقداً كالمقريزي استهجن أن تحمل الأموال من مكة الى مصر في تلك الفترة كما سبق ذكره حين قال:[١].

وتطور الأمر عندما استلمت زمام الأمور والسيادة على الأماكن المقدسة الدولة العثمانية ففي شهر شوال من عام ٩٢٤هـ/١٥١٩م أصدر نائب السلطان العثماني في مصر مرسوماً لشريف مكة بركات يطالبه فيها بالمبالغ والعشور من ضرائب ميناء جدة زمن الاشرف قايتباي، ومحاسبة القاضي زين الدين ناظر جدة وقبض المال منه وضبط المراكب التي ترسوا في ميناء جدة[٢] واصبح الأمر يزداد سوءاً عندما أصبح السلاطين يعملون -أحياناً- على منع امراء مكة من اخذ المكوس. ففي موسم سنة ٩٣٨هـ/١٥٣١م وصل مرسوم سلطاني خاص الى شريف مكة ابو نمي يتضمن إبطال معشر القوت وإبطال المكوس الزائدة[٣] إلا أن هذا المنع لم يكن شاملاً مانعا فقد كان مقصوراً على المأكولات ثم لم يكن تنفيذه أمراً هيناً فترك الأمر لأمراء مكة يتصرفون حسبما تقتضيه ضمائرهم، وكانت اموال الحجاج تغري هؤلاء بالاستفادة منها، ولو بمقدار ضئيل ما يلبث أن يتضخم حتى يصبح مبلغاً هائلاً اذا اخذ هذا القدر الضئيل من كل حاج.

---

(١) المقريزي- **السلوك**- ج٤- ص٧٠٨.

(٢) **نيل المنى**- ص٣٢.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٤٨.

ويشير جار الله بن فهد الى ذلك بقوله ((وأن الشريف ماهان عليه ذلك ولا وافق على ضبطه خوفاً من نفور عسكره ومخالفتهم عليه، فإن ذلك هو قوتهم ويقال في المثل السائر عند بني حسن "قطع الخشوم ولا قطع الرسوم" خصوصاً وقد الفوا ذلك وتوارثوه عن آبائهم وأجدادهم))[1].

واصبح ميناء جدة يستقبل كثير من السفن التجارية المحملة بالبضائع من شتى أنحاء العالم الإسلامي منذ سيطرة السيادة العثمانية على البحر الاحمر والامان يسود على أغلب موانيه ولقد استفاد شريف مكة ابو نمي من ميناء جدة في هذه الفترة حيث أصبح مورداً من موارد أمارة مكة ينفرد أمير مكة بتحصيل عشوره وظل كذلك حتى عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م عندما انتهج العثمانيون سياسة المماليك نحو الحجاز وسيطر الطابع المالي البحت على علاقة السلاطين العثمانيين بمكة في هذه الناحية كما سيطر في بقية الأمور فقرر السلطان العثماني أن يشارك امير مكة في المكوس وعشور التجارة تماما وحرم أمير مكة من كل ما يتحصل من العائدات الجمركية الا عائدات التجارة مع اليمن.

ويذكر جار الله بن فهد أنه في عام ٩٣٢هـ/١٥٢٥م أن بلغ متحصل جدة نحو مائتين وثمانين الف دينار (في وقت رسو من العشور مراكب الهند الى جدة). ((وذلك أن الخنكار امر تقبض جميعه في عام تاريخه ليصرفه على

(١) **نيل المنى**- ص٢٨٢.

العسكر المجهزين للفرنج في جهة الهند... ويعود السبب في ذلك هو القبطان سليمان لأذية صاحب مكة وإضعافه))[١] .

و لم يقتصر الأمر على وجود ضائقة مالية لتجهيز العسكر بل تكرر هذا الأمر ففي موسم عام ٩٤٠هـ/١٥٣٣م يطالب ملك الأمراء بمصر الشريف أبو نمي منذ ولايته عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م بالأموال المطلوبة منه[٢] مما أجبر شريف مكة أن يطلب المساعدة من التجار في حل هذه الأزمة المالية وتحقق له ما أراد وأرسل سفيره عرار بن عجل بمبلغ قدره تسعون ألف دينار اشرفي غير الهدايا والتحف لنائب مصر وأمينها الأمير جانم الخمراوي[٣] .

ازدادت اهمية السلطة العثمانية بالإستفادة من الأموال التي تنصب في خزينة شريف مكة ابو نمي فقرر أن يبلغ مؤشر المشاركة في الأموال الحد الأعلى فأصدر مرسوماً في عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م بشأن المال المخصص من المتروكات أن يأخذ شريف مكة ما دون ألف دينار وما كان فوقها فهو للسلطنة ويورد جار الله عبارة تهكم واستنكار "وإننا أرسلنا جماعتنا يضبطون ذلك فيفهم من هذا الطمع في اموال الأموات فلا حول ولا قوة إلا بالله"[٤] . أدى هذا الواقع المؤلم الى أن تكون جباية المكوس في جدة كثيراً ما كان يداخلها الظلم

---

(١) **نيل المنى**- ص١٩٧.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣١٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٢١.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٥٩.

والقسوة وارهاق التجار بالرسوم الاضافية وحملهم على دفع الرشاوى للمشرفين على تحصيل المكوس[1] .

ويبدو أن قدوم التجار والحجاج بمتاجرهم من طريق البحر جعل استخلاص المكوس منهم أكثر دقة ففي عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م اصدر شريف مكة ابو نمي امراً الى نوابه ((بمنع حجاج اليمن من السير في البر، لأنه بلغه أنهم في العام الماضي دخلوا من ناحية البر بمعشر كثير لم يطلع عليه ففاتته الفائدة))[2] .

أما القوافل القادمة من الطائف الى مكة فقد كان يؤخذ على كل حمل حب مد مكي وربع المد، ويجري على القوافل من وراء الطائف من ناحية الجنوب ما يجرى على نظيرتها التي كانت تأتي من الطائف فقد كان يؤخذ مد مكي وربع على القوافل القادمة من بجيلة[3] .

وهكذا ازدهرت الحياة الإقتصادية خلال فترة حكم الشريف بركات وإبنه ابي نمي في القرن العاشر الهجري وازدادت حركة التجارة وأصبحت تدر الربح الوفير مما عمل على إنتعاش الحركة الإقتصادية في مكة المكرمة ودفع الأشراف أن يساهموا مساهمة فعلية في التجارة الدولية والإستفادة من أموال العشور التي كانت تجبى من التجار واكتظت اسواق مكة بالبضائع المختلفة المجلوبة من كافة انحاء العالم الإسلامي.

---

(١) **نيل المنى**- ص٨٦-١٤٧-٢٣٣-٣٥١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٥٨.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٨-٨٦.

المورد الثاني: الهبات والصدقات:

تعتبر الهبات والصدقات مصدراً مهماً من مصادر الدخل لأهل مكة وأمرائها ويعود ذلك لعظم مكانة بيت الله الحرام والمشاعر المقدسة عند المسلمين، فكان الخلفاء والسلاطين يتقربون اليه قديماً وحديثاً بالهدايا الجزيلة والهبات الجليلة، والحلي الفاخرة[1].

انفرد هذا بسمة اقتصادية لانجدها في أي سمات اقتصادية لأي دولة من الدول[2]، واختص الحرمان الشريفان دون سائر المدن بهذه الهبات الجزيلة، فقد كان يحمل الى مكة المشرفة في كل عام تقريباً الشيء الكثير من هبات وصدقات الخلفاء والسلاطين والأمراء وأغنياء العالم الاسلامي. وقد نشأت عادة حمل الأموال وتوزيعها في مكة المكرمة سنوياً في صورة صدقات وهبات منذ العهد الأموي وتطورت في العصر العباسي[3].

و لم يقتصر ارسال الهبات والصدقات على الأمويين والعباسيين فقط، فقد استمرت هذه المبرات قائمة يرسلها الخلفاء الذين تعاقبوا على حكم العالم الإسلامي من فاطميين وأيوبيين ومماليك وأخيراً سلاطين بني عثمان[4].

---

(١) البتنوني- **مصدر سبق ذكره**- ص١٣٣.

(٢) علي بن حسين السليمان- **العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك**- دار المعارف- القاهرة- ١٣٩٣هـ- ص١٧٤.

(٣) علي حسين سليمان- **النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية في اواخر العصور الوسطى**- دار المعارف- القاهرة- ١٣٩٤هـ- ص٩١.

(٤) ريتشارد مورتيل- **الاحوال السياسية والاقتصادية**- ص١١١.

والجدير بالذكر ان اول من ارسل الاعـــانات المسـماة "Surre" (الصـرة) الى مكة المكرمة والمدينة المنورة من السلاطين العثمـانيين همـا السـلطان بـا يزيـد الأول (٧٩٢-٨٠٥هـ-١٣٨٩-١٤٠٢م)، فقد كان يرسـل في كـل عام في عيد الاضحى للحرمين الشريفين أربعة عشر الف دوكا ذهبيـة[١] والسـلطان مراد الثاني (٨٢٤-٨٥٥هـ/١٤٢١-١٤٥١م) فقد ارسـل "صـرة" مقدارهـا ٣٥٠٠ فلوري[٢]، كما ان الصرة التي ارسلت في سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م كان مقدارها ٨٠١ كيس حب وقد خصص نفس السلطان ايردات قـرى لتكـون صدقات لمكة المكرمة[٣].

وفي عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م حج ـحد الأمـراء العثمـانين مـع الركـب المصـري وقام بتوزيع مبلغ أربعين ألف دينار في مكـة والمدينـة، كـان قـد ارسـلها معـه السلطان العثماني وأشار العز بن فهد في عبارة يوضـح فيهـا اغـداق الامـوال على الفقراء مما نتج عنه رخاء إقتصادي قائلاً: (وكـانت هـذه السـنة في غايـة الرخص على اهل مكة والحجاج)[٤].

---

(١) النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- ج٤- ص١٥٨.

(٢) الفلوري عملة مدينة جنوه وتسمى أيضاً الفلوري الأفرنجي "Frensiflri" وهي عملـة ذهبيـة. وكـان كـل فلوري يساوي ٣٨ أقجة في مطلع القرن العاشر الهجري وفي منتصف القرن ذاتـه أصبـح يسـاوي ٤٠ أو ٤٥ أقجة على التوالي وفي أواخر ذلك القرن أصبح يعـادل حـوالي ٥٠ أقجه واسـتمر هـذا الرقـم في ارتفـاع مـع انخفاض قيمة الأقجه الفضية انظر: عبد الرحمن فهمي-**النقود العربية**- ص١٨.

(٣) النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- ج٤- ص٢١٣.

(٤) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة١٩٨ب.

أما السلطان سليم (٩١٨هـ-٩٢٦هـ/١٥١٢-١٥٢٠م) فقد ارسل صرة تبلغ ضعف صرة والده وفيما عدا هذا فإن السلطان سليم قد ارسل، بعد استيلائه على مصر، وإسقاطه لدولة المماليك (٩٢٣هـ- ١٥١٧م) مبلغ ٥٠٠ دينار لكل من الشرفاء وعشرة اشرفية لكل من الأعيان وديناراً واحداً لكل من فقراء حاج مكة والذين احصو فرداً فرداً وأضافة الى هذه المبالغ التي بلغ مجموعها ٢٠٠,٠٠٠ ديناراً[١] ذهبية كما ارسل كمية من الحبوب قام بتوزيعها على سكان مكة والمدينة اول امين صرة "Surre emini" عين عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وهو الامير مصلح الدين الذي ارسل من مصر بمعية اثنين من القضاة[٢] وبعد ذلك اصبح ارسال الصرة سنوياً من قبل العثمانيين تقليداً. وقد اطلق اهل الحرمين، أي مكة والمدينة، على هذه الصرة اسم "الصدقات الرومية - Sadakati Rummiyy"[٣].

ومن آثار السلطان سليمان أنه ضم الى اوقاف الدشيشة الكبرى التي خصصها السلطان المملوكي السابق قايتباي للحرمين الشريفين اوقافا اخرى، فصارت مجموعة كبيرة ستة بالقليوبية، وخمسة بالمنوفية، وثمانية بالغربية، واحدى عشر بالدقهلية وخمسة بالبحيرة، وخمسة بالجيزه، وعشرون بالوجه القبلى.

وأصبح المتحصل من للأوقاف من شتى النواحي في كل سنة سبعون كيساً وما هو من الغلال ٤٨٨٠ اردبا من القمح وذلك خارج عن اجرة الأماكن

(١) نيل المنى- ص٩.

(٢) المصدر السابق- ص١١.

(٣) المصدر السابق- ص١٣-٨١-١٦١.

الكائنة بمصر وغيرها ويشرف على هذه الصدقات والأوقاف عدة مشرفين يعمل بعضهم على ازدهار الأوقاف وجني المحاصيل والبعض الآخر يشرف على وجوه انفاقها في البيت الحرام على المحتاجين وأولاده الذين أوقف عليهم[1].

وكانت الصدقة الرومية يتم توزيعها من قبل كاتب الصدقة للمجتمع المكي في رباط السلطان الاشرف قايتباي بحضور نائب جدة وعدد من القضاة وكانت تستمر عدة ايام وربما عدة جمع[2] بعد وصولها في موسم الحج ويصف لنا جار الله بن فهد بدقة متناهية عدة مشاهد لما يحدث أثناء توزيع الصدقة الرومية في عدة نصوص.

"في يوم الأحد الثاني عشر شرع أمين جدة الزيني داود الرومي واليازجي عيدي جلبي في تفرقة المبرة الرومية الخندكارية واعطى اهل الصرر من مال الخزانة، وحضر ذلك القضاة الأربعة وبعض الأعيان وجلس نائب جدة واليازجي على دكة مرتفعة عنهم في شباك مطل على المسجد الحرام وبقية الناس فيه، وكان في المجلس عدة صيارفة يعدون ويزنون الدراهم الفضة عن كل اشرفي سلطاني خمسة وثلاثيون ويضعون كل عشرة وحدها فمن طلع اسمه في الدفتر يطلبونه بالنداء له فإن كان في المسجد طلع لهم فيسألونه عن عدة صرته فإن وافق ما عندهم اعطوها له وإن تكررت منعوه منها، واتفق

---

(١) القطبي- **أعلام العلماء**- ص٢١٠.

(٢) **نيل المنى**- ص٢٨٨.

ذلك لبعض أهل البلد وأما الأروام فتتكرر صررهم كثيراً فلا يمنعوهم لشفقتهم عليهم[(١)] .

ويستمر توزيع الصدقة ثلاثة أيام، فقسم في اليوم الأول مال الخزانة، وفي ثانيه الأوقاف وفي ثالثه معلوم الربعات والمرتبات، ثم تركت تفرقة البيوت وأهل الأربطة والعامة الى بعد الحج[(٢)] .

((وفي يوم الاثنين السابع عشر فرقت على أهل الأربطة أسماءهم بدفعها لمشائخهم بعد جهد وتوقف معهم"[(٣)] .

وبلغت اعداد الاشخاص الذين يستفيدون من الصدقة أعداداً كبيرة ولكننا نلاحظ أن أغلبهم لم يكونوا من أصحاب الجاه، ويشير جار الله بن فهد الى أعدادهم.

في عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م ((أحصى عدد الأسماء التي تصرف لهم الصدقة الرومية فبلغوا ستاً وثلاثون الف))[(٤)] .

ونلاحظ الاشمئزاز والإستنكار من قبل جار الله بن فهد حيث يورد نصوصاً كثيرة أثناء تحدثه عن الصدقة الرومية وما يلاحظه من طريقة التوزيع حيث يكون النصيب الأكبر للأعيان والتجار والقضاة.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٤١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٩٨.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٦٤.

(٤) **المصدر السابق**- ص٣٧٦.

"وأنا ممن تكلم لنقص بعض عيالي وهم عشرة أنفس وترك الباقي لعدم معرفة الكاتب بهم، وقلة ذوقه ومروءته في إلحاقهم مع أنه كتب كثيراً من التجار والأغنياء الذين لا تجب عليهم الزكاة ولايستحقون الصدقة، وقصد بذلك الشهرة والنفاق، فحصل له من العامة كثير من الدعاء والشقاق فا لله تعالى لا يخطيه من ذلك ويعين عليه كل قاطن وسالك وعند ا لله يجتمع الخصوم"(1) .

ويزداد الأمر خطورة أن أغلب المستفيدين من الصدقة هم غير العرب من البلاد الإسلامية الأخرى وأغلبهم الأتراك حيث ينالون النصيب الأوفر والأكثر من هذه الصدقة ((فحجز عن أبناء العرب الساكنين به كثيراً ومنعهم من الإعطاء ودفع للأروام والأعاجم استحقاقهم))(2) .

ولقد نافس سلاطين وملوك الهند سلاطين الدولة العثمانية في اغداق الهبات والعطايا والصدقات على الأماكن المقدسة، فخصصوا اعتمادات مالية كبيرة بشؤون الحج الى مكة المشرفة.

وأقدم نص نجده في ثنايا كتاب **نيل المنى** يتحدث عن الصدقة الهندية أنه في عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م أرسل ملك الهند المظفر شاه ابن السلطان محمد الكجراتي وزيره تاج الدين الجو كقدار اللاري اميناً لصدقة (اللاك)(3) بعد انقطاعها عدة سنوات لتوزيعها على الضعفاء والفقراء والمجاورين بمكة

(1) **نيل المنى**- ص١٢.

(2) **المصدر السابق**- ص٨٧.

(3) اللاك: يعادل تقريباً مائة الف دينار-**المصدر السابق**- ص٢٤٣.

المكرمة[1] ولقد قام بتوزيعها القاضي الحنفي نسيم الدين عبد الغني المرشدي ((فمن كان يستحق معلوم سنة عشرون دينار يأخذ منها مائتا مَنّ وأربعة عشر مناً))[2] .

وفي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م ارسل صدقة بلغت ستون الف دينار ليتم تفرقتها لأهل الحرمين الشريفين وأغلب توزيعها لأهل مكة، كما طلب من الشريف بركات أن يساعد وكيله على الصدقة الملك محمد بن شيخ علي الكيلاني الشافعي والناظر على الصدقة الخواجا صلاح الدين في إنشاء وعمارة مدرسة بمكة المكرمة مجاورة للمسجد الحرام[3] .

ونفذ الشريف بركات ذلك وقام بمساعدتهم بشراء الدور وقرر لها مدرسيين وصرف لكل واحد منهم أربعة وعشرون اشرفياً وشيخهم ثمانية وأربعين ديناراً أشرفياً[4] ولقد استفاد الشريف بركات من هذا الوقف بمبالغ طائلة فقدرت بخمسة آلاف دينار بالإضافة إلى الأربطة والأقمشة[5] .

و لم تكن غالب صدقة ملك الهند نقوداً عينية بل إنها تصل في بعض المواسم أقمشة وشاشات مرمرية ومناديل حريرية يقومون أهل مكة ببيعها بعد استلامها والاستفادة من أثمانها[6] .

---

(١) **نيل المنى**- ص١٣

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص٦٢.

(٤) **المصدر السابق**- ص٦٣.

(٥) **المصدر السابق**- ص٦١.

(٦) **المصدر السابق**- ص٢٤٤.

ومما يجدر ذكره أن شريف مكة كان نصيبه مـن صدقـة الـلاك الهنديـة الثلـث رغم أن سلطان الهند يحذره من الصدقة ويكتفي بما يرسل ويهدي اليـه. ففـي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م ارسل سلطان الهنـد مبلغـاً مـن المـال قـدر بسـتة آلاف أشرفي وهدية ثمينة قدرت بأربعة آلاف أشرفي "وسأل فضله في عـدم التعـرض للصدقـة وأخـذ الثلـث منهـا علـى عادتـه وقـال السـلطان لوكيلـه: إن سمـع الشريف ذلك حمدنا على فعله وإلا لا يعطى شيئاً"[1] .

و لم يتقيد اشراف مكة بذلك، ويتضح ذلـك إصـرار الشـريف أبـو نمـي علـى قبض ثلث الصدقة البالغة أربعاً وعشرين ألف أشرفياً واستطاع أن يحصل على ثمانية آلاف وذلك في عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م[2] ، ولكنه في بعض السنين يهبها للفقراء والمحتاجين[3] .

ولقـد اسـتمر توزيـع الصدقـة الهنديـة علـى أهـل مكـة ثـم حجمـت بسـبب الأوضاع الإقتصادية والسياسية مدة بلغت السبع أعوام ثم عادت مرة أخـرى عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م[4] .

و لم تستقبل مكة الهبات والصدقات من السلاطين فقط، وإنما نافسهم في ذلك الأمراء والوزراء والقضـاة، بـل إنهـم فـاقوهم في ذلـك، فعندمـا عـزم الوزيـر الأعظم آصف خان على أداء فريضة الحج عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م طلـب مـن

---

(١) **نيل المنى**- ص٦٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٦٠.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٣٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤١١.

مباشريه أن يجهزوا الأموال والغلال لينفقها على الحجاج والمجاورين والأهالي والفقراء وبلغ مقدار الأموار التي أنفقها مائة وستين الف دينار وزيادة[1] .

وفي عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م حمل امير الصعيد داود بن احمد بن يونس الهواري قمحاً كثيراً الى اهالي الحرمين الشريفين بمكة المكرمة والمدينة المنورة ورصد جميع الأسماء المستحقة في قائمة وأعطى كل مستحق ويبة قمح وأضاف إلى ذلك بتوزيع الدنانير على أرباب المناصب والوظائف كالقضاة والخطباء والأئمة والمؤذنين وأرباب الشعائر بالمسجد الحرام اكثر من الف دينار، وعلى الفقراء مثلها و لم يخصص لأحد بل يعطي من يحضر[2] .

وفي جمادى الثاني عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م وصلت مبرة لأهل مكة المكرمة من الأمير جانم الحمراوي فرقت على أرباب الوظائف والشعائر والقضاة[3] .

ومما تجدر ملاحظته أن أشراف مكة في أغلب السنوات وخصوصاً التي يشتد فيها القحط أو السيول يقومون بتوزيع صدقات على فقراء مكة ومحتاجيها.

ففي عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م قام الشريف بركات بتوزيع صدقة على أهل مكة "فرق أوائل صدقة الشريف على الفقراء كحكم السنة قبلها وزيادة بشيء يسير لزيادة المبلغ وهو ستمائة دينار"[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٥٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٦٣.

(٣) **المصدر السابق**- ص٣٩٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص١١١.

كما ساهم التجار في أقطار العالم الإسلامي في اغداق الأموال لتحسين وترميم منشآت الحرمين الشريفين، ففي عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م تبرع السيد/ علاء الدين ملك التجار لأهل مكة بعشرين الف أشرفي[١] ، وفي سنة ٩٢٥هـ/١٥١٩م أوصى الخواجا مراد عبد الله الرومي الناظر على أوقاف ترسن لأهل مكة بأربعمائة دينار[٢] كما أوصى الحاج محمد سنبل الدمشقي بثلث ماله لأهل الحرمين البالغ أكثر من ثلاثين ألف دينار[٣] .

كما نافست النساء الرجال في ذلك ففي عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م أرسلت المدعوة خاصكي زوجة السلطان العثماني سليمان صدقة حب بلغت ثمانمائة أردب أوصت بتوزيعها على الفقراء والمساكين عامة ورباط الأشرف قايتباي خاصة على أن يقوم بتوزيعها الشيخ ابو الحسن علي الكيزواني الحلبي[٤] .

واستقبلت مكة المشرفة في عهد الشريف بركات ثم ابنه الشريف ابي نمي كثيراً من الهبات والصدقات والعطايا من أقطار العالم الإسلامي بعيده وقريبه فكانت تأتيه صدقات الشام وحلب ويسمى الصر الشامي[٥] .

و لم تقف الصدقات المملوكية عن وصولها الى أهل مكة المكرمة حتى بعد زوالها فلقد استمرت صدقة السلطان قايتباي ترسل من قبل نائب السلطان

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٦٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص٥٤.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٢٧.

(٤) **المصدر السابق**- ص٤٤٥.

(٥) **المصدر السابق**- ص٩٧-١٥٣-٣١٢-٣٢١-٣٥٠-٣٥١-٣٨٠-٣٨١.

العثماني في مصر[1]، كما استمر صرف الصر الحكمي والمستجدي بعد انقطاع دام عدة سنوات ففي عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م "فرق الصر المصري المحمول من القاضي الشافعي بها المعروف بالحكمي والمستجدي وهما من أوقاف القاهرة"[2].

ومع ذلك فليس من شك في أن الهبات والصدقات كانت تشكل مصدراً من مصادر الدخل بالنسبة لمكة المشرفة بصفة خاصة والحجاز بصفة عامة.

(١) **نيل المنى**- ص٤٠-٤١-١٥٤-٣٢٠-٤٣٤.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٠٠.

الفصل الرابع

الحياة الاجتماعية

طبقات المجتمع المكي:

تألف المجتمع المكـي مـن عـدة عنـاصر مختلفـة التقـت جميعهـا في هـذه البقعـة المباركة فكان لهذا اللقاء أثره الذي لايخفى في الحضارة الإسلامية، وتكاد مكة تنفرد بهذه الميزة في تركيبتها السكانية من بين اقطار العالم الإسلامي. ويؤكد ذلك الرحالة إبن جبير "فقد كان المجتمع المكي يتكون من عناصر اسلامية من العرب وغير العرب المسلمين من شتى أقطار العالم الإسلامي"(١) .

وكان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعـض سـواء بالمصـاهرة أو الجوار مما أدى الى امتزاج هذه الفئات بعقلياتهـا وطبائعهـا وعاداتهـا ولغاتهـا المختلفة في بوتقة مكة وتكوين المجتمع المكـي وعندمـا اردت أن أتحـدث عـن طبقات المجتمع في مكة لم أجد أن المؤلف جار الله بن فهد قد أرخ تحت هذا العنوان بل أخذت أبحث وأدقق واستشف مابين السطور حتى وجدت نبذات متفرقة هنا وهناك في مواضيع مختلفـة وفي مناسبات متعـددة تبـين أن المجتمـع المكـي في هـذا العصـر أواخـر -عصـر سـلاطين الممـاليك وأوائـل عهـد العثمانيين- يتكون من عدة طبقات وسنتعرف على كل من هذه الطبقات.

وربما كانت مكة فريدة في تركيبها الاجتماعي من بين جميع مدن العالم نظـراً لمركزها الديني عند المسلمين، فقد اثر هذا المركز علـى الـتركيب الاجتمـاعي لهذه المدينة المقدسة تأثيراً كبيراً حتى صار سكانها الاصليون قلة قليلـة وسـط جموع تتدفق سنوياً على مكة فـي موسم الحج فيستقر فيـها عائلات وأفراد

---

(١) إبن جبير -**الرحلة**- ص٤٨.

يتجرون أو يتجاورون أو يتعلمون وعلى مر القرون ازداد الغرباء الوافدون زيادة كبيرة وقل عدد أهاليها الأصليون تبعاً لتضخم المدينة بالأعداد الهائلة التي ترد اليها وتستقر فيها لأغراض مختلفة[1] . وكان المحور الذي يدور حوله حياة أهل مكة والواردين إليها هو (موسم الحج) فهو مبرر وجودها ولولا البيت العتيق الذي يقوم وسط مكة لما أمكن تصور ازدهار مدينة مكة في تلك الفيافي القاحلة عبر القرون المتطاولة (بوادٍ غير ذي زرع).

كانت غالبية سكان مكة المكرمة -في القرن العاشر الهجري- تتكون من العرب والمسلمين الذين يعتنقون المذاهب السنية بالإضافة إلى فئة قليلة من الشيعة تقطن المدينة المنورة ويطلق عليها لقب النخاولة الى جانب الاشراف.

وندرك ادراكاً كاملاً تعقيد المدن والآراء حولها على أنها في الغالب مقسمة الى أربعة مستويات رئيسية: الصفوة الحاكمة، والوجهاء، والعامة من الشعب وطبقة الرعاع[2] وتسمى النخبة الحاكمة باسم "الخاصة" مقابل طبقة "العامة" من الشعب، وكذلك هناك وجود طبقة اجتماعية ثانية واقعة بين الخاصة والعامة سميت طبقة "الأعيان" وتعنى الوجهاء من أعيان الاشراف واعيان العلماء، وأعيان التجار، وأعيان القضاة والمعلمين والوعاظ حيث كانوا اكثر افراد المجتمع احتراماً واجلالاً[3] .

---

(١) جميل حرب -**الحجاز واليمن**- ط١- دار تهامة- جدة- ١٤٠٥م- ص٢٢٩.

(٢) ايرامارفين لابيدوس- **مدن الشام في العصر المملوكي**- ترجمة سهيل زكار- دار حسان- دمشق- ١٤٠٥هـ- ص١٣٤.

(٣) **المرجع السابق** -ص١٣٥.

طبقة الاشراف:

كانت طبقة اشراف مكة اهم بنية في المجتمع والنخبة الحاكمة لأقليم الحجاز في هذه الفترة الزمنية وهم من احفاد قتادة الحسني المستوطن قرية العلقميه[1] من قرى ينبع الذي استطاع ان يتزعم أسرته ويجمع شملهم ويزحف بجيشه الى مكة وينتزع حكمها من مكثر بن عيسى[2] من اسرة الهواشم بني فليته عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م ويثبت حكمه ويسيطر على القبائل والمناطق المجاورة[3] واستقرت السلطة في ايديهم قرون حتى تم اسقاط دولتهم على يد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في عشرينات القرن العشرين[4].

وقد تكاثرت الاسرة الحسنية بمكة حتى كونت طبقة من طبقاتها خصوصاً أبناء ابي نمي الذين توارثوا امارة مكة وتكاثروا واصبحت لهم عصبية تحميهم وبرزت كقوة سياسية تمثل قمة المجتمع المكي ولم يكن هناك قوة منافسة لهم وكانت علاقاتهم مع طبقات المجتمع تسودها روح الأسرة الواحدة كما اتصفوا بحسن المعاملة مع معظم العائلات المقيمة في مكة المكرمة، كما انهم اهتموا بسكان البوادي من القبائل القاطنة في أطرافها.

---

(١) العلقميه بفتح العين وإسكان اللام وفتح القاف وكسر الميم قرية معروفة تنتسب الى علقمه بن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب من قرى ينبع النخل في إمارة المدينة المنورة، استوطنها الأشراف من بني حسن يسكنها الآن عدد غير كثير- انظر: حمد الجاسر -**بلاد ينبع**- دار اليمامه- الرياض- ١٩٦٥م-ص ١٧٨.

(٢) مكثر بن عيسى بن فليته تولى إمرة مكة وحكمها سبع سنين مع أخيه داود ثم انفرد بإمرتها بموت أخيه عام ٥٨٩هـ/١١٩٣م وبمكثر انقضت ولاية والهواشم وانتزعها منه قتاده الحسني ولجأ الى وادي نخله، كان جليل القدر، بنى القلعة المشهورة على جبل ابي قبيس، توفي بعد عام ٥٩٧هـ/١٢٠١م. ترجم له: الفاسي- **العقد الثمين**- ج٧- ص٢٧٤- النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- ج٢- ص٥٣٦- القلقشندي- **صبح الأعشى**- ج٤- ص٢٧١.

(٣) العصامي -**سمط النجوم**- ج ٤- ص٢٠٧ - الفاسي - **العقد الثمين**- ٧/٣٩-٤٠.

(٤) عبد الله صالح بن عثيمين -المملكة العربية السعودية - ج٢ ط١- دار العبيكان- الرياض- ١٤١٦هـ - ص٢٠١.

كما كانوا حذرين وحريصين في مسائل الخصومات وفض المنازعات فعملوا على تجنب الأحكام القاسية وكانوا يميلون دائماً الى الصلح ووضعوا قوانين متعددة لتنفيذ سياستهم، يؤكد ذلك الوثيقة التي وضعها الشريف ابو نمي الاول عام ٦٥١هـ/ ١٢٥٢م وسميت بقانون ابي نمي[١] مما جعل إمارتهم تستمر فترة طويلة. وبعد خضوع مكة للسيطرة العثمانية لم يغير سلاطين بني عثمان الحكم في الحجاز بل ابقوا الاشراف في الامرة ولقد حرص اشراف مكة على مشاركة عناصر المجتمع في افراحهم وأحزانهم فكانوا يحضرون في أغلب الأحيان حفلات الزواج[٢] وحضور جنائز الكبراء والعامة على السواء[٣]، كما كانوا يحترمون عادات المجتمع وأعرافه و لم تكن طبقة الاشراف جميعها تتمتع بالسيادة والثراء بل كانت توجد طبقة منهم تعاني شظف العيش وتعمل في كراء الجمال او بيع اللبن والماء[٤].

---

(١) ابو نمي محمد بن حسن بن علي بن قتادة بن ادريس بن مطاعن بن عبد الكريم الحسيني القرشي الهاشمي، ولد في حدود عام ٦١١هـ/ ١٢١٤ م ولي إمرة مكة خمسين سنة شهدت مكة في عهده استقراراً وأمناً بعد حروب خاضها وهو صبي يافع ضد عمه الشريف راجح بن قتادة كان يعتنق المذهب السني اشتهر بالفصاحة والشجاعة والحلم والسياسة والرأي اعقب ٢٥ ولداً ذكراً و١٢ انثى، اصيب بالحمى وكانت سبباً في وفاته عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م وقد ترجم له. الفاسي- **العقد الثمين**- ج١-ص٤٥٦- الفاسي -**شفاء الغرام**- ج١-ص٨٦- عز الدين بن فهد-**غاية المرام**- ج٢-ص٩.

(٢) **نيل المنى**- ص ٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص١٥٦.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢١٠.

طبقة قبيلة قريش[1] "سكان مكة الأصليون":

كانت تتكون من عدة بطون بقيت بمكة بعد أن نزح كثير من القرشيين واستقروا بعد التوسع الاسلامي في بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب في عصر الفتوح الاسلامية بالاضافة الى استقرار بعض القبائل والأسر والعشائر البدوية مثل عرب بني شعبه بأطراف مكة ويشكل المكيون هؤلاء مابين الربع والثلث من مجموع القاطنين بمكة[2] . ونتيجة للظروف السياسية بإنتقال الثقل السياسي من الحجاز -المدينة- الى دمشق عاصمة الأمويين أولاً ثم الى بغداد عاصمة العباسيين ثانياً وكذلك ما حصل من فتن وحروب وحصار لمكة في عهد الخليفة يزيد بن معاوية على يد الحجاج الثقفي مما زرع الخوف في نفوس أهل مكة[3] وكذلك الظروف الإقتصادية من غلاء الأسعار بالإضافة إلى الطبيعة الصحراوية القاحلة شديدة الحرارة لمكة التي انهكتها اقتصادياً ان نزحت كثير من العائلات القرشية الى مدينة الطائف حيث مارسوا مهنة الزراعة

---

(١) قريش هم ولد النضر بن كنانة على ما يقول بعض المؤرخين. وقد ورد مثل ذلك عن الرسول صلى الله عليه وسلم حين سئل: من قريش؟ فقال: "من ولد النضر" وهم بنو فهر الذي هو قريش وإن كل من كان من ولد فهر فهو قرشي، ذلك النسب الذي يتصل بمعد بن عدنان. وقد سموا قريشاً حين جمعهم قصي بن كلاب الى الحرم بعد أن نفى خزاعة منه. وقيل سمو قريشاً أيضاً من التقريشن وهو التجمع، كما ورد ذلك في معاجم اللغة، أو أنهم سمو قريشاً لاحترافهم التجارة، من قرّش بمعنى نمى ثروته، كما قيل أيضاً إنها سميت قريشاً بداية في البحر، وهو بعيد فشبه بنو النضر بن كنانه بها لأنها أعظم دواب البحر قوة. انظر:

الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير- **تاريخ الأمم والملوك**- ج٢- دار المعارف- القاهرة- ١٣٢٦هـ- ص١٨٧- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم- **لسان العرب**- ج٣- بيروت- دار صادر- ١٩٦٧م- ص٤٨- ابن عبد ربه- شهاب الدين احمد- **العقد الفريد**- ج٢- ط٣- دار النهضة- القاهرة- ١٩٦٥- ص٢٠٢.

(٢) **نيل المنى**- ص٥٠-٥١.

(٣) الفاكهي- **اخبار مكة في قديم الدهر وحديث**- تحقيق عبد الملك بن دهيش- ج٢- النهضة الحديثة- مكة المكرمة- ١٤٠٧هـ- ص٣٦٨.

وذلك لطبيعة الطائف الزراعية التي اشتهرت بها. واستقرارهم خاصة في وادي الوهط والوهيط[1]، كما استقر بعضهم بوادي فاطمة وأصبحوا يمتلكون مساحات زراعية واسعة.

واستقرت بمكة بعض العائلات العريقة ذات المكانة العلمية والدينية ومن هذه العائلات آل الشيبي التي استمرت بيدها مفاتيح الكعبة قبل الاسلام وأقرها النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم في ايديهم وبقيت حتى الوقت الحاضر كذلك وآل ظهيرة وآل فهد[2] المنتسب اليهم مؤرخنا جار الله بن فهد وصاروا جزءاً متميزاً من المجتمع المكي وتقلدوا فيه مناصب سامية وبرزوا في المجالات الاجتماعية والقضائية والعلمية وكانت لهم صلات وثيقة بأمراء مكة المكرمة.

طبقة الأعيان:

تترجم كلمة (الأعيان) لتعني الوجهاء واستعملت عموماً لتشير الى الاشخاص الاكثر بروزاً وإجلالاً فقد تضمنت عبارة (الأعيان) في ثنايا كتاب نيل المنى معنى دقيقاً، اشارت بشكل خاص الى العلماء والفقهاء والخطباء القياديين والزعماء الدينيين، والقضاة والشيوخ والوعاظ والمعلمين حيث كانوا اكثر

---

(١) الوهط والوهيط: موقعين في غرب مدينة الطائف مشهورة بالمزارع التي تنتج أطيب الفواكه والذ الخضار ويقال الوهط ماء لعمرو بن العاص واشتهرت بعيونها منذ العصر الجاهلي وهي الآن تمد الطائف بالمياه. انظر: محمد بن منصور- **العيون في الحجاز وبعض أوديته**- ص٢٣-٢٥.

(٢) **نيل المنى** – ص ٢٤٧/٤١٤.

أفراد الشعب احتراماً واجلالاً[1] واتسعت لتشمل اصحاب الحظوة وأصحاب المناصب العالية في ادارة الدولة وقيادتها كحاكم مكة والمحتسب وكبار التجار والأغنياء وكانت لهم مكانة عالية ومنزلة رفيعة في نفوس أفراد المجتمع ويبدو أن ذلك يعود إلى كثرة الخدمات التي قدموها للناس[2].

طبقة المجاورون (الوافدون):

كانت للمكانة الروحية السامية التي تمتعت بها مكة المكرمة أهمية خاصة لدى الشعوب الاسلامية في شتى انحاء العالم الاسلامي، فاستقطبت عددا كبيرا من المسلمين الذين قدموا عليها قاصدين الحج أو طالبين العلم والمعرفة، ثم لم يلبثوا ان قرروا قضاء فترة صفاء روحي في جوار الحرم المكي، وعلى افضل بقعة طاهرة، ومن هنا نشأ مصطلح جديد عرف في التاريخ الاسلامي باسم المجاورة[3] .

واذا رجعنا الى بداية تاريخ المجاورة فنعود الى ما ورد في الأثر عن فضل وقداسة مكة والمكوث والاقامة الدائمة بها، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: ﴿ اما والله إني لأخرج منك وإني لأعلم أنك أحب البلاد الى الله وأكرمها... ولولا أن اهلك اخرجوني منك ماخرجت..﴾[4] .

---

(١) **نيل المنى** -ص٢١٥- ٣٣٥-٤٢٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٨-٧١-١١٨.

(٣) احمد الزيلعي -**مكة وعلاقاتها الخارجية**- ص١٣٧.

(٤) احمد بن حنبل، احمد- **المسند**- تحقيق احمد شاكر- القاهرة- دار المعارف- ١٣٧٤م- ج١- ص٢٨٨- الأزرقي محمد بن عبد الله-**أخبار مكة وما جاء في الآثار**- ج٢- تحقيق رشدي الصالح ملحس- مكة المكرمة- دار الثقافة- ١٣٨٥هـ- ص١٥٥.

وروى عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: ﴿لولا الهجرة لسكنت مكة، اني لم ار السماء بمكان قط أقرب الى الأرض منها بمكة، و لم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة، و لم أر القمر بمكان أحسن منه بمكة﴾[1] .

واستحب كثير من الصحابة والتابعين والعلماء الاستيطان بمكة والمجاورة بجانب حرمها الشريف كما كتب في فضلها الشيء الكثير وأبرزها الرسالة المشهورة في فضل مكة والمجاورة فيها التي سطرها الحسن البصري، وقد احب المجاورة بها فئة كبيرة من صحابة النبي عليه السلام بعد وفاته وكان على رأس هؤلاء الصحابة عبد الله بن عمر بن الخطاب وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم[2] .

كما جاور بمكة الصحابي الجليل حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فترة من الزمن[3] و لم يخرج منها الا بعد ان اشتد عليه الأذى في عهد عبد الله بن الزبير بسبب الصراع على خلافة المسلمين بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير وقيام الأخير بتهديده بالحرق والقتل ان لم يبايعه بالخلافة[4] .

---

(١) ابن ماجه، الحافظ ابي عبد الله محمد بن يزيد- **سنن ابن ماجه**- ج١ - تحقيق محمد فؤاد- القاهره- دار الفكر- ١٣٩٣هـ- ص٢٦٦ أ الأزرقي، **المصدر السابق**- ص١٥٣ علان محمد المصدر السابق، ورقة ٢٥.

(٢) ابي العباس احمد الطبري- **القرى لقاصد ام القرى**- تحقيق مصطفى القاط- القاهرة دار الفكر- ١٣٩٠هـ- ص٦٦١- احمد الزيلعي -**مكة وعلاقاتها**- ص٣٧.

(٣) الفاسي -**شفاء الغرام**- ج١ ص٨٥.

(٤) ابن سعد -**كتاب الطبقات**- طبعة ليدن (١٣٢٢هـ) ج٥ ص٧٥.

اما في هذه الفترة الزمنية التي نتناولها بالدراسة التاريخية فقد اسعفتنا المصادر المكية بمعلومات لا بأس بها من المجاورين بمكة المكرمة، واندماجهم في مجتمعها حتى أصبحو يشكلون جزءاً هاماً من هيكلها الاجتماعي ومن دراسة هذه المعلومات نستشف بعض الملاحظات التاريخية والاجتماعية:

١) ان معظم من جاور بمكة كانوا من رعايا الدولة المملوكية بمصر والدولة العثمانية خاصة من المناطق الواقعة شرقي العراق خاصة منطقة الأكراد في كركوك والموصل ثم يلي ذلك اليمنيون والحضارمة والمغاربة والشاميون والجاويون والبخاريون والأفغانيون والطبريون وقلما جاور احد من الاندلسيين بمكة المكرمة عائداً لإستقرارهم في بلاد المغرب وبلاد مصر للهدوء السياسي والثراء الاقتصادي والشعاع الفكري والثقافي والظروف الطبيعية والمناخية القريبة من بلاد الأندلس.

٢) ان أكثر المجاورين بمكة كانوا ممن اعتنقوا المذهب الصوفي الذي انتشر في هذه الفترة مثل ابن عراق[١] وعفيف الدين عبد الله الخفاشي الشافعي[٢] وشيخ الصوفية علي الكيزاوني الحلبي[٣] ، أو من العلماء المتعمقين في علومهم، مثل ابوبكر بن عثمان الجبرتي[٤] وقد وجد من بين هؤلاء المجاورين من جاء الى مكة المكرمة موفدا من قبل الخلافة العثمانية لرعاية مصالح الحرم. مثل الامير مصلح الدين الرومي[٥] ومن الهنود هناك عائلة (الدهلوي)، وبنو (كمال)،

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٠٩.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٩١.

(٣) **المصدر السابق**- ص٤٠٢.

(٤) **المصدر السابق**- ص١١٢.

(٥) **المصدر السابق**- ص٩.

وبنو (عبد الشكور)، والكيلاني والنهروالي والفاوي[١]، ومن البخاريين (بنو كشك)[٢]، ومن الحضارم (باحارث وباكثير)[٣]، ومن العراق (المحيوي العراقي)[٤]، ومن اليمن (الأبي)[٥]، ومن الترك (الجلبي[٦]، والقرملي والحنفي والزمني)[٧]، ومن المصريين (النويريون)[٨]، وآل السعادات[٩]، ومن حلب (الكيزاواني)[١٠] ومن المغرب (الفاسي)[١١]، ومن فارس (الشيرازي)[١٢].

٣) اختلف العلماء في مدة المجاورة بمكة المكرمة فهي تمتد لفترة طويلة او تتقلص لفترة قصيرة وحددها البعض بأربع سنوات وحددها البعض الآخر[١٣] الى خمسين سنة[١٤] على أنه في اغلب الاحيان تستمر فترة المجاورة حتى وفاة

---

(١) **نيل المنى** – ص٦٢.

(٢) **المصدر السابق** – ص٧٤.

(٣) **المصدر السابق** – ص٣٢٧.

(٤) **المصدر السابق** – ص٤٥٠.

(٥) **المصدر السابق** – ص٢٧١.

(٦) **المصدر السابق** – ص٣٧٠.

(٧) **المصدر السابق** – ص٧٠.

(٨) **المصدر السابق** – ص١٥٦.

(٩) **المصدر السابق** – ص٤٤٩.

(١٠) **المصدر السابق** – ص٤٠٢.

(١١) **المصدر السابق** ص٤٧٥.

(١٢) **المصدر السابق** – ص١٤٥.

(١٣) الفاسي–**العقد الثمين**– ج٥ ص٥٠٧–٥٠٨ – ابن خلكان، احمد بن محمد –**وفيات الاعيان في انباء ابناء الزمان**– ج٣ – تحقيق إحسان عباس– القاهرة– دار الفكر– ١٩٧٢م– ص١٦٨.

(١٤) الفاسي –**العقد الثمين**– ج٦ ص١٤– **نيل المنى**– ص٢١٧.

المجاور وانتقال روحه في مكة[1] . كالخواجا وجيه الدين عبد الرحمن الصعدي[2] وبرهان الدين ابراهيم العراقي[3] والشيخ المفتي شهاب الدين احمد بن علي التجيبي الفاسي الشهير بالزقاق[4] والشيخ العلامة بدر الدين حسن بن علي الطلحاوي[5] والمقري شهاب الدين احمد محمد الكيلاني[6] .

٤) تقلد اغلب العلماء الذين آثرو المجاورة في مكة ابرز واهم المناصب والوظائف الدينية المهمة فأسند الى بعضهم امامة الحرم المكي[7] وأسند الى البعض الآخر اقامة الآذان فيه[8] ومنهم من اشرف على أغلب المدارس المكية او تم تعيينه للتدريس بها [9] كما تولى بعض منهم منصب القضاء واسند الى فئة منهم اصدار الفتوى[10] .

ويذكر جار الله بن فهد أنه ((وصل في ظهر تاريخه الشيخ العلامة مفتي المسلمين تاج العارفين ابو الحسن محمد بن الشيخ جلال الدين أبي

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٢-٨٦-٩٣-١٠٣-١٧-٢٠٨.

(٢) **المصدر السابق** - ص٢٣٨

(٣) **المصدر السابق** - ص٩٣.

(٤) **المصدر السابق** - ص١١٧.

(٥) **المصدر السابق** - ص٢٥٨.

(٦) **المصدر السابق** - ص٢٩٩.

(٧) **المصدر السابق** - ص٢٠٥.

(٨) **المصدر السابق** - ص٢١١.

(٩) **المصدر السابق** - ص٢١٥.

(١٠) **المصدر السابق** - ص٢١١.

البقاء محمد بـــن عبد الرحمن بن احمد القرشي البكري الشـافعي القـاهري... وصحبه عياله وأولاده وجماعة من تلامذته ونوى المجاورة))[1] .

٥) ان معظم هؤلاء المجاورين لم يكونوا داخل دائـرة الاعـتزال عـن الجوانـب الحياتيـة في مكـة المكرمـة، بـل سـاهموا واندمجـوا في داخــل المجتمــع المكــي واصبحـت بصمـاتهم واضحـة المعـالم في شـتى الميـادين السياســية والثقافيـة والاقتصادية والاجتماعية والدينية. وكانوا أشـد النـاس تمسـكاً ببعـض تقـاليد بلادهم التي نزحوا منها[2] .

٦) يشكل هؤلاء المجاورون في المجتمع المكي أغلب سكان مكـة أو أكـثر مـن النصف كما نستشف ذلك من مصدر مؤرخنا إبن فهد[3] .

٧) كان يغلب على حياة معظم المجاورين بمكة المكرمة الزهد والـورع وكـان الانصراف عن الكسب والعمل والانغماس في العبادة والانقطاع لها سبباً مـن اعظم الاسباب في انتشار الفقر والفاقة والمرض بين غـالبيتهم، ونتيجـة لذلـك أصبحوا عالة شديدة الوطء على المجتمع المكـي، ولم يكـن لهـم أي اسـهام في تحريك دائرة الاقتصاد او انعاشه وكان اغلبهم يعيش ويسـترزق علـى الهبـات والصدقات التي تأتيهم مـن الدولـة العثمانيـة الـتي تحملـت الجـزء الاكـبر مـن المعونات التي تقوم بارسالها في موسم الحج مع المحمـل الرومـي او المصـري او

---

(١) **نيل المنى** – ص١٢٧.

(٢) **المصدر** السابق- ص ٢٢٨-٢٣٤. احمد الزيلعي- **مكة وعلاقاتها**- ص١٥٠.

(٣) **نيل المنى** – ص٢٨٨.

في فترات متفاوتة خلال العام كما اعتمدوا على المبرات التي يرسلها الموسرين من سلاطين وامراء وتجار العالم الاسلامي الى مكة خاصة في مواسم الحج[1] .

٨- أصبح كثير من المجاورين عبئاً سكاني وإقتصادي على سكان مكة الأصليين مما جعل وجودهم يبعث القلق والاضطراب لدى اشراف مكة نلاحظ هذا القلق في إشارة سريعة لجار الله بن فهد وهو مؤرخ لأحداث تلك الفترة حيث يقول ((... فبلغ عدتهم، أربعة وعشرين الفاً زيادة على العادة بنحو سبعة آلاف لكثرة الغرباء المقيمين بمكة الواصلين اليها براً أو بحراً))[2] .

ويؤكد ذلك نص آخر لنفس المؤرخ ((... وذلك لكثرة الغرباء والمحدثين من الأحداث. وفي هذا ضرر على أهل الحرمين))[3] .

أما من الناحية الاجتماعية فقد انصهرت الفئة المجاورة عن طريق الزواج بأهل مكةوأحدثت أثراً كبيراً وتركت بصمة واضحة على المجتمع المكي ولا يزال التأثير مستمراً لتلك السلالات التي قدمت الى مكة من اقطار شتى واختلاطهم وامتزاجهم بسكانها الاصليين واضحاً حتى اليوم[4] .

---

(١) **نيل المنى** - ص٤٩-٨٧-١٣١-١٩٦-٢٠١-٢١١-٢٢٨-٢٤٥-٢٧٠-٣١٠.

(٢) **المصدر السابق** - ص٢٨٨.

(٣) **المصدر السابق** - ص٣٨٠.

(٤) لمعرفة المزيد من تأثير الحج والهجرة على المجتمع السكاني بمكة المكرمة واختلاط المكيين بالسلالات المهاجرة اليها والمستوطنة بها انظر: البتنوني -**الرحلة الحجازية**- ص٤٠-٤٤- **نيل المنى** - ص١٠٣-٢٢٦- ٣١٧.

فقد كان بعض المجاورين يتزوجون من نساء مكيات، بـل إن بعـض الممـاليك اقترن بنساء مكيات من أنساب عريقة ومناصب جليلة[1] بل ان بعضهم بـالغ في تلك الزيجات واقترن بأكثر من امرأة واحدة[2] .

على ان البعض منهم آثر على نفسه عدم الاقتران والزواج وفضـل ان يستمر في حياته حتى مماته أعزباً ليسـهل عليه الاشتغال بالعلم وتكريس حياته في طلبه[3] .

بذلك اصبح التأثر واضحاً وجلياً من قبل الفئات التي قدمت للمجاورة في مكة المكرمة من شتى بقاع العالم الاسلامي وتأثر المجتمع المكي الاصيل بعادات وتقاليد هذه الفئات التي برزت وارتقت على سكان مكة الاصليين واصبحوا يتقلدون اسمى الوظائف ونالوا بذلك شهرة واسعة وكان لهم الدور المؤثر والبارز في شتى النواحي في المجتمع المكي[4] .

---

(١) **نيل المنى** – ص١٦١.

(٢) **المصدر السابق** – ص١٣١.

(٣) **المصدر السابق** – ص٥٦.

(٤) احمد الزيلعي- **مكة وعلاقاتها**- ص١٥٠.

طبقة التجار:

يشير جار الله بن فهد الى طبقة التجار أثناء رصده لكثير من الظواهر الاقتصادية والنشاط المالي في مكة ويحدثنا كثيراً عن هذا القطاع من رجال الاقتصاد باعتبارهم من أهم رجاله ومن أبرز النشاطات الاقتصادية في مكة المكرمة يشكل التجار فئة متميزة في مجتمع مكة المكرمة، سواء كانوا محليين أو مجاورين أو موسمين فإنهم مصدر خير ونماء، كما أنهم يؤلفون طبقة مقربة من شريف مكة وأمراء الدولة العثمانية ونائب جدة في آن واحد ولهم دور فعال في حل الأزمات والقضايا السياسية والاقتصادية التي تتعرض لها إمرة مكة المكرمة، وبذلك تعتبر طبقة لها أهميتها في المجتمع المكي في القرن العاشر الهجري[١] .

وهنا ينبغي أن نفرق بين فئة كبار التجار الذين مثلوا إستقراطية المال، واختصوا غالباً بالتعامل في السلع الثمينة كالتجارة بأنواع الرقيق والمجوهرات النفيسة والصيرفة ونحوها. وهذا الفريق ارتبط بالطبقة الحاكمة وكبار رجال الإمرة وأعيانها ارتباطاً مباشراً[٢] .

أما الفئة الثانية تتعلق بشكل مبسط بالتجار وهم السواد الأعظم فكانوا من أرباب المهن والحرف اليدوية التقليدية فكان هناك البناء[٣] والنجار[٤]

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٨-٦١-٧٥-٨٩-١١٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٤٨-٥٧-٦٦.

(٣) **المصدر السابق**-ص٨٢-١١٥-١٥٧.

(٤) **المصدر السابق**-ص٦-٩٨.

والنقاش[1] والدهان الذي يدهن السقوف[2] والحراز[3] والعمري الذي يصنع أغطية الراس[4] والدلالين الذين يتكسبون بسمسرة الرقيق[5] والسقائين[6] والمكاريين[7] والحطابين[8] والخبازين[9] والعطارين[10] بالإضافة إلى التجار الصغار من أصحاب الدكاكين والباعة كالسمان[11] والتمار[12]، وكذلك من تكسب بنسخ الكتب[13] -كمؤرخنا جار الله بن فهد- وتجليدها[14]، ومن تاجر بشرائها وبيعها[15].

(١) نيل المنى- ٧٠-١١١.

(٢) المصدر السابق- ص٣٥.

(٣) المصدر السابق- ص١٩-٥٩.

(٤) المصدر السابق- ص٢٧-٥٨.

(٥) المصدر السابق - ص١٥-٤٨-٦٦-٨٧-٢٢٠٠.

(٦) المصدر السابق- ص ٤١-٦٣-٢٤١.

(٧) المصدر السابق- ص ٧٧-٢١١-٢٥٠-٣١٠.

(٨) المصدر السابق- ص١١٧-١٩٨-٢٦٩.

(٩) المصدر السابق- ص ٢٨-٤٣-٨٧-٩١.

(١٠) المصدر السابق- ص٦٨.

(١١) المصدر السابق- ص ٣٦-٤٨-٦٦-٢٤٨.

(١٢) المصدر السابق- ص ١٥-٤٨-٧٢-١٧٥-٢٤٨.

(١٣) المصدر السابق- ص٨٢-١٩٧-٢٥٦.

(١٤) المصدر السابق- ص٨٢-١٨٥-٣٩٧.

(١٥) المصدر السابق- ص٤٧-٦٨-٤١٠.

طبقة المماليك:

لانستطيع أن نلقي ضوءاً على الجانب المملوكي في المجتمع المكي إلا بالإستعانة بما جاء في التراجم أو بعض الأحداث في شذرات مقتضبة لدى بعض المؤرخين كالعز بن فهد في كتابيه بلوغ القرى وغاية المرام وجار ا لله بن فهد في كتابه نيل المنى.

ويبدو أنه لإزدياد النفوذ المملوكي في إقليم الحجاز أن تكونت طبقة جديدة من المماليك أخذت تنمو وتتكاثر بشكل سريع في مكة المكرمة ويتضح أن ذلك يرجع الى كثرة اعدادهم وحبهم للإقامة بها لمكانتها عند المسلمين عائداً ذلك لقداستها خاصة ولمكانة المماليك السياسية والاقتصادية مما أدى إلى ارتفاع قدرهم في نفوس سكان مكة حيث حظوا بالتكريم والتقدير.

ولقد مارس بعضهم التجارة وحققوا أرباحاً طائلة استثمروها في شراء أفضل الدور في أميز المواقع الحساسة القريبة من الحرم الشريف والبعض الآخر التحق بالخدمة لدى شريف مكة وأصبحوا من مماليكه الذين يتحركون في معيته أينما حل أو ارتحل[(١)].

ولقد كانت هناك حامية عسكرية مملوكية مقيمة بمكة المكرمة ويرأسها أمير مملوكي ومهمتها حفظ الأمن وتأكيد سيادة المماليك ويبدل أمراؤها بين الحين والآخر[(٢)].

---

(١) **نيل المنى**- ص٤٦-٥٨-٨٧-١١١-١٣٢-٢٥٠.

(٢) النجم بن فهد-**اتحاف الورى**- ج٣- ص٥٩٣-٥٩٥- ج٤- ص٥٠-٧١-٢٣٢-٢٧٦-٣١٩-٣٤٠-٤٢٩.

وأضيفت اليها قوة أخرى في أواخر العصر الجركسي إذ أرسل قانصوه الغوري في سنة ٩٠٧هـ/١٥٠١م للشريف بركات عشرة مماليك وخمسين قواساً عندما اضطربت الأوضاع السياسية في مكة من أجل الصراع على السلطة ليستعين بهم في حفظ الأمن في الديار المقدسة(١) .

وفي السنة التالية ازداد عدد القوات حيث أرسل الغوري ستمائة مملوك لمساندة القوات المملوكية الأخرى في مكة المكرمة(٢) .

ومما يجدر ذكره أن الفئة المملوكية في أواخر القرن التاسع الهجري ثم فئة الأتراك رعايا الدولة العثمانية في بداية القرن العاشر الهجري استطاعت عن طريق مكانتها المتمايزة التي وصلت إليها عبر القوة والمكانة السياسية أن تلعب دوراً كبيراً في التأثير الإجتماعي لبنية المجتمع المكي، نتيجة لاتساع دائرة علاقتها الإجتماعية التي شملت كل الفئات وقد كان لكل ذلك تأثيره في إنتشار العادات والتقاليد والتأثير المتبادل(٣) .

ولقد تنامت هذه الفئة وأصبحت قوة لايستهان بها والتحق كثير من الأتراك ضمن قوات شريف مكة ومارسوا سطوتهم وسيادتهم تحت مظلة شريف مكة وهيبته وعانى المجتمع المكي من ظلمهم وتعسفهم الشيء الكثير ويشير إلى ذلك جار الله بن فهد ((وفي هذه الجمعة نودي بالزينة... فزينت اسواق

---

(١) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة١٢٢أ.

(٢) العز بن فهد-**المصدر السابق**- ورقة١٣٥ب- الجزيري-**درر الفوائد**- ج١-ص٣٥٣.

(٣) **نيل المنى**- ص١٦-١٨-٤٣-٧١-٩٨-١٢١-١٣٥.

مكة... وعبث أتراك الشريف بالمارة فيها وتجاهروا بالمعاصي وتعدّى الضرر في الشوارع، فلا حول ولا قوة إلا با لله))[1] .

ثم انتهجت الدولة العثمانية سياسة التتريك ومارست ذلك بعملية نزع الوظائف الدينية كالقضاء والخطابة والإشراف على نظارة المسجد الحرام مما نتج عن ذلك أن ازداد وتنامى عدد هذه الفئة المملوكية القادمة من اسطنبول او من المناطق العثمانية بشكل يلفت الإنتباه[2] .

طبقة الاغوات:[3]

اول من رتب العبيد لخدمة الكعبة المشرفة في الاسلام معاوية بن ابي سفيان والظاهر انهم كانوا عبيداً أرقاء لا خصيانا[4] ، ولا نعلم بالضبط متى كان استخدام "الاغوات" في الحرمين الشريفين بمكة والمدينة فلا تمدنا المصادر بتاريخ دقيق عن ذلك اللهم الا بعض الاشارات فيقول مثلاً ((وأول من رتب الأغوات في المسجد الحرام ابو جعفر المنصور)) [5] تقريباً في عام ١٣٥هـ/٧٥٢م.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٦٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص٣٤١-٤٣٢-٤٥٠.

(٣) الآغا: كلمة تركية تعني الاخ الكبير وتطلق على صغار الضباط وأحياناً على كبارهم، وتأتي بمعنى السيد، والآمر، ورئيس الخدم، انظر: محمد احمد دهمان- **معجم الالفاظ التاريخيه**- ص١٨.

(٤) الخصاء وهو الشق على الانثيين وانتزاعهما وقد افتى العلماء بتحريم الاخصاء صغيراً كان او كبيراً لما فيه من المفاسد بتعذيب النفس والتشويه مع ادخال الضرر الذي قد يفضي الى الهلاك وفيه ابطال معنى الرجولية وتغيير خلق ا لله وكفر النعمة لأن خلق الشخص رجلاً من النعم العظيمة فاذا أزال ذلك فقد تشبه بالمرأة واختار النقص مع الكمال- للمزيد انظر: محمد طاهر الكردي- **كتاب التاريخ القديم لمكة وبيت ا لله الكريم**- ج٤-ط٤- مكتبة النهضة- مكة ١٣٨٥هـ- ص٢٣٩.

(٥) ابراهيم رفعت- **مرآة الحرمين**- ج٢ ص٣٢.

وكان لأغوات المسجد الحرام شأن كبير حيث كان تعيين أحدهم شيخاً أو رئيساً عليهم لابد وأن يكون من قبل السلطان وأن يصدر له بذلك مرسوم سلطاني[1] .

ولأغوات المسجد الحرام كثير من الاوقاف المرصودة لهم في بعض البلدان كبغداد والبصرة والشام والمغرب والمدينة المنورة كما أن لهم مرتبات مخصوصة تأتيهم سنوياً من الدولة العثمانية[2] وتأتيهم الزيادة من الاموال والهدايا والصدقات من زعماء وامراء واثرياء العالم الاسلامي[3] ومن مهامهم المحافظة على الهدوء والنظام في المسجد الحرام وفصل الرجال عن النساء في الحصاوى وإخراجهن من المطاف أوقات الصلاة وقبل الآذان وإضاءة القناديل وتنظيف دائرة المطاف وتطهيرها وغسلها بعد نزول المطر والمقامات الاربعة وما يليها وحفظ المسجد الحرام نهاراً وحراسة ابوابه ليلاً والقيام بخدمة الخطيب حال الخطبة على المنبر ولهم لباس خاص يعرفون به[4] ، كما أن لهم نظاماً داخلياً يستقلون به عن سائر الفئات فكل منهم له لقب خاص اصطلحوا عليه فيما بينهم فيحترمون شيخهم ولا يخرجون عن امره مطلقاً.

---

(١) القلقشندي -**صبح الاعشى**- ج٦- ص١٨٧.

(٢) **نيل المنى**- ص٣٧.

(٣) **المصدر السابق** - ص١٤٠.

(٤) اغوات الحرم المكي عادة يلبسون عباءات استنبوليه وأثواب واسعة مطرزة مشدود عليها حزام لونه اخضر غالباً، اما زي شيخهم فهي عباءة لطيفه على ثوب حرير مطرز تطريزاً مكثفاً ومفصل حسب طريقة العاصمة استنبول، وله خنجر مرصع بالجواهر مربوط على وسطه بحزام وطاقيه عاليه على رأسه. انظر: د- احمد عبد الرحيم نصر- **الاغوات**- معهد الدراسات الافريقيه والآسيويه- الخرطوم- ١٩٨٦م-ص١٨/١٩.

وللأغوات رتب كالرتب العسكرية ولكل رتبة عمل معلـوم فكبـير الاغـوات يسمى بشيخ الحرم ثم يليه النقيـب ثـم المستسـلم وهـو المسئول عـن استلام الصدقات وعن جميع ما يتصرف فيه الاغـوات ومصـالح المسـجد الحـرام مـن زيت وشمع وخلافه، والشيخ النقيب، والمستلم هم اكابر الاغوات يليهم بعـد ذلك البطالون -المفرد بطال- وهم اول السلم بالعمل الاغواتي ولا يحـق لهـم الجلوس مع الاكابر في الدكه وانما يجلسون خارجها[1] اذا خلـت وظيفـة مـن الوظائف بالموت او أي سبب آخر فإنها تشغل من الرتبة التي تليها ويتم ذلك حسب الاقدمية[2].

إضافة لذلك فإن من يهدى او يوهـب لخدمـة الحـرم المكـي لا ينضـم لسـلك الاغوات الا بعد ان يرضى الاغوات بدخوله بعد دفع مبلـغ مـن المـال يدفعه الواهب او المنضم نفسه إذا كان صاحب مال.

وأصل اكثر الاغوات من منطقة (ولّو) الواقعـة في شمـال غـرب اثيوبيـا وقليـل منهم من دارفور غرب السودان[3].

ولقد وصفهم الرحالة ابن بطوطه الذي وصل الى مكـة في حجتـه الاولى عـام ٧٢٥هـ/١٣٢٤م فيقول ((وخدّام هذا المسـجد الشـريف وسـدنته فتيـان مـن الأحابيش وسواهم وهم على هيئات حسان وصور نظـاف وملابـس ظـراف

---

(١) نيل المنى- ص٨٥.

(٢) المصدر السابق - ص٨٦.

(٣) المصدر السابق - ص١٦٨.

وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام في هيئة الأمراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام يؤتى اليهم بها كل سنة))[1] .

وأصبح لهم مكانة اجتماعية بخدمتهم المسجد الحرام، والطريف في الأمر أن بعضهم كان يتزوج النساء ولا يمارس معهم الوطء بل كان السبب في ذلك أن تقوم بخدمته والتحدث معه و لم يقدم على الزواج منهم إلا نساء أصابهن الفقر والعوز و لم تجد قوت يومها فقامت بتعذيب وارهاق نفسيتها كإمرأة وهو مخالف لطبيعة البشر ورضيت بهذا. وكان ذلك مثار تعجب ودهشة للمؤرخ جار الله بن فهد فيذكر ذلك ((... في ليلة الثلاثاء خامس عشر الشهر ماتت جانسوار التركية زوجة الأغا صندل بن عبد الله الخصي عتيق السلطان بايزيد بن عثمان، فجهزت ليلتها وصلي عليها بعد صلا الصبح وشيعها القضاة وخلق من الاعيان ودفنت بالمعلاة وهذا شيء عجب))[2] .

ولهم في قوانينهم ما يسمح بمعاقبة المخطيء منهم ضرباً إن أخطأ أو أساء السلوك وإن رأوا فيه ما يشين من خيانة او سرقة نفوه الى أي بلد يريده[3] .

---

(١) ابن بطوطه –**الرحلة**– ص٩٧.

(٢) **نيل المنى** – ص٨٩.

(٣) **المصدر السابق** – ص٨٥.

طبقة (العبيد):[1]

وهم فئة من الناس فقدوا حريتهم لأسباب مختلفة وكانوا يتكونون من أجناس شتى أغلبهم سود وروم وهنود وأحابيش وغيرهم.

الفئة الاولى تضم اتباع امير مكة واعوانه وخواصه الذين يسهرون على راحته وخدمته وحمايته وتنفيذ اوامره ولكل شريف مجموعة من العبيد تكثر او تقل حسب مركزه وثرائه وكان اغلبهم يعملون في المزارع التي يملكها شريف مكه في وادي مر الظهران[2] وكثرت اعدادهم لدى الشريف ابو نمي وذلك عن طريق الاهداءات كما فعل صاحب الحبشه عندما اهدى شريف مكة ابو نمي عبيداً عام ٩٣٩هـ/١٥٣٢م[3] .

---

(١) كانت تجارة الرقيق رائجة في ذلك العصر، وكان امير مكة يأخذ الضرائب على هذه التجارة وباعتبار الرقيق قيمة مالية وضرباً من ضروب الاملاك والشريعة الاسلامية وضعت حداً للرق ومنعت من استرقاق الحر إلا في الصورة التي تفرضها الحرب المشروعه بين المسلمين والكفار قال الرسول صلى الله عليه ﴿ثلاثة انا خصمهم يوم القيامة: رجل اعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعط أجره﴾ والشريعة الاسلامية حددت مصادر الرق بمصدرين: اسرى الحرب من الكفار، ومن استرق بالوراثة أي ولد في الرق ولا تعتبر عبودية الرقيق مؤبدة في الاسلام وانما وفرت الاسباب للقضاء عليها تدريجياً انظر: توفيق عامر- **احكام الرق في التشريع الاسلامي**- مجلة المؤرخ العربي- العدد ٢٧- بغداد ١٩٨١م- ص١٨-٦٠.

(٢) مر الظهران، من نواحي مكة المكرمة، عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران وادياً واحداً، وهو اكبر أودية مكة، تجري فيه المياه وفيه مزارع نخيل، يبعد عن مكة مسيرة يوم. انظر: ياقوت الحموي-**معجم البلدان**- ج١- ص٤٤٩.

(٣) **نيل المنى** – ص٣٠٨.

وأصبح كثير من هؤلاء العبيد عبئاً على المجتمع المكي حيث اصبحوا يقومون بعمليات السرقة والنهب والسطو على كثير من البيوت وكثرت جرائمهم خاصة في ايام موسم الحج على الرغم من العقوبات الصارمة التي انزلتها بهم السلطات في مكة المكرمة كما يذكر ذلك جار الله بن فهد ((في ليلة السبت ثاني عشر - عام ٩٣٩هـ مسك أمير الحاج المصري بعض العبيد الحراميه وظن أنهم عبيد الشريف صاحب مكة وأرسلهم اليه للادلاء عليه فقال له الشريف ليس هم من عبيدي وافعل فيهم ما شئت ثم انه ارسل بهم مع جماعته الى تحت جمرة العقبة وأمر بجزر رقبتهم هناك على اعواد))[١] .

وكان العبيد يكونون طبقة كبيرة من طبقات المجتمع المكي في القرن العاشر الهجري لأن الحجاز كانت تعد من أكبر أسواق الرقيق آنذاك ولم ينظر أشراف مكة الى العبيد نظرة امتهان وإزدراء بدليل أن بعضهم كانت أمهاتهم من الرقيق الجواري ومنهم الشريف حازم ابن شريف مكة بركات[٢] رقى بعضهم الى مناصب قيادية في حكم الاشراف ويؤكد ذلك تولي عتيق الشريف بركات امير الحجاز المسمى جوهر العراقي حكم جدة والمتصرف فيها[٣] .

---

(١) **نيل المنى** - ص٣١٠.

(٢) **المصدر السابق** - ص٤.

(٣) **المصدر السابق** -ص٢٢.

طبقة الاماء والجواري[1]:

الإماء والجواري اللاتي كن يجلبن الى اسواق الحجاز من اسواق النخاسة[2] من مختلف الأنحاء فكان منهن الحبشيات والروميات والشركسيات او العربيات المولودات في المدينة المنورة والطائف وشمال الجزيرة العربية ومصر. وكان امير مكة الشريف ابو نمي والاشراف الخاصة المقربين اليه ويشاركهم الاغنياء والتجار يتنافسون على شراء الجواري الحسان للتسرى بهن او القيام بخدمتهم وإدخال السرور عليهم واصبح كثير من بيوت الاسر الغنية في مكة تضم اكثر من عشر جواري وكما اشرنا سابقاً الى ان ملك الحبشة اهدى مع العبيد جارية فائقة الحسن مع طواشية[3] لها الى الشريف ابو نمي[4] .

---

(١) كانت هناك مصادر غزيرة للحصول على السراري والجواري فمنها على سبيل المثال سبايا الحرب من نساء الفرنجة التي تشنها دولة سلاطين المماليك ضد الصليبيين في الشام او قبرص وتمدنا المصادر انه عندما استولى السلطان المملوكي برسباي سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٥م على جزيرة قبرص عاد ومعه الاسرى من الرجال والنساء وكانوا اكثر من الف انسان، ومن مصادر الرق بلاد الارمن وكانت الحملات المملوكية تعود الى مصر من بلادهم ومعها الكثير من الاسرى رجالاً ونساء، كما قام التجار المصريون بجلب الرقيق الاسود من بلاد التكرور وكان كثير من الناس يستحسن الجارية السوداء من الحبش والسود لحسن خدمتهن واخلاصهن في الخدمة. انظر: حسن ابراهيم سعد- **تاريخ الاسلام**- ج٢- الطبعة الاولى- النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٦٧م- ص٤١٨.

(٢) أسواق النخاسة البيضاء هي اشهر الاسواق التي كانت تقام في اغلب مدن المراكز الاسلامية كبغداد والقاهرة ومكة وكان يباع فيها الرقيق وكانت هذه الاسواق تعج بالحركه ويقصدها جميع الفئات في المجتمع الاسلامي وكان اغلب الرقيق من الصقالبه والاتراك واقاليم ما وراء النهر، واعتبرت سمرقند ونيسابوروا ذربيجان من اشهر اسواق الرقيق بل اصبحت مركزاً هاماً لتجارة الرقيق وتصديره. انظر: الثعالبي، ابو منصور عبد الملك- **يتيمة الدهر**- ج٤- القاهره- دار المعارف- ١٩٣٩هـ-ص١٨٤.

(٣) طواشيه: جمع طواشي وهم المماليك الخضيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه. انظر: محمد احمد دهمان - **معجم الألفاظ التاريخية**- ص١٠٩.

(٤) **نيل المنى** - ص٣٠٨.

وكانت هناك مصادر كثيرة لجلب الجواري والسراري جاء أغلبهم عن طريق الاسر في الحروب أو يساقون الى اسواق النخاسه من بلاد الروم وافريقيا وبلاد الحبشة خاصة وتصديرهن الى الحجاز كما ان هناك عدة عوامل تحكمت في اسعارهن منها حالة العرض والطلب وجنسية الجارية وسنها وحالتها الصحية والغرض الذي تستخدم من اجله فأعلاهن قيمة هن الجواري المغنيات (الجنكيات) اما الجواري اللاتي كن يستخدمن في الخدمة المنزلية فكن يختلفن في اسعارهن بسبب مهارتهن في اداء بعض الاعمال المنزلية فيروي جار الله بن فهد أنه في بعض حفلات الزواج كان يتم الاستعانة ببعض الجواري من المشهورات في الخدمة في القصور واستعارتهن لعمل اسمطة الحفلات في طهو الأطعمة وفن تقديمها[١].

ومن الملاحظ أن بعض اشراف مكة قد تزوجوا ببعض الجواري فارتفعن بهذا الزواج الى منزلة عالية ومكانة مرموقة وتزداد مكانة الجارية علواً وشرفاً عندما تنجب منه مولوداً كما حدث مع شريف مكة السيد بركات عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م عندما ولد له ولد ذكر من جاريته التركية وسماه حازم، وبذلك ازداد تعلق الشريف بها وجعل لها مكاناً في فؤاده وشغف بها حباً[٢].

ولم يقتصر الامر على الاشراف من الزواج بالجواري بل تعداه الى طبقات المجتمع بجميع فئاته خاصة القضاة والفقهاء ويتحقق هذا الزواج عندما ينجبن

---

(١) نيل المنى – ص١٤٧ – ٤٠٠.

(٢) المصدر السابق – ص٤.

من اسيادهن ابناء لهم وبذلك ترتفع مكانتها ومنزلتها وتخرج من دائرة العبيد الى دائرة الاحرار[١] .

وقد أحدث هذا التنوع في اصول افراد المجتمع المكي عدة نتائج فامتزاج هذه الأجناس بعضها ببعض بالزواج والمصاهرة والمعاشرة والاختلاط جعل اكثر اهل مكة خليطاً في خلقتهم وخُلقهم وأصبح المجتمع السكاني بمكة يكتظ بمجموعات متباينة من الأمم المختلفة ولكن يجمع بين كل هؤلاء رباط ديني واحد هو الاسلام.

بالاضافة الى ذلك فإن الإختلاط ادى الى ركاكة لغة المكيين بعد أن كانت لغة قريش بمكة هي الحجة والاساس في اخذ العربية لأنهم أفصح العرب ومنهم افضل من نطق بالعربية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم[٢]، فدخلت في كلام المكيين الفاظ تركية وهندية وفارسية وكثر فيهم الجهل باللغة الفصحى فهم يلحنون ولايدرون اذ أنه كادت تتكون من خليط هذه اللغات لغة جديدة لاتمت الى العربية الا بصلة طفيفة[٣].

وقد لاحظ هذا الذوبان الاجتماعي الرحالة الشهير البتنوني قبل هذه الفترة الزمنية بوقت طويل فعلق على ذلك بنوع من الطرافة مشيراً بقوله ((فتراهم قد جمعوا الى طبائعهم وداعة الأناضولي وغلظة التركي واستكانة الجاوي وكبرياء الفارسي ولين المصري وصعوبة الشركسي وسكون الصيني وحدة

(١) **نيل المنى** – ص-١٨١- ٢٨٢- ٣٣٠.

(٢) انا اعربكم انا قرشي وارضعت في بني سعد- **سنن الترمذي**- ج٣- ص١٣٦.

(٣) التبنوني-**الرحلة الحجازية**- ص٤٩.

المغربي وبساطة الهندي ومكر اليمني وحركة السوري وكسل الزنجي، بل تراهم جمعوا بين رقة الحضارة وقساوة البداوة.. فبينما تراك قد آنسك الرجل رقة حديثه معك وضعته بين يديك، تراه قد استوحش منك وأغلظ في كلامه حتى كأن طبيعة البداءة تغلبت فيه على طبيعة الحضارة فلم يطق ما تكلفه في حضرتك))[1] .

بذلك انقسم المجتمع المكي الى هذه الطبقات المتعددة والمتباينة غير أن علاقاتها بعضها مع بعض شكلت نماذج متماسكة للحياة العامة، فقد قامت بينها وحدة متماسكة قوية على أساس الإسلام الداعي إلى دين الوحدة والتعارف والألفة.

---

(١) التبنوني- **الرحلة الحجازية**- ص٥٣.

المرأة الحجازية في القرن العاشر الهجري:

أعطى الإسلام للمرأة مكانة في المجتمع وتكفل بصيانتها واكرامها ومنحها العزة في بيئتها وان اكرام الاسلام للمرأة هو نوع من حمايته للمجتمع لأنها نصفه الآخر وان الصورة النموذجية الرائعة التي وضعها الإسلام للمرأة تعتبر المثل الاسمى والاكمل لها التي لم تبلغها الى اليوم اعتماداً على الاسس القويمة والسليمة التي بنيت عليها، وقد طبق الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام هذا النموذج على تكريمه للمرأة في المجتمع المدني عامة وعلى اسرته بصفة خاصة ومدى العلاقة المثالية التي كانت بينه وبين ازواجه امهات المؤمنين في حب متبادل وعناية دائمة ورعاية متواصلة مما جعل الرسول عليه السلام قدوة للمسلمين واسوة حسنة لهم في كل شيء وعلى مدى الزمان.

المرأة المكية المسلمة بحكم تكليفها كالرجل، وهي صاحبة رسالة في الحياة، ولذا وجب أن تكون اجتماعية فعّالة مؤثرة، ما أسعفتها ظروف حياتها وأسرتها وإمكاناتها بذلك، تخالط النساء على قدر استطاعتها، وتعاملهن بخلق الاسلام الرفيع الذي يميزها عن غيرها من النساء.

وحيثما وجدت المرأة المتعلمة الواعية كانت منار اشعاع، ومشكاة هداية، ومصدر توجيه، وعامل بناء وتسديد وتوعية، بأقوالها وأفعالها على السواء[1].

---

(١) معروف الدواليبي-**المرأة في الاسلام**- دار النفائس- بيروت- ١٤٠٩هـ- ص٥٦.

ذلك أن المرأة في المجتمع المكي التي استنارت بهدي القرآن الكريم، وارتوت من منهل السنة النبوية المطهرة، شخصية اجتماعية راقية من الطراز الأول، مؤهلة لتقوم بواجبها الدعوي في المجتمعات النسائية، مفتحة العيون والأذهان والبصائر على هدي هذا الدين العظيم الذي سما بالمرأة في وقت مبكر جداً من تاريخ المرأة في العالم، وزودها بمجموعة كبيرة جداً من مكارم الأخلاق، نطقت بها نصوص هذا الدين الحنيف من قرآن كريم وحديث شريف، وجعل التخلق بها ديناً، يثاب المرء عليه، ويحاسب على تركه، فاستطاعت هذه النصوص أن تجعل من شخصية المرأة الصادقة مع ربها نموذجاً فذّاً للمرأة الاجتماعية الراقية المهذبة التقية العفيفة الخيرة الحصان[1].

إن المرأة الحجازية الواعية أحكام دينها الحق مجسدة قيم دينها وشمائله الحسان، بتطبيقها العملي لهذه القيم وتحليها بتلك الشمائل فقوام شخصيتها الاجتماعية المتميزة رصيد ضخم من تلك القيم الاسلامية في سلوكها الاجتماعي ومعاملتها للناس فمن هذا النبع الثر الكبير تمتاح المرأة المكية أعرافها وعاداتها وسلوكياتها ومعاملاتها، ومن هذا المعين الصافي والمورد العذب، تنهل لتزكية نفسها وتكوين شخصيتها الاجتماعية المسلمة[2].ولقد ضربت امهات المؤمنين ونساء السلف المثل الأعلى في احتلال موقع مميز ومكانة مرموقة بعلمهن

---

(١) عائشة عبد الرحمن-**تراجم سيدات بيت النبوة**- دار الكتاب العربي- بيروت- بدون تاريخ- ص٨٦.

(٢) مصطفى السباعي-**المرأة بين الفقه والقانون**- المكتب الإسلامي- القاهرة- ١٤٠٤هـ- ص٣٧.

والتعمق في مجـال الحديـث وآدابهـن خاصـة في مجـال الشـعر ونقـده وسـجل التاريخ لهن ذلك بأحرف من نور[١] .

لقد أراد الاسلام أن تكون المرأة عنصر بناء وخير وعون في مجتمعهـا، يفيـض خيرها دوماً على المجتمع حسب قدراتها وامكاناتها[٢] .

بذلك حقق الاسلام مشاركة أفراد المجتمع جميعاً في فعل الخـير، وبنـاء المجتمـع وتنميته وتطويـره وتحسينه، وأدخـل علـى قلوبهـم جميعـاً الراحـة والطمأنينـة والبهجـة والسـرور بهـذه المشـاركة الـتي تشـعر الانسـان بإنسـانيته، وتحفـظ كرامته، وتضعه أمام مسؤوليته في هذه الحياة، وتحقق مثوبته[٣] .

لقد تجسدت في الصفحة السابقة شخصية المرأة المكيـة المسـلمة كمـا أراد لهـا الاسلام أن تكون، طبقاً لتوجيهاته لها في شتى جوانب الحياة، محققـة التـوازن المحكم الدقيق في شخصيتها، بحيث لايطغى جانب منها على جـانب، وراسمـة السلوك الأمثل في التعامل مع الوالديـن والأقربـين والـزوج والأولاد والجـيران والأخوات والصديقات، وغيرهن ممن تلقاهن في المجتمع الذي تعيش فيه.

ويتضح لنا أن المرأة المكية ليست مجرد قعيدة بيت، وحاضنة أطفـال، ومدبـرة منزل فحسب، وانما هـي، بالاضافـة الى هـذا كلـه، مربيـة أجيـال، وصانعـة أبطال، ورائدة دعوة، وعنصر وعي ونهضة وبناء في شتى شؤون الحياة، تقف

---

(١) **نيل المنى**- ص١٠٩-١٣٨-١٥٧-٢١١-٢٢٤.

(٢) عائشة عبد الرحمن-**تراجم سيدات بيت النبوة**- ص١٠٩.

(٣) **نيل المنى**- ص٩٨-٢٠٠-٢٤٣-٣١١.

الى جانب الرجل في إعمار المجتمع، وإثراء الحياة، واسعاد الوجــود، وترطيـب جفاف العيش.

وبدا جلياً لاغبش فيه أن المرأة المكية التي استنارت بهـدي دينهـا امـرأة راقيـة مهذبة واعية نابهة منتجة بناءة طاهرة سامية، تعرف عن وعي وبصيرة وادراك واجباتها نحو ربها، ونحو نفسها، ونحو مجتمعها كله، بكل ما يضطرب فيه من أناس وأحداث ومعاملات.

ولعمري انها النموذج الأرقى لأي امرأة عرفتها المجتمعات البشــرية اذ جمعـت الى مكارم الأخلاق رجاحة العقل ونقاء النفس وسموّ الروح، وسلامة التصور للمجتمع والحياة والانسان وعمق الوعي لرسالتها الخطيرة في الحياة.

وبعد مضي عدة قرون تمتعت المرأة العربية بقسط كبير من الحرية فقد كـانت النسـاء يتدخلـن في ادارة شئون الدولـة كـالخيزران[1] زوج الخليفـة العباسـي المهدي عام ١٤٨هـ/٧٦٥م وزبيده[2] زوج الخليفة العباســي هـارون الرشـيد عام ١٦٦هـ/٧٨٢م.

---

(١) الخيزران: زوجة المهدي العباسي وام بنيه الهادي وهارون الرشيد، كانت حازمـة متفقهـة، يمانيـة الأصـل انفقت اموالاً كثيرة في الصدقات وابواب البر، توفيت ببغداد عام ١٧٣هـ/١٦٣م ترجم لها: الطبري- **تاريخ الأمم**- ج١٠- ص٥٢- ابن كثير، اسماعيل بن عمـر- **البدايـة والنهايـة**- ج١٠- تحقيـق احمـد ابـو ملحـم- بيروت- دار الكتب العلمية- ١٤٠٥هـ-ص١٦٣.

(٢) زبيده: بنت جعفر بن المنصور، زوجة هارون الرشيد وبنت عمـه مـن افضـل النسـاء واشـهرهن وهـي ام الأمين العباسي اسمها أمة العزيز وغلب عليها لقبها وإليها تنسب عين زبيده في مكة جلبت اليها الماء من اقصى وادي نعمان لها آثار جريـرة علـى طـرق الحـاج حيـث اقامـات البـرك والآبـار والمرافـق، توفيـت ببغـداد عـام ٢٦٦هـ/٨٣١م ترجـم لهـا: ابـن خلكـان- **وفيـات الأعيـان**- ج١- ص١٨٨- ابـن تغـري بـردي- **النجـوم الزاهرة**- ج٢- ص٢١٣.

وكما شاركت المرأة الرجل في الحروب ضد الاعداء حيث كانت الفتيات العربيات يذهبن الى القتال على صهوات الجياد، وكما كانت النساء تناظر الرجال في نواحي الثقافة والفكر ويشتركن في نظم القصائد[1].

وكانت المرأة تختلط بالرجال في افراح الزواج والمناسبات ويشير المؤرخ جار الله بن فهد في كتابه نيل المنى عندما يتحدث عن زواج شقيق شريف مكة السيد ابو نمي الشريف ثقبه قائلاً: ((...وامير الحاج الشامي من المعلاة صحبة العريس السيد ابي نمي القاسم وهو راكب فرسه والنساء حوله يروحن عليه بالمراوح كعادة العرسان))[2] .

ويؤكد ذلك المؤرخ المكي العز بن فهد في إحدى مناسبات الزواج لآل ظهيرة ((... أما زفة الغمرة فكانت ليلة الخميس ثاني شهر ربيع الثاني وكان بها جمع من الفقهاء والغرباء ... وكانت النساء كثيرات خلف العريس على العادة وكانت الزفة من الصفا وشق بها السوق إلى بيت العروسة وكان في النهار)) [3] .

كما تدخلن في الشفاعة للمغضوب عليهم من الاشراف او من المجتمع المكي او من الاعراب وفي الغالب لم يكن الشريف يرفض لهن رجاء وطلبا ما لم يتعلق بأمور تمس كيان سلطته او كرامته من ذلك ما رواه جار الله بن فهد في الاتفاق بين الشريف بركات وصاحب حلي في الصلح بينهم وبين عرب

---

(١) حسن ابراهيم حسن-**تاريخ الاسلام**- ج٣-ص٦٤١.

(٢) **نيل المنى** – ص٣٥٢.

(٣) العز بن فهد -**بلوغ القرى**- ورقة ١٤٥.

الغرب وذلك عن طريق زوجته الشريفة ام الكامل واختيها ام السعود وبيدح ابنتا السيد عجل[1] .

وكما اشرنا سابقاً ان هناك نساء في مكة اشتهرن بالعلوم الدينية وكان لهم نصيب في تنشيط الحركة العلمية وذلك لما تمتعن به من قدر كبير من العلم ومن هؤلاء النساء خديجة ابنة عبد الرحمن بن فهد الذي اجاز له ابن التقي حاتم وسمعت الكثير من الاحاديث عن الشيخ الجزوري وحدثت بمكة واخذ عنها الشيخ شمس الدين السخاوي[2] ، وكذلك الكمالية ابنة محمد المكية التي كانت تتنقل بين مكة والقاهرة ودمشق في نهاية القرن التاسع لطلب العلم[3] وغيرهن كثر بذلك يتضح أن كثيراً من العلماء منحوا الاجازة لبعض النساء وكذلك كثير من العلماء اخذوا العلم من افواه النساء[4] .

ومن مظاهر اعتزاز شريف مكة السيد ابو نمي بالمرأة وبيان مقدار مكانتها أنه اذا سمع بمرض احدى زوجاته فإنه يعودها مراراً واذا وجد ان حالتها الصحية او النفسية تستدعي التسرية والترفيه عنها فإنه يسمح لها بالذهاب الى جدة او المدينة والنزهة في بساتينه ومزارعه في وادي مر الظهران حتى تتمتع بالرحلة ويزول عنها الوهم ثم تعود الى مكة، ويتضح ذلك عند عودة زوجته الاولى

---

(١) **نيل المنى** – ص٦٦.

(٢) السخاوي –**الضوء اللامع**– ج١٢– ص١٢١.

(٣) **المصدر السابق** –ص١٢١.

(٤) **نيل المنى**– ص١٨–٤٦–٧٨–٩٦–١١٦.

شريفة وهي من اشراف بني حسين ام ولـده ابو نمي وفي آخر النهار تصل زوجته الثانية الشريفة ام الكامل ابنه عجل قادمين من جدة[1] .

ويبدو انها بمرور الوقت فقدت الكثير من الحرية التي تمتعت بها في العصرين الأموي والعباسي وبذلك مارست المرأة نوعاً من الحرية الضيقة في التنقل والاختلاط والاخذ عن العلماء و لم يقتصر الامر على ذلك بل كان لها دور في الشؤون السياسية والتدخل في ميدانها.

ولاريب أن الوصول بالمرأة الى هذا المستوى الراقي من التكوين الخلقي والروحي والنفسي والفكري، نعمة انسانية كبرى لا تعدلها نعمة من النعم الكثيرة التي يتقلب في اعطافها البشر وانجاز حضاري اكبر من كل انجاز توصلت اليه الانسانية في عمرها الطويل ذلك ان بلوغ المرأة ذلك المستوى العالي من التكوين يعني نمو انسانيتها ونضج شخصيتها وأهليتها الكاملة لأداء رسالتها الكبرى في الحياة.

(١) نيل المنى – ص٣٦.

الـــــزواج:

الزواج في الاسلام عقد مبارك يتم به الارتباط بين الرجل والمرأة، يحل به كـل منهما للآخر، وتترتب عليه حقوق وواجبات لكل منهما على الآخر ويبـدآن به رحلة الحياة الطويلة، متحـابين متعـاونين متـآلفين متسـامحين، يسـكن كـل منهما الى الآخر، فيجد في صحبته السكينة والانس والأمن والطمأنينـة ولـذة العيش. وقد صوّر القرآن الكريم هـذه العلاقـة الشـرعية السـامية بـين الرجـل والمرأة تصويراً رائقاً شـفيفاً، يشـيع فيـه نـدى المحبـة والالفـة والثقـة والتفـاهم والرحمة، ويفوح منه عبير الود والسـعادة والبهجـة والنعيـم: ﴿ومـن آياتـه أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[1].

انها الصلة الربانية في أوثق وشائجها، يعقدها رب العزة سـبحانه بـين نفسـي الزوجين المسلمين، فإذا هما يلتقيان على الحب والتفاهم والتعاون والتنـاصح، فيؤسسان الأسرة المسلمة التي تدرج فيهـا الطفولـة، وتتفتّـح أكمـام العقـول، وتصاغ النفوس على هدى من مكارم الأخلاق التي جاء بها الاسلام الحنيف، فإذا الأسرة المسلمة لبنـة صُلبـة في بنـاء المجتمـع المسـلم الراشـد، واذا أفرادهـا أعضاء منتجون بنّاءون، متعاونون على البر والتقوى، متسابقون متنافسون في الصالحات من الأعمال[2] .

---

(١) سورة الروم- آية ٢١.

(٢) عائشة عبد الرحمن- **مرجع سبق ذكره**- ص١١١.

والمرأة الصالحة عماد الأسرة المسلمة، وركنها الركين، وأساسها المتين، وهي متعة الحياة الاولى في حياة الرجل، بل هي خير متاع له في الحياة، كما قال الرسول الكريم: ﴿الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة﴾[1] .

كان ولي امر الفتى يتقدم لخطبة الفتاة التي يقع عليها الاختيار من ابيها أو ولي امرها وبعد الموافقة تجرى حفلات الزواج التي كانت في صدر الاسلام غاية في البساطة، يدل على ذلك زواج السيدة فاطمة الزهراء، كما كان المجتمع المكي خاصة طبقة الأعيان في حفلات الزواج ويسرفون في ذلك اسرافاً شديداً ويبالغون في الانفاق وفي تقديم الهدايا.

ولقد كان زواج بنت الرسول صلى الله عليه وسلم فاطمة رضي الله عنها من علي ابي طالب "رضي الله عنه" نبراساً لنا وهو أفضل الخلق فقد كان صداقها خمسمائة درهم وكان التجهيز بسيطاً اذ كان سريراً مشروطاً ووسادة من ادم حشوها ليف وتوراً من ادم وقربة ومنخلاً ومنشفه وقدحاً[2] وتطورت حفلات الزواج بعد ذلك وأصبحت تكلف الملايين خصوصاً زواج الخلفاء والسلاطين يدل على ذلك زواج قطر الندى[3] بنت

(١) صحيح مسلم كتاب الرضاع: باب استحباب نكاح البكر- ج ١٠-ص٥٦ - مسند الامام احمد- ج٢- ص١٦٨.

(٢) حسن ابراهيم -**تاريخ الاسلام**- ج١- ص٥٤٨.

(٣) قطر الندى ابنه خماوريه وكانت ربيبة بيت عز ونعيم واستطاع خماورية أن يبذل الاموال الضخمة بذل من لايخشى فقراً ولا يهاب عوزا من تجهيزها وإرسالها الى بغداد ومن مظاهر البذخ أنه أمر بأن يبنى لابنته على رأس كل مرحلة قصراً أشبه بالمنزل وبلغ صداقها مليون درهم وأقيمت الحفلات فترة من الزمن ودعيت النساء إليه من علية القوم واحضرت القيان والمغنيات. انظر: إبن خلكان- **وفيات الأعيان**- ج١- ص١٧٤- المقريزي-**الخطط**- ج١- ص٣١٩- إبن دقماق، ابراهيم محمد ايدمر-**الانتصار لواسطة عقد الامصار**- ج٤-تحقيق لجنة إحياء التراث- بيروت- دار الآفاق- ص٦٧.

حمارويه[1] من الخليفه المعتضد بالله[2] وزواج بوران[3] بنت الحسن بن سهل[4] من الخليفه المأمون وزواج زبيده من هارون الرشيد وغير ذلك

---

(١) حمارويه بن احمد بن طولون ابو الجيش ولد عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م بسامراء من ملوك الدولة الطولونيه وليها بعد وفاة والده عام ٢٧٠هـ وله من العمر عشرون عاماً تفنن في انشاء الدور والقصور والبساتين ولم يكن حازماً بل غرق في الانغماس باللذات قتل وهو في ريعان شبابه- على يد غلمانه وهو في فراشه في دمشق وحمل جثمانه الى مصر عام ٢٨٢هـ- ٨٩٦م. انظر ترجمته في ابن خلكان -**وفيات الأعيان**- ج١- ص١٧٤- إبن تغري بردي-**النجوم الزاهرة**- ج٣-ص١- إبن إياس-**بدائع الزهور**- ج١- ص٣٧.

(٢) المعتضد با لله احمد بن طلحه بن جعفر ابو العباسي ولد في ذي القعدة عام ٢٤٢هـ/ ١٨٥٧م وبويع له بالخلافه سنة ٢٧٩هـ وكان من اشجع خلفاء بني العباس حيث اظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والاعراب وجددت في عهده الدولة وأصلح امرها اتصف بالحلم والادب استمر خليفة قرابة العشر سنوات توفي في بغداد وهو في اوج قوته عام ٢٨٩هـ/٩٠٢م. ترجم له. إبن تغري بردي-**النجوم الزاهرة**- ج٣- ص١٢٨- إبن العماد -**شذرات الذهب**- ج٢- ص١٩٩.- ابن الخطيب-**تاريخ بغداد**- ج٤- ص٤٠٣- ابن الاثير-**الكامل**- ج٧- ص١٤٧- ١٦٩.

(٣) بوران بنت الحسن بن سهل كانت من اجمل الناس خِلقة وخُلقا اتصفت بالمهارة في فن الادب والشعر والعلوم النقلية اقترن بها الخليفة العباسي المامون وامهرها ١٠٠ الف دينار و ٥٠ الف درهم واسرف والدها اسرافاً باهظاً تجاوز (مليون جنيه) واستمر حفل زفافها سبعة عشر يوماً وقام ابوها بخلع القواد وكتب رقاعاً فيها اسماء ضياع له ونثرها على القواد ونثر صينية ملئت جواهراً بين يدي المأمون عندما زفت اليه وعمل فيه الولائم والافراح لم يعهد مثله في عصر من العصور. انظر ترجمتها: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن- **تاريخ الخلفاء**- تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد- ط٤- القاهرة-١٣٨٦هـ- ص٣٣٤.

(٤) الحسن بن سهل بن عبد الله السرخي ولد عام ١٦٦هـ/ ٧٨٢م ببغداد نشأ وتربى في بيئة علمية اشتهر بالذكاء المفرط والادب والفصاحة اتصف بالكرم والجود ترقى في عدة مناصب قيادية وادارية حتى اصبح وزيراً للخليفة العباسي المأمون لمكانته لديه اصيب بمرض السويداء فتغير عقله حتى شد في الحديد وعولج ثم شفي منه توفي في مدينة سرخس بخراسان عام ٢٣٦هـ/٨٥١م. ترجم له: ابن الخطيب-**تاريخ بغداد**- ج٧- ص٣١٩-٧٣- ابن خلكان- **وفيات الاعيان**- ج١- ص١٤١- الذهبي، محمد بن احمد بن عثمان-**سير اعلام النبلاء**- ج١١- تحقيق شعيب الارناووط- بيروت- مؤسسة الرسالة- ١٩٨٠م- ص١٧١.

كما كان ينفق على حفلات الزواج الاموال الطائلة حتى ليقال ان زواج قطر الندى السالف الذكر افقر الدولة الطولونية.

اما في مكة المكرمة فقد بقيت حفلات الزواج بسيطة في العهود السابقة ثم اصبحت في القرن العاشر تتفاوت في مظاهر الإنفاق وتتراوح بين الاسراف والتدبير بين مد وجزر ويرسم لنا جار الله بن فهد مؤرخ مكة صوراً دقيقة في ثنايا كتابه عن مناسبات الزواج وما يتم فيها حيث يذكر لنا أن اغلب عقود الزواج كانت تتم في المسجد الحرام ويشير الى ذلك في قوله ((... في لية الاربعاء عُمل العقد في المسجد الحرام امام الرواق الشامي بالقرب من مقام الحنفية واسرجت الثريات وشمع المسجد الحرام وحضره القضاة الأربعة والفقهاء والتجار وخلق من العوام))[1] .

ويتضح من هذا النص ان المجتمع المكي كان يتفاءل بعقد القران في بيت الله الحرام وانه سيكون اقتراناً مباركاً فيه الخير لكلا الزوجين وأن الاستقرار والوئام سيخيم عليهما في حياتهما الزوجية.

ونلاحظ ان هناك كثيراً من مظاهر الترف والاسراف والتفنن في المباهاة أثناء كتابة العقد الذي -كان غالباً من اختصاص القضاة لأنهم هم المباشرون لذلك وتجلو لنا المراسيم والتقاليد المتبعة في حفلات المناسبات صورة تنبض بالحياة عن البذخ والترف والأبهة في حفلات الزواج من حيث اضاءة الشموع التي تصل في بعض الاحيان على درجة التعجب.

---

(١) **نيل المنى** – ص١٨.

و لم يمدنا المؤرخ جار الله بن فهد بصورة واضحة عن الحفلات الشعبية للزواج وغيره ولكن هذا يفهم ضمناً مما نقله من صور الحفلات لطبقة الوجهاء والأعيان وأشراف مكة لأن ما يفعله العلية والسادة تحتذيه الطبقات الأخرى في صور متفاوتة على حسب اقدارهم ومنازلهم وما زال الناس في كل عصر يقلدون الرؤساء وكبار الناس وينسجون على منوالهم في مظاهر حياتهم وكما قيل الناس على دين ملوكهم[١].

فيذكر جار الله بن فهد ذلك قائلاً ((... فيها مفرعات وشموع كثيرة منها ثنتان كبيرتان تُجرّان على عجل كل واحد طول انسان))[٢]. أو ((فاوقد فيه ثريات كثيرة نحو مائتي فتيلة))[٣].

وبعد الانتهاء من مراسيم الخطبة التي كانت تتم في المسجد الحرام او خارج ذلك تستمر العادة المكية لدى المجتمع في ان يشرب الحاضرون سكراً مذاباً ثم توقد قدامهم بخوراً بالعود والعنبر والماورد ويتطيبوا ثم يتبع ذلك انشاد القصائد والاشعار ثم الختم[٤]، ثم ينصرفون بعد السلام على الزوج وأقاربه مباركين له في زواجه[٥] مظهرين الابتهاج والسرور في هذه الليلة السعيدة.

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٢-٣١-٤٥-٩٧-١١١.

(٢) **المصدر السابق**- ص٢٢.

(٣) **المصدر السابق**- ص٢٠.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٢.

(٥) **المصدر السابق**- ص١٤٥.

المهر أو الصداق:

اسم للمال الذي تستحقه الزوجة على زوجها بالعقد عليها أو بالدخول بها دخولاً حقيقياً وهو تعبير عن مكانة عقد الحياة الزوجية ورمز لاعزاز المرأة ورفعة قدرها وإيماء الى رغبة الرجل فيها وصدقة في البناء بها عن طيب نفس قال تعالى ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نحلة﴾[1] .

وكان وجوب المهر على الرجل دون المرأة -وان كانت مصالح الزواج مشتركة بينهما- لأن طبيعة الرجل تؤهله للسعي في طلب الرزق وكسب المال وتلبية حاجات المعيشة فكان عليه التكاليف المالية التي تقتضيها الحياة الزوجية كلها دون المرأة ومن ذلك المهر وهذا يشعر المرأة بأنها موضع بره ورعايته حين تدخل في طاعته وتخضع لرئاسته[2].

وقد ارشد الإسلام الى عدم المغالاة في المهور، وان كان لم يرد من الشارع ما يدل على تحديده بحد أعلى فقال صلى الله عليه وسلم "أعظم النساء بركة أيسرهن مؤونة" [3] وقال "خير الصداق أيسره"[4] فإن المغالاة في المهور وتكاليف الزواج تقف حائلاً امام رغبة الشباب في الزواج وتصدهم عنه وهذا يؤدي الى كثير من المفاسد الخلقية والكوارث الاجتماعية، ولذا ذهب اكثر الفقهاء الى انه لاحد لأقل المهر- فكل ماله قيمة ويطلق عليه اسم المال

(١) سورة النساء- الآية ٤.

(٢) معروف الدواليبي- **المرأة في الاسلام**- ص٩٨.

(٣) احمد بن حنبل- **المسند**- ج٦- ص٨٢- ١٤٥.

(٤) ابو داود، سليمان بن الاشعث- **سنن ابي داود - كتاب النكاح**- راجعه محمد محي الدين عبد الحميد- القاهرة- المكتبة التجارية- د.ت- ص٣١.

يصح أن يكون مهراً، قليلاً كان أو كثيراً[1] فقد قال صلى ا لله عليه وسلم لمن أراد أن يتزوج ((التمس ولو خاتماً من حديد))[2] .وكانت قيمة المهر تختلف على حسب الطبقات في المجتمع المكي وكيفية دفعه فعند الطبقات الفقيرة يتضاءل المهر الذي لم يتعد حدود العشرين ديناراً نظراً لوضعهن الاجتماعي وفي الطبقات المتوسطة اعلى من ذلك ويرتفع بالتدريج من فئة الى فئة وعلى اتفاق الطرفين وفي بعض العوائل قيمة المهر لديهم ثابتة كعائلة بني ظهيرة للبكر حيث تم اتفاقهم ان يكون مائتي مثقال[3] وهذا ما حدث مع مؤرخنا جار ا لله بن فهد عن حديثه عن مناسبة زواجه قائلاً ((... عقدت بالمرأة المحجبة ذات الحجاب المنيع والستر الرفيع السيدة زينب ابنة سيدنا العلامة قاضي المسلمين نور الدين ابي الحسن المرشدي المكي الانصاري الحنفي، وكان العقد في منزله بالسويقه، حضره شقيقه قاضي القضاة شيخ الاسلام نسيم الدين عبد الغني واخوانه واقاربه، وعقد لي على مائتي مثقال ووعدت فترك الى مائة ثم دخلت بها بعد ان شربنا سكراً مذاباً))[4] .

وفي الغالب المتوسط يكون المهر خمسين مثقالاً ومن ملاحظة النص يتضح لنا أن هناك من يعقد له بمبلغ كبير امام الناس وفي السر يسترد جزء كبير من قيمة المهر.

---

(١) هذا مذهب الشافعية والحنابله، وقال المالكية: أقله ربع دينار من الذهب او ثلاثة دراهم من الفضة، او ما قيمة ذلك، وقال الحنفية: اقل المهر عشرة دراهم او ما يساويها.

(٢) البخاري: **كتاب النكاح**- الابواب ١٤-٣٢-٣٥/ مسلم، ابو الحسين مسلم بن الحجاج- **صحيح مسلم** - القاهرة- المطبعة الاميرية- ١٢٩٠هـ- الباب ٧٦.

(٣) **نيل المنى** - ص١٨.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٠.

ويلفت النظر هنا ظاهرة تأجيل جزء من المهر وتسديده على أقساط سنوية وهي تعد في الواقع ظاهرة مألوفة في المجتمع المكي استمرت عدة قرون فيروي جار الله بن فهد قائلاً: ((في ليلة الجمعة الرابع عشر من شهر ربيع الاول عقد الشيخ شهاب الدين احمد بن محمد النشيلي[1] بابنته البكر عائشة على الفقيه القاضي محب الدين محمد ... على خمسين مثقالاً مقسطة في كل عام مثقال واحد))[2] .

فبذلك يتم دفع آخر مثقال من المهر اذا امد الله في عمريهما وهما في سن الكهوله ولقد بالغ بعض الاشراف والاعيان في قيمة الصداق المقدم الى نساء طبقتهم ومع ذلك فمن الصعب علينا أن نتعرف على الحد الأدنى للمهر الذي كان يقدم كما أنه من الصعب علينا في الوقت نفسه ان نتعرف على اكبر مهر قدم للنساء في مجتمع مكة المكرمة ولا تمدنا المصادر بمعلومات وافرة عن هذا الموضوع.

ومن عوائد مكة الاجتماعية في مدة استمرار حفلات مناسبات الزواج فإن زفاف البنت البكر يستمر مدة اسبوع كامل. ويروي جار الله بن فهد أنه ((دخل على زوجته النوري على ابن الخواجا محمد سلطان ... على السيدة الجليلة سارة ابنة الخواجا محمد قاوان ... وأقام عندها سبعة أيام على قاعدة

---

(١) شهاب الدين احمد بن محمد النشيلي من بلاد مصر من اجل علماء الشافعية كان بحراً في العلوم والمعارف اطلق عليها لقب الامام العلامة له مكانة مرموقة وعالية بين تلاميذه توفي عام ٩٣٨هـ/١٥٣١م. ترجم له: ابن العماد- **شذرات الذهب**- ج٨- ص٢٢٨.

(٢) **نيل المنى** - ص٦٥.

الأبكار))[1] اما زفاف المرأة الثيب فعادة اهل البلد استمرار الأعراس ثلاثة أيام ويؤكد ذلك ما ذكره جار الله بن فهد ((وفي ليلة تاريخه- ليلة الثلاثاء ثامن عشر ربيع الاول- دخلت شقيقتي المرأة الثيب ام هاني سعادة على زوجها الفقيه الأصيل سراج الدين عمر ابن الشيخ جمال الدين محمد المكي ... وفي صباح تاريخها جاء الفقهاء وغيرهم لتهنئة زوج الاخت وأقام عندها ثلاثة أيام على عادة أهل البلد في الإقامة عند الثيب))[2] عائدين ذلك ماورد عن النبي صلى الله وسلم أنه كان اذا تزوج فعل ذلك[3] ولقد اسرف بعض الاعيان والوجهاء اسرافاً شديداً في مد فترة مناسبة الزواج ووصلت الى عشرة ايام متتالية كلفت كثيراً من المبالغ الباهظة.

ويأخذنا العجب والدهشة عندما يطلعنا المؤرخ جار الله بن فهد الشاهد الحي على عصره ما بلغته الرفاهية والإسراف والتفنن في التلذذ بتقديم الأسمطة حداً بعيداً مما يستنزف أموالاً باهظة لتوفير وتقديم الولائم المتنوعة والوان الطعام والحلوى التي تقدم في بعض مناسبات الزواج من قبل أصحاب المناصب في الدولة ويستدل على ذلك ما حدث في شهر ذي القعدة عام ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م قائلاً ((... في صباح يوم الخميس عمل الخواجا الكبير بيري الرومي أحد أعيان الدولة الرومية سماطاً هائلاً في سطح منزله بالسويقة لأجل زواج على ابنه الخواجا الأجل المحترم زين الدين عبد القادر القري

(١) نيل المنى – ص٢٣.

(٢) المصدر السابق- ص١٦.

(٣) المصدر السابق- ص٩.

الدمشقي واستغل مؤنة معرفة عند جماعة من أصحابه التجار،وكان فيه اطعمة مفتخرة كثيرة لم يتفق فعلها لكثير من الأكابر بمكة واجتمع فيه من الصحون الكبار والصغار قريب الألف وما رئي اطول منه ولا أعرض وجعل فيه الواناً كثيرة من الحلويات والدجاج والأرز والغزلان والخرفان. يقال إنه اشترى خمسين خروفاً بمائة وخمسين ديناراً ومائتي دجاجة بنحو المائة وغير ذلك من المؤن والسمن والعسل والأرز والقمح والخضر بما يعجز عن حصره ويقال كلفته أكثر من الف دينار واجتمع فيه من الالوان المفتخرة الرزان الحلو والمفلفل والمامونتيان الحموي والسكب وهريستي الفستق واللحم ومابهما من الأرز والحب والزاير تاج والماورديه والرغيف الاسيوطي والششبراك الحلو والحامض وغير ذلك من أطعمة العرب والعجم، وفي صدره غزال مشوية وحولها أربع وزات، وباقية متساوٍ في الأطعمة من الحلويات وغيرها.
وحضره نائب جدة والقضاة والفقهاء والتجار فحضروا جميعهم في نُوبٍ متعددة، وبعد الفراغ لم يتحركْ السماط لكبره، فا لله تعالى يخلف على صاحبه ويعين على مسميه))[1] .
ويروي جار ا لله بن فهد ظاهرة إجتماعية وهي الزواج في السر دون علم الناس بذلك دون توضيح الاسباب وبلغ الأمر خطورته أن يكون التستر من قبل المرأة خاصة إذا كانت من عائلة لها مكانة مرموقة في المجتمع المكي وتتزوج عدة مرات ((... ابنة الشيخ نور الدين علي إبن شيخ الحجبة

(١) **نيل المنى** – ص٦٢.

جمال الدين محمد ابن الشيخ عمر الشيبي وامها خاتون ... وهي ثيب وكانت تتزوج كثيراً بالسر))[1] .

ويهون الأمر إذا كان قاصراً على الرجال فقط لأن سبب التستر واضح بين تمسكه بزوجته الأولى وعدم إثارة المشاكل التي ربما كانت سبباً في إحداث شرخ كبير في الأسرة الأولى التي غالباً ما تكون تضم كثير من الابناء والخوف الشديد على ضياعهم وحرمانهم من العطف والحنان الاسري من اثر ذلك ما رواه مؤرخنا عما حدث من ((النوري على ابن زين الكرام احمد بن محمد اليماني ... كان قدم بحراً لجهاز ابنتين له يريد زواجهما فتزوج بمكة سراً فخلفها))[2] وقد يوجد له العذر في مثل هذا الاقتران السري خاصة إذا أنجب منها ((... وفي يوم الاثنين ثالث الشهر ولدت شقيقة إبنة الزيني جعفر بن عبد القوي وأمها فاطمة ابنة الرئيس بالحرم المكي فخر الدين أبي بكر بن عبد ا لله الكازروني الأصل الحنبلي، ولم يرض والدها بها لكونها بنتاً فتشوش أهلها لكونه تزوج بأمها سراً، لكن الأمر لله تعالى ماشاء فعل ويؤجر المرء على رغم أنفه))[3] .

وكانت تتم مناسبات الزواج في اغلب الاحيان في اواخر الاسبوع ومنتصف الشهر حيث يكون القمر كاملاً في السماء تفاؤلاً أن يكون هناك قمران قمر في الأرض وقمر في السماء، وكانت هذه الزيجات تكثر في شهر ربيع الاول

---

(١) نيل المنى- ص٤١٤.

(٢) المصدر السابق- ص٤١٤.

(٣) المصدر السابق -ص١٦٣.

وذلك تيمناً بمولد النبي عليه الصلاة والسلام فقد لاحظ جار الله بن فهد ذلك وقام برصد كثير من الأسماء مفصلة لجماعة من الأكابر والأشراف على مدار الشهر كاملاً.

((وممن تزوج مع حذف غيرهم، منهم القاضي الأصيل فخر الدين ابوبكر ابن الشيخ عبد الكبير الحرازي العمري الحنفي على ابنة خاله الشيخ بركات أبي الفضل وهي بكر))[1] .

ويؤكد ذلك ما ذكره العز بن فهد ((انه في ليلة المولد النبوي ليلة الجمعة ثاني عشر الشهر عقد بالمسجد الحرام قاضي القضاة الشافعي ناظر المسجد الحرام جمال الدين ابو السعود بن ظهيره بأخيه النوري على بنت عمه قاضي القضاة كمال الدين ابي البركات بن ظهيره وحضره جميع الرؤساء وجاء لأجل ذلك اليهم الشريف زين الدين بن بركات صاحب مكة"[2] .

وكان كثير من المكيين يميل الى تزويج فتياتهم في سن مبكرة صيانة لهن من إثارة الفورة الجنسية التي تعتري الشباب في أول سن البلوغ ووجاءاً لما تجره اليه الدوافع الجنسية من مزالق قد تؤثر عليه في مستقبل حياته وكانت الفتيات أقل سناً من الفتيان ووصل السن في بعض الأحيان الى ما يقارب اثنتي عشرة سنة ((... وفي ضحى يوم السبت ثالث عشر شهر -ربيع الثاني من عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م- شرع الشيخ القاضي شهاب الدين احمد في زواج ابنته المراهقة فاطمة وعمرها ما يقارب اثنتي عشرة سنة فإن مولدها في جمادى

(١) نيل المنى- ص٢٢.

(٢) العز بن فهد-بلوغ القرى- ٤٤ب- ٤٥أ.

الثانية عام أربع وعشرين[1] وكذلك لم يتعد سن الفتيان المرشحين للزواج في أغلب الأحيان العشرين سنة[2] .

ويبدأ الاستعداد لإقامة العرس فأول عمل يقوم به اهل الزوج هو تهيئة المكان المعد لاستقبال الناس فكانت تعمل الفازه في حوش متسع للزوج والزوجة او قرب مكان فيه سعة، وهي عبارة عن أعواد من خشب سن غالبها وفي وسطها عقد وفي طرفيها عقد أيضاً ملبسان بالثياب وبعد ان تنصب توضع العقود في كل الجهات ملبسة بالحرير والبشخانات[3] وربما تكثر العقود او تقل على حسب مكانة منصب الزوج او الزوجة[4] .

ويبدأ الاستعداد من قبل أهل الزوجة في شراء المصاغ والحلي والملابس الفاخرة لتتزين بها العروس وتظهر في أبهى صورة وأجمل حلة وإذا لم يف المهر بشراء الحلي وثياب الفرح فلابد من الذهاب الى الأماكن المخصصة لإستئجار المصاغ والحلى والملابس لفترة مؤقتة ثم يتم إرجاعها وهي في حالة جيدة واشتهر كثير من النساء في المجتمع المكي بعملية الإيجار الذي كان يأتي منه مردود مادي ممتاز وكان اشهرهن فاطمة ابنة الخواجا هبة الله بن

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٦.

(٢) **المصدر السابق** - ص٢٤٤.

(٣) البشخانات- كلمة معربة من كلمتين "بشه: بمعنى معرض + خانه: بمعنى منزل" وتعني الناموسيه وتصنع من القماش الخفيف المرئي الذي يمنع البعوض من الدخول على الشخص النائم: انظر محمد التونجي -**معجم المعربات الفارسية في اللغة العربية**- دار الأرقم- دمشق- ١٩٨٨م- ص٤٢.

(٤) **نيل المنى** - ص٢٢.

عبد الحميد العجمي الشرواني زوجة الخواجا محمد سلطان وامتلكت بذلك بيوتاً كثيرة ومصاغاً لم يوجد عند غيرها[1] .

ونلاحظ الدقة المتناهية في وصف كتابة العقد لدى جار الله بن فهد وأبيه العز فهما يقومان بذكر ما يصاحب ذلك بتحديد الموقع وتسجيل اسماء الشخصيات البارزة في المجتمع المكي الذين يحضرون الاحتفال بهذه المناسبة[2] ويمكننا تلخيص أبرز التقاليد الاجتماعية لعادات أهل مكة في الزواج:

الليلة الأولى:

يبل السكر وذلك بحضرة القضاة وأقارب الزوجين والأعيان، وبعد الفراغ يعمل لهم سماط حسن "... ثم يشرب الحاضرون سكراً مذاباً مطيباً بالماورد والبخور"[3] .

اليلة الثانية:

يعقد العقد في المسجد الحرام ويحضره القضاة الأربعة والفقهاء والتجار والعوام وأقارب العروسين. وذلك بحسب مكانة الزوجين الاجتماعية، وبعد انتهاء العقد يشرب المدعوون سكراً مذاباً او يمد لهم مدة لطيفة ثم ينصرفون[4].

---

(١) **نيل المنى**-ص١١٢.

(٢) العز بن فهد -**بلوغ القرى**- ورقة ٥أ - ٥٨أ- **نيل المنى**- ص١٧-١٤٧.

(٣) **نيل المنى** ص٣٦٣.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٢٢.

الصباح التالي:

يعمل أقارب العروسين فازة[1] لطيفة يحضرها الفقهاء والقضاة وأقاربهما ويلصق منديل محمول بين يدي وجه مؤذنة العروس[2] ثم تخرج المؤذنة، ويتوجه الزوج لمنزل زوجته مصحوباً ببعض اقارب الزوجة محملين ببعض الشموع والمفرعات، ثم يدخل الزوج للفازه ويجتمع بعروسه[3] .

الصباح التالي:

تعمل نصة الغمره وتزف بها العروس ويحضرها والدها وأقاربها ويلصقون كل بحسب قرابته لها. وقد تكون بعض الزفات فيها نوعاً من المباهاة واظهار الترف وتكون مصحوبة بالمغاني والمطربين[4] ويستمر اللعب والفرح حتى الصباح ويشارك فيه كثير من فئات المجتمع ويلعبون ويرقصون بالرباب والطيران[5] ويرصد لنا جار الله بن فهد صورة ناطقة من ذلك في قوله:((عملت الزفه ... فيها مفرعات وشموع كثيرة منها ثنتان كبيرتان تجران على عجل كل واحدة طول انسان ومشى امامه بعض الفقهاء والتجار

---

(١) الفازه هي المكان المتسع الذي يجلس فيه المدعوون لحفل العروس وقد تكون امام البيت او على سطحه، يكثر فيها من الاضاءة وتغطى ارضيتها وجدرانها بالسجاد.

اتحاف الورى ج٤- ص٥٢٤- حاشية٢-**نيل المنى**- ص٢٥-٣١.

(٢) مؤذنة الزوجة هي التي تهتم بزينة العروس وتشرف على ملابسها وعادة ما تكون من الجواري: انظر: **نيل المنى**- ص٦٨.

(٣) **نيل المنى** - ص٤٥٠.

(٤) **المصدر السابق**- ص٢٣.

(٥) **المصدر السابق**- ص٢٠.

الأعاجم ونساء كثيرات وخلق من العوام وتحلق له نفط في المسعى والمروة عند بيت الزوجة وابتهج الناس لرؤيته وكان امام الزوج ابن خالته ... راكباً على فرس لأجل ظهوره))[1] .

وتزداد الأبهة والعظمة في بعض الزفات ويتضح ذلك في زواج الشريف ثقبه حيث يقومون باللعب على الخيول واشتركت فيه القوات العسكرية للشريف وأحيت لياليه بالمتعة والانشراح ويسطر جار الله بن فهد ما صاحب هذا الزفاف من ترف واسراف في ثنايا كتابه قائلاً :((... في عصر يوم الخميس ٢٧ عمل صاحب مكة السيد ابو نمي لعب حمام على الخيل بالأبطح قريب المعلاة بعسكره والطبلخانه تدق لهم لأجل زواج شقيقه السيد ابو نمي ... واستمر على ذلك ثلاثة ايام متوالية من بعد العصر الى المغرب والخيل تمرح وتتسابق ... وفي مغرب ليلة الثالث آخر يوم السبت أوقدت شموع المسجد الحرام جميعها وأربع مفرعات كبار ونحو ثلاثين مشعلاً للشريف واميرا الحاج الشامي من المعلاة صحبة العريس السيد ابي نمي القاسم وهو راكب فرسه والنساء حوله يروحن عليه بالمراوح -كعادة الفرسان- وبعض عياله امامه منهم شقيقة صاحب مكة"[2] .

كان الاشراف الحاكمين لمكة والوجهاء والتجار في المجتمع المكي يعنون عناية فائقة بحفلات الزواج وإستمرار مدة الفرح سبعة ايام للبكر وثلاثة ايام للثيب

---

(١) نيل المنى- ص٢٢.

(٢) المصدر السابق ص٣٥٢.

ومع مرور الزمن اختفت هذه العادة وأصبحت أفراح الزواج تستمر ليلة واحدة فقط.

بعد اسبوع:

يعمل الزوج شراعاً لزوجته جريا على قاعدة البلد ولكن قد يشذ عن هذه القاعدة أحياناً كما حدث عندما عمل قاضي القضاة الحنبلي شراعاً لابنته[١] وحضره القضاة والفقهاء والتجار والعوام وأوقدت فيه ثريات وأقيمت فيه العاب وسط رحبة امام المنزل وألصق الحاضرون دراهم في منديل على العادة، واحياناً كانت تنشد بعض القصائد من نظم بعض الحاضرين من الفقهاء والأدباء. كما جرت العادة أنه بعد طلوع الفجر تنص العروس نصة ثانية ويمد السماط في الفازة التي في وسط منزل الزوج ويحضرها الأعيان من الفقهاء والتجار والعوام ثم يقومون بالمباركة للزوج ثم ينصرفون[٢] وتكثر فيه الأواني المفتخرة والأطعمة المتنوعة العربية والعجمية مثل المامونيتان الحموي والسكب، وهريسة الفستق والرغيف الاسيوطي والرزين الحلو والمفلفل والمشورات والضلوع المحشيه وتكثر فيه كثر من الحلويات واللوز والملبس وغيرها[٣] .

(١) **نيل المنى**- ص٢٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص١٥٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص ٢٠-٢٣-٢٦-٣٣-٣٦٤.

ويقوم والد العروس بتجهيز جهازها وتأثيث منزلها من فرش وما تحتاجه من ملابس وحلي ومصاغ ويهتم كثير من المدعوين لحفل الزفاف بالاطلاع على ما قدمه والد العروس من جهاز لابنته في ليلة فرحها مما يدعوه ان يبين ذلك لجميع المدعوين.

ولقد استحدثت هذه الظاهرة في بداية العهد العثماني عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ونتأكد من ذلك من خلال هذا النص الذي اورده جار الله بن فهد عندما وصف حفل زفاف ابنة قاضي القضاة الرومي مصطفى على الشاب التاجر الرومي عبد الرحمن ((... وكنت ممن حضر ورأيت جهاز العروس من الملبوس والفرش في جانب البيت ظاهراً على حدة ليراه الناس منه على قاعدة ملل الروم))(١).

وأصبحت هذه الظاهرة الاجتماعية مستمرة في الوقت الحاضر و لم يقتصر وجودها في مكة المكرمة بل امتدت حتى شملت المنطقة الجنوبية خاصة بلاد زهران.

---

(١) نيل المنى- ص٤٠٠.

ظاهرة اللصق:

ولقد تحدث جار الله بن فهد عن ظاهرة اجتماعية كانت منتشرة في مكة مقترنة عادة بحفلات الزواج وهي ظاهرة تدل على التكاتف والترابط بين أفراد المجتمع بتقديم العون والمساعدة المادية للمُقدم على الزواج ومساعدته في تكاليف مناسبة عقد القران وتخفيف العبء المادي عن كاهل العريس وكانت تسمى في تلك الفترة اللصق وساعد وجود تلك الظاهرة على تشجيع الشباب في اكمال نصف دينهم.

ولقد شاهد جار الله بن فهد هذه الظاهرة وكان يسجلها بدقة متناهية حتى انه يذكر اسم الشخص والمبلغ الذي تم دفعه في اكثر من مكان في ثنايا كتابه.

أما كيفية اللصق فهو يوضح لنا طريقته بصورة جلية عندما يتحدث عن زواج القاضي تاج الدين ابن قاضي القضاة الشافعي الجمالي ابي السعود بن ظهيره ((... ثم دار السراجي عمر بن احمد بن سليمان النجار –احد اخصاء والد الزوج– ومعه منديل على الحاضرين من القضاة والفقهاء والتجار والصقوا له دارهم))[1].

او بطريقة اخرى عن طريق المؤذنة التي تقوم باصلاح العروس وتزيينها وقد تكون اكثر من مؤذنة ((... خرجت المؤذنة لطلب النساء في العرس

---

(١) **نيل المنى** – ص٢٠.

المشـهور... والصـق الحـاضرون علـى مؤذنتـين واحـدة لأهـل الـزوج وثانيـة للزوجة)) [1] .

((وفي صبح يوم الجمعة خرجت مؤذنة العرس مـن جهـتي العريسـين فلجهـة الزوجة حبشيتان ومولدة ولجهة العريس واحدة فحضر عند خروجهن قـاضي المالكية الشـرفي الانصـاري... والصـق علـى الثـلاث مؤذنـات ثلاثـة اشـرفية سليمية كل واحد))[2] .

ويتضح من خلال النص ان اللصق في بعض المناسـبات يكـون لكـلا الطرفـين واهل الزوج واهل الزوجة وان اغلب المؤذنات كن من الجواري المشـهورات بالابداع في فن التجميل.

وكـانت تختلـف قيمـة اللصـق حسـب مكانـة العريـس او العـروس وكذلـك شخصية من يقوم بدفع المبلغ ومكانته في المجتمع المكي او حسـب قرابتـه مـن الزوج او الزوجة.

فكان قيمة اللصق بين مد وجزر ولقد ابدع جار الله بن فهد في دقتـه بذكـر قيمة اللصق بشكل تفصيلي لكل شخص وكم يكون مجموعه في كل مناسـبة عقد قران قائلاً((... والصقوا له دراهم مجموعها نحو مائة وعشرين اشـرفيه[3] وقاضي القضاة المالكي الجـلالي ابـو السـعادات ذهـب خمسـة اشـرفيه وولـده

---

(١) نيل المنى- ص٤٥٠.

(٢) المصدر السابق- ص٤٥٠.

(٣) هو دينار سكه السلطان المملوكي برسباي عام ٨٢٩هـ/١٤٢٥م وقد ظل هذا الدينار متداولاً في اسـواق مصر والشام والحجاز حتى القرن العاشر الهجري واطلق الناس عليه اشرفي على سبيل الاختصار. انظر في هـذا الصدد Ahmed Dbrraj: Lejyptelsous le.p.97

المحيوي اشرفيان واخوه الكمالي بركات الدين اشرفي وكذا كاتبه والزيني جعفر بن عبد القوي وابو سعيد بن زائد. واما قرابة الزوج والقاضي عز الدين ذهب خمسة وكذا عبد الباسط الشيبي كذا القاضي ابو البقاء أخوه والقاضي أمين الدين والقاضي جلال الدين أخو الفائز ذهب أربعة وإبن أخيه والمشار إليه الشرفي يحيى ثلاثة ذهب والجمالي محمد بن أبي الفضل ذهب إثنان والمجي إبن عم الزوج ذهب ثلاثة واما التجار فالخواجا بيري الرومي ذهب عشرة والخواجا بن بدر الدين الحلبي ذهب خمسة))[1].

وكانت ظاهرة اللصق اتسعت حتى انها شملت مولد الطهارة للمولودين ويفصل لنا جار الله بن فهد بدقة المؤرخ المبالغ التي لصقت في طهارة ابن القاضي تاج الدين عبد الوهاب لابنه المحيوي عبد القادر وان مبالغ اللصق في الطهارة تكون بنفس القدر المادي لحفل الزفاف فيذكر: ((في ليلة الاحد ٢٤ عمل مولد... لأجل طهار المحيوي عبد القادر... والصق الحاضرون له نحو مائة دينار))[2].

والطريف في الامر أن يقوم الزوج بعملية اللصق المرتفعة الباهظة وكذلك والد الزوج او الزوجة ثم يقومون باستردادها ورصد ذلك جار الله بن فهد ((... نصت العروس على زوجها وحضر ذلك والدها وخالها وأقاربهما

(١) نيل المنى – ص١٠.

(٢) المصدر السابق- ص١٤٧.

فألصق الزوج خمسين ديناراً ووالدها ثلاثين ديناراً، واستردها كل منهما بعد ادائهما))[1] و لم يقتصر اللصق على الذهب فقط بل شمل كذلك الفضة.

ومما يلفت الانتباه انه في المناسبات الكبيرة للافراح خاصة لفئة امراء الاشراف فان اللصق يكون الزامياً على كل التجار ليغطى المبالغ الباهظة التي يصرفها شريف مكة في حفلة الزفاف المزوجة بمظاهر الترف والاسراف ويروي لنا ابن فهد ذلك في زواج الشريف ثقبه[2] شقيق امير مكة ابو نمي عندما عقد على ابنه السيد بساط بن عنقاء الحسيني في شهر ذي الحجة عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م((... ودُعي فيه الاعيان من القضاة والفقهاء والتجار وغيرهم وأخذ الشريف لصقاً من التجار على العرس بطلب ذلك من كل واحد على قدره. فألصق الناس مبالغ كثيرة))[3] .

وكرر ذلك حاكم مكة مبارك بن بدر الحسني ((في يوم الخميس عمل الحاكم ... دعوة لعرسه على امرأة من العرب بالبادية في منزله جمع فيها من الباعة والتجار مالاً كثيراً يقال نحو ٥٠ دينار))[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص١٦.

(٢) ثقبه بن بركات بن محمد الحسني كان ذو رأي سديد وفي الوقت نفسه محارباً جسوراً ساند شقيقه ابو نمي في قمع كثير من الخارجين عن سيادة الدولة، له مناقشات مع الفقهاء والعلماء محباً لحضور مجالسهم. انظر: **نيل المنى**- ص٢١١-٢٧٨-٢٩٠-٣١٥-٣٦٠- محمد الطبري-**اتحاف فضلاء الزمن**- ص٥٦-١١١.

(٣) **نيل المنى** – ص٣٥٢.

(٤) **المصدر السابق**- ص١٠٥.

الأربطة:

الرباط زاوية إسلامية محصنة. تقام على ثغور العدو كما أن لها معاني كثيرة اشار القرآن الكريم الى بعضها في نحو قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾[1] ومن قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾[2].

كما اطلق على المكان الذي يجتمع فيه الفرسان استعداداً للقيام بحملة من الحملات[3] ولكن مع مرور الزمن تغيرت صيغة الربط العسكرية بسبب عدم تهديد الكفار لحدود البلاد الإسلامية في المشرق الإسلامي. وكان المرابطون في اوقات السلم يشتغلون بأنواع العلوم المختلفة وتعددت مراكز ثقافية كما نزل المتصوفون بهذه الربط نتيجة لبعدها عن العمران وميل المتصوفة الى الزهد فقصدوها للعبادة منذ القرن السادس الهجري والانقطاع عن الدنيا فلقد انتشر التصوف في مصر في عصر المماليك، وامتد انتشاره ليشمل

---

(١) سوة الأنفال – آية ٦٠.

(٢) سورة آل عمران آية ٢٠٠.

(٣) الفاسي –**الشفاء**– ج١– ص٣٣٠–**دائرة المعارف الاسلامية**– ج١٠– ص٢٠.

الحجاز وأطلق الصوفية على أنفسهم إسم "الفقراء"[1] لذلك كثيراً ما نرى أن واقف الرباط اشترط في وقفيته أن يكون للفقراء والمنقطعين.

كما شايع كثير من سلاطين بني عثمان التصوف، واستتبع إنتشار التصوف أن زاد عدد البيوت التي خصصت للصوفية والتي أطلق عليها خوانق[2] وربط وزوايا[3] .

وكان أهل مكة حتى بداية القرن الخامس الهجري يستقبلون الحجاج في دورهم من غير أجر، فلما ضعفت الخلافة العباسية وقلت الأعطيات التي كانت ترسل من قبل الخلفاء إليهم بدأوا يطلبون أجراً عن سكن الحجاج في دورهم مما دفع أثرياء المسلمين من تجار وأمراء ووزراء وسلاطين الى بناء أربطة في مكة المكرمة ليأوي اليها الفقراء والحجاج والمنقطعين وطلاب العلم والمجاورين للحرمين الشريفين من كافة الأجناس في شتى انحاء العالم الاسلامي حتى الوقت الحاضر رغم الجانب السيء لها من أنها مأوى للمتصوفة والمتنطعين[4] .

---

(١) إبن الجوزي- جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن- **تلبيس ابليس**- بيروت- دار الفكر- ب.ت- ص١٦٣.

(٢) خوانق: كلمة فارسية اصلها "خانكاه" بمعنى المنزل او مأوى الدراويش وتعنى محلاً للتعبد والتزهد والبعد عن الناس ودخلت هذه الكلمة العربية منذ انتشار التصوف فهي كالدير في النصرانية وجرت العادة ان يعين لكل خانقاه شيخ او اكثر عدد من الصوفية واشترط في شيخ الخانقاه ان لا يكون قد اتخذ التصوف حرفة. انظر: محمد احمد دهمان- **معجم الالفاظ التاريخية**- ص٦٦- محمد التونجي- **معجم المعربات الفارسية**- ص٦٦.

(٣) زوايا مفردها زاوية وهي في الأصل ركن البناء، ثم أصبحت تطلق على المسجد الصغير أو المصلى أو الركن من أركان المسجد، تعقد فيه الحلقات لتحفيظ القرآن وفي القرن السابع الهجري طرأ تطوراً على الزوايا فصارت تخدم أغراض التصوف في أبنية خاصة منفصلة عن المسجد. انظر: **الموسوعة العربية العالمية**- م٤- ص١٦٨.

(٤) سليمان مالكي -**مرافق الحج والخدمات المدنية في الأراضي الإسلامية المقدسة**- رسالة ماجستير- كلية الآداب- جامعة القاهرة- ١٩٧٨م- ص١٢٩.

والملاحظ على تلك الربط أن بعضها كان موقوفاً على كافة المسلمين من كافة الأجناس والمذاهب وبعضها كان موقوفاً على الرجال والآخر على النساء، وبعضها كان وقفاً على طائفة الصوفية أو على أحد المذاهب الإسلامية، والبعض خاص بجنس معين من الناس وبعضها خاص بالغرباء والمجاورين.

وكان واقف الرباط يوقف عليه أحياناً بعض الدور أو الضياع أو الأماكن التي تدر مالاً للإنفاق عليه كما ألحقت به بعض خزائن الكتب الصغيرة ليتلقى المجاورون فيها بعض العلوم[1].

بذلك يتحقق لنا أن هناك علاقة متينة ووثيقة بين إنشاء الأربطة والحجاج القادمين إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج وكذلك لطلاب العلم المجاورين أيضاً في مكة. وكان إنشاء هذه الأربطة نتيجة حتمية لابد منها، إذ أنها توفر جميع سبل الراحة لطلاب العلم وللحجاج المقيمين فيها أثناء موسم الحج من مسكن ومأكل ومشرب مما أدى إلى تسابق وتنافس كثير من المجاورين على سكانها وكان كل رباط مقسم الى غرف، ويضم أيضاً بئراً تمد الساكنين بالماء، ومطبخاً لتقديم الأطعمة لساكنيها[2]. كما قدمت خدمات أخرى حسب ما تنص عليه الوقفيات التي رصدها أصحابها للانفاق على الأربطة.

---

(١) حسن الباشا -**مدخل الى الآثار الإسلامية**- دار النهضة- القاهرة- ١٩٨١م- ص١٧٠.

(٢) الفاسي-**شفاء الغرام**- ج١- ص٣٤٠- العياشي- **الرحلة العياشية**- **"ماء الموائد"- الرباط**- ج١- ١٩٧٧م. ص١٣٥.

كما امتازت هذه الأربطة بقربها من الحرم المكي الشريف، ويتضح لنا ذلك من حادثة إحتراق المسجد الحرام عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م بسبب حريق أحد الأربطة المجاورة للحرم وهو رباط رامشت[١] .

كما كان لهذه الأربطة مدافن معروفة بمقبرة المعلاة في مكة، مثل رباطي ربيع والموفق.

والملاحظ على تلك الأربطة أن بعضها كان موقوفاً على كافة المسلمين من الأجناس والمذاهب، وبعضها كان موقوفاً على الرجال، والآخر على النساء، وبعضها كان موقوفاً على طائفة الصوفية أو على أحد المذاهب الإسلامية والبعض خاص بجنس معين أو أهل بلد معين وبعضها خاص بالغرباء والمجاورين[٢] .

إضافة إلى الصدقات التي تعم أهل الأربطة مثل صدقة السلطان العثماني سليم الأول ثم السلطان سليمان القانوني على أهل الحرمين الشريفين إذ فرق فيها خمسمائة إردب قمحا على الربط والمجاورين بمكة[٣] .

---

(١) أوقفة الشيخ ابو القاسم ابراهيم بن شيرويه بن جعفر الفارسي المشهور برامشت وكان من اعيان التجار العجم. ويقع الرباط في الجانب الغربي من المسجد الحرام عند باب الحزوره اوقفه سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م على الرجال الصوفية دون الناس. انظر: الفاسي -العقد- ج٤- ص٣٨٥- الشفاء- ج١- ص٣٣٢- الخزرجي- **العقود اللؤلؤية**- ج٢- ص٣١٢.

(٢) الفاسي-**شفاء الغرام**- ج١- ص٣٣٠-٣٣٦.

(٣) **نيل المنى**- ص١١٢.

ولقد تجاوزت الأربطة الثلاثون بمكة ولا يخلو حي من أحيائها دون رباط وبعض الأحياء يوجد بها أكثر من رباط ويؤكد ذلك أن جار الله بن فهد وضّح أنه في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م وزع الصر الرومي من قبل القاضي تقي الدين القاري[١] ومن ضمنها ستون ديناراً لسكان الأربطة بمكة المكرمة ووزعت وأصبح نصيب كل رباط ديناران ونصف الدينار[٢] .

وعلى الرغم من المعلومات المتوفرة من المصادر التاريخية التي كتبت عن تاريخ مكة بخصوص الأربطة إلا إنني لم أجد في ثنايا كتاب نيل المنى أي توسع شامل عنها سوى إشارات خافتة بين السطور تبين قدمها وكثرتها وبعض تواريخ انشائها.

ولأهمية هذه المؤسسات في مجتمع مكة المكرمة رأيت أنه تكملة للموضوع واضافة تاريخية حضارية لدورها وأهميتها أن أتحدث عنها بشيء من التفصيل وبعضها كان موجوداً على زمن المؤلف يؤدي دوره الاجتماعي والانساني.

---

(١) القاضي تقي الدين ابو بكر بن محمد بن يوسف القاري ثم الدمشقي صاحب أدب جم ومن ابرز الأئمة العلماء والمحققين وولي نظارة الحرمين لفترة من الوقت كان عالماً بالنحو والقراآت اشتهر بأرجوزة نظمها في عقيدة اهل السنة، توفي في شهر ربيع الاول عام ٩٤٥هـ/١٥٣٨م. ترجم له: إبن العماد الحنلي- **شذرات الذهب**- ج٨- ص٢٦٠.

(٢) -**نيل المنى**- ص٩٧.

١- رباط المراغي:

يقع بجوار رباط السدرة[١] عند باب الجنائز أوقفه قاضي القضاة أبوبكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم المراغي[٢] في عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م واشترطت وقفيته أن يكون سكناً للصوفية الزهاد الذي يسكنون مكة من الجنس العربي[٣] .

٢- رباط الشريف حسن بن عجلان:

أوقف هذا الرباط عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م الشريف بدر الدين حسن بن عجلان نائب السلطنة في الحجاز، وكان هذا الرباط يقع بمقابلة المدرسة المجاهدية أوقفه للمقيمين والمجاورين والمنقطعين في مكة المكرمة وجعل له أوقافاً بمكة ومنى ووادي مر من أجل إستمراره بعد وفاته[٤] .

---

(١) أوقف سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م يقع في الجهة الشرقية من المسجد الحرام بجوار باب بني شيبه وهو من اقدم الاربطة ويقصده أهل الشام واهل مصر انظر: الفاسي-**العقد الثمين**- ج١- ص١٠٤- **شفاء الغرام**- ج١- ص٣٣٠.

(٢) القاضي ابوبكر محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم كان من اعيان زمانه فضلاً وتقدماً، سمع ودرس على كثير من العلماء وأصبح من العلماء البارزين في العلوم الشرعية وترقى الى أعلى المناصب وأصبح له جاه وثراء بهيء الطلعة خلد آثاراً جليلة توفي ببغداد ونقل جثمانه الى المدينة المنورة ودفن برباط أنشأه بها عام ٥٩٠هـ/١١٩٣م. ترجم له: تقي الدين الفاسي- **العقد الثمين**- ج٢- ص٦٦-٦٧.

(٣) الفاسي -**العقد الثمين**- ج١-ص١١٨- **شفاء الغرام**- ج١-ص٢٣٠- ابن فهد- **اتحاف الورى**- ج٢- ص٩٢.

(٤) الفاسي -**العقد الثمين**- ج١-ص١١٩- **شفاء الغرام**- ج١- ص٣٣٢- ابن فهد-**اتحاف الورى**- ج٣- ص٤٢٣.

أما الرباط الثاني فقد خصصه للنساء[1] وأنشأه عام ٨١٦هـ/١٤١٣م وهو ملاصق لحوش داره، ويقع بالقرب من رباط ربيع، وقد عمر غالباً من اسفله وجزءاً من علوه، وفي عام ٨٢٢هـ/١٤١٩م، استأجر بعض البناءة لتكميل عمارته، وأدخلت فيه البئر المعروفة ببئر عفراء[2] .

٣- رباط ابن ابي شاكر:[3]

في عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م أمر الوزير المصري المملوكي تقي الدين عبد الوهاب بن أبي شاكر بإنشاء رباطاً بباب أجياد وقد ابتدأ في تعميره وعمر غالب اسفله الا أن الموت عاجله فلم يكمله وأمر نائب السلطنة الشريف حسن بن عجلان بتكميل عمارته[4] .

---

(١) الطبري-**الأرج المسكي**- ورقة٣٠/ النجم بن فهد-**اتحاف الورى ج٣- ص٥٠٨.**

(٢) الفاسي-**شفاء الغرام**- ج١- ص٣٣٥/ النجم بن فهد-**اتحاف الورى**- ج٣- ص٥٠٨.

(٣) عبد الوهاب بن أبي شاكر أحمد بن أبي الفرج تقي الدين القطبي المصري، ترك القبطية واعتنق الإسلام، ولد عام ٧٧٠هـ/١٣٦٨م ترقى في عدة مناصب ثم باشر نظر ديوان المفرد، ثم استادارية الأملاك والذخائر والمستأجرات والأوقاف ترك آثاراً عمرانية خلدت ذكره وأوقف كثيراً من الأربطة، توفي عن عمر يناهز الخمسين عاماً. انظر ترجمته: السخاوي-**الضوء اللامع**- ج٥-ص١٠٢.

(٤) الفاسي -**العقد الثمين**- ج١- ص١٢٠- **شفاء الغرام**-ج١- ص٣٣٢- إبن فهد- **اتحاف الورى**-ج٣- ص٥٠٠.

٤- رباط زوجة الملك الأشرف إسماعيل:

هو رباط الآدر الكريمة[١] جهة الطواشي ياقوت[٢] وزوج الملك الأشرف إسماعيل بن الملك الأفضل[٣] صاحب الملك والمتصرف في شؤونها ويسمى برباط السعداني الذي اشرف على عمارته والاهتمام به ولقد أوقفه عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م على كل من الفقراء والمتصوفة من المسلمين من عرب وغيرهم وأن يكون مؤبداً محبساً لايباع ولايورث بأي حال من الأحوال[٤] .

---

(١) الآدر- كلمة تركية يقصد بها حريم السلطان، وهي مرادفة لكلمة الحر ملك التركية ايضا ويعبر عن المرأة في ذلك العصر بالجهة الشريفة وعن الرجل بالجناب- ابن تغري-**النجوم الزاهرة**- ج٨- ص٥٧.

(٢) زوجة الأشرف إسماعيل، وجهة الطواشي ياقوت، امتازت بالجمال الباهر واشتهرت بالحكمة أنجبت عدة أبناء وقامت بتربيتهم وتدريبهم وتهيئتهم لشئون الدولة تركت آثاراً حميدة في مجال العلم والمعرفة من ضمنها مدرستها المشهورة بالياقوتية نسبة لها بزبيد كما قامت بإنشاء عدة مدارس في انحاء متفرقة في اليمن لنشر العلم ومحو الجهل والتخلف وكانت تنفق عليها بسخاء، ماتت وهي في ريعان عمرها في سن الأربعين. ترجم لها: السخاوي-**الضوء اللامع**- ج٦- ص١٦٥.

(٣) اسماعيل بن يحيى بن العباس الأشرف تولى سدة الحكم والسلطة في اليمن بعد وفاة والده عام ٧٧٨هـ/١٣٧٦م واقسم الجميع على الولاء له وأذعنت له البلاد بعد حروب طاحنة خاصة مع المعازبة واستعمل الاسلوب التأديبي العنيف واستمرت حالة من الهدوء وتسود البلاد حتى نهاية حكم الاشرف الذي توفى في ثغر سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٠هـ ويعد آخر سلاطين بني رسول الأقوياء. انظر ترجمته: الخزرجي، علي بن الحسين-**العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**- تحقيق محمد علي الاكوع- ج٢- دار الآداب- بيروت-١٤٠٣هـ-ص٢٨٩- ابن تغري بردي-النجوم الزاهرة- ج٣-ص٢٥-شفاء الغرام- ج٢-ص٣٣٦- السخاوي-الضوء اللامع- ج٢-ص١٠٨.

(٤) الفاسي -**شفاء الغرام**- ج٢- ص٣٣٦- ابن فهد -**اتحاف الورى**- ج٣- ص٤٣٨.

٥- رباط قايتباي[1] :

أوقف هذا الرباط السلطان الأشرف قايتباي عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م وكلف مشرفاً عليه هو سنقر الجمالي[2] ي الذي سرعان ما شرع في العمل وضم عمارة بيت الشريفة شمسية[3] ورباط السدرة ورباط المراغي لقدمهما وكان يتألف من اثنين وسبعين خلوة ومُجمعاً كبيراً مشرفاً على المسجد الحرام وعلى المسعى الشريف[4] وأصبح رباط قايتباي يضم مدرسة وسبيلاً وميضأة وجعل لها باباً من جهة سوق الليل ومكتباً للأيتام وعمل بجانبها مطبخاً للحاشية وعن أشهر الأطعمة في مكة التي تعمل كل يوم وتقسم على الفقراء وأوقف دوراً بمكة ومزارع بمصر لتكون دخلاً لإستمرار الوقف تغل كل عام

---

(١) الاشرف قايتباي من ابرز سلاطين الشراكسة اشتهر بحسن تدبيره وقوة الامبراطورية المملوكية في عهده وانتصاراته الرائعة على العثمانيين والتركمان، عانى في مدة ملكه والتي استمرت تسعة وعشرين عاماً (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٧-١٤١٦م) من المماليك الجلبان وتولى الحكم من بعده ابنه محمد. ترجم له: ابن اياس- **بدائع الزهور**- ج٢- ص٩٠- الشلي- **النور السافر** - ص٨٦.

(٢) سنقر الجمالي: ابو العادات الزيني، مملوك ناظر الخواص الجمالي يوسف وشقيق شاهين الجمالي، ترقى في الخدمة الى أن أصبح نائباً لأخيه شاهين وشاداً على عمائر السلطان قايتباي بمكة عام ٨٧٤هـ/١٤٦٩م ثم ضيف اليه الحسبة بمكة عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م. ترجم له: السخاوي- **الضوء اللامع**- ج٣- ص٢٧٣- السمهودي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن- **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**- ج٢- نشر اسعد طرابزوني- القاهرة- المطبعوة المحمودية ١٣٧٩هـ- ص١٩٧.

(٣) شمسية إبنة حسن بن عجلان بن رميثه بن أبي نمي أمير مكة ونائب السلطنة في الحجاز زوّجها والدها الشريف رميح الحسني نشأت في بيت عز ورفاهية أنجبت أبناً سمي عجل لها مآثر جليلة خلدت ذكرها لما كانت تتمتع به من أموال وثروات باهظة صاحبة الدار بمكة التي أصبحت المدرسة الأشرفية ماتت في جمادى الثانية عام ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م توفيت خارج حدود مكة ودفنت هناك انظر ترجمتها في: الفاسي- **العقد**- ج٥- ص٨١.

السخاوي-**الضوء اللامع**- ج١٢- ص٦٩.

(٤) النهروالي- **الاعلام**- ص٢٤٣.

نحو الفي ذهب وتم الانتهاء من بناء الرباط عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م[١]. ويذكر جار الله بن فهد أن اغلب الساكنين في رباط قايتباي من العرب الفقراء المنقطعين[٢] .

٦- رباط المغاربة:

أوقف في عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م من قبل القاضي الموفق ابو الحسن علي بن عبد الوهاب بن محمد أبي الفتوح الأسكندري[٣] ويمتاز الرباط بالموقع الاستراتيجي حيث يقع في أسفل مكة بالقرب من باب ابراهيم بالسوق الصغير وكان يسمى أيضاً برباط الموفق[٤] أوقفه وحبسه وتصدق به خاصة على الفقراء المعوزين من العرب المتعبدين ذوي الحاجات المجردين وليس للمتأهلين فيه حظ ولا نصيب وجعل عليه وقفاً بمكة[٥]، لاستمرار منفعته،

---

(١) السمهودي، علي بن احمد ابو الحسن -**وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**- ج٢- تحقيق محمد محي- القاهرة- ١٣٧٤هـ- ص٧١٦- ابن إياس-**بدائع الزهور**- ج٣- ص٣٢٩- النهروالي- **الاعلام**- ص٣٣٦- قطب الدين الحنفي-**الإعلام**- ص١٠٠.

(٢) **نيل المنى**-ص١٣٩.

(٣) القاضي ابو الحسن علي بن عبد الوهاب برع في شتى العلوم والمعارف وأصبح يشار اليه بالبنان في علم الرجال له مبرات وصدقات بمكة، حدّث وسّمع من السلفي، توفي عام ٦٢٤هـ/١٢٢٦م. ترجم له: الفاسي- **العقد**- ج٦- ص٢٠٤-٢٠٥.

(٤) **نيل المنى**- ص١٨١.

(٥) الفاسي- **العقد الثمين**- ج٦- ص٢٠٤.

وبالفعل أصبح مستمراً في تقديم خدماته للفقراء اكثر من ثلاثة قرون ولقد جدد لأكثر من مرة[1] ولايزال قائماً حتى عصر المؤرخ جار ا الله بن فهد حيث ذكر أن ((الناظر على رباط المغاربة الشيخ محمد الحطاب المغربي الطرابلسي))[2] .

٧- رباط الشريف بركات:

في آخر شهر جمادى الأول عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م أمر صاحب مكة السيد الشريف زين الدين بركات بن محمد بن بركات بعمارة رباط له في خط الخزامية عند درب اليمن بالقرب من بيت الهيضمي خلف أجياد حارة الشريف بركات. وبنى فيه عشرين خلوة سفلية وعشرين علوية ومجمعاً سفلياً في محراب ودهليز به خلوة للبواب علوه خلوة للمشيخة وسبيل فوقه خلوة وبجانبه بئر قديمة يصب منها الماء الى الرباط[3] .

ويبدو أنه من أفضل الأربطة في القرن العاشر الهجري للعناية والإهتمام الزائد بتنظيمه لأن الناظر عليه الفقيه مؤدب الأطفال أبوبكر بن عثمان الجبرتي الذي توفى عصر يوم الثلاثاء في شهر صفر عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م وخلفه ابن اسمه محمد تولى مشيخة الرباط[4] .

---

(١) الفاسي -**العقد الثمين**- ج٧- ص٢٠٤- **شفاء الغرام**- ج١- ص٣٣٥- إبن فهد-**إتحاف الورى**- ج٤-ص٨٤.

(٢) **نيل المنى**- ص١٣٩.

(٣) **المصدر السابق** - ص٢٦.

(٤) **المصدر السابق** - ص١١٢.

٨- رباط إبن مزهر[1] :

أوقفه القاضي زين الدين أبي بكر بن مزهر عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م ويقع مجاوراً لباب الصفا ويؤكد جار الله بن فهد أن ((ناظره والمتكلم عليه الشيخ أيوب الأزهري وأولاده من بعده ولقد أصيب الرباط في عام ٩٣٣هـ/١٥٢٧م يوم الثلاثاء من شهر ذي القعدة بحريق سببه أن شخصاً طبخ فيه وترك بقية النار بجانب خشب في الدهليز فتعلقت به وأكلته مع سقف المكان وجميع الخلاوي العلوية مع الربع فوقها. وعجز الناس عن إطفائها واستمرت الى الصباح، ووجد في بعض الخلاوي بها هندى وقماش وغير ذلك لبعض المتسببين فحرق جميعه))[2] .

٩- رباط البانياسي:

وقفه الأمير الاسفهسلار[3] فخر الدين إياز بن عبد الله قرب الصفا على يسار الذاهب إليها من المسجد الحرام وقفه على الفقراء المعوزين المعروفين

(١) القاضي زين الدين ابي بكر اشتهر بسعة العلم وتبحره في العلوم الشرعية، له مآثر جليلة لما كان يتمتع به من جاه ونفوذ استقر في مكة المكرمة وتفرغ للعلم والعبادة، توفي عام ٨٧٦هـ/١٤٧١م. ترجم له: السخاوي- **الضوء اللامع**- ج٦- ص١٤٨.

(٢) **نيل المنى** – ص٢٢٥.

(٣) الاسفهلار وظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند، والى صاحبها يرجع امر الأجناد واللفظة أعجمية تعريبها قائد الجيوش. انظر: محمد احمد دهمان- **معجم الألفاظ التاريخية**- ص١٦.

بالدين والخير والصلاح في شهر ربيع الاول عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م[١] ثم تجدد بناءه والعناية به في بداية القرن العاشر وأصبح المسؤول عنه القاضي أبي البقاء ابن ظهيره القرشي[٢] وذلك في عام ٩٣٥هـ/ ١٥٣٠م[٣].

١٠- رباط العباسي:

وهو الرباط المعروف بذلك الاسم في بداية العهد المملوكي بنى في موقع استراتيجي بالمسعى بجوار المسجد الحرام وكان في الأصل مطهرة انشأها الملك المنصور[٤] للمحتاجين من أي جنس كان من المسلمين وجعلها رباطاً للملك الناصر[٥].

---

(١) الفاسي -**العقد الثمين**- ج١-ص١٢٠- ج٣- ص٣٣٨.

(٢) القاضي ابي البقاء ابن ظهيره القرشي المكي أحد علماء مكة الأعيان، ولد ونشأ بمكة المكرمة، وأخذ العلوم عن أكابر علمائها وأجاد علوماً كثيرة من الفقه والحديث والتفسير والنحو وتوفي بمكة المشرفة عام ٩٥٢هـ/١٥٤٥م. ترجم له: الشلي- **السنا الباهر**- ورقة١١٨.

(٣) **نيل المنى**- ص٢٥٧.

(٤) الملك المنصور قلاوون الالفي، ولد عام ٦٢٠هـ/١٢٢٣م اول ملوك الدولة المملوكية بمصر، أعتقه الملك الصالح نجم الدين ايوب تولى السلطنة عام ٦٧٨هـ امتاز بفروسيته وخاض معارك انتصر فيها وهزم التار كمان من أجل ملوك المماليك وأبطل كثير من المظالم خلد ذكره بآثاره، توفي بالقاهرة عام ٦٨٩هـ/١٢٩٠م. ترجم له: ابن إياس- **بدائع الزهور**- ج١- ص١١٤- ابن تغري بردي- **النجوم الزاهرة**- ج٧- ص٢٩٢.

(٥) الملك الناصر محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي ، ولد عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م من كبار ملوك المماليك له آثار عمرانية ضخمة وتاريخ حافل بجلائل الأعمال ولي سلطنة مصر والشام عام ٦٩٣هـ حتى توفي بالقاهرة عام ٧٤١هـ/١٣٤١م. ترجم له: ابن إياس- **بدائع الزهور**- ج١- ص١٢٩- ابن حجر- **الدرر الكامنة**- ج٤- ص١٤٤.

وامتاز الرباط بالأناقة والنظافة والخدمة الجيدة[1] ويؤكد ذلك أنه في عام ٩٤٦هـ/ ١٥٣٩م بشهر رجب أقام خطيب مكة المحيوي العراقي عندما زوج ولده الزيني عبد الرحيم أن يمد سماط الوليمة في صباح الغمره بالرباط الواقع بسوق الليل وحضره قضاة البلد وفقهاؤها وبعض التجار وغيرهم كذلك مد سماطاً للنساء بعد الرجال[2] .

وبذلك نلاحظ أن هذا الرباط نستطيع أن نقارنه في وقتنا الحاضر بالفنادق الفخمة التي تمتاز بتقديم أفضل الخدمات لنزلائها من ناحية الاقامة والإعاشة وتقديم وسائل الراحة.

١٢- رباط الرميلي[3] :

أوقفه القاضي عبد الواسع حلبي العجمي الأصل الرومي الحنفي وقام بتعميرة في شهر رمضان عام ٩٤٥هـ/١٥٣٩م في جهة زفاف الشرابي بسويقة الشامي أوقفه على الفقراء من الأروام والعرب[4] .

---

(١) الفاسي -**العقد الثمين**- ج١- ص١١٨- **شفاء الغرام**- ج١- ص٣٣٠- النجم بن فهد-**اتحاف الورى**- ج٣-ص٦١- **نيل المنى**- ص١٦٠.

(٢) **نيل المنى**- ص٤٥١.

(٣) القاضي عبد الواسع حلبي العجمي كان والده من الامراء، اشتغل بالعلم وتنقل كثيراً في بلاد العجم وخراسان انعم عليه السلطان سليم بمدرسة علي بك بأدرنة ثم تولى قضاء بروسا ثم قضاء القسطنطينية، له مآثر جليلة بنى مكتبتين ومدرسة استقر بمكة وانفرد بها واشتغل بالعباده حتى وافاه الاجل بمكة عام ٩٤٦هـ/١٥٤٠م. ترجم له: ابن العماد- **شذرات الذهب**- ج٨- ص٢٥٧.

(٤) **نيل المنى** - ص٤٢٤.

١٣- رباط الشريف أبي نمي:

في شهر ربيع الثاني عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م شرع أبو نمي صاحب مكة في عمارة رباطه واختار له موقعاً مناسباً في سوق المسفلة بالقرب من باب ابراهيم وشرع في هدم عمارة بيت الرملاوي وغيرها من البيوت ليكون به متسع يضم أكبر عدد من الفقراء والمحتاجين من طلاب العلم المسلمين والمجاورين[١].

١٤- رباط الخوزي[٢]:

اوقف هذا الرباط زين الدين قراموز الأفرزي الفارسي عام ٦١٧هـ/١٢٢٠م واشتهر هذا الرباط برباط الخوزي لسكنى ابي جعفر عمر بن مكي بن علي الخوزي فيه حيث كان مقر اقامته اثناء مجاورته بمكة مدة عشرة سنوات حتى وفاته في شهر صفر عام ٦٢٧هـ/١٢٢٩م[٣] ويقع هذا الرباط امام باب ابراهيم في الجهة الغربية بالقرب من القصر مسكن الامناء وقد تم وقفه على الصوفيه الغرباء المجاورين[٤].

---

(١) **نيل المنى** – ص٤٤٨-٤٥٠.

(٢) الخوزي: هذه النسبه الى موضعين الاولى خوزستان وهي كورة بالاهواز في ايران والثاني شعب خوز الواقع بمكة المكرمة. انظر الاسنوي جمال الدين عبد الرحيم -**طبقات الشافعيه**- تحقيق عبد الله الجبوري- ج١- بغداد- ١٣٩٠هـ- ص٤٩٨- الفاسي-**العقد الثمين**- ج٧- ص٢٠٤- **شفاء الغرام**- ج١-ص٣٣٥.

(٣) **نيل المنى**- ص ٩٨.

(٤) **المصدر السابق** – ص ١٣٦.

١٥- رباط ربيع:

وقفه ربيع بن عبد الله بن محمد المارديني[1] عن الملك الأفضل[2] ابن السلطان صلاح الدين علي بن يوسف بن أيوب وكان موقعه في أرقى الأحياء بمكة بمنطقة الاشراف بأجياد في شهر ذي الحجة عام ٥٩٤هـ/١١٩٨م وقد وقفه على الغرباء من الفقراء وطلاب العلم المسلمين[3] ، كما تميز هذا الوقف بوجود خزانة كبيرة للكتب وفرها الملك الأفضل لطلاب العلم من القاطنين بالرواق ولقد كان للشيخ جمال الدين محمد ابن الشيخ العلامة نور الدين علي بن ايوب البرماوي[4] الاصل المكي دور في العناية بفقراء الرباط وتعليمهم مما جعل فقراء الرباط يقومون بتشييعه عند وفاته عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م ودفنه بالمعلاة[5] .

وكان أهل الحجاز يعظمون هذا الرباط تعظيماً شديداً، وينذرون له، فيخرجون العشر من منتجات بساتينهم لهذا الرباط، اعتقاداً منهم أنه إذا

---

(١) ربيع بن عبد الله الماريديني أحد الرجال الصالحين، جال في البلاد ودخل بغداد والموصل والكوفة والاسكندرية ودمشق وحلب وجاور بالحرمين واقام بالمدينة إثني عشر عاماً وكان أمياً لايعرف الخط وقرأ القرآن حفظاً توفي سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م. انظر: السخاوي-**التحفة اللطيفة**- ج٢- ص٦١.

(٢) الملك **الافضل** نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين الايوبي، ولد عام ٥٦٥هـ/ بالقاهرة، تسلطن بدمشق ثم استمر في حروب مع اخيه العزيز، امتاز بعلمه وعدله وكرمه واشتهر بالادب توفي عام ٦٢٢هـ- ابن العماد- **شذرات الذهب**- ج٥- ص١٠١.

(٣) الفاسي -**العقد الثمين**- ج٦- ص٢٧٥/٢٧٦.

(٤) نور الدين علي بن ايوب البرماوي من اعلام القرن العاشر وهو مصري من برما بمحافظة الغربيه.

(٥) **نيل المنى**- ص٩.

لم يفوا بذلك خسروا نتاج أرضهم في السنة التي تليها كما أشار الرحالة ابن بطوطة الى وجود بئر عذبة بهذا الرباط[1].

١٦- رباط أم الكامل[2]:

لم تمدنا المصادر بمعلومات عن تاريخ انشاء هذا الرباط ولكن يبدو أنه أنشأ في العقد الثاني من القرن العاشر واعتمدنا في ذلك على ما سطره المؤرخ جار الله بن فهد في كتابه نيل المنى أنه في شهر رجب عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م توفت غزالة الراجحية[3] المتكلمة على رباطها. ولقد بني الرباط بأجياد ووقف على الفقراء من طلاب العلم[4].

١٧- رباط ابن الزمن:

أنشأه محمد بن عمر بن محمد الخواجا الشمسي بن السراج ويعرف بابن الزمن[5] ولم يعرف تاريخ إنشاؤه ويبدو أنه انشيء ما بين عام

(١) إبن بطوطه-**تحفة النظار**- ص١٤٨-١٤٩.

(٢) ام الكامل: الشريفه ابنة عجل زوجة شريف مكة السيد بركات واخت عرار بن عجل وزير وسفير الشريف بركات. انظر: جار الله بن فهد- **نيل المنى**- ص٦١-٩٨.

(٣) هي غزالة الراجحية اشتهرت بالعلم والحكمة والحسن كانت زوجة القاضي بجدة كمال الدين ابي البركات محمد بن ظهيره ثم طلقها . انظر: جار الله بن فهد-**نيل المنى**- ص١٢٨.

(٤) **المصدر السابق** - ١٢٨.

(٥) محمد بن عمر بن محمد السراج، ولد بدمشق سنة ٨٢٤هـ/١٤٢١م وسمع على كثير من علماء بلده وسافر بالبحر فدخل الروم وبلاد الافرنج واستقر بمصر وقربه السلطان قايتباي وأصبح وكيلاً له في الأمور التجارية وكان له عدة مدارس وربط بمصر ومكة والمدينة والقدس وله عدة مآثر اخرى جليلة، عام ٨٩٧هـ/١٤٩١م. انظر: السخاوي-**الضوء اللامع**- ١٠-ص٢٦٠-٢٦١- **التحفة اللطيفة**- ج٣- ص٦٩٦.

٨٨٢هـ/١٤٧٧م وعام ٨٨٨هـ/١٤٨٣م وهي الفـترة الـتي قضاهـا بـالحرمين الشريفين مجاوراً وقام فيها بعمائر السلطان قايتباي.

وذكر جار الله بـن فهـد أن الشيـخ العـالم شـهاب الديـن احمـد بـن يوسـف الزبيدي الشافعي نزيل الربـاط كـان يصنـع لسـكانه ولفقـراء مكـة كـل يـوم شوربة أرز بلحم مدة ثلاثة اشهر يبتـدي بشـهر رمضـان وكـان يدفـع أجـرة الطباخ وكان يجتمع على ذلك اكثر من خمسمائة طفل من الفقراء والأيتام[1].

وهناك عدة أربطة لم نستطيع أن نحـدد بالدقـة متـى أوقفـت وفي أي المواقـع ولكنها كانت تعج بالفقراء وطلاب العلم والمجاورين ومن هذه الأربطة:

١٨- رباط السيدة ام الحسين ابنـة القـاضي شـهاب الديـن الطـبري وكـان للرباط أوقاف وقد آلت بعد وفاتها الى ابنتها زينب ابنة القاضي ابـي الفضـل النويري[2].

١٩- رباط الناصري:

أوقف الرباط فيما يبدو بداية القرن العاشر الهجري بباب العمرة الملاصق لدار قاضي القضاة الحنفي بديع الزمان بـــن الضياء[3] من قبل الخواجا فخر الدين ابوبكر الناصري الدمشقي نزيل مكة المتوفي سنة ٩٢٦هـ/١٥٢٠م بمكة[1].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٦.

(٢) **المصدر السابق** -ص٥٥.

(٣) بديع الزمان بن الضياء قاضي مكة المشرفة وشيخ الحرم بها كان من اهـل الفضـل والرياسـة كـان وقـوراً مهيباً حسن المعاشرة واشتغل بالتدريس سافر عدة مرات الى مصر ودمشـق ثـم الى الـروم واثنـاء عودتـه تـوفي بمدينة بدليس من اطراف ديار بكر عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م. ترجم له: ابن العماد الحنبلي- **شـذرات الذهـب**- ج٨- ص٢٤٦.

٢٠- رباط كلاله[٢]:

أنشأه ابو القاسم الطيبي سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م بالقرب من المسعى وأوقفه على الفقراء.

ولقد صممت المصادر التاريخية والحضارية عن الحديث عن هذا الأثر فلم نستطيع من خلالها معرفة مكانه ومتى أوقف ومن الذي قام بإنشائه و لم نجد في ثنايا الكتاب سوى عبارات وجيزة فقط[٣] .

ومع تقادم العهد في مكة المكرمة فقدت الأربطة كثيراً من آثارها الإيجابية إذ وفد عليها المجاورون والمتنطعون وأصبحت ملاذاً كثير من المتصوفة حيث بلغ التصوف غايته زمن المماليك ثم العثمانيين، حيث أن حياة التصوف تطرق إليها الفساد بعد أن تركوا الزهد والعبادة ومالوا الى متع الحياة الدنيا وترك الإكتساب اكتفاء بما يجرى عليهم من الأرزاق ونتيجة للإختلاط في الأربطة كثرت فيها الموبقات وعيب على ساكنيها الإنحراف في السلوك[٤] .

كما عمرها وأقام فيها كثير من الأروام والأعاجم الذين كانوا يجدون العناية التامة من قبل الدولة العثمانية والإغداق عليهم بأموال الصدقات والمواد

---

(١) **نيل المنى** - ص١٣٥-١٣٦.

(٢) الفاسي -**شفاء الغرام**- ج١- ص٣٣٤.

(٣) **نيل المنى** - ص٩٠.

(٤) **المصدر السابق** -ص١٨١.

الغذائية مما جعل كثير منهم يسجل إسمه في الأربطة دون أن يقيم فيها رغم أنه من أصحاب المناصب أو الثراء ويملك داراً وزوجة رغم المرسوم السلطاني العثماني بأن من له منزل وزوجة لايعطى في الرباط ولكن لم يتقيد أحداً منهم بمضمون النص السلطاني[1] .

---

(١) نيل المنى -ص٨٧.

البيمارستانات:

المارستان أو البيمارستان مستشفى صحي ومركز لمعالجة المرضى وإقامتهم فيه وخصصت لرعاية الفقراء والمعوزين الذين لايجدون ثمن العلاج والدواء وخصصت لها الأوقاف ووفرت لها الأموال ليستطيع القيام بخدمة المرضى وتقديم الغذاء والدواء وتوفير الحاجات الأساسية المناسبة لحالتهم الصحية خاصة وأن البيمارستان اعد في الغالب لإقامة من اصيب بالمرض النفسي أو العقلي والعناية بهم وتفقد أحوالهم ثم توسع في خدمته فكان مركزاً لعلاج مختلف الأمراض العارضة والمزمنة كما خصص جزء فيه للنساء(١) .

ولقد اهتم الخلفاء والسلاطين بانشاء البيمارستانات في شتى انحاء العالم الاسلامي.

وتذكر لنا حجة الوقف الخاصة بالأشرف شعبان(٢) ، الوظائف التي يتولاها القائمون على هذا البيمارستان أو الأموال التي تصرف على العاملين رجالاً ونساء، ومن يقوم بسقاية المرضى، والبواب الذي يقوم بفتح باب البيمارستان وإغلاقه، وأمين الحواصل الذي يقوم بتقديم الطعام والشراب، وحكيم كحال يقوم بمداواة المرضى والرمد ومداواة الجرحى بالبيمارستان ومراقبين على

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور- **بحوث في تاريخ الاسلام وحضارته الظاهره**- عالم الكتب- ١٩٨٧م- ص٤٢١.

(٢) الاشرف شعبان بن حسين ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، ولد عام ٧٥٤هـ/١٣٥٣م ولي السلطنة بعد خلع ابن عمه محمد حاجي عام ٧٦٤هـ/١٣٦٢م حارب الافرنج وظفر بهم وانتظمت له شئون الدولة، مات مخنوقاً عام ٧٧٨هـ/١٣٧٧م. ترجم له: ابن حجر- **الدرر الكامنة**- ج٢- ص١٩٠- إبن كثير- **البداية والنهاية**- ج١٤- ص٣٠٢-٣٢٤.

البيمارستان يقومون -يومياً- بالاشراف على توزيع وتقسيم الأطعمة والأشربة، وطباخين يقومون بطهو الطعام وتوزيعه، والخدمة الذين يقومون بأعمال النظافة وغسل ملابس المرضى ومن بين الخدمات الاجتماعية التي يقدمها البيمارستان تجهيز ودفن من يموت من مرضاه[1] .

ويشير الى هذه المعاني قول بعض الكتاب ((يفعل ما تقتضيه مصلحة المرضى وصرف ما يحتاج اليه المرضى من سكر وأدوية وأشربة وغير ذلك وما يحتاج اليه البيمارستان من مكانس واسطال نحاس وغير ذلك حتى تثمر نفعه))[2] .

وتكفل الخلفاء والسلاطين بإعطائهم المرتبات العالية وتوفير وسائل الراحة لهم والإنفاق المستمر على هذه المراكز الصحية وذلك للأعداد الكبيرة التي تأتي في المواسم الدينية كموسم الحج والعمرة.

ولقد أنشيء في مكة المكرمة بيمارستان قام بتعميره ووقفه الخليفة العباسي المستنصر با لله[3] عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠م وموضعه بالجانب الشمالي من المسجد الحرام بالقرب من باب الزيادة على مساحة واسعة بها فناء متسع فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد ووضع الأسرة داخلها ليتخذها المرضى مضاجع

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة٩٨-١١٥-١٤٦- **نيل المنى**- ص٢٣-٨٦-٢١١.

(٢) محمد الفعر-**الكتابات والنقوش في الحجاز**-رسالة دكتوراة- جامعة ام القرى- مكة المكرمة- ١٤٠٦هـ- ص٥١٨.

(٣) المستنصر با لله منصور ابن الظاهر، ولد عام ٥٨٨هـ/١١٩٢م، ولي بغداد بعد وفاة والده، سمي القاضي لوفرة عقله واتزانه، كان حازماً عادلاً حسن السياسة له مآثر جليلة ومنها المدرسة المستنصرية اشتهر بعمل الخير، في عهده استولى المغول على كثير من البلاد، توفي عام ٦٤٠هـ/١٢٤٢م. ترجم له: ابن الاثير- **الكامل**- ج١٢- ص١٧٧- المقريزي- **السلوك**- ج٣- ص٥٣٦.

كاملة واعدت لها المرافق الخاصة لخدمة المجتمع المكي الذي كان في نمو سكاني مطرد لأهمية المكان وقدسيته(١) .

ولقد اهتمت الدولة المملوكية برعاية المنشآت الاجتماعية والصحية في مكة المكرمة.

ففي عام ٧٧٧هـ/١٣٧٥م اعتنى السلطان الاشرف شعبان بتجديد البيمارستان وأمر بصرف مبلغ باهظ قدر بخمسة عشر الف درهم ومائتين على الضعفاء من الرجال والنساء، وتقديم المواد الغذائية وصرف الأدوية المناسبة لهم والقيام برعايتهم والإهتمام بهم(٢).

و لم يقتصر الأمر على ذلك بل استمرت العناية به من قبل اشراف مكة المتسلمين زمام السلطة في الحجاز ويتضح ذلك في مطلع القرن التاسع الهجري أصيب المارستان بفعل مرور الوقت وتقادم الزمن بالتدهور العمراني الذي شمل كثيراً من أنحاء المبنى فقرر نائب السلطنة في الحجاز الشريف حسن بن عجلان عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م بإستئجاره من قاضي القضاة بمكة

---

(١) الفاسي-**تحصيل المرام**- ورقة ٦٦- **شفاء الغرام**- ج١-ص٣٣٧.

(٢) آمنة حسين جلال -**طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي**- رسالة ماجستير غير منشورة- جامعة ام القرى- ١٤٠٧هـ- ص٤٢٠.

جمال الدين بن ظهيره[1] الشافعي لمدة مائة عام بمبلغ كبير بلغ قدره أربعين ألف درهم[2] .

ولقد ساهم القاضي ابن ظهيره بأن يصرف المبلغ في تحسين عمارة البيمارستان وإصلاحه بشكل صحي مناسب يعود بالإنتفاع المثمر والتحسين الصحي للمرضى وإضافة إيواناً[3] وصهريجاً[4] ووقفه على الفقراء والمساكين والمرضى والمنقطعين يأوون اليه علواً وسفلاً وينتفعون بالإقامة والسكنى حتى يتم شفاءهم وتتحسن صحتهم لايزعجهم أحد ولا يخرجون إلا بإختيارهم وكتب بذلك كتاب وقف[5] .

---

(١) جمال الدين بن ظهيره، عالم متفقه من ابرز قراء الحجاز اشتهر بالورع والتقى كان قريباً من شريف مكة حسن بن عجلان وكان غالباً يستشيره في امور الدولة، امتاز بنظمه البديع في ميدان الشعر، توفي بمكة ودفن بالمعلاه عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م. انظر: الفاسي- **العقد**- ج٣- ص١٣٨.

(٢) الفاسي -**العقد الثمين**- ج١- ص١٢٣- النجم إبن فهد-**اتحاف الورى**- ج٣-ص٥٠٧- النهروالي- **الإعلام**- ص٢٠٣.

(٣) الايوان: مكان واسع من ثلاث جدران وسقف لإستقبال الناس وقيل هو الصفة العظيمة والقسم المسقوف من ثلاثة اطرافه (الرواق) والشرفه في العامية (ليوان) مثل ايون كسرى اشهر ابنية الساسايتين وإيون المسجد وايوان القلعه وايوان العدل وايوان كسرى وبقاياه ماثلة قرب بغداد. انظر: محمد التونجي-**معجم المعربات الفارسية** – دار الادهم- دمشق- ١٩٨٨م ص٣١- محمد احمد الدهان- **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**- دار الفكر بيروت – ١٩٩٠م ص٢٧.

(٤) الصهريج- لغة: مخزون بيتي تحت الارض تجتمع فيه مياه الامطار سمي كذلك لأنه مصنوع بالصاروج معرب (سارو) حيث يطلى به قال العجاج: حتى تناهى في صهاريج الصفا انظر د. محمد التونجي -**معجم المعربات الفارسية**- ص١١٣. الفيروز ابادي- محمد- **القاموس المحيط**- القاهرة- دار المامون- ١٩٣٨- ص٢١٥ عدد من المؤلفين- **المنجد في اللغة**- ط٢٦- دار المشرق- بيروت- ١٩٨٦- ص٤٣٨.

(٥) الفاسي -**العقد الثمين**- ج١- ص١٢٤-النهروالي-**الإعلام**- ص٢٠٣.

ولقد تبرع عدد من الأثرياء في المجتمع المكي يأملون الأجر والثواب من الله سبحانه وتقديم خدمات جليلة لتحسين الأوضاع الصحية للمرضى في المجتمع المكي وكان من أبرزهم الجمال محمد بن الشهاب احمد البوني الذي أوقف بعض الأماكن بالحجاز على البيمارستان[1] .

وكذلك قيام احمد بن جمعه[2] بتعمير جانباً من البيمارستان ووسع فيه وفتح له باباً آخر غير المواجه للحرم الشريف من زقاق الوكان[3] ليستخدم لإخراج الموتى منه وإدخال متطلبات البيمارستان من الحطب والماء العذب[4] واهتم خاير بك الفنان المعماري في رجب عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م بتعمير وتحسين جزء من البيمارستان[5] .

ولقد استمر هذا البيمارستان يؤدي دوره حتى زمن المؤرخ قطب الدين النهروالي في الربع الأخير من القرن العاشر حيث نجد نصاً تاريخياً لديه يتضمن أنه كان يقوم بتدريس علم الطب بهذا البيمارستان[6] .

---

(١) احمد عيسى بك -**تاريخ البيمارستان**- دمشق- ١٣٥٧- ص٢٦٣. محمد الفعر- **تطوير الكتابات والنقوش في الحجاز**- ص٥١٨.

(٢) احمد بن جمعه بن عبد الله الواسطي- السخاوي-**الضوء اللامع**- ج١-ص ٢٦٨.

(٣) زقاق الوكان يقع بحي اجياد المعروف ولقد أزيل في الوقت الحاضر وعمّر مكانه سمو الامير مشعل بن عبد العزيز عمارة ضخمه أنيقه يوجد بها الآن فندق فخم يمتلكه الخوقير. انظر: البلادي- **معجم معالم الحجاز**- مكة- دار مكة- ١٩٧٩م- ص٥٨.

(٤) النجم ابن فهد-**اتحاف الورى**- ج٤- ص٢٩.

(٥) إبن إياس -**بدائع الزهور**- ج٤- ص١٦٣- **نيل المنى**- ص٢٨١.

(٦) النهروالي -**الاعلام**- ص٣٥٣.

وتذكر لنا المصار اسماء بعض الشيوخ الذين تولوا نظر هذا البيمارستان ونلاحظ من خلال تراجمهم، أنهم كانوا على جانب كبير من الديانة والأمانة والصلاح والخير، كما كانوا أصحاب أموال يقومون إما بإنفاقها على البيمارستان، أو بشراء بعض الأماكن لتوقف على البيمارستان. ومن هؤلاء الشيوخ محمد بن سالم بن محمد البلدي (ت ٨٤٠هـ/١٤٣٦م)(١) كان شيخ البيمارستان بمكة بعد محمد بن علي الرباطي وكان رجلاً مباركاً حصل من فتوح البيمارستان مالاً أرسله إلى الشام واشترى به اشياء وقفها على البيمارستان(٢)، وخلفه في مشيخة البيمارستان ابراهيم بن محمد بن برهان الدين الكردي (ت ٨٥٣هـ/١٤٤٩م)(٣) الذي جدد في أوقافه المكان المجاور لأحد أبوابه، إشتراه من ربعه عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م(٤) وإستقر بعده في المشيخة محمد بن محمد بن قلبه الشمس الدمشقي المكي (ت ٨٧١هـ/١٤٦٦م)(٥) الذي كان صاحب مال معروفاً بإحسانه على الفقراء والأيتام(٦).

---

(١) النجم بن فهد- **الدر الكمين**- ورقة٢٥ب- السخاوي- **الضوء اللامع**- ج٧- ص٢٤٨.

(٢) النجم بن فهد- **المصدر السابق**- ورقة٢٥ب- السخاوي- **المصدر السابق**- ج٧- ص٢٤٨.

(٣) السخاوي- **الضوء اللامع**- ج١- ص١٧٠.

(٤) **نفس المصدر**- ج١- ص١٧٠.

(٥) السخاوي- **الضوء اللامع**- ج٩- ص٢٦٦.

(٦) **المصدر السابق** - ج٩- ص٢٦٦.

كما كان هناك من اهل الخير من يقوم بالتعاون مع البيمارستان، مثل عيسى بن يحيى الريفي المغربي المالكي نزيل مكة (ت ٨٢٧هـ/١٤٢٣م)[١] الذي كان يقوم بجمع الفقراء المرضى من الطرقات وحملهم الى البيمارستان[٢] لتقديم الدواء اللازم لهم.

كما كان بهذا البيمارستان من يقوم بتجبير الاعضاء، مثل علي بن سعود بن فيروز البغدادي (ت٦٥٥هـ/١٢٥٧م)[٣] ومحمد بن عبد الله بن علي الكازروني المكي (ت ٧٧٧هـ/١٣٧٥م)[٤] وممن عولج بهذا البيمارستان عبد الله بن منصور التلمساني (ت٨٥٥هـ/١٤٥١م)[٥] بعد تعلله بالاستسقاء، وابوبكر العجمي (ت ٨٦١هـ/١٤٥٦م)[٦] وابن الشاهد محمد بن احمد بن صدقه الحسيني (ت ٨٨٦هـ/١٤٨١م)[٧] مما يعني أن هذه البيمارستان كان به مجموعة من الأطباء المهرة يقومون بمعالجة المرضى، غير أننا لم نعثر من خلال المصادر إلا على اسم طبيب واحد في هذا البيمارستان وهو محمد بن احمد بن عبد الله بن حمد الطبيب (ت ٨٢٣هـ/١٤٢٠م)[٨] .

---

(١) السخاوي-**الضوء اللامع** - ج٦- ص١٥٨.

(٢) **المصدر السابق** - ج٦- ص١٥٨.

(٣) الفاسي- **العقد الثمين**- ج٦- ص٢٦٨.

(٤) **المصدر السابق** - ج٢- ص٦٩- ابن حجر- **الدرر الكامنة**- ج٣- ص٤٧٨.

(٥) السخاوي-**الضوء اللامع**- ج٥- ص٧١.

(٦) **المصدر السابق** - ج١١- ص١٠٠.

(٧) **المصدر السابق** - ج٢- ص٣١٤.

(٨) **المصدر السابق**- ج٦- ص٣٢٣.

ويبدو أن بلغ حداً كبيراً من الشهرة الطبية مماجعل المصادر تشير كثيراً الى اسمه.

ولقد أوكل اشراف مكة عائلة العراقي للتقدم بمهمة الناظر على البيمارستان عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م لما تمتعوا به من إلمام علمي وطبي واتصافهم بالمروءة وتقديم المساعدة والعون وحب الخير والصلاح وكان من أبرزهم برهان الدين ابراهيم إبن الشيخ فخر الدين أبي بكر بن ابراهيم العراقي الأصل المكي[١] الذي استمر ناظراً للبيمارستان الذي عرف بالديانة والأمانة لذلك كان الأغنياء يقومون باعطائه الزكوات ليقوم بتفريقها على من يختار كما كان يجمع الفقراء عنده على الطعام مرة واحدة كل اسبوع[٢]، ثم عقبه حفيده شرف الدين إسماعيل بن محمد بن ابراهيم العراقي حتى أصيب بمرض حصر البول الذي كان سبباً في وفاته صبح يوم الخميس في شهر شوال عام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م عن عمر يناهز السبعين فجهز في يومه ودفن بالمعلاة[٣].

وبذلك انقرض بيت العراقي من نظارة البيمارستان لعدم وجود عقب لهم يقومون بتكملة النظارة وانتقلت بذلك نظارة البيمارستان الى الشيخ جمال الدين محمد بن عبد الله باكثير[٤] الذي كثف نشاطه لتحسين

---

(١) **نيل المنى**- ص١٧-٢٣.

(٢) السخاوي-**الضوء اللامع**- ج١- ص١٦٧.

(٣) **نيل المنى**- ص٢٥٧.

(٤) جمال الدين محمد عبد الله با كثير، من بيت علم فكان والده من العلماء، له عشرة من الأخوة ابرزهم اخيه ناظر الحرم القاضي عبد اللطيف، أجيز بالتدريس محباً للخير عطوفاً على الفقراء والأيتام، توفي بمكة ودفن بالمعلاه عام ٩٦٨هـ/١٥٦٠م- الشلي- **السنا الباهر**- ورقة٢١٥.

البيمارستان[1] واستعان على ذلك بمرسوم صادر بعناية السلطان العثماني سليم الاول عندما أرسل السلطان عدة مراسيم الى الحجاز من بينها مرسوم يوصى به غاية الوصاية وبذل أقصى المساعدات في النظر على الأوقاف من الربط والسبل والمياضي. والبيمارستان لعمارتها والفحص عن متحصلها وأنه أوقف لها أموال كثيرة تستحصل من أوقافه بمكة والشام[2] .

وأصبح الناظر باكثير يعطي اهتماماً مكثفاً لتحسين البيمارستان ورتب فيه شخصاً يقوم برسم الزيارة للمرضى وقام بتوفير أطباء أكفاء يهتمون بعلاج وأحوال المرضى وعين قيماً من أهل المعرفة ووضع لديه خزائن العقاقير ويوضح المؤرخ جار الله بن فهد شدة إعجابه بهذه الرعاية الصحية والنشاط الملموس من قبل ناظر البيمارستان ((... ووجده معطلاً من المرضى فأدخل فيه جماعة وقال: أنا أصرف عليهم وباشر بعض ذلك بنفسه))[3] .

كما استخدم البيمارستان كمقر عقوبة وتأديب لبعض الشخصيات المهمة في المجتمع المكي عندما تغضب عليهم السلطات فلا ترسلهم إلى السجن رأفة بهم ونستشهد بذلك ما رواه لنا جار الله بن فهد عن الصراع بين قاضي الحنفية بمكة المعزول وجيه الدين عبد الرحمن بن غيث وقاضي المالكية تاج الدين عبد الوهاب الذي اشتد بينهما التخاصم ووصل لمرحلة التشابك

---

(١) نيل المنى –ص٢٨٠.

(٢) المصدر السابق– ص٢٨١.

(٣) المصدر السابق –ص٢٨١.

بالأيدي والشتائم بألفاظ غليظة لا تليق بمثليهما ولم يتحرج جار الله بن فهد من ايرادها في ثنايا مصدره بقوله: ((ووصل الخلاف إلى نائب جدة مصطفى الرومي ... الذي أمر بإخراج الحنفي بعنف وقوة وإهانة بالضرب والجر وهو حاف بلا ثياب وعمامة وأحضروا له فلقة وعصا لضربه وتجريسه وخيروه في ذلك أو وضعه في البيمارستان، فذهبوا به إليه... ووضعوه في الطاقة التي على المسجد الحرام. فتألم له كل من رآه وأنكر هذا الفعل الخاص والعام... فاستمر الحنفي في البيمارستان الى الصباح... وكتب ورقة بتعديه بذلك فأطلقه))[1] .

ولقد وضعت قواعد وأنظمة للبيمارستان وطبقت بكل حزم وصرامة من أجل إستمراره في تقديم خدمات صحية عالية للمرضى القاطنين به ولقد كان البيمارستان يغلق أبوابه ويمنع فتحها للفقراء في يوم عاشور من شهر محرم كما حدث ذلك عام ٩٤٢هـ/ ١٥٣٥م عندما أمر قاضي القضاة الزيني عبد اللطيف باكثير[2] بإصدار مثل هذا الأمر[3] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٤٠.

(٢) القاضي عبد اللطيف بن احمد بن محمد باكثير قاضي القضاة الشافعية ولد عام ٩١١هـ/١٥٠٥م وكان فهماً ذكياً حسن الحفظ المعيأ أديباً تفقه على كثير من علماء مكة عزل من القضاء بأول قضاة الروم عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م، توفي مطعوناً عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م. ترجم له: الشلي- **السنا الباهر**- ورقة٤٤٩- ٤٥٧.

(٣) **نيل المنى**- ص٣٢٩.

بذلك يتضح لنا الدور الكبير الذي قدمه البيمارستان من خدمات علاجية للمجتمع المكي وللحجاج الزائرين لأداء فريضة الحج والإهتمام الشديد من قبل الخلفاء والسلاطين وأمراء وأثرياء مكة خاصة بتقديم أجل الخدمات للمجتمع المكي.

العادات الاجتماعية والدينية لأهل مكة

كان طبيعياً ما دامت حياة مكة تعتمد على البيت الحرام أن تـتركز كثير مـن احتفالاتهم وعوائدهم اليومية حول البيت المعظم، شعائره ومزاراته، وقد عرفوا في أواخر أيام المماليك وبداية الدولة العثمانية الإهتمام بالأبهة والعناية بالتفاصيل في كل ذلك فمن عاداتهم:

الاحتفال باستهلال الشهور الهجرية:

فلقد اهتم جار الله بن فهد بما كـان يحدث داخل المجتمع المكي من عادة استقبال الهلال فلقد روى لنا أن عادتهم في ذلك أن يخرج جمع كبير على رأسهم قاضي القضاة الشافعي ونـاظر المسجد الحرام وبصحبته جماعة من الاعيان والفقهاء والشهود والقضاة ويتجهون الى خارج مكة ويطلعون عصراً الى جبل أبي قبيس لرؤية الهلال والتأكد من اطلالته ويقومون بأداء صلاة المغرب بجوار جبل أبي قبيس وعند رؤيته يهللون ويكبرون ويتحركون صوب المسجد الحرام والصلاة عند مقام ابراهيم ركعتين وتقبيل الحجر الاسود والطواف حول الكعبة المشرفة[1]، وكـان هناك عادة حسنة عند النـاس إذ كانوا يبادرون عند حلول كل شهر بمصافحة بعضهم ويهني كل واحد منهم الآخر بحلول الشهر متناسين أحقادهم وخلافاتهم ثم يأمر ناظر المسجد الحرام

(١) نيل المنى - ص٣٩-١٥٨-٢٥٩.

بإخراج زيت المسجد الحرام والشمع الخاص ليتم إيقـاده علـى منـائر المسـجد والمطاف والمقامات كما يزداد إيقاد المشاعل في الحرم وتوقد ثرياته[١] .

وفي صباح اليوم التالي يتوجه الأعيـان في المجتمـع الى دار الشـريف أمـير مكـة ويهنئونه بحلول الشهر بكلام مسموع مطبوع حافل بالدعاء والثناء ثـم يختتـم ذلك بعدة أبيات من الشعر في مدحه ومدح أسلافه، وتمجيـده وذكـر سـابقة النبوة[٢]. ويسجل ذلك المؤرخ جار الله بن فهد ((... وتوجه الجميع وقضـاة القضاة والأعيان الى السيد الشريف -بركات وأولاده- للسلام عليه، وأنشده قاضي القضاة الحنفي نسيم الدين المرشدي[٣] قول بعضهم في التهنئة بالشهر:

قَدْ أقبَلَ الشَّهرُ فَأهْلاً بِهِ نُهَنِّيء مَوْلانَا بإقْبالِــه

فَاللَّـــهُ يُبْقِيـــكَ لأمثَالِنا وا لله يُحيِّك لأمْثـالِه

فأعجب الشريف بركات أمير مكة بهذين البيتين فصار يكررهما))[٤] .

---

(١) **نيل المنى** - ص٢٠٥-٢٥٩.

(٢) **المصدر السابق** - ص١٧٢-١٩٠-٢٠٥.

(٣) نسيم الدين بن عبد الغني بن عبد الواحد المرشدي، ولد عام٨٧١هـ/١٤٦٦م درس على علمـاء الحرمـين الشريفين حفظ القرآن والأربعين النووية رحل الى اليمن وأخذ عن علمائها اشتهر بنظمه الشعر كـان مقبـولاً من الخاص والعام لحسن طريقته وطيب نيته توفي عام ٩٣٤هـ/١٥٢٧م. ترجـم لـه: الشـلي- **السـنا البـاهر**- ورقة٣٤٧.

(٤) **نيل المنى** - ص٦٩.

الاحتفال بشهر رجب:

كما كان لبعض الأشهر الهجرية عند أهل الحجاز أهمية خاصة كشهر رجب الذي يعتبر موسماً كبيراً وعيداً من أكبر أعياد مكة وتوارثوا ذلك عن أسلافهم ويقال إنهم توارثوا ذلك عن الجاهلية إذ كانوا يسمونه منصل الأسنة[1] وهو من الأشهر الحرم.

كما كان يتم فيه العمرة الرجبية التي كانت تعادل عند أهل مكة وقفة عرفة.

وكان يفد الى مكة اعداد كبيرة من المناطق المجاورة أو من البلاد الاسلامية.

وكانوا يستعدون للاحتفال بتلك العمرة قبل حلول الشهر[2].

وكان أهل مكة بمختلف طبقاتهم ومن يحضر اليها للعمرة يخرجون الى التنعيم راكبين في الهوادج المشدودة على الإبل المكسوة بأنواع الحرير أو الكتان الرقيق حسب ثراء صاحب الهودج من مختلف انحاء مكة وقد زينت الإبل بمختلف أنواع الزينة من قلائد الحرير وغيرها. وكانت استار الهوادج تصل احياناً الى الارض.

ومن كثرة هذه الهوادج التي شاهدها العز بن فهد اكد ان العمرة مستمرة طوال شهر رجب فيزدحم الناس حول الكعبة وتوقد الشموع والمشاعل

---

(١) لأنه شهر معظم في الجاهلية ويمنع القتال فيه وكانوا يسمونه رجباً مُنَصِّل الأسنة أي مخرج الأسنة من أماكنها ، كانوا إذا دخل رجب نزعوا أسنة الرماح ونصال السهام إبطالاً للقتال فيه لأسباب الفتن لحرمته، فلما كان سبباً لذلك سمي به إعظاماً له ولا يغير بعضهم على بعض قال الشاعر الأعشى:

تداركه في مُنْصِل الألّ بعد ما   مضى غير دأ داءٍ وقد كان يذهب

انظر: إبن منظور: **لسان العرب**- م١١- ص٦٦٣.

(٢) ابن جبير -**الرحلة**- ص٩٦.

احتفاء بالشهر وتقام الحفلات الليلية التي يتخللها الأدعية والقصائد وقراءة الكتب الدينية وكتب الأحاديث وغيرها[1] وتزداد الاعداد كثافة في اليوم السابع والعشرين من الشهر ويحتفل المجتمع المكي منذ صبيحتها إحتفالاً عظيماً ويسمون العمرة فيها عمرة الأكمة[2] .

ولقد توسع قطب الدين النهروالي في إحتفاء المكيين بهذه الليلة حيث يذكر أن هذا اليوم يعتبر عيداً مشهوراً حيث يجتمعون للإعتمار فيه ولا يكادون يتخلفون عن العمرة في هذا اليوم ويأتون إليها من أطراف مكة، ويورد أن اعتناء الناس بهذه العمرة قبل الآن أكثر وأعظم بحيث أن الشريف قتادة بن ادريس صاحب ينبع استطاع أن يسقط إمرة الأشراف الهواشم في يوم إنشغالهم بالعمرة الرجبية وخروجهم بتجملاتهم الى التنعيم فاغتنم الفرصة فهجم بقواته على مكة واستولى عليها[3] .

وتتابع المناسبات الدينية في الشهر الرجبي ففي "بلوغ القرى" أنه في اليوم التاسع والعشرين من كل عام يخصص لطواف النساء اللائي يجهزن لذلك اليوم ويستعدون استعداداً عظيماً بحيث لاتبقى امرأة في مكة دون ان تخرج

---

(١) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة٤٥ب.

(٢) عمرة الأكمة سميت بذلك لأن الناس كانوا يحرمون فيها من اكمة امام مسجد عائشة رضي ا لله عنها بالقرب من مسجد علي بن ابي طالب (رضي ا لله عنه) والأصل في هذه العمرة أن عبد ا لله بن الزبير عندما فرغ من بناء الكعبة خرج ومعه اهل مكة للعمرة فأحرموا من تلك الأكمة في اليوم السابع والعشرين احتفالاً بذكرى إتمام بناء البيت وبقيت تلك العمرة سنة عند أهل مكة في ذلك اليوم وما زالت لدى البعض مستمرة حتى الوقت الحاضر ويقدمون لتأديتها من شتى انحاء العالم الإسلامي. انظر: ابن الاثير- **الكامل**- ج١- ص١٨٩.

(٣) النهروالي-**الاعلام**- ص١١٩.

الى الحرم ويفتح بنو شيبه سدنة الكعبة بابها لهن فيتزاحمن عند بابها تزاحماً شديداً وكن يقعن على بعضهن من شدة الزحام فترى بينهن الصائحة والمهللة والمكبرة لعظمة ذلك اليوم لهن والوصول بسهولة دون مزاحمة الرجال الى الكعبة والحجر الأسود[1] وجرت العادة بعد ذلك أن تغسل الكعبة وابواب المسجد وتطهيرها لما قد يكون قد أصابها من النجاسة بسبب دخول بعض الأطفال الصغار مع أمهاتهم[2] .

الاحتفال بشهر ذي القعدة:

ومن العادات الاجتماعية الدينية في مكة الاحتفال بشهر ذي القعدة ففي أول سبت من الشهر كانت تقام بدعة سيئة ففي هذه الليلة التي تعتبر من الليالي العظيمة في المجتمع المكي إذ يبادرون بالخروج من مكة الى منى لأجل الفرجة للسبت بها والمبيت بها يومي الجمعة والسبت ثم يصلون في مسجد الخيف مغرب ليلة السبت وكان يحدث بها اختلاط الرجال والنساء[3] ومن لم يستطع الذهاب في السبت الأول يكرر ذلك في السبت الذي يليه رغم المعارضة الشديدة من قبل بعض العلماء والفقهاء ولكن لتأصل هذه العادة في معتقداتهم لم تستطع السلطة في مكة بمنعهم ويورد جار الله بن فهد نصاً بشأن هذه العادة عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م ((... في يوم الجمعة التاسع والعشرون تكلم الشيخ العارف بالله محمد بن عراق مع ولاة الأمر كالقاضي

(١) العز بن فهد - **بلوغ القرى**- ورقة ١١٢ه.

(٢) **نيل المنى** - ص٢٠٩.

(٣) **المصدر السابق** - ص١٦٩-٤٢٨.

الشافعي والحاكم بمكة من جهة الشريف ونائب جدة الرومي النداء للناس بعدم التوجه الى منى لأجل السبت في اول جمعة من شهر ذو القعدة لإزالة البدعة في اجتماع الرجال والنساء وغير ذلك من المنكرات التي تحدث بها وبمسجد الخيف، فنودى بذلك في شوارع مكة فأخذت الحمية بعض أهل الجاهلية وتكلموا مع القائد في التوجه اليها لأجل العادة وأنهم لا يحدثون شيئاً من المنكرات فوافق على ذلك))[1] ولانعلم متى نشأت هذه العادة وما السبب الرئيسي للمعتقد الديني لديهم بخروجهم في ليلة السبت من هذا الشهر و لم تلبث هذه العادة أن اختفت في العصر الحاضر.

و لم تكن بدعة يوم السبت هي الوحيدة في هذا الشهر بل كانت هناك بدعة اخرى اشتقوها من المجتمع المصري في العهد المملوكي حيث كانت منتشرة هناك وتقام في كثير من مساجد القاهرة جعلوها خاتمة لشهر ذو القعدة وهي عادة إحياء آخر ليلة فيه حيث يجتمع كثير من المشائخ والفقهاء وعدد كبير من الفقراء وطلاب العلم وعامة الناس امام الرواق الشمالي من المسجد الحرام بالقرب من مقام الحنفية فيقومون بإحياء ليلتهم من بعد صلاة العشاء الى الصباح ويتخللها صلاة الفجر بذكر الأدعية وكانوا يبدءون الدعاء في أول الليل بقولهم ((اللهم صل على حبيبنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت

(١) **نيل المنى** – ص١٤٧.

على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد عدد خلقك ورضا نفسك ومداد كلماتك، كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون))[١] .

أما عمرة ليلة السابع عشر من ذي القعدة فقد كانت تسمى عمرة الجعرانه[٢] لأن أغلب الناس في المجتمع المكي كانوا يتجهزون لذلك اليوم ويخرجون من مكة في اليوم السادس عشر من ذي القعدة ويقيمون اليوم السابع بوادي جعرانه ويصلون المغرب بها ليلة الثامن عشر ويحرمون ويتوجهون الى مكة، لأن النبي صلى ا لله عليه وسلم اعتمر من جعرانه لما عاد من الطائف بعد فتح مكة وقسم بها غنائم حنين فأحرم منها بعمرة ودخل مكة بذلك يقتدي أهل مكة بسنة النبي عليه السلام بهذه العمرة. وكان لاستمرار هذه العادة وإحيائها من قبل المجتمع المكي أن بدأت تنتشر وتمتد لتشمل شتى الطبقات المتواجدة في مكة.

بذلك يتضح لنا سبب تدفق الأعداد الكبيرة التي كانت تخرج من مكة ويصف لنا إبن فهد ذلك بقوله: ((... وأقمنا بالجعرانه من بعد صلاة العصر

---

(١) **نيل المنى** – ص١٥١.

(٢) الجعرانه بكسر الجيم وإسكان العين وتخفيف الراء، سميت باسم إمرأة واسمها ربطة بنت سعد بن زيد بني تميم وقيل من قريش وكانت حمقاء وموقع جعرانه على طريق مكة بينها وبين مكة ثمانية عشر ميلاً وحدّ الحرم من جهتها على تسعة أميال وبها ماء شديد العذوبة شرب منه صلى ا لله عليه وسلم وسقى الناس بعد أن فحص موضع الماء بيده المباركة فانبجس الماء وقيل انه غرز فيه رمحه فنبع الماء، ويوجد بها مسجدان مأثوران وبجانبه بئر كبيرة تسمى البئر المباركة توسع في تعريفها : **نيل المنى** ص٢٨٩-٢٩٠-٢٩١.

وأحرمنا منها وعدنا الى مكة المشرفة واجتمع معنا خلق نحو عشرين شقدفاً[1] ومشاة وركباناً على بهائم نحو الثلاثين، ووصلنا الى مكة نصف ليلة الخميس ثامن عشر الشهر وطفنا وسعينا وفكينا الاحرام و لله الحمد والمنة))[2] .

ومن البدع المنكرة التي تواجدت لدى المجتمع المكي بدعة بإعتقادهم بأهمية المواقع الجغرافية حيث جرت العادة عند اهل مكة أنهم في ليلة التاسع والعشرين من شهر ذي الحجة يتوجهون الى جبل حراء الذي كان يأوي اليه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة النبوية للتعبد فيه ويقومون بزيارته والمبيت فيه حتى الصباح ثم العودة من جهة التنعيم والإحرام من الموقع ليتحقق لهم ما يصبون إليه من عمرة التنعيم بعد زيارة غار حراء والوصول الى الحرم الشريف وتأدية الطواف والسعي ويشير ابن فهد شعراً لبعض اصدقائه -عندما أديا عمرة التنعيم وبصحبتهم خلق كثير- وهو الشيخ نور الدين محمد بن عراق بديهاً في المعنى:

تداني لنا التكريم بالأنس في حرا ... وكيف بغار حله سيد الورى

وسرنا الى التنعيم بالفتح تلوه ... فحزم حتما ما سوى الله لو يرى

---

(١) الشقدف: عبارة عن كرسيين بطول الشخص المتمدد متمايلتين لايستقل احدهما بالوقوف دون الآخر بحيث يصلحان للشد والربط على ظهر الجمل ويعلو كل قسم قبة على شكل نصف دائرة من اعواد (الشوحط) القابل للثني بحيث إذا ربط على ظهر الجمل بالحبال يشكلان القسمان قبه كاملة يستعمل عليها ستر للوقاية من الشمس نهاراً والبرد ليلاً وقد يتغالى= =بأنواع الستر فيكون الستار على أنواع مختلفة بعضها أبسطة من القطن أو الصوف وتجد على جانب كل شق من الشقدف جراب يوضع ما يحتاجه الراكب من مرافعة وعلى ظهر الجمل بين الشقين مكان يسمى الوسن يحمل راكباً ثالثاً قاعداً وبعض الشقادف يتأنق اصحابها فيجعلون سطحها مسطحاً وجوانب الشقدف مستورة بخيوط الخيزران وتكون في جانبي كل شقدف نوافذ يطل فيها الراكب إن أراد. البتنوني- **الرحلة**- ص٢٠٧- النجم بن فهد- **اتحاف** الورى- ج١- ص١٣٨.

(٢) **نيل المنى** - ص٢٩١..

فقلنا جميعاً حقق الظن واتركن لصرفك وامدد سفرة البشر للقرى[1]

ولقد أكد ذلك القطبي الذي كان معاصراً للقرن العاشر الهجري وزاد عليه أن له إسماً آخر يقال له جبل النور لظهور أنوار النبوة فيه وكثرة إقامة النبي صلى الله عليه وسلم فيه وتعبده ونزول الوحي وأضاف أن في أعلاه بركة يجتمع فيها الماء من المطر[2] .

ومن البدع السيئة التي لم يتطرق إليها جار الله بن فهد في كتابه نيل المنى ولكن ذكرها والده العز بن فهد بالإضافة الى وجودها في كتب الرحالة الذين زاروا مكة كإبن جبير وابن بطوطه.

الاحتفال بليلة النصف من شعبان حيث يقوم كثير من العوام والجهلة بالعمرة وتزدحم مواكبهم في المسجد الحرام ويقومون بالطواف والصلاة جماعات وأفراداً معتقدين أن زمزم تفيض في هذه الليلة حتى تطفح فيزدحمون على التبرك بمائها واستمرت هذه العادة مستمرة في مكة مؤمنين بهذه الخرافة حتى تلاشت في العهد السعودي بعد استيلاء الملك عبد العزيز على الحجاز ولكنها أخذت نمطاً آخر بالإحتفال بنهاية شعبان في الوقت الحاضر وتسمى بمصطلح "الشعبنه" توديعاً للشهر وترحيباً بشهر رمضان[3] .

وتتكاثر في تلك الفترة الزمنية بعض العادات التي لاتمت الى العقيدة الإسلامية بصلة بل يصيبنا الاستغراب والدهشة مما أصاب المجتمع الإسلامي في هذا

---

(١) **نيل المنى** – ص١٠١.

(٢) –**أعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام**– ص١٦٢.

(٣) إبن جبير –**الرحلة**– ص١٠٦/ إبن بطوطه–**الرحلة**– ص١٦١/ العز بن فهد– **بلوغ القرى**– ورقة رقم ٩٨أ.

القرن من تخلف وجهل بالعقيدة الصحيحة التي تدعو الى نبذ مثل هذه العادات والمعتقدات الفاسدة التي نخرت في عقليات الشعوب الإسلامية.

فلقد جرت عادة قبيحة عند الحجاج الذين يفدون الى مكة المكرمة حيث يتوجهون الى غار ثور[1] الذي آوى اليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأبوبكر الصديق رضي الله عنه عند هجرتهما الى يثرب لمشاهدته ويوجد بالغار شق يعتقد الناس أن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه قد دخلا الغار منه، وكان الناس يحاولون الدخول من ذلك الشق اقتداء بهما، ولايدخلون من الباب، وكان البعض لا يستطيع الدخول منه بل يقاسون من ذلك شدة عظيمة عند محاولتهم الدخول وكان عوام الناس ينعتون من لم يستطع الدخول بأنه ليس بإبن أبيه لذلك فإن من يحدث له ذلك يقف موقفاً مخجلاً بالرغم مما يعانيه في سبيل ذلك من مشقة وهذا أمر باطل لا أصل له وليس لذلك الأمر أي أساس من الحقيقة وانما يعود ذلك الى جهل اولئك الناس ولقد علل القطبي عدم تمكن الناس من الدخول بقوله: ((... أن سبب إحتباسه عدم معرفته بكيفية الدخول فإن في الطريق صخرة فالعارف إذا

---

(١) غار ثور: يقع في جبل ثور بمكة وهو الذي اختفى فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر في القرآن، ويسمى أطحل، ويبلغ إرتفاع الجبل ٥٠٠ متر أو أزيد من ذلك، والغار في قمة الجبل صعب الوصل اليه لأنه طريق وعر حلزوني وهو عبارة عن صخرة مجوفة أشبه بسفينة صغيرة ظهرها إلى أعلى ولها فتحتان في مقدمها واحدة وفي مؤخرها أخرى ولا يدخلها شخص إلا زحفاً على بطنه، والفتحة الصغيرة عرضها ثلاثة أشبار في شبرين تقريباً وهي الفتحة الأصلية التي دخل منها النبي صلى الله عليه وسلم وهي في ناحية الغرب، والفتحة الاخرى فهي في الشرق ويسهل على الناس الدخول الى الغار والخروج منه. أنظر: ياقوت الحموي- **معجم البلدان**- م٢- ص٨٧- ابراهيم رفعت- **مرآة الحرمين**- ج١- بيروت- دار المعرفة- ١٩٧٩م- ص٦٢.

أدخل رأسه وكتفيه مال الى الجانب الأيسر فلا يجد مـا يعوقـه وغـيره يسـتمر على وجهه فتصدمه الصخرة في صدره وهو لا يشعر بها))[1] .

وشاعت الخرافات حول غار ثور ومن ضمنها أن من دخل الغـار وسـأل الله أن يذهب عنه الحزن لم يحزن على شيء من مصائب الدنيا[2] .

ولم يتطرق جار الله بن فهد في ثنايا كتابـه عـن العـادة السـيئة الـتي انتهجهـا الحجاج وبعض الجهلة في المجتمـع المكـي. وهـذا مـا يثـير التسـاؤل إمـا لعـدم معرفته بانتشار هذه العادة ام رأى أنها لا تستوجب أن يرصدها في ثنايا كتابه لعدم أهميتها.

تقاليد الاحتفال بشهر رمضان:

قال الله تعالى: ﴿وإن تصوموا خير لكم ان كنتم تعلمون﴾[3] إن وصل هــذه العبادة بأهداف الإسلام الإجتماعية وتدبـيره الأكـبر للحيـاة ولـو كـان ذلـك الوصل من طريق غير الذي أَلِف الناس تكـراره وترديـده وأهميـة الصـوم انـه لفت للمجتمع الىٰ فطرتها لكيـلا تطغـى وأن تقتضـي الرحمـة والعطـف علـى المساكين والإلتفاف والإحتفال بهذه المناسبة.

ولقد عني المسلمون منذ عهد بعيد بالإحتفـال بقـدوم شـهر رمضـان إحتفـالاً دينياً شائقاً ويتخذون من غرة رمضان مواسمهم الدينية وإذا أهل شهر رمضان كانت الطبول والدبادب تضـرب عنـد بـاب شـريف مكـة ويبـدأ الإسـتعداد

(١) القطبي- **أعلام العلماء**- ص١٦٤.

(٢) **أعلام العلماء**- ص١٦٣-١٦٤.

(٣) سورة البقرة- الآية ١٨٤.

المصحوب بالبهجة والسرور للإحتفال بحلوله في المسجد الحرام. ويتـم تجديـد الحصر وتزداد الشموع والمشاعل عددا ويتلألأ الحرم بالأنوار، وتتفرق الأئمـة فرقاً لإقامة صلاة التراويح، ويتخذ إمام كل مذهب من المذاهب الأربعة جانباً من جوانب المسجد الحرام، فالشافعية تتخـذ لهـا ناحيـة مـن المسـجد بعـد أن تنصب لها إماماً لأنه مذهب السلطة الحاكمة في الحجاز في بداية القرن العاشر الهجري وبذلك يكون الاهتمام به اكثر من غيره وكذلك أصحـاب المذاهـب الأخرى كالحنابلة والأحناف والمالكية وكذلك الزيدية، ويغص المسجد الحرام بالناس حتى لم يبق فيه مكان ولا زاوية إلا وفيه مقريء يصلي وخلفـه جماعـة حتى ارتج المسجد لكثرة أصوات القُرّاء من ناحية[1] .

وكان الإمام الشافعي يصلي بالناس عشرين ركعة وتراويح في عشر تسليمات وبين كل تسليمتين يطوف بأتباعه سبعة أشواط أما بقيـة الأئمـة فلـم يزيـدوا عن التراويح شيئاً[2] .

والجميل في هذا الشهر أنه يزداد التلاحم وتصفو النفوس بـين النـاس وتسـمو الأخلاق وتكثر المبرات وتكـثر الصدقـات للفقـراء وتـوزع عليهـم الدشيشـه وعمل الخبز كذلك للمنقطعـين والغربـاء[3] ويصبـح المسـجد الحـرام في هـذا الشهر يعج بطلاب العلم لسماع القضـاة والعلمـاء والفقهـاء الذيـن يقومـون بقراءة صحيح البخاري خاصة من قبل القاضي الشافعي ولقد ذكـر العـز بـن

---

(١) **نيل المنى** –ص٩٨.

(٢) **المصدر السابق** –ص١٣٤.

(٣) **المصدر السابق** –ص٧٤-٧٥.

فهد أن القاضي الشافعي في شهر رمضان يختم بعض الكتب في السيرة النبوية لابن اسحاق وكتاب الشفاء للقاضي عياض وقراءة قصيدة البوصيري ومسند الإمام الشافعي[1] .

وتعتبر العشر الأواخر من شهر رمضان من اعظم الليالي عند أهل مكة ويعد إحتفالهم بها أعظم من إحتفالهم بأي ليلة أخرى إذ يختم بها أصحاب المذاهب الأربعة القرآن الكريم .

ففي عام ٩٤٢هـ/١٥٣٦م في ليلة الخامس والعشرين ختم في المقام الحنفي الجمالي ابو حامد ابن الإمام شهاب الدين احمد البخاري[2] .

وفي ليلة الاثنين السابع والعشرين ختم في المقام المالكي قاضي القضاة التاجي عبد الوهاب المالكي، ثم في ليلة الاربعاء التاسع والعشرين ختم في المقام الشافعي قاضي القضاة الزيني عبد اللطيف باكثير الحضرمي[3] .

ولم يسجل المؤرخ جار الله بن فهد كيفية إعلام الصائمين بموعد السحور ولقد سطر ذلك والده العز فيروي لنا أن التسحير كان يتولاه المؤذن الزمزمي إذ كان يقيم في الصومعة الموجودة في الركن الشرقي من المسجد لقربها من دار أمير مكة. فيقوم وقت السحور داعياً ومذكراً وحاثاً للناس على

---

(١) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة ٢٨ب/٣٧ب/٤٢ب/٥٣ب.

(٢) شهاب الدين احمد بن الشمسي محمد المكي الحنفي، ولد في صفر عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م واشتغل بالعلم وتتلمذ على يد السخاوي والسيوطي امتاز بقوة الحافظة وحسن الكتابة ونال مكانة بين العلماء وولي المناصب الجليلة كالقضاء والامامة وابدع في الشعر والتصنيف، توفي بجدة وحمل على اعناق الرجال الى مكة ودفن بها بجوار والده عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م. ترجم له: إبن العماد- **شذرات الذهب**- ج٨- ص٢٧٣.

(٣) **نيل المنى** -ص٣٤٦.

الاستيقاظ لتناول الطعام وكان يشاركه شخصان يجاوبانه ويردان عليه، وغرزت في أعلى الصومعة خشبة طويلة في رأسها عود كالذراع وفي طرفه بكرتان صغيرتان يرفع عليهما قنديلان كبيران من الزجاج لايزالان مشتعلين مدة التسحير وإذا طلع الفجر أنزل المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة وشرع في الآذان ويبادر بقية المؤذنين في الآذان من كل ناحية. وكانت دور مكة مرتفعة ومن لم يسمع التسحير كان يصعد أعلى داره ويطالع القنديلين فإذا لم يرها عرف أن الفجر طلع فيمسك عن الطعام والشراب[1].

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف:

ومن العادات الإجتماعية في مكة أيضاً الإحتفال الديني بمولد النبي صلى الله عليه وسلم في موضع مشهود بشعب بني هاشم ويزار في الليلة الثانية عشرة من شهر ربيع في كل سنة ولقد وصف مؤرخو القرن العاشر الإحتفال بالمولد النبوي بتوسع كالعز بن فهد والقطبي وجار الله بن فهد فتحدثوا عن إهتمام شريف مكة بالمولد حيث كان يصدر أوامره لحاكم مكة بأن يهتم مع القضاة والفقهاء بإقامة المولد وتأنيب ومفاصلة من يتخلف عن ذلك كما حدث في عام ٩٤٣هـ/١٥٣٦م عندما أرسل شريف مكة ابو نمي الى حاكم مكة القائد مرشد الحريري[2] يأمره بإقامة المولد ومحاسبة كل من يتخلف من رجال الدولة عن حضوره او تثبيط همم الناس عن اقامته والسبب في ذلك أن كثيراً من الفقهاء يحذرون الناس من هذه البدعة ويحاولون منعها كما حدث في عام

(١) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة١٢٣ب.

(٢) **نيل المنى**- ص٣٢٢.

٩٢٧هـ/١٥٢٠م عندما ارسل شيخ المتصوفة محمد بن عراق خطاباً لشاه بندر جدة الخواجا شرف الدين الدهشه الحلبي يأمره في تبطيل الزفة لكونها بدعة وما يحدث فيها من إختلاط الرجال والنساء وإيقاد الشموع ورد عليه أنه لايستطيع مخالفة أمر الشريف وحاكم مكة(١) .

ولقد أوجد ذلك خلافاً دينياً حول هذه البدعة ويصدر قاضي الشافعية الجديد ناظر المسجد الحرام فور تعيينه وترسيمه قاضياً أن يصدر أمراً بمنع زفة المولد وأرسل الى مشائخ الصوفية من القادرية والأحمدية بترك المشي في تلك الليلة ووعدهم بمبلغ من الصدقة فمالوا إليه، مما جعل شريف مكة ابو نمي يقوم بتأديبه وحدث ذلك في عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م(٢) .

نتج عن هذا الصراع بين الفئتين المؤيدة والمعارضة أن كثرت المؤلفات حول المولد النبوي فمن هذه المؤلفات ما كتبه احمد ابن قاضي القضاة الجلالي أبي السعادات وسماه "الأقوال المهمة في تعظيم مولد نبي هذه الأمة"(٣) والحافظ المقريء شمس الدين محمد الجزري وكتابه "التعريف بالمولد الشريف" والعلامة ابو شامه في مؤلفه "الباعث على إنكار البدع والحوادث"(٤) وشتى هذه المؤلفات تتضمن في ثناياها الدعوة والإهتمام بالإحتفال بشهر المولد وعمل الولائم والتصدق في لياليه وإظهار السرور والزيادة في المبرات والقيام بالأفعال

---

(١) **نيل المنى** –ص١٦٤.

(٢) **المصدر السابق** – ص٣٣١-٣٣٢.

(٣) **المصدر السابق** –ص٣٣٢.

(٤) **المصدر السابق** –ص٢٢٤.

الحسنة لتعظيم مولد نبي الأمة وحث الناس على فعلها وحسن الإنتداب إليها مع شكر الثناء لمن قام بذلك.

ويبدو أن الجبهة المعارضة كانت من الشدة – في بعض الفترات– حتى انها تمكنت من ابطال الاحتفال مع وجود هذه البدع والمنكرات من ذلك ما حدث من منعها لفترة بلغت الأربعة أعوام من عام ٩٤٢هـ-١٥٣٥م الى عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م وكان وراء ذلك الشيخ علي الكيزواني وقاضي المالكية الشرفي ابو القاسم[١] ولكنها عادت بعد ذلك بإزالة بعض البدع المتعلقة بها[٢]

ومن مظاهر الاحتفال بهذه المناسبة، أنه يجتمع خلق كثير من عوام الناس ومماليك الشريف والخطباء والمتصوفين والفقهاء والعلماء والقضاة والأعيان ومعهم خلق من النساء وعلى رأس كل هؤلاء قاضي القضاة الشافعي المتسلم منصب نظارة المسجد الحرام بعد صلاة المغرب ويخرج مشايخ الصوفية اعلامهم ويخرج القاضي الشافعي الشمع من حاصل المسجد الحرام[٣] والزيت وتوقد شموع الحرم ومفرعاته وجميع فوانيسه وقدة حسنة ويتحرك الجمع بهدوء وسكينة ووقار والفقراء يذكرون الله تعالى أمامهم ذهاباً وإياباً متجهين الى سوق الليل الى أن يصلوا الى المحل المذكور ويدخلون الى المزار ويجلسون صفوفاً ثم يخطب فيهم الخطيب ويدعو للسلطان العثماني ملك

---

(١) **نيل المنى** – ص٤٤٥.

(٢) **المصدر السابق** – ص٤٥٢.

(٣) **مصدر سبق ذكره**– ص١٥٤.

الأمراء ثم لشريف مكة وأبنائه ثم يصلي في المحراب ثم يقومون بالعودة الى المسجد الحرام ويقف رئيس المؤذنين بين يدي القاضي ويدعو للسلطان العثماني وللسلطنة الشريفة بالنصر ثم يصلون صلاة العشاء أمام باب الكعبة بجانب قبة الفراشين ثم يقوم بعض منهم ويتوجهون الى منزل القاضي الشافعي ويمد لهم الأسمطة عليها أطعمة مفتخرة ويقومون بالذكر ويتباركون لمن ولد في هذا اليوم[1] .

مهنة الطوافة:

أغفلت كثير من المصادر التاريخية وكتب الرحالة التحدث عن أصل الطوافة ونشأتها وكيف ومتى بدأت ولكن كانت هناك بعض الإشارات اللامحة أو المعلومة البسيطة تلمح لها وإذا أمعنا النظر في السبب الذي من أجله أغفل المؤرخون الحديث عن الطوافة والمطوف وعلاقته بالحجاج نجد أنه في القرون السابقة لم تعرف الطوافة بمعناها القريب أو البعيد لأن معظم وفود الحجاج الذين كانوا يفدون الى بيت الله الحرام من بلدان مختلفة كانت تقدم الى مكة المكرمة في هيئة جماعات وكان على كل جماعة أمير رسمي تعينه الدولة التي أرسلته.

وفي عهد الدولة المملوكية استحدثت مهنة الطوافة فنرى حكام وأمراء تلك الدولة من أصل غير عربي فكانوا لايجيدون اللغة العربية، و لم يصلوا الى

---

(١) **نيل المنى**- ص١٤-١٥-٥١-٥٢-١٦٤-١٦٥-٢٣٣-٣٨٩-٣٩٠- العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ص٥١ب-٥٦أ-٦٣ب-٦٩أ-٧٤أ-١٥٥أ-١٦٥ب-١٧٨أ.

مرحلة من التفقه في الدين تؤهلهم لأن يقوموا بتأدية المناسك وقراءة الأدعية والأذكار الواردة شرعاً.

ونتيجة لذلك حرص شريف مكة على أن ينتدب لهم شخصيات دينية مرموقة مشهود لها بالتقى والورع والصلاح يرشدونهم ويلقنونهم تلك الأدعية وكانت هذه الشخصيات تلقي في نفوسهم قبولاً وإنسجاماً مع مظاهر الأبهة والفخامة التي كانت تحيط بهم[1] .

وأول نص وصلنا فيه إيضاح عن مهنة الطوافة هو النص الذي أورده قطب الدين النهروالي في حج أحد سلاطين الشراكسة حيث قال ((... أن السلطان قايتباي حج عام ٨٨٤هـ و لم يحج أحد غيره من سلاطين الشراكسة... وأن القاضي ابراهيم بن ظهيره هو الذي تقدم لتطويف السلطان وصار يلقنه الأدعية الى أن وصل السلطان مشارف الحرم ودخل من باب السلام البراني الى أن دخل الطواف وقبّل الحجر الأسود ومولانا القاضي يلقنه الأدعية الى أن تم طوافه وصلى خلف مقام ابراهيم ثم خرج من باب الصفا وسعى راكباً ومعه مولانا القاضي ابراهيم يلقنه الدعاء))[2] .

وفي بداية الحكم العثماني٩٢٣هـ/١٥١٧م اخذت الطوافة طريقها في الظهور بشكل منظم حيث أورد جار الله بن فهد نصاً يدل على أن القضاة والفقهاء والمدرسين المشهورين بالمعرفة الدينية هم المتخصصون في تطويف الشخصيات القيادية في الدولة العثمانية أو أحد ابنائهم كما حدث في شهر ذي القعدة

---

(١) **نيل المنى**- ص٢١-٣٥-٣٨-١٦-١١٣-٢٤٥-٢٥٧.

(٢) النهروالي -**الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**- ص٩٨.

عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م عندما قدم أمير الحاج المصري القاضي بركات بن موسى المحتسب بالقاهرة وقام بتطويفه فضيل إبن القاضي زين الدين عبد الباسط بن ظهيره[١] .

وفي العام القادم ٩٢٥هـ/١٥١٩م طاف وسعى نائب جدة الأمير حسين بك ومعه الشيخ المدرس الزاهد مصطفى الرومي وهو المطوف والمُسَعّى له بطلب من نائب مكة رغم إمتناعه مرة بعد أخرى[٢] .

و لم يقتصر أمر الطوافة على الشخصيات القيادية للدولة العثمانية بل تعداه الى الوزراء والتجار الأثرياء من مختلف العالم الإسلامي كالهند وغيرها التي لم تكن تحت المظلة السياسية والتبعية للدولة العثمانية ونرى أن كثيراً من الشخصيات الدينية المكية تتنافس في عملية تطويفهم لما يحققونه من مكاسب مادية تعود عليهم بالثراء وتمنحهم شهرة في المجتمع المكي حيث تعطى لهم أموالاً يقومون بتوزيعها لفقراء مكة وطلابها وعلمائها بل انها كانت تشمل في بعض الفترات القضاة والأئمة والحجبة والمؤذنين ويتضح ذلك من النص الذي أورده جار الله بن فهد ((... ثم فرق الوزير آصف خان على أرباب الوظائف من القضاة والأئمة والشيبين والمؤذنين والفراشين من الذهب والشاشات و لم يعم الناس بالمبرات، ونسب التقصير لإمام الحنفية محمد البخاري لكونها على يده وهو من المقربين عنده والمطوف له لما قدم وتشوش

(١) **نيل المنى** – ص٣٨.

(٢) **المصدر السابق** – ص٩١.

منه القاضي الجديد ونافر الوزير لعدم إنقياده له وحصل له منه ذهب بكثرة سبائك وغيرها بنى بها البيوت))[1] .

ونظراً لما كانت تقدمه -الشخصيات البارزة من غير الناطقين باللغة العربية- من اموال باهظة وهدايا قيمة لمن يكون بصحبتهم خلال تأديتهم العمرة أو مناسك الحج جعل كثير من الفقهاء يتفقون في عملية اشراك اكثر من شخص في عملية الطواف والسعي مرة يطوفه شخص ويقوم الآخر بالسعي معه أو أن يفصل بين كل طواف وسعي لمرة ويقوم الآخر بالمرة الأخرى وأصبح مع مرور الوقت نظراً للمكاسب المادية أن ينافس في عملية الطواف والسعي أشخاص لم يكن لديهم العمق والمعرفة الدينية كرئيس المؤذنين بزمزم ابو عبد الله محمد الفخري الذي مارس عملية الطوافة مشاركة للإمام محي الدين محمد جمال الدين الطبري للأمير شرف الدين يحيى الحمزاوي عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م[2] .

ولقد تطورت مهنة الطوافة والتي استحدثت في عهد المماليك ولكن نسقت أكثر فأكثر مع تغير الأزمان والحكومات حتى نظمت تنظيماً أكثر تحضراً وبشكل يواكب العصر الذي يعيش فيه المسلمون في العهد السعودي.

ذلك لأن مهنة الطوافة اعتبرت من التراث التقليدي العريق لسكان مكة المكرمة لتقدمها في التاريخ منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى ظهور الإسلام،

---

(١) **نيل المنى** - ص٣٣٦.

(٢) **المصدر السابق** - ص٣٩٤.

حيث زادت الحاجة إليها ويحترم سكان مكة هذا التراث الذي أصبح جـزء لا يتجزأ من تاريخ مكة ولا يمكن التنازل عنه وإبداله وإزالته كما يقول الشاعر:

ظَنُّوا التُّراثَ يُباعُ بيعَ نَخَاسه　　　خَابُوا وَهَلْ أسَدٌ يَبِيعُ عَرِينَا[1]

---

(١) المؤسسة الأهلية لمطوفي حجاج الدول الإفريقية غير العربية-**دليل الحاج والمعتمر**- مطـابع زمـزم-مكـة-١٤٠٦هـ- ص٢٤.

الاحتفال بالأعياد الدينية:

عني المسلمون -في شتى الامصار منذ بداية الاسلام- بالاحتفال بالعيدين الرسميين عيد الفطر وعيد الاضحى وبلغ الاحتفال منتهى الروعة والأبهة وأجلى دلائل العظمة عامة في المجتمع الإسلامي عامة وفي المجتمع المكي خاصة لكون الشعور الإسلامي يزداد توهجاً في مكة لخاصيتها الدينية المقدسة وكثرة الوافدين المسلمين من شتى بقاع العالم الاسلامي اليها وكثرة المبرات والخيرات هذين العيدين حيث ترد إليها صلات البر الخيرية من سلاطين وأمراء وأثرياء المسلمين.

ويبدأ الاستعداد لعيد الفطر منذ الاسبوع الأخير من رمضان إذ ينهمك الجميع في تجهيز الحلوى والهدايا والملابس الجديدة وفي آخر ليلة من ليالي شهر رمضان يتحرى الجميع رؤية هلال شوال فيذهب قاضي القضاة الشافعي وبصحبته جميع القضاة والفقهاء والعلماء لجبل ابي قبيس لرؤية الهلال فاذا ثبتت الرؤية قاموا بالتكبير والتهليل ثم تدق الطبول إيذاناً بختام شهر الصوم وإستقبال عيد الفطر[١].

ومن مظاهر الاحتفالات الدينية والاجتماعية في العيد أن يخرج الناس بعد صلاة الفجر ليوم العيد بملابسهم الجديدة، متوجهين الى المسجد الحرام لأن السنة جرت بالصلاة فيه، و لم يتخذوا مصلى آخر يخرجون اليه كبقية المدن

---

(١) **نيل المنى** -ص٧٨.

الأخرى، وذلك لشرف بقعة الحرم وفضل بركتها وفضل صلاة الإمام خلف المقام[1] .

وكان الشيبيون اول من يذهبون إلى المسجد الحرام لفتح الكعبة وكان زعيمهم يقيم في القبة وبقية الشيبين داخل الكعبة في انتظار وصول امير مكة الذي ما أن يشعروا بقرب وصوله حتى ينزلوا لإستقباله بالقرب من باب النبي -صلى الله عليه وسلم[2] - وغالباً ما يكون أمير مكة متواجداً لأنه في اغلب هذه الأوقات يكون في بساتينه في وادي مر الظهران.

ويشير الى ذلك جار الله بن فهد في قوله: ((في رابع عشر من شهر شعبان توجه الشريف ابو نمي لجهة وادي مَرّ لأجل العيد في وادي الدكناء فإن فريقه نزل فيه ورافقه غالب جماعته من الشرفاء)) [3] .

وإذا أقام في مكة يتوجه للمسجد الحرام ويبدأ بالطواف حول الكعبة والمؤذن الزمزمي في قبته رافعاً صوته بالدعاء للأمير والثناء عليه، وبعد فراغه من الطواف يتوجه الى مصطبة قبة زمزم في مقابل ركن الحجر الاسود فيجلس بها وأولاده عن يمينه ويساره، ووزيره وقواده وحاشيته وقوفاً على رأسه ويحضر بعض الشعراء وينشدون اشعارهم في مدح شريف مكة وأميرها الواحد تلو الآخر[4] .

---

(١) **نيل المنى** -ص ٤٨.

(٢) **المصدر السابق** -ص ٢٢٩.

(٣) **المصدر السابق** - ص٢٥٥.

(٤) **المصدر السابق** - ص٥٦.

وعندما يحين موعد الصلاة يقبل القاضي الشافعي الصلاحي ابن ظهيره[1] فيتقدم الى المقام الابراهيمي ويقف الناس ويؤذن المؤذن لصلاة العيد كما استمر في القيام بالمهمة وتأدية الصلاة القاضي الشافعي الجديد عبد اللطيف باكثير[2] وذلك بعد عزل ابن ظهيره من منصبه ثم بعد ذلك يتقدم الخطيب لإلقاء خطبة العيد المتضمنة على فضائل العيد وما يجب على المسلمين مراعاته للمحافظة على شعائر الإسلام وواجب الاغنياء تجاه الفقراء في هذا اليوم وترك الخصام والاصلاح بين الناس ولا عجب فقد كانت مظاهر الإسلام تتجلى بصفاء النفوس وبث المحبة والود ونزع الأحقاد والضغائن.

ولقد انتقد جار الله بن فهد قيام بعض الخلفاء بإطالة خطبة العيد مما لا يتفق مع روح السنة والرفق بالناس من ذلك ما حدث من وجيه الدين عبد الرحمن النويري[3] والمحيوي العراقي[4] وذلك لإطالتهم في الخطبة وعدم رضا كثير من الناس خاصة من محي الدين الحمصاني الذي وصفه قائلاً ((... وفي صباحها صلى بالناس صلاة العيد وخطب خطبة طويلة شحنها بكثير من الأحاديث والمواعظ التي لم يقع لها موقع في القلوب وطول فيها حتى آذى الناس بحر الشمس وشكوه الى علام الغيوب...))[5].

---

(١) نيل المنى – صص٩٥.

(٢) المصدر السابق – ص١٥٦.

(٣) المصدر السابق – ص١٤٢.

(٤) المصدر السابق – ص ٢٥٦.

(٥) المصدر السابق – ص ٣٧١.

وبعد الفراغ مـن الخطبـة يبـادر النـاس الى مصافحـة بعضهـم البعـض بقلـوب صافية قد طهرها جلال المناسبة متناسين خلافاتهم، فرحـين ببهجـة العيـد ثـم يتوجهون بعد ذلك الى الحرم فوجاً تلو الآخر[1] .

أما بالنسبة لعامة الناس فإن كل رب أسرة يجتمع بعد صلاة العيد بأفراد عائلته ليوزع عليهـم هدايـا العيـد ويلبـس الكـل الملابـس الجديـدة خاصـة الأطفـال ويتبادل الجميع الهدايا وتكثر الزيارات والولائم وتزول في هذه الأيام الضغائن والأحقاد ويقبـل المسـلمون علـى بعضهـم البعـض بقلـوب صافيـة تشـع محبـة وإخاء.

وخلال أيام العيد كانت شموع الثريا والقناديل والمصابيح توقـد في الحـرم وفي كافة أطراف مكة وتتجاوب أصوات المسـلمين تصـدح بـالتهليل والتكبـير[2] وتزين مكة بالأعلام والأقمـشة الحريرية ذات الألـوان الزاهيـة وتضـرب الطبـول وتدق الأبواق[3] .

وتقام الألعاب الجماعية فـي حارات مكـة خاصـة لعبـة العيري ((ولعب عامة مكة أهل المعلاة والمسفلة في حـاراتهم فـأهل المسـفلة في الصبـاح وأهـل المعـلاة آخـر النهـار بسـوق الليـل كالعـادة ويحضـر بعـض كـل منهـم علـى الآخرين))[4] .

---

(١) **نيل المنى** – ص ١٧٩.

(٢) **المصدر السابق** – ص ص٢٢٤.

(٣) **المصدر السابق** – ص ص٦٣.

(٤) **المصدر السابق** – ص ١٤٢.

أما في عيد الأضحى فكان المسلمون يتوافدون من كافة أرجاء العالم الإسلامي على مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ويقوم الخطيب بالقاء الخطبة على المصلين في المسجد الحرام في السابع من ذي الحجة بعد صلاة الظهر خطبة بليغة يشرح لهم مناسك الحج ((وفي ظهر تاريخه خطب الخطيب بالمسجد الحرام خطبة السابع من ذي الحجة وتوقف فيها))[1] ، ثم يشرحون لهم شعائر الحج من الوقوف بعرفة ورجم الجمرات والمبيت بمنى والتضحية وطواف الإفاضة[2] وغير ذلك من المناسك وكان من عادة من يتخلف عن حج العام من اهل مكة ان يحتفل بالعيد إحتفالاً عظيماً إذ بعد الصلاة يقومون بنحر أضحياتهم لوجه الله تعالى فيحتفظون بثلثها لطعامهم ويوزعون ثلثها للأقارب وثلثها للفقراء ويقوم الناس بزيارة بعضهم البعض فيبدأون بالأقارب وصلاً للرحم ثم بالأصدقاء والجيران لتهنئتهم بالعيد والأطفال يمرحون ويفرحون ويلعبون إبتهاجاً بالعيد[3] .

ومن العادات التي انتشرت في المجتمع المكي منذ بداية بسط النفوذ السياسي العثماني على الحجاز تاريخ عادة قراءة القرآن للسلطان حيث يقرر عدة من القراء يبلغون الثلاثين أو الاربعين أو الخمسين لقراءة سورة الانعام[4] وقت

(١) **نيل المنى** – ص ١٥٤.

(٢) **المصدر السابق** – ص١٧٨.

(٣) **المصدر السابق** – ص ٤١١.

(٤) سورة الانعام من السور المكية وآياتها خمس وستون ومائة وهي تختلف في اهدافها ومقاصدها عن السور المدنية التي تسبقها في المصحف كالبقرة وآل عمران والنساء فهي لم تتعرض بشيء من الاحكام التنظيمية لجماعة المسلمين وانما تناولت القضايا الكبرى كأصول العقيدة والايمان وسميت بالانعام لورود ذكرها فيها ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والانعام نصيباً﴾.

المحن والشدة خاصة اثناء حروب السلطان العثماني ضد اعدائه من الروم والإفرنجة وغيرهم وكانت تقرأ كل يوم بعد صلاة الصبح خلف مقام الحنفية وعقب ختمها يتوسلون بالدعاء لنصرة السلطان العثماني ويخصص لهم مبلغ من المال يبلغ في بعض الفترات أربعة دنانير في كل عام وتزيد احياناً لتصل الى حدود العشرة دنانير وكان أغلب القراء من القضاة والمشايخ والفقهاء[1].

كما نافس السلطان العثماني في هذه العادة السلطان الهندي بهادر شاه حيث امر وقرر وزيره آصف خان بقراءة سورة الانعام والدعاء له بالمسجد الحرام كل صباح خلف مقام الحنفية وخصص خمسين نفراً من قراء العرب والعجم وكان من ضمنهم المؤرخ جار الله بن فهد[2].

وكان السبب الرئيسي في قراءة سورة الانعام ما تتضمنه هذه السورة المكية من معالجة قضية العقيدة الاسلامية وتخليص الأرض من الفساد وتحرير الإنسان وتطهير المجتمع من الظلم الإجتماعي وتهذيب النفوس والأخلاق وأن ترتفع عليها راية لا إله إلا الله محمد رسول الله.

كما احتوت آياتها على الوعد والنصر من الله وعدم الإستعجال والتحلي بالصبر والى هذه المعاني وغيرها يشير ابن عباس فيقول ((نزلت الأنعام بمكة ليلة، جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح))[3].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٠-٣١.

(٢) **المصدر السابق** - ص٣٣٧.

(٣) سيد قطب -**ظلال القرآن**- ج٢- القاهرة- دار الكتاب-١٩٦٩م- ص١٠- **محاسن التأويل**- ج٦- ص٢٣٢.

وتستمر قراءة سورة الانعام حتى يتم تحقق النصر للسلطان العثماني بفضل اعداد العدة والأخذ بأسباب القوة وابتهاجاً بهذا النصر يصدر الشريف قراراً بتزيين مكة وينفذ الأمر حاكم مكة فتتحلى بالزينة مدة سبعة أيام ويلزم الحاكم التجار بتحسين الزينة والإعتناء بها خاصة التجار الأتراك بإقامة الاعلام والزينات على متاجرهم ومنازلهم وتبتهج مكة بهذا النصر(١) .

ومن العادات الاجتماعية في مكة المكرمة مراسم الاحتفال بتولية المناصب الجديدة سواء كانت مناصب إدارية أو سياسية، كنيابة جدة أو تولية حكم مكة(٢) أو شرعية في مناصب القضاء أو الخطابة أو الإفتاء أو نضارة المسجد الحرام(٣).

ويرصد ذلك العز بن فهد عندما تولى قضاء القضاة بمكة جمال الدين ابي السعود بن ظهيرة خلفاً لوالده برهان الدين فيقول: ((ولبس بعد القراءة قاضي القضاة جمال الدين ابو السعود الخلعة وتطيطس بالطرحة... ومشى أمام القاضي جميع الفقهاء ... ومشى أيضاً الباشا أمير الترك... وجمع من الترك... وجمع من التجار والمتسببين والفقراء وأهل الخير وشهد المسلمون بولايته وكان يوماً مشهوداً زينت فيه البلاد وجاء الشريف محمد بن بركات وأولاده بعده... الخ))(٤) .أو مايعمل من إحتفال أيضاً عند تولي منصب سياسي كالإحتفال بعلي بن قرقماس المكي لما تولى الحسبة في مكة يقول: ((وزف على فرس من بيت الشريف الى بيته بالمعلاة وأمامه أهل مكة والمغاني والطبل والزمر والجعيدية))(٥) .

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٠٦-٢٢٣-٣٣٧.

(٢) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة ٥٢ب.

(٣) **نيل المنى**- ص٤٦-٥٢-٧٦-١٣٠-٢٦٥.

(٤) **المصدر السابق**- ورقة ٧٣ب.

(٥) **المصدر السابق**- ورقة ٥٧أ.

الاحتفال بالأبناء بختمهم للقرآن الكريم:

كما جرت العادة في مكة المكرمة أن يختم بعض صبيانها القرآن الكريم حفظاً وتجويداً أو بعض فقهائها للقرآن الكريم قراءة وترتيلاً في العشر الأواخر من رمضان وكان يجرى في الحرم بتلك المناسبة احتفالات كبرى وكانت غالباً الختمة الاولى تتم في اليوم الحادي والعشرين من الشهر[1] .

ويصف لنا جار الله بن فهد تلك الحفلات التي تزداد أبّهة وفخامة إذا كان المختتم للقرآن حفظاً وتجويداً أحد أبناء مكة الأثرياء أو أحد أصحاب المناصب الإدارية أو الشرعية فكان يعمل له إحتفالاً عظيماً وتضاء له الشموع وتوقد له الثريات في المسجد الحرام وتزداد الإضاءة في محرابه حتى لا يكاد أحد يراه من شدة الأنوار ويستشهد بما حدث في عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م في شهر رمضان ((في ليلة التاسع والعشرين احتفل القاضي التاجي بن يعقوب المالكي المفصول -من وظيفة القضاء- بختم ولد البرهاني ابراهيم المراهق صلاة التراويح في مقام المالكية وعمل له زفة من منزله بالمفرعات والشموع والمشاعل ودُعي فيها القضاة والفقهاء والتجار وغيرهم فمشوا أمام الولد من منزله الى سويقه الشامي ودخل من باب الزيادة حتى وصل المقام والنساء يزغردن خلفه بأصواتهن في المسجد الحرام))[2] .

وكان التنافس شديداً بين أبناء القضاة والخطباء والعلماء في حفظ القرآن الكريم قبل تجاوزهم سن الخامسة عشر ليتحقق لهم الشرف الرفيع من إمامة

---

(١) نيل المنى- ص١١٢-١٤٦-٢٠١.

(٢) المصدر السابق -ص٤٠٤-٤٠٥.

الناس في شهر رمضان داخل المسجد الحرام وترتفع مكانة والده بذلك كما حصل لإمام الحنفية المحدث شهاب الدين أحمد بن محمد البخاري عندما قام ابنه ابو البقاء محمد وعمره لم يتجاوز الثلاثة عشرة سنة وصلى بالناس في مقام الحنفية صلاة التراويح[1]، وبعد الإنتهاء من الإحتفال خص والد الطفل القضاة والفقهاء وغيرهم بالطعام المنوع وتقديم الحلوى إبتهاجاً بنبوغ وذكاء وفطنة إبنه[2].

---

(١) **نيل المنى** -ص٢٩.

(٢) **المصدر السابق** -ص٤٠٤.

الاحتفال بالمواليد:

كان للاحتفال بولادة الطفل الجديد في المجتمع المكي عادات وتقاليد تتمشى مع المباديء الاسلامية بينما هناك عادات أخرى تتعارض معها لقد كان سكان مكة يفرحون بمقدم أبنائهم وبناتهم فرحاً شديداً وعندما كان يبشر أحدهم بمولود تدق البشائر وتنصب الرايات وتقام الأفراح، ويقبل النساء على أم المولود يزغردن ويرفعن أصواتهن بذلك مع ضرب الدفوف والرقص[1] .

ولقد وصف جار الله بن فهد ذلك وصفاً دقيقاً حيث ذكر أن لدى أهل مكة المكرمة عادة منذ الساعة الاولى من الولادة أن تصنع زلابية احتفالاً بالمناسبة تفرق على الناس[2] وفي تمام اليوم السابع من مولد المولود يقوم والديه بعمل فازة يحضرها الأهل والأقرباء والأصدقاء، تمد فيه الأسمطة التي تحتوي على شتى أنواع الأطعمة والملبوسات والحلويات[3] ويقدم فيه المعمول وتلقى فيه القصائد والخطب[4] . ثم يقوم المدعوون بعملية الإلصاق، ولقد اشار الى ذلك جار الله بن فهد في مناسبة الاحتفال بمولود ابن القاضي المالكي تاج الدين عبد الوهاب حيث الصق الحاضرون له نحو مائة دينار[5] رغم أن

---

(١) نيل المنى- ص٦٩-١١١-١٨٠.

(٢) المصدر السابق - ص٣٤-٥٤.

(٣) المصدر السابق - ص ٥٧٢-٢٧٣.

(٤) المصدر السابق - ص١٨٤.

(٥) المصدر السابق - ص ١٤٦.

بعضهم يرفض اللصق ولكن اكثر المدعوين يصرون على ذلك لتعويضه عما صرف من مبالغ باهظة للإحتفال بمقدم مولوده[1] .

الاحتفال بالختان والطهارة:

لقد اهتم جار الله بن فهد بما كان يحدث داخل المجتمع المكي من عادات وتقاليد في مناسبة الاحتفال بالطهارة والختان فقد اعطى وصفاً دقيقاً لها وتظهر دقته في وصفة للختان وذكر الاسماء من القضاة والعلماء والوجهاء الذين كانوا يحضرون تلك الحفلات وكيفية اللصق والتواريخ الدقيقة في أغلب صفحات كتابه.

فلقد ذكر أنه يزداد الإحتفال ويتضاعف الفرح إذا كان المولود ذكراً حيث تقام له زفة لطهوره ويعنى الاحتفال بالنظافة والتطهير وهو سنة اسلامية ويطوف به في شوارع مكة[2] حتى يصلوا به الى الكعبة ويطاف به سبعاً مصحوبة بالأهازيج وضرب الدفوف وكانت لديهم عادة غريبة منتشرة فيها نوع من التخلف والجهل والايمان بالمعتقدات الباطلة المشوبة بالخرافة حيث يقومون بكسر مشط بعد الختان للمولود لزرع العروبة في أنفسهم[3] .

ويصق لنا صاحب نيل المنى مناسبة من تلك المناسبات فيقول: ((في ليلة الخميس تاسع الشهر عمل قاضي القضاة الشرفي مولداً في الفازة حضره الأعيان من القضاة والفقهاء والتجار وغيرهم وألصقوا له نحو مائتي اشرفي بعد

---

(١) **نيل المنى** – ص ٣٤.

(٢) **المصدر السابق**– ص ٢٥٤-٢٧٢.

(٣) **المصدر السابق** – ص ٢٧٤.

توقفه في أخذ ذلك لكنه غلب عليه أصحابه... زف الولد الطهير من باب عزورة... وكسر مشط عقب تطهيرهم لأجل العروبة على قاعدة البلد، وحضر ذلك الأهل والأصحاب الملازمين لأخيه... وعمل سماط له وكان كبيراً حسناً فيه المأمونيات والرزان والدجاج والمشورات وجملة من الأطعمة المفتخرة))[١] .

ولقد اهتم المؤرخون في مكة المكرمة بتسجيل كثير من العادات الاجتماعية لأهلها ورصدوا تلك الظواهر بدقة ومهارة مما يدل رهافة حسهم وامتزاجهم بأحداث مجتمعهم ومنهم العز بن فهد الذي توسع في رصد تلك الظواهر الاجتماعية وهو في ذلك يعد رائداً لمن جاء من بعده من اسرة الفهود او من غيرهم فمن الاحداث الاجتماعية التي رصدها عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م ((عمل الخطيب محب الدين النويري زفة لولده لأجل طهاره فأمر بزف الولد من المروة الى الرصيفة وهو على فرس ومشى أمامه القضاة والفقهاء والأعيان والفقراء يهللون الى أن وصل الى داره وبصحبته المغاني المكيون بطبولهم ومزاميرهم ثم عمل له صينية حلوة مشبك ومضروب ولوزية وقام بتوزيعها على الحاضرين))[٢] .

ومن الطبيعي ان نقوم بتوضيح الدور العظيم الذي كان يقوم به العلماء المسلمون في ارشاد الناس وتوعيتهم وتنقية العادات مما ليس من الدين لأن ديننا الاسلامي دين الفطرة فهو يأخذ العادة ويهذبها دون أن يحدث هزة

---

(١) **نيل المنى** – ص ٢٧٤.

(٢) العز بن فهد –**بلوغ القرى**– ص١٨٥ب.

عنيفة تنفر من يقوم بها ولقد تلاشت كثير من العادات السيئة في بداية توحيد كيان الجزيرة العربية تحت مظلة المملكة العربية السعودية.

العادات الاجتماعية في الحزن على الأموات:

وكما تفنن اهل مكة المكرمة في انواع السرور والابتهاج والترويح عن النفس في مناسبات كثيرة فإنهم غالوا كثيراً في الحزن على الاموات وزيارة القبور وغير ذلك من الظواهر يظهر ذلك واضحاً في العادات والتقاليد والمعتقدات في ما يفعله الناس عندما يموت فرد منهم -خاصة إذا كان مشهوراً ويزداد إذا اتصف بالعلم والورع وتقديم الأعمال الخيرية- فإن الحزن يشمل مكة على أثر وفاته[1].

فكان الميت يجهز من ليلة ويحمل الى المسجد الحرام ويصلى عليه عند باب الكعبة وينادى له رئيس الزمازمة فوق مظلة زمزم بألقاب كثيرة وصورة ذلك ((الصلاة على العبد الفقير الى الله تعالى))[2].

ويضيف إليها ما يمتاز به الميت وما جبل عليه بألقاب كثيرة حسنة وبكلمات متقنة مسجعة يبكي لها السامعون ويعتبر بها المعتبرون[3] ثم يتم تشييعه بعدد كبير من الناس وتحمل جنازته ويذهب بها الى مقبرة المعلاة التي تكثر بها

---

(١) **نيل المنى** – ص ١٣٧-٢٤٩.

(٢) **المصدر السابق** – ص ١٧٠.

(٣) **المصدر السابق** – ص ٧٦-١٦٤.

الـترب المخصصـة لكثـير مـن العوائـل والشـخصيات لدفنهـم وأفضلهـا تربـة الشعب الأقصى[1] .

وكانت هناك عادة سيئة في دفن الميت قام بنقدها عز الديـن بـن فهـد وكـان نقده على التفرقة في الدفن بين سيدتين توفيتا في نفس اليـوم وتمـت الصـلاة عليهما في المسجد ولكـن دفنـت كـل واحـدة منهمـا في مكـان وذلـك تبعـاً لمكانتهما الإجتماعية يقول: ((وهذه نزعة شيطانية..))[2] .

فإذا تم الدفن تجمع المشيعون عند باب المقـبرة، ووقـف ذووه وأقربـاؤه صفـاً يتقبلون العزاء الأسن فالأسن[3] وبعد صـلاة المغـرب يكـون أهـل المتـوفي قـد هيأوا عادة مصاحف مجزأة جزءاً يسمونها "ربعة" يضعون أمام كـل قـاريء ممـن يحضر جزءاً يتلو فيه ماتيسر مـن القـراءة[4] ويكـون مـع الجمـع قـاريء بالغيب يطلقون عليـه (الفقيـه) يتلـو القـرآن بصـوت خفيـض وبـدأ القـاريء بالغيب يختم قراءته. وتختلف مدة القراءة حسـب إهتمـام أهـل الميـت ومنزلـة المتوفـى فأقصرهـا ثلاثـة أيـام[5] وقـد تزيـد علـى شـهر كمـا حـدث عـام ٩٣٤هـ/١٥٢٨م عندما ماتت شقراء ابنة القاضي جمال الدين محمد بن ظهيره حيث نصبت لها خيمـة واستمرت القـراءة عليهـا شـهراً مـن قبـل اقاربهـا[6]

---

(١) **نيل المنى** – ص ٢-١٨٢.

(٢) العز بن فهد –**بلوغ القرى**– ورقة ٨أ.

(٣) **نيل المنى** – ص ٢٤٨٩.

(٤) **المصدر السابق** – ص ٣٤٠.

(٥) **المصدر السابق** – ص ١١٣.

(٦) **المصدر السابق** – ص ٢٣٧.

وبعضهم يقوم بزيارة قبر الميت صبحاً ومساء يقرؤون له القرآن ويعمل له ختماً ثم ينشدون فيه المرثيات[1] كما حدث عندما أنشد الأديب احمد الجبلي مرثية على قبر القاضي الشافعي الزيني عبد الحق النويري.

النائبات كثيرة الإنذار　　　واليوم طالب صرفها بالثار[2]

أو تنشد في دار أهل الميت كما حدث عام ٩٢٧هـ/١٥٢١م عندما رثى الفقيه الشاعر كمال الدين ابو البركات محمد إبن ظهيره العالم محي الدين عبد القادر المكي بقصيدة من ابياتها:

يعز على بيت الرئاسة والعلم　　　وأهل المعالي والفضائل والحلم

رحيل إمام يتم العلم بعده　　　وكان له أصل منيع من الميتم

عليه بكت أم القرى وجهاتها　　　وسكانها بالتصنع والرغم[3]

ويجعل اهل الميت مبلغاً من المال لمن يتقرر في قراءة القرآن لأن في بعض الحالات يبلغ عدد القراء الثلاثين قارئاً[4] وكانت تتم القراءات إما في المسجد الحرام خلف مقام الحنفية أو على قبر الميت أو في دار أهله[5].

وينتقد العز بن فهد بعض الغلو والتطرف في إظهار الحزن على الميت كما نقد ذلك عندما حدثت وفاة شريف مكة وأميرها الشريف محمد بن بركات عام ٩٠٣هـ/١٤٩٧م وذكر أن الحزن شمل مكة على اثر وفاته وأن الأهالي ظلوا يجتمعون لقراءة الربعات جماعات كبيرة نحو ستة أيام وجز بعض النساء

---

(١) **نيل المنى** – ص ٥٨.

(٢) **المصدر السابق** – ص ١٥٧.

(٣) **المصدر السابق** – ص ١٦٦.

(٤) **المصدر السابق** – ص ٧٦.

(٥) **المصدر السابق** – ص ١٥٦.

شعورهن حزناً عليه وعم الحداد في البلاد عدة أيام وتعطلت أعمال البيع والشراء في الاسواق[1] .

ومن العادات والتقاليد التي اعتنى بها المجتمع المكي في إظهار الجزع على الميت والحزن على فقده اهتمامهم بالمقابر التي لم يقتصر دورها على دفن الموتى بل قاموا بإحداث بدع سيئة وهي البناء على بعض القبور او تشييد المساجد على بعضها الآخر.

وكانت فئات كبيرة من المجتمع المكي تقوم بزيارة المقابر وخصصوا لها وقتاً معلوماً وتقليداً يمارسونه أثناء زيارتهم لها واعتقادهم الخاطيء أن الدعاء يستجاب بجوارها وطلب الشفاعة منها خاصة عند مقبرة السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها في شعب المعلاه ويفصل لنا المؤرخ القطبي أن قبرها كان فيه تابوت من خشب يزاد فبني عليه قبة من الحجر الشميسي الأمير محمد بن سليمان جركس المصري عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م وكسا التابوت كسوة فاخرة وعين له خادماً ورتب له معيشته من خازن الصدقات السلطانية العثمانية[2] .

أما المؤرخ جار الله بن فهد فيذكر ان الدولة العثمانية كانت ترسل كسوة لضريح خديجه رضي الله عنها ويصفه بقوله: ((... طلع الأمير مصلح الدين والقضاة الأربعة الى المعلاة ورفقهتم كسوة ضريح السيدة خديجة ابنة خويلد رضي الله عنها ... وهو على قفص جرير وقدامه الفقراء الصوفية يهللون الله

---

(١) العز بن فهد- **غاية المرام**- ج٢- ص٥٩٦-٥٩٧/ **بلوغ القرى**- ورقة ١٠٠أ.

(٢) القطبي- **مصدر سبق ذكره**-ص١٥٨.

تعالى فلما وصلوا الى قبرها بالشعب الأقصى وضعوه عليه ومد لهم الامير مصلح الدين مدة عظيمة وتصدت على الفقراء بأطعمة بقسماط وغيرها وكثر الدعاء للسلطان وجماعته... وكان يوماً عظيماً للفقراء))[1] .

ثم يذكر أن خادم الضريح آنذاك وهو الشيخ زيد الدين ابو الفضل محمد بن عبد القوي المكي عندما توفي في شهر جمادى عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م دفن بالمعلاة أيضاً[2]. وهذه العادات من البناء على القبور أو تشييد المساجد عليها او كسوتها أو الكتابة عليها منافية لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف.

ومن غرابة الأحداث أن يذكر لنا جار الله بن فهد أن نسبة ارتفاع الأموات في جدة أزيد من عشرين نفساً وبمكة نحو النصف ومن يتوفى من الفقراء أو الضعفاء بجدة يدفن فيها ومن كان من علية القوم والأثرياء وكبار الشخصيات فيحمل الى مكة على أعناق الرجال ويبذل في ذلك مال كثير خاصة من قبل أعيان الدولة العثمانية[3] .

كذلك أشار في تاريخه أنه في شهر ربيع الثاني من عام ٩٢٦هـ/١٥١٩م كثرت الوفيات بمكة بشكل ملفت الإنتباه وكان أغلبهم من العلماء والأعيان[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٧.

(٢) **المصدر السابق** - ص١١٨.

(٣) **المصدر السابق** - ص ٤٤٣.

(٤) **المصدر السابق** - ص١١٣.

وسائل اللهو وقضاء أوقات الفراغ:

لم يكن اللهو وإرتياد مجالس السلاطين مستحدثاً عند العرب قبل ظهور الاسلام فقد كان لـتردد اشرافهم على بلاط كسرى وقيصر اثر بعيد في حياتهم الاجتماعية فلما ظهر الاسلام لم يغفل العرب اثر الصوت الجميل في تلاوة القرآن الكريم وشجع على انتشار الشعر كما ان الخلفاء والسلاطين والامراء كانوا حريصين على سماع قصائد الشعراء وقصص الرواة.

وكان الناس في مكة -في هذه الفترة- يقضون أوقات فراغهم في حضور مجالس الوعظ ومجالس القصص لما تعود عليهم بالفائدة والاستمتاع والانشراح ومعرفة أخبار الأمم الماضية.

كما اهتم سكان مكة باللهو واللعب وخاصة في أيام الأعياد والمناسبات حيث يجتمع الكبار والصغار لذلك في ساحات الحارات والأماكن الفسيحة[1] فضلاً عن ذلك اهتم السكان خاصة الميسورين بهواية الصيد والقنص خارج مكة وهكذا كانت هواياتهم التي تمثل اهم مايشغلون بها اوقات فراغهم ويجد فيها الشباب والكبار وسيلة لشغل فراغهم، ومجالاً للتنفيس عن طاقاتهم وأنشطتهم، وكانوا يتخذون للصيد زياً معيناً يتمشى مع سرعة الحركة وخفتها ومن اسلحتهم في الصيد اتخاذهم الخيول لهذا الغرض حيث يتدربون على ركوبها منذ الصغر وكان شريف مكة ابو نمي يمارس هواية الصيد فكان أغلب إقامته خارج مكة بوادي مر وكان يشاركه في هذه

(١) نيل المنى- ص١٥١-٢٥٩-٣٦٥.

الهواية كثير من الأشراف والقادة والموسرين[1] وعرفت لديهم العاباً مشهورة جماعية يتخللها الرقص والطيران والنقارة مثل لعبة العيري[2] .ومنها لعبة الحمام وهي من العاب الفروسية فيها نوع من الخطورة حيث تمارس هذه اللعبة على ظهور الخيل الرماح بأيدي الفرسان يلقونها في الهواء ثم يتلقفونها بمهارة فائقة لكنها في بعض الأوقات قد تسبب بعض الحوادث كما حدث عام ٩٤٢هـ/١٥١٨م عندما أصيب القائد جوهر من قبل الشريف عرار بن عجل وغرز الرمح في جسده[3] . ووجدت كذلك لديهم لعبة أخرى تسمى (لينا) يلعبونها في المناسبات خاصة حفلات الزواج حيث يلعبونها في الساحة التي تعمل أمام دار الزوج أو الزوجة ومعهم الرباب والطبران ويرقصون من الليل حتى الصباح[4] .كما انهم يحتفلون ويبتهجون عندما يقدم المحمل الشامي أو المصري حيث يقومون بعمل عرضة مصطحبين الدفوف والطبران والنقارة في ذلك[5] .وكانت الفروسية عندهم من أهم الرياضات التي يشغلون بها وقت الفراغ وخاصة سباق الخيل حيث يحضر العامة للفرجة ويتحمسون للحصان الفائز ويبادرون الى تهنئة صاحبه لذلك أصبحت الفروسية مطمح أنظار الشباب فهي تستهوى قلوبهم فضلاً عن انها مظهر من مظاهر الشجاعة.((وكان يستمر اللعب من العصر الى المغرب والخيل تمرح وتتسابق مع الإنشراح))[6] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٥٦-١١١-٢٣٨.

(٢) **المصدر السابق** - ص٤٦-٦٨-٧٥.

(٣) **المصدر السابق** - ص٣٢٢.

(٤) **المصدر السابق** - ص١٧-٢٠.

(٥) **المصدر السابق** - ص٥١-٨٠-١٢٠-١٥١-٨٨.

(٦) **المصدر السابق** - ص٣٥٢.

العادات الاجتماعية في الأطعمة والملابس

أولاً: الأطعمة والأشربة:

كانت معيشة المجتمع المكي في باديء الأمر غاية في البساطة، فكانوا في صدر الإسلام يكتفون بالقليل من الطعام الذي لم يجاوز لوناً او لونين وكان خير أدمهم اللحم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وكثير من الصحابة يقلون من الطعام لا لفقر أو شح، ولكن زهداً في الدنيا، روى عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعاً من خبز حتى مضى لسبيله[1]، وكانوا إذا اكلوا لايملئون بطونهم. فهذا النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه))[2].

وكان أهل مكة يراعون قواعد الصحة، فلايدخلون الطعام على الطعام ولايسرفون في المأكل مطبقين حديث النبي صلى الله عليه وسلم ﴿نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع﴾[3].

وجرت عادة المجتمع المكي -في أغلب فئاته- على نظام معين في مأكلهم حيث يعتمدون على أنواع من الأطعمة التي تتفق مع ظروف الحياة من حيث ماتوافر فيها من منتجات غذائية وما سادها من جو حار صيفاً الى ما كان

---

(١) صحيح مسلم -**باب الزهد**- م٢- ج١٨- ص١٠٦/ احمد بن حنبل -**المسند**- ج٦- ص٤٢.

(٢) الترمذي، ابو الحسن محمد بن عيسى-**سنن الترمذي**-باب الزهد- المدينة المنورة- المكتبة السلفية- ١٤٠٣هـ- ص٤٧- احمد بن حنبل- **المسند**- ج٤- ص١٣٢.

(٣) إبن ماجه السنن-**الأطعمة**- ص٥٠.

يفد إليها من تجار وحجاج من أنحاء العالم الإسلامي مما استلزم توفر المأكل بأنواعه المختلفة كما وجد في البيوت من أنواع المأكولات والأصناف الكثيرة، وتختلف هذه الأنواع من طبقة لأخرى.

ومن أطعمتهم الثريد وهو الخبز يُفت ويبل بالمرق وقد يضاف إليه الحمص ويوضع فوقه اللحم ويؤكل في الغداء والعشاء وأهم اللحوم لحم الإبل والغنم ومنه اللمزه وهو الخبز يكسر على السمن، والكوثان وهو الأرز والسمك، والقديد وإذا شرح عراضاً فهو الصفيف والسويق وهو الدقيق يلت بالسمن أو بالزبد ثم يؤكل ولا يطبخ[1].

ولكن بعد فترات من الزمن واعتناق كثير من الأمم غير العربية للدين الاسلامي وقدومهم الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج أو العمرة وإستقرار بعضهم طلباً للعلم أو المجاورة فوجدت أنواع من الأطعمة التي جلبها الى مكة الحجاج والوافدون من الشعوب غير العربية وانتشرت وتعددت أصنافها لدى المجتمع المكي.

وبذلك تعلم المكيون تنويع الطعام وتفننوا في طهيه وتصنيفه وترتيب تقديمه على موائدهم وتفاخروا بتقديم الكثير من اطباق الطعام المختلفة في شكلها وطعمها، فمنها الهندي والتركي والشامي والمصري والبخاري بالاضافة الى الانواع العربية وغيرها من الوان الأطعمة المعروفة لدى الشعوب الإسلامية[2].

---

(١) ابن سيده، ابو الحسن علي بن اسماعيل- **المخصص**- ج٤-بيروت- المكتبة التجارية- ١٩٦٧م ص١٢٠-١٤٨/ الفخري، ابو محمد بن سعيد-**الآداب السلطانية**- بيروت- دار الكتاب- ١٩٧٦م- ص٢٠-٧١.

(٢) **نيل المنى** -ص٨٤-٢٧٧-٢٨٤.

ولقد وصف جار الله بن فهد الأطعمة التي كان المكيون يتفننون في تقديمها خاصة في المناسبات التي كان يقيمها الأغنياء أو الطبقة المترفة في المجتمع المكي حيث يذكر أنهم أولعوا باجتلاب الوان الطعام المفتخر كالمأمونية والزاير باج والرز والضلع المحشي[1] .

وتطالعنا النصوص لدى المؤرخ جار الله بن فهد عن مظاهر السفه والتبذير والرفاهية والتلذذ الذي بلغ حداً بعيداً في الوان الطعام والحلوى التي تقدم على الأسمطة في سائر المناسبات.

فيحدثنا أنه في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م قام أحد أعيان الدولة العثمانيةو يدعى بيري الرومي بإعداد سماط هائل في منزله بالسويقه فيه نوع من الاسراف الشديد في ألوان الطعام وذلك بمناسبة زواجه ((وكان فيه اطعمة مفتخرة كثيرة لم يتفق فعلها لكثير من الأكابر بمكة في وقت تاريخه واجتمع فيه من الصحون الكبار والصغار قريب الألف، ومارئي اطول منه ولا أعرض، وجعل فيه الواناً كثيرة من الحلويات والدجاج والأرز والغزلان والخرفان، يقال إنه اشترى خمسين خروفاً بمائة وخمسين ديناراً، ومائتي دجاجة بنحو المائة وغير ذلك من المؤن والسمن والعسل والأرز والقمح والخضر بما يعجز عن حصره ويقال كلفته أكثر من الف دينار))[2] .

هذه صورة من الصور التي كان عليها نظم الموائد للطبقة المترفة في المجتمع المكي ثم يبين لنا في نفس النص صورة لأخرى لأنواع الأطعمة التي اشتهرت

---

(١) **نيل المنى** -ص٥٨.

(٢) **المصدر السابق** - ص٨٥-٨٦.

بها بيوت الأغنياء بمكة المكرمة ((... واجتمع فيه من الالوان المفتخرة الرزان الحلو والمفلفل والمأمونيتان الحموي والسكب وهريستي الفستق واللحم ومابهما من الارز والحب والزاير تاج والماوردية والرغيف الاسيوطي والششبرك الحلو والحامض وغير ذلك من أطعمة العرب والعجم. وفي صدره غزال مشوية وحولها أربع وزات، وباقية متساو في الأطعمة والحلويات وغيرها))[1] .

بذلك يتضح لنا شغفهم بتنوع الطعام والإسراف في إعداده وتنوعه وإشتماله على العناصر الضرورية للتغذية كاللحوم والقمح والخضار والبقول والحلوى.
ومن أهم مآكل السكان المكيين اللحم ولقد ورد ذكره ضمن المأكولات في مكة المكرمة خلال القرن التاسع والعاشر الهجريين فعمرت به الأسواق ومنها لحوم الضان والبقر والابل والطيور وأهمها الدجاج سواء كان فراريج أو كباراً ووجدت أنواع اللحوم المشوية التي تباع في الاسواق ومنها اللحم المشروج وأجوده ماشرح اللحم شرحاً خفيفاً حتى ينضج ويحمر وهو المسمى في الوقت الحاضر بالكباب[2] .

وبلغ من وفرة هذه الأطعمة وتواجدها المستمر في اسواق مكة انها أصبحت في متناول الطبقات الأخرى من العامة ونتبين من النص أن الخروف بلغ ثمن

---

(١) **نيل المنى**- ص٨٦.

(٢) **المصدر السابق** -ص٥٨-٨٦-٩٦-١٨١.

بيعه دينارين ونصف والدجاجة بلغت قيمتها النصف دينار وهذا المبلغ كان متوفراً لدى الأشخاص المتوسطي الحال أو الأدنى من ذلك بقليل[١] .

ومن ألوان الأطعمة التي اشتهر بها الحجاز الجرجانيه والمروزية[٢] والحريرة والفالوذج والمعمول والفتوت[٣] والمشورات والمشبك واللوزيه والمضروب والقرعيه[٤] والهريسة بالرز وبالحب وباللحم[٥] .

واهتم السكان بالخبز لأنه يدخل في كل وجبة ولايستغني عنه أحد في طبقات المجتمع المختلفة وهو نوعان نوع يصنع في البيت وآخر في السوق والنوع الجيد من الخبز الذي يترك عجينة حتى يختمر ثم يخبز وأجوده خبز الحنطة وهو غذاء جيد يوافق كل الأمزجة ومن أنواع الخبز التي يأكلها سكان مكة خبز الذرة وخبز الشعير الذي كان يأكله الفقراء والمتصوفة ويكثر وجوده في الأربطة[٦] .

أما الحلوى فكان يصنع منها أنواع متعددة زينت على موائدهم ووزعت بشكل ملفت على الأسمطة واشتهر المكيين بالاستحداث في عمل الحلوى وفاقوا الأمصار الإسلامية الأخرى.

---

(١) **نيل المنى**- ص٨٥.

(٢) **المصدر السابق** - ص ٨١.

(٣) **المصدر السابق** - ص ٢٧٧.

(٤) العز بن فهد -**بلوغ القرى**- ورقة ٥٥أ/ ٦٣ب.

(٥) **نيل المنى**- ص٢٨٤.

(٦) **المصدر السابق** -ص١٣٨.

ونستشهد على ذلك بما ذكره القرطبي عندما حج السلطان المملوكي قايتباي عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م استقبله شريف مكة الامير محمد بن بركات ومد له سماطاً فيه شتى أنواع الأطعمة وكان من بين أصنافه نوعاً من الحلوى أعجب بطعمها وطريقة صنعها السلطان قايتباي فسأل عن اسمها فقيل له إن اسمها ((كل واشكر))[١] .

وكانت أغلب الحلوى تصنع من انواع متعددة من العسل والسكر المعقود بأشكال مختلفة كانوا يضيفون إليها أنواع الفاكهة الرطبة منها واليابسة مثل الزلابية واللوز الملبس والحلوى السكرية والمربيات والمكسرات والمفتوق[٢] وكانت العادة أن يوضع الطعام وتمد الأسمطة في المناسبات بعد صلاة العشاء ليأكل الانسان ما يشتهي منه ويحمد الله على نعمه[٣] ملتزمين بالآداب والنظافة في أوقات الطعام حيث يقوم الشخص بغسل يديه قبل الأكل وبعده[٤] .

وفي بعض المناسبات كالإحتفال بالمولد يمد سماطاً خفيفاً فيه نوع من المعمول والفتوت ويقدم لهم السكر المذاب في أثنائه قبل صلاة المغرب ثم بعد صلاة العشاء يمد سماطاً فيه شتى أنواع الأطعمة اللذيذة[٥] .

---

(١) القطبي-**اعلام**- ص١٠٢.

(٢) **نيل المنى**- ص ٤٣-٨٧-٩٦.

(٣) **المصدر السابق** - ص ص١١٣.

(٤) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ص٣٨أ.

(٥) **نيل المنى**- ص ص٣٤-١٤٦-١٧٥.

ومن الآداب المرعية عند المكيين أن يخدم المضيف أضيافه وأن يظهر لهم السرور والبشاشة واطلاق كلمات الترحيب، وعلى الضيف أن يأكل من طعام مضيفه والا يعتذر بالشبع والا يفرط في الطعام[1] وفي بداية استقبالهم لضيوفهم يقدمون لهم الشاي مصحوباً بالمعمول المصنوع من الدقيق وفي باطنه تمراً معجوناً[2] .

أما عن مياه الشرب فكان يستحصل عليها عن طريق عين حنين أو السبل التي هي عبارة عن خزانات صغيرة تبنى فوق سطح الارض وتملأ بالمياه لسقيا الناس في غدوهم ورواحهم. أو البرك التي انشئت منذ فترة سابقة لتكون كخزانات للمياه أو الآبار التي تكثر في مكة المكرمة فمن النادر أن تجد رباطاً أو مدرسة لم يكن بداخلها بئراً ليستفيد منها سكان الأربطة وكان وصول الماء يتم بالطريقة القديمة المتبعة حيث يقوم السقاء بنقل الماء بواسطة الجرار الى الدور وغيرها[3] .

ولقد حرصت الدولة العثمانية على توفير ماء الشرب للعطشى خاصة أيام موسم الحج تحسباً للأعداد الكثيفة القادمة لأداء فريضة الحج من شتى بقاع العالم الإسلامي فقامت بحفر الآبار التي تتجمع حولها مياه الأمطار كما وجد أشخاص محترفون يكتسبون من وراء سقاية الناس وهؤلاء هم سقاة البيزان وأرباب الروايا والقرب والدلاء وقد خضع هؤلاء لإشراف دقيق مباشر من قبل المحتسب مراعاة خاصة الناحية الصحية[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص ٣٧-٥٨.

(٢) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ص١١١ب.

(٣) الفاسي-**شفاء الغرام**- ج١- ص٣٢١- **نيل المنى**- ص٢٥-١٠٥-١١٦-١٦٩-١٨١-٢٣٣- النهروالي-**الاعلام**- ص١٠٠.

(٤) العز بن فهد -**بلوغ القرى**- ورقة٩٢ أ.

ثانياً: الملابس:

أما أنواع الملابس التي كان يرتديهـا المكيـون فمـن المعـروف عـن أهـل مكـة الاهتمام البالغ بالتأنق في الملبس وكانت تختلف بإختلاف ظروفهم الاجتماعية وحظوظهم من الغنى أو الفقر، فكـان أغنيـاؤهم يعنـون بملابسـهم أكـثر مـن فقرائهم، كذلك كان التنوع في الأصل يؤدي الى التنوع في الملبس، فالعمامـة الهندية الى جانب القفطان[1] المصري والجبة الشامية والمنطقـة التركيـة، فـتراك كأنك تعيش في وسط تكتظ بمجموعات متباينة من الامـم المختلفـة، ولكـن يجمع بين كل هؤلاء رباط ديني واحد هو الاسلام الحنيف.

ويغلب على ملابسهم الملابس البيضاء التي تصنع مـن الغـالب مـن الكتـان او القطن أو الكندكي[2] وكان اتخـاذهم للملابـس البيضـاء واستحسـانها لقـول الرسول صلى الله عليه وسلم: ﴿خلق الله الجنة بيضاء وخـير ثيـابكم البيـض تلبسونها في حياتكم وتكفنون بها موتاكم﴾[3] .

واشتهروا كذلك بالملابس الزاهية المتلألئة الألـوان إذا انعكسـت عليهـا أشـعة الشمس وأهم مايميز رجال مكة القفاطين العمائم المـدورة مـن الشاشـات ثـم منهم من يرسل بين كتفيـه ذؤابـة لهـا فيذكـر جـار الله بـن فهـد أنـه في عـام

---

(١) **نيل المنى**- ص ٣٨.

(٢) **المصدر السابق** - ص ٢٦١.

(٣) البخاري- صحيح البخاري-**باب اللباس**- ص٢٤- ابو داوود-السـنن-**بـاب اللبـاس**- الـترمذي-بـاب **الجنائز**- ص٢٨.

٩٢٤هـ/١٥١٨م خلع أمير الحاج المصري على الشريف وولده ابو نمي ((قفطان وعصابة على العمامة المدورة كعادة أهل مكة))[١] .

ومن المفيد ذكره أن سيطرة المماليك ثم العثمانيين ونفوذهم على مكة ترك أثراً كبيراً على ظهور الأزياء التي تأثرت بالطرز المملوكية أو العثمانية عندما يقدمون الخلع السلطانية التي كان يمنحها السلطان العثماني لأمير مكة واشرافها وقضاتها في الأعياد والمناسبات كما كانت الحلل تطعم بالذهب والفضة وتتميز بالوانها الزاهية كاللون الأحمر ((وبعد الفراغ من قراءة المراسيم لبس السيد بركات خلعة جوخ حمراء بفروين وسنجاب عال من خواص ملبوس ملك الأمراء... وثانية... خلعة صوف أصفر))[٢] فشاع تقليد هذه الخلع الموشاه في الأوساط الراقية في المجتمع المكي مما ساعد في انتشارها داخل محيط الفئة الثرية.

ونستطيع القول أن ملابس الرجال في الغالب كانت تتكون من ثوب طويل ذي أكمام تصل الى المرفقين وهو عبارة عن الثوب العربي الاسلامي ويلبس خارج بيته عمامة كبيرة وتحتاج في لفها الى شيء من الدقة والمهارة والوقت ليتم لفها بالطريقة الصحيحة، لذلك يحرص الرجل على رفع عمامته عن رأسه بحذر وانتباه شديدين عند خلعها[٣] .

---

(١) **نيل المنى**- ص ص٣٨.

(٢) **المصدر السابق** - ص ١٤٦.

(٣) العز بن فهد- **بلوغ القرى**- ورقة ٩٨ب.

واختص الأشراف في اقليم الحجاز بلبس مميز ووضح ذلك في عمـامتهم ذات العلامـة الخضـراء البـارزة للعامـة والخاصـة بهـم تعظيمـاً لقدرهـم وليقـابلوا بالإحترام والقبول اللائقين لهم[١] .

وبعد القراءة المتأنية الدقيقة لم نجد نصاً في كتاب نيـل المنـى يصـف لنـا لبـاس سائر الفئات ولقد أشار القلقشندي المعاصر للقرن التاسـع الهجـري الى لبـاس القضاة والعلماء بأنهم يلبسون العمائم من الشـاشات الكبيرة[٢] ثم منهم مـن كان يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربـوس[٣] سـرجه إذا ركـب ومنهـم مـن يجعل عوض الذؤابة طيلسان[٤] ويلبس فوق ثيابه دلقا[٥] متسع الأكام طويلهـا مفتوحاً فوق كتفيه بغير تفريج سابلا على قدميه[٦] .

وكان يتميز قضاة المذهب الشافعي بلبس طرحة تستر عمامته وتنسـدل علـى ظهره لأنه ممثل المذهب السائد في مكة[٧] .

أما ما دونهم من القضاة فتكون عمـامتهم اصغـر واختلفـوا في نـوع القمـاش الذي يصنع منه وفي طريقة لبسها وفي ألوانها لكن اللون الأبيض هـو الغـالب

---

(١) **نيل المنى**- ص٦٩.

(٢) **المصدر السابق** - ص٢٣٩.

(٣) القربوس هو حنو السرج. انظر: بطرس البستاني-**محيط المحيط**- ج٢- بيروت- ١٩٧٠م-ص٦٨٤.

(٤) الطيلسان أشبه بالطرحه تغطي العمامه والرأس وكان البعض يبالغ في طوله الى حـد كبـير. انظـر: حلمـي محمد سالم-**اقتصاد مصر الداخلي**- ط١- الاسكندرية- ١٩٧٧م- ص١٢٤.

(٥) الدلق دويبه كالسمور معرب دله بالفارسية والدلق نوع مـن الثيـاب معربـة- البسـتاني- **محيـط المحيـط**- ج١- ص٨٤.

(٦) القلقشندي -**صبح الأعشى**- ج٤- ص٤١.

(٧) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة٣٨ب.

على العمامة وليس منهم من يلبس الحرير[1] وكان ملبوسهم من الصوف الابيض الملطى ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم[2] .

ومن هذه المعلومة يبدو لنا أنهم كانوا يكرهون لبس الملابس الملونة بل كانوا يعيبون على من يرتديها لأنهم يعتبرون لابسيها يتشبهون بالنساء.

أما طائفة الصوفية التي كانت منتشرة بكثرة في هذا القرن داخل محيط المجتمع المكي فكانوا يلبسون الثياب الخشنة من الدلق إلا أنه لايكون سابلاً ولا طويل الكم ويرخون ذؤابة لطيفة بشكل مميز على الأذن اليسرى لا تكاد تصل الى الكتف[3] .

و لم نجد نصاً صريحاً في كتاب نيل المنى نستشف من خلاله وصف اللباس الذي كانت ترتديه النساء في هذه الفترة ولكن بعض مؤرخي القرنين التاسع والعاشر الهجري اشاروا في لمحات خاطفة أن الزي المتعارف عليه لشتى طبقات النساء، يتميز بالبساطة وعدم التعقيد وليس هناك اختلاف بين ازياء النساء العربيات في الشكل وانما يكون التميز في جودة القماش وكيفية اختيار الالوان وتناسقها مع بعضها البعض وعند الخروج من المنزل ترتدي المرأة العربية العباءة وهي عبارة عن قطعة كبيرة من الحرير الموسلين[4] الأسود او الاحمر وتطرز جوانبها بخيوط الذهب او الفضة ويعود ذلك الى مكانة وذوق

---

(١) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ج٤ ص٤٦.

(٢) **المصدر السابق** والجزء والصفحة.

(٣) **المصدر السابق** والجزء ص٤٣.

(٤) نوع فاخر من الحرير كانت تصنعه الموصل وهي مدينة قديمة في أعلى العراق والموسلين تحريف للنسبة الى تلك البلدة والأصل موصلين. الفيروز آبادي- **القاموس المحيط**- ص٣١٤.

صاحبة العباءة تلفها المرأة حول جسدها من الرأس حتى القدم بشكل فضفاض يخفي جميع اجزاء جسمها ورأسها[1] .

ومن الطبيعي أن تكون ملابس الفقيرات من نساء المجتمع المكي أقل شأناً في نوعية القماش ولكن يمكن القول بصفة عامة إن المرأة المكية محتشمة بملابسها الطويلة اللائقة المختلفة الألوان بشكل أنيق.

ومن عادة النساء في مكة المكرمة أن تتزين المرأة بجميع مالديها من الحلي والمجوهرات ومن حلى المرأة القلادة والخلخال والأساور، والخواتم التي تلبس في جميع أصابع اليدين والحزام في الوسط وجميع هذه الحلي تكون من الذهب إذا كانت المرأة ثرية ومن الفضة بالنسبة للمرأة اذا كانت رفيقة الحال.

---

(١) القلقشندي-**صبح الاعشى**- ج٤- ص٤١- ٤٢- العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ورقة٩٦أ.

المحمل:

عني المؤرخون في كتاباتهم عن تاريخ مكة المكرمة -حين تعرضهم للكتابة عن الحج- الاشارة الى المحمل وأفرد بعض منهم له فصولاً خاصة في مؤلفاتهم وقاموا بتوضيح ما اكتنفه من غموض[1] ولإرتباط قدومه في موسم الحج يرد في أغلب الأحيان مضافاً للفظ الحج فيقال محمل الحج أو محمل الحاج، وترد كلمة المَحْمِل أو المَحْمَل والأخيرة أكثر عامية ويعني ذلك الهيكل الخشبي المخروطي الشكل الذي كان يحلى بأجمل زينة اذ كان يكسى بالحرير الثمين المطرز بخيوط الذهب والقصب ويحمل على جمل مخصص لحمل الهدايا الى الكعبة ويكون في صحبة قافلة الحج[2].

وقد وصف القلقشندي (ت ٨٢١هـ) هذا النوع من المحامل في كلمات قليلة فذكر بأن المحمل: "يحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة وعليه غشاء من حرير اطلس اصفر وبأعلاه قبة من فضة مطلية"[3].

---

(١) عبد الله العنقاوي- **المحمل نشأته وآراء المؤرخون فيه**- مجلة كلية الآداب- م٢- جامعة الرياض- ١٣٩١/١٣٩٢هـ/٣٢٣.

(٢) سجل التاريخ خروج أول قافلة للحج في الاسلام وكان خروجها من المدينة المنورة في ذي القعدة عام ٩هـ/٦٣١م وقد ضمت حوالي (٣٠٠) حاج وكانت تحت إمرة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ثم تعاقبت القرون واستقرت عادة خروج قوافل الحجيج التي أخذت تغادر شتى بقاع العالم الاسلامي من الشام ومصر والعراق. أنظر: الطبري، ابي جعفر محمد-**تاريخ الرسل والملوك**- ج٢- القاهرة- دار الفكر -١٣٩٩هـ- ص١٣٤.

(٣) القلقشندي- **صبح الاعشى**- ج٤- ص٥٧.

وأورد العياشي في رحلته الشهيرة الى الأراضي المقدسة في منتصف القرن الحادي عشر وصفاً للمحمل أعم من سابقه فذكر أنه: ((قبة من خشب رائعة الصنع بنمط متقن وشبابيك ملونة بأنواع الأصباغ، وعليه كسوة من رفيع الديباج المموه بالذهب، ورقبة الجمل (الذي يحمل المحمل) ورأسه وسائر أعضائه محلاة بجواهر منظمة أبلغ نظم، وعليه ريش محلى بمثل ذلك، والجمل في أعظم ما يكون من السِمَنْ وعظم الجثة وحسن الخلقة مخضب جلده كله بالحناء...))[1].

يتضح من خلال الأوصاف السابقة أن المحمل لا يشكل جزءاً من تقاليد الحج التي أشار اليها الدين الاسلامي ولا من متطلبات القافلة، بل إنه مع سعة فراغه الداخلي لا يستفاد منه للركوب ولا ينقل فيه شيء من الأغراض المتعلقة بالقافلة أو بأمير الحج.

وازداد شهرة في بداية عهد المماليك منذ سلطنة الظاهر بيبرس (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) الذي أعطى المحمل رمز السيادة وذلك بإرسال المحمل المصري[2] وجعله مظهر من مظاهر السيطرة المملوكية على الحجاز فأصبح يرسل المحمل المصري كل عام وعليه كسوة الكعبة التي تمثل مدى قوة الدولة

---

(١) العياشي -**الرحلة العياشية**- ج١- ص١٥٠.

(٢) كان الاحتفال بدوران المحمل في عهد المماليك يتم في مصر اولاً- قبل قدومه الى مكة المكرمة- ويتم مرتين الاولى في النصف الاخير من رجب حتى "تهيج العزمات وتتحرك البواعث فيأخذ من يشار في التأهب للحج" أما الدورة الثانية فكانت في شوال وهي دورة خروج المحمل الى مكة وتكون غالباً يوم الاثنين او الخميس- انظر: ابن بطوطه- **الرحلة**- ج١- ص٩٣.

الباعثة لها وبعد السطيرة العثمانية والقضاء على دولة المماليك أصبحت لها السيادة على الأماكن المقدسة.

وبذلك جرت العادة في الدولة العثمانية على خروج قافلتين من قوافل الحج والتي منحتها الدولة أهمية كبيرة وهما محمل الحج الشامي الذي ينطلق من الشام ومحمل الحاج المصري الذي ينطلق من القاهرة أما المحمل الشامي فكان يضم أمين الصرة العثمانية التي كانت ترسل من اسطنبول الى مكة المكرمة والمدينة المنورة لتوزيعها على سكانها، وكان أول محمل شامي من قبل الدولة العثمانية قدم في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م وكان اميره مصلح الدين الرومي.

وكان يحتفل بالمحمل المصري قبل خروجه من القاهرة الى مكة المكرمة ويقام حفل بهيج يحضره والي مصر نائب السلطان العثماني[١] وكبار رجال الدولة ويحتفل بعودة المحمل من البقاع المقدسة مثلما احتفل به في الذهاب وكذلك كان يتم الاعتناء بالمحمل الشامي وكان ينفق كثير من الاموال الطائلة على المحملين المصري والشامي[٢] .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢-٩١-٢٣٦-٣٠٢.

(٢) الجزيري-**الدرر الفرائد**- ج ٢- ص ١٢٥٤.

إمـــــرة الحج:

الحج عادة قديمة جداً في الأمم، والغرض منه أمر ديني محض وإن كان الاجتماع فيه لا يخلو من فائدة دينية تزيد في رقي الأمة أدبياً ودينياً. والعرب كانت تحج الى الكعبة قبل الاسلام بنحو خمسة وعشرين قرناً بعد أن دعا إليه ابو الأنبياء ابراهيم عليه السلام بأمر سماوي من الله عز وجل[١]. وأسس لتلك الغاية السامية اول بيت وضع في الأرض مباركاً ليكون قبلة للناس ويعبد الله تعالى عنده[٢].

كان الحج في ايام الجاهليـة موسماً من مواسم الثقافة والسياسة والاقتصاد والعبادة والتقارب والألفة والتعارف... إذ كان يأتي عقب سوق عكاظ حيث تجتمع العرب من كل أقطارهم بالجزيرة ليتبادلوا المنـافع. وكـان عرب الجاهلية يدركون أن الحج عمل تعبدي مقدس، فكانوا يقيمون سوق عكـاظ أولاً ثـم يحجون اعتقاداً منهم أن الحج يمحو الخطيئة ويغسل الذنوب. ولما جاء الاسلام أبقى الحج وجعله أحد الفروض والأركان لأنه فرض على الناس على لسان إبراهيم، ونقّاه الإسلام ممـا كـان قد علق به، فصار الحج وسيلة للربح في الدنيا والسعادة في الآخرة. لم يأتِ الإسلام لينتزع من نفوس الناس طبيعة الخير وملكة الدين، بل جاء للخير يزرعه فيها لتعطي أطيب الثمر لتكون مهيئة لقبول الدين الصحيح، وللتحول من الوثنية إلى التوحيد الحق. ولم يقض الإسلام على الشعائر الدينية والخلائق الفاضلة بل أبقاها على فطرتها، ثم تناول ما جد عليها من المعتقدات الباطلة ليضع في النفس الإنسانية ما يريد من العقيدة الصحيحة مكان تلك العقيـدة القديمة والموغلة في القـدم.لقد كـان المسلمون القـاصدون لمكة المكرمة لأداء فريضة الحج يركبون الصعاب والمشاق في سفرهم لقطع المسافات الطويلة فقد كان الطريق الميسر للحجاج هو عبر الصحراء والفيافي ماراً بالمدن والقرى

(١) وهو المقصود بقول الله تعالى: ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر...﴾ الآية ٢٧ من سورة الحج.
(٢) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً...﴾ الآية ٩٦ من سورة آل عمران.

متعرضاً للمخاطر الطبيعية كالشمس الحرارية والحرارة والعطش او جغرافية كالفقدان والضياع أو بشرية كقطاع الطرق واللصوص، ومنهم من كان يختار ركوب البحر عبر السفن الشراعية المخيفة[1] ، بالإضافة الى هذه المخاطر كانوا يتعرضون الى الثورات والفتن والحروب الداخلية التي كانت تحدث خلال الموسم استدعت أن يكون لها زعامة سياسية دينية مشرفة على تنظيمها وتعمل على حل مشكلاتها وحماية الحجاج -وهم ضيوف الرحمن- حتى يتم لهم العودة الى بلادهم بعد أن أتموا مناسكهم فائزين آمنين[2] ، من هنا نشأ ما عرف في التاريخ الاسلامي "بإمرة الحج" ولعل مفهوم الإمرة يعود أصلاً الى ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿اذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم﴾[3] . وقوله عليه السلام ﴿لايحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض الا أمروا عليهم أحدهم﴾[3] لذا كان منذ بدء الاسلام النظام مكفولاً بوجود قائد للقافلة وإن منصب إمرة الحاج من المناصب الجليلة العالية القدر وأعظم الوظائف الدينية لانها تعتبر ولاية سياسية مرتبة من اجل وأرقى المراتب لأنه يقود شتى جموع المسلمين في أداء مناسكهم وينوب عن ولي الأمر في خدمة الحرمين الشريفين وكان اول من تولى امرة الحاج أبوبكر الصديق -رضي الله عنه- عندما عهد اليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يحج بالناس في السنة التاسعة للهجرة ٩هـ/٦٣٠م وكان أول من لقب (أمير الحج)[5] .

---

(١) كان أصحاب السفن يستغلون الحجاج في الموسم، ويشحنون السفن بأكثر من العدد المسموح به -وغالباً ما تعرضت السفن للغرق بمن فيها. ومن الامثال التي شاعت في ميناء عيذاب- وهو ميناء مصري قديم على البحر الاحمر- قول أصحاب السفن "علينا الألواح وعلى الحجاج الأرواح" حتى تندر على مدينة عيذاب. ابن جبير الرحالة المشهور وقال لها من اسمها نصيب. انظر: ابن جبير- **الرحلة**- ص٦٣.

(٢) احمد الزيلعي- **مكة وعلاقاتها الخارجية**- ص٨١.

(٣) ابو داود -**سنن أبي داود- باب الجهاد**- ص٨٠.

(٣) احمد بن حنبل- **المسند**- ج٣- ص١٧٧.

(٥) النجم بن فهد- **اتحاف الورى**- ج١- ص١٩٦.

ولقد توسع المؤرخون المعاصرون لجار الله بن فهد في القرن العاشر الهجري في المهام والشروط التي يجب توفرها في امير الحاج لأنه يقوم بمهمة تكتنف جوانبها الخطر وأن الفشل يتهدده في كل خطوة يخطوها ويترتب عليه سخط السلطان وعقابه إذ مس الحجاج مكروه أو مشاكل مؤنة أو نقص مياه أو اضطراب الأمن أو قطع الطرق من قبل الاعراب وأحياناً يتخذ أمير الحاج من قبله المبادرات العدائية لحكام مكة المكرمة نتيجة لظروف سياسية أو مشاكل داخلية[١] .

ورتبة أمير الحاج في العهد العثماني سارت على نفس النهج في العهد المملوكي فهي رتبة عسكرية حربية فكان امير الحج من أمراء المئات[٢] بيد أنه كان هناك استثناءات في بعض السنوات التي تولى فيها إمرة الحاج أمير عشرة[٣] وأمير الطبلخانة السلطانية وفي فترة تاريخ هذه الفترة كان هناك اميران للحج احدهم إمرة الحاج المصري والآخر أمير الحاج الشامي وكان

---

(١) **نيل المنى** ص ٨٦-١١٨- ٢٣٠. **الجزيري- درر الفرائد-** ج١- ص٢٣٧.

(٢) أمير مئة: رتبة عسكرية حربية خاصة بأرباب السبق وتقرن عادة بلقب مقدم الف فيقال امير مئة ومقدم الف والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة يكون في خدمة حاملها مائة مملوك وهي في نفس الوقت مقدم في الحروب على الف جندي من أجناد الحلقة وكان أصحاب هذه المرتبة أعلى مراتب الأمراء وتقرع على أبوابهم الطبلخانات احتراماً لأقدارهم في الصباح والمساء. انظر: محمد احمد دهمان **-معجم الألفاظ التاريخية-** ص٢١.

(٣) أمير عشرة: مرتبة حربية يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك ويكون صغار الولاة من طبقة الأمراء العشرات انظر: محمد احمد دهمان **-معجم الألفاظ** التاريخية- ص٢٣. نيل **المنى**- ص١١- الجزيري**-درر الفرائد-** ج١- ص٣٥٢.

اول امير حاج لهم هو الامير مصلح الدين الرومي الذي قدم في عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م لمكة(١) .

وفي بعض السنين يكون والي الشام هو أمير الحاج كما حدث في الموسم التالي عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م عندما أخذ الراية الشريفة -العلم السلطاني- نائب الشام الدوادار المقر الكافلي حان بردي الغزالي(٢) .

ويرى الجزيري أن هناك شروطاً لابد أن يتصف بها امير الحاج وواجبات عليه أن يتقيد بها من أهمها:

١- أن يكون قادراً على جمع الناس في سيرهم ونزولهم وفي حلهم وترحالهم حتى لايتفرقوا فيخشى عليهم من التأخير والضرر وأن يكون متصفاً باليقظة(٣) .

٢- أن يكون ملماً بالطرق وشعابها وأن يسلك بهم أسهل الطرق وأقربها وأخصبها وأن يتجنب القاحل منها والوعر والاستعانة بالادلاء لمعرفة الطرق(٤) .

٣- أن يرفق بهم أثناء السير حتى لايعجز الضعيف او يضل المتأخر وأن يرفق بالكبير ويعطف على الصغير وأن يختار زمن السير في وقت اعتدال الطقس(٥)

٤- أن يكون على معرفة بمصادر المياه فيرتاد مواردها إذا انقطعت والى المراعي إذا قلت لأن نقص الماء سبباً رئيساً من اسباب كوارث الحج(٦) .

---

(١) **نيل المنى**- ص٢٢.

(٢) **المصدر السابق** - ص٣٩.

(٣) الجزيري-**درر الفرائد**- ج١-ص٨٩ الى ص١١٠.

(٤) **نيل المنى**- ص١٠٢- الجزيري- **مصدر سبق ذكره**- ج١- ص٩٠.

(٥) **نيل المنى** - ص١٠١-١٠٢- الجزيري- **مصدر سبق ذكره**- ج١- ص٩٣.

(٦) **نيل المنى** - ص١٠٤- الجزيري- **مصدر سبق ذكره**- ج١- ص١٠٩.

٥- أن يحرسهم عند حلهم وترحالهم فيسهر على إقـامتهم ويحوطهـم بأتباعـه إذا ساروا حتى لايختلـط بهـم مفسـد أو متلصـص وأن يضـع الجنـد المرافقـين للركب على أهبة الاستعداد تحسباً لأي طاريء[١] .

٦- أن يدفع عنهم من يعترضهم من قطاع الطرق او مـن يحـاول منعهـم عـن المسير ليحول بينهم وبين الحج بقتال ان استطاع او يبذل المـال اذا لم يسـتطع اذا رضي بذلك الحجاج[٢] ، كمـا حـدث في عـام ٩٢٤هـ/١٥١٨م ((تـولى إمرة الركب المصري القاضي زين الدين بركات بن موسى المحتسب بالقـاهرة وخرج معه خلق من الحاج فتعبوا من الجمـال لضعفهـا وقلتهـا وخـرج علـى ساقة الحاج جماعة من العرب قبل وصولهم العقبة فأخذوا منه نحو مـائتي حمـل فيهم زيت الحرم الشريف))[٣] .

٧- أن يُقوم بدور المصلح والفاصل بين المتشاجرين ويتوسـط بـين المتنـازعين ولايتعـرض للحكـم بينهـــم إجبـاراً واذا كـانت الخصومـة شـرعية أحـال المتخاصمين لقاضي المحمل[٤] .

٨- ترتيبهم وتوزيعهم على مجموعة من القواد وإعطاء كل قائد مكان معروفاً وعلى كل فرد معرفة قائده ومكانه إذا سار أو حل حتى لايتنازعوا أو يضلـوا وهذا الأمر هو المسمى بالتقطير والتعقيب[٥] .

---

(١) **نيل المنى**- ص ١٠٤- الجزيري- **الدرر الفرائد**- ج١- ص١٠٣.

(٢) **نيل المنى**- ص ١٠٦- الجزيري - **الدرر الفرائد**- ج١- ١٠٤.

(٣) العز بن فهد-**بلوغ القرى**- ص١٨أ.

(٤) **نيل المنى**- ص ١٠٧- الجزيري- **الدرر الفرائد**- ج١- ص١٠٥.

(٥) **نيل المنى**- ص ٩١-٩٣- الجزيري-**الدرر الفرائد**- ج١- ص١٠٦.

٩- أن يراعى مساحة الوقت حتى لايفوتهم الحج ولايلحقهم ضيقة في الحث على المسير، فإذا وصلوا للميقات أمهلهم للإحرام وإقامة السنن وإن كان في متسع من الوقت سار بهم الى مكة ليخرجوا مع أهلها الى المواقف أما اذا كان الوقت ضيقاً سار بهم الى عرفة حتى يدركوا الحج[١].

ولقد حدث لهم في حج عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م أن تأخر الحاج المصري بعد عادتهم بخمسة أيام وذلك لإنقطاعهم في الطريق من الغلاء والجوع وتعب الجمال[٢].

١٠- أن يقوم زائغهم والمنحرف منهم ويؤدب خائنهم ولايتجاوز التعزير الى الحد إلا أن يؤذن له فيه ولايقتل الا ماجوز الشارع قتله اما إذا دخل بلداً قبل إقامة الحد فلوالي البلد إقامته[٣].

وكانت امرة الحج مورداً عظيماً من موارد الثروة لأميره الذي كان له سلطان مطلق في أن يأخذ من أموال الناس ما يشاء حقاً أو باطلاً بل وكانت له الكلمة على امراء مكة وكان بمقدمه تحدث تغيرات كثيرة في الوظائف المكية[٤].

وعند وصول المحمل الى قرب مكة كان يستقبل استقبالاً رسمياً ويخرج شريف مكة وبصحبته عسكره ونائب جدة والقضاة والعلماء والفقهاء والأعيان وكثير من الخلق ويقومون بعرضة عظيمة امامه فيها الخيول الكثيرة ثم

---

(١) الجزيري-**الدرر الفرائد**- ج١- ص١٠٩.

(٢) **المصدر السابق**- ج١- ص١٠٧.

(٣) **المصدر السابق**- ج١- ص١٠٨.

(٤) **نيل المنى**-ص٣١٧.

يقومون بالمشي معه الى باب سكنه ثم يخلع على شريف مكة ومن بصحبته من أبنائه والقضاة[1] .

وكان امير الحاج المصري يتقدم امير الحاج الشامي في الوصول الى مكة وعند قدوم امير الحاج يخرج الشريف ومن معه بالاضافة الى امير الحاج المصري الذي يكون بصحبتهم[2] .

ثم يقومون بقراءة المراسيم السلطانية في الحرم الشريف بوجود شريف مكة وابنائه وخواصه ونائب جدة والقضاة والفقهاء والعلماء والاعيان والتجار وجمع كثير من عامة الناس[3] .

وكانت تحمل في مضمونها الوصية بأمير الحاج والحجاج والتهنئة للشريف بموسم الحج والمراسيم التي تحمل تعييناً جديداً في المناصب القضائية او الادارية او الفقهية ثم يخلع على الشريف وابنه وناظر المسجد الحرام[4] .

وكان كثيراً ماينتاب شريف مكة او أعيانها بعض القلق من وجود القوة السلطانية وكان الشريف يبتعد بعسكره وقواته قدر المستطاع عنهم لعدم الاحتكاك بهم.

كما حدث في موسم حج عام ٩٣٩هـ/١٥٣٢م عندما استقبل شريف مكة ابو نمي وولده احمد وقضاة مكة الأربعة وعلمائها وأعيانها امير الحاج وقاموا

---

(١) **نيل المنى**-ص٣٩.

(٢) **المصدر السابق** -ص ٢٣٤.

(٣) **المصدر السابق** - ص١٨-٤٠-٦٨.

(٤) **المصدر السابق** -ص ٤٠-٩٢-١٤٠-٣٣٨-٤٠١.

بعرضة تشريفية لاستقباله والتوجه معه الى مقر إقامته بمدرسة الاشرف قايتباي فلما وصل اليها رمى بعض الأتراك بمكحلة فأحرقته مما جعل الشريف ابو نمي وعسكره يسلوا سيوفهم توقعاً للشر ولكن اسكتت الفتنة بين العسكرين وخاف أهل مكة من حدوث فتنة أخرى في هذا الموسم(١).

وقد رصد هذا الخوف جار الله بن فهد وعلق عليه متمثلاً بقول الشاعر العربي:

أقبَلَ المُوسِـــمُ المُباركَ فِيهِ   مِن جَمِيعِ الجِّهاتِ خَلقٌ كثِيرٌ

أعْطِنا خَيْـرهُم إلهَ البَرايَا   وَاكْفِنَا شَرَّهُـم فَأنتَ قَدِيرُ(٢)

وبعد انتهاء موسم الحج والمكوث بمكة يقوم الشريف او من ينوب عنه في توديع امراء الحاج ويكون وقت رحيلهم متعاقباً في المقدمة امير الحاج المصري ثم امير الحاج الشامي ((في يوم السبت ثاني عشري الشهر سافر الحاج الشامي من مكة بعد إقامته كالمصري ثمانية عشر يوماً))(٣) ((ثم إن أمير الحاج الشامي أقام بمكة بعد الحاج المصري بسبعة عشر يوماً وضجر الناس من إقامته))(٤).

---

(١) نيل المنى-ص ٣٠٩.

(٢) المصدر السابق -ص٩٥.

(٣) المصدر السابق -ص ٢٦٨.

(٤) المصدر السابق -ص ٣٥٤.

كسوة الكعبة:

الكسوة في اللغة (بكسر الكاف وضمها) ما اتخذ من الثياب للستر والحلية وتغطي الكعبة سترة تسمى الكسوة[1] وكسوة الكعبة معروفة في الجاهلية وأول من كساها اسعد الحميري ملك اليمن[2] وأول من كساها في الاسلام النبي صلى الله عليه وسلم فقال في خطبة له ﴿ هذا يوم ... تستر فيه الكعبة وترتفع فيه الاعمال﴾[3] ولقد كساها ثياباً يمانية وقد كانت كسوتها على عهده الانطاع والمسوح[4].

ثم توالت الكساوى على الكعبة في عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين والمماليك وكانت مصر تتولى صناعة الكسوة للكعبة وكانت مدينة تنيس مشتهرة كدار لصناعة الكسوة ولقد اهتمت الدولة العثمانية في هذه الفترة بالاهتمام بإرسال الكسوة للكعبة الشريفة لما يضفي عليها من تفوق سياسي وشرف ديني يجعلها حاملة لواء الاسلام في العالم الإسلامي.

ولقد أوقف السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٤٧هـ/١٥٤٠م ايرادات سبع قرى لكسوة الكعبة إضافة الى القريتين اللتين خصص السلطان قلاوون ايراداتها لهذا الغرض[5] وقد جرت العادة على نقش اسم السلطان

---

(١) إبن منظور- **لسان العرب**- ج١- ص٣٨.

(٢) الازرقي -**أخبار مكة**- ج١- ص٢٥١/ القطبي-**اعلام**- ص٥٤.

(٣) البخاري -**باب الحج**- ٤٧- احمد بن حنبل-**المسند**- ج٦-ص٣٤٤.

(٤) القطبي- **اعلام**- ص٧٥.

(٥) النهروالي -**الاعلام**- ص١٠٤- القطبي- **إعلام**-

الذي أرسلت الكسوة في عهده عليها، وكانت تصل كسوة الكعبة مع أمير الحاج وتشمر ثياب الكعبة القديمة وتلبس كسوتها الجديدة في نهاية شهر ذي القعدة او بداية شهر ذي الحجة وكان على رأس هؤلاء شيخ سدنتها من آل شيبه[1] كما انها كانت تكسى كسوة داخلية جميلة وتوضع محل الكسوة الاولى لمدة ثلاثة ايام كما حدث لكسوتها لموسم حج ٩٤٠هـ/١٥٣٤م[2].

ولم يغير العثمانيين لون الكسوة بل جعلوه اللون الاسود لأنه أصبح طابعاً مميزاً بل إنهم يجعلون طرازها أغلبه حرير أصفر[3].

وامتاز الشيبيون سدنة الكعبة بالحق الكامل والتصرف التام في كسوة الكعبة القديمة حيث يقومون باقتسامها فيما بينهم وقيامهم بإهداء جزء منها الى كبار الشخصيات الإسلامية من أصحاب المناصب والجاه أو الثراء[4].

وفي عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٤٥م أخذت الحكومة السعودية على عاتقها انشاء مصنع الكعبة بمكة المكرمة ومنذ ذلك التاريخ والمصنع في تطور مستمر حيث أصبحت الكسوة تتكون من ٥٤ قطعة طول كل قطعة ١٤م وعرضها ٩٥م ومساحة الكسوة الكاملة ٢٦٧٥٠م٢[5].

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٧-٤١-٩٥-١٥٢-٤٠٨.

(٢) **المصدر السابق** - ص٣١٨.

(٣) **المصدر السابق** -ص ٢٦٦.

(٤) **المصدر السابق** -ص ٢٣٤.

(٥) فؤاد عبد الحميد عنقاوي-**مكة الحج والطوافه**- ج١- دار خضر - بيروت- ١٤٠٥هـ-ص١٩٥.

الكوارث الطبيعية والأوبئة والامراض:

كانت حياة مكة اليومية، حياة مملوءة بأسباب البهجة والسرور إلا أن غمامات من الحزن والخوف كانت تعكر أحياناً صفو المدينة المقدسة في أزمنة القحط والسيول والأوبئة.

وإذا كانت الدولة العثمانية تحاول أن تنقذ أهل الحرمين من كوارث القحط والسيول بامدادات المؤن وتجديد ماتهدم[1] من الأبنية فإنها كانت تقف عاجزة أمام بعضها خاصة في بعض فترات ضعف الدولة العثمانية وانشغالها بمشاكلها الداخلية أو الخارجية وكانت نوبات الغلاء والمجاعات التي ألمت بمكة المكرمة في القرن العاشر ترجع الى عدة عوامل عديدة منها ماهو طبيعي كالقحط والأعاصير والسيول الجارفة ومنها ماهو بشري يتصل بأسباب السياسة والاقتصاد ويمكننا أن نشير الى أهم العوامل الطبيعية:

القحط: اعتمدت بلاد الحجاز عامة ومكة المكرمة -خاصة في سد احتياجاتها من المياه العذبة اللازمة لشرب الانسان والحيوان والنبات- اعتماداً رئيسياً على مياه الأمطار التي تسقط في فترات متفاوتة في فصل الشتاء بحكم مناخ الاقليم وكان كثير من اهل مكة يقومون بتخزين مياه الامطار للافادة منها في غير اوقات سقوطها خاصة في موسم الحج وقد كانت السبل والبرك هي الخزانات للسقيا[2] وكانت مكة المكرمة في هذه الفترة تسد بعض

---

(١) **نيل المنى**- ص١١٦-٤٠٧.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٥٦.

إحتياجاتها المائية من المياه الجوفية متمثلة في الآبار والعيون التي كانت المصدر الأساسي والرئيسي للمياه العذبة[1] ومن ثم كان عدم سقوط الأمطار هو العامل الحاسم في حدوث القحط المؤدي الى نوبات الغلاء التي قد تتفاقم أحياناً الى حد المجاعة مثلما حدث عام ٩٤٢هـ/١٥٣٥م حيث اشتد فيها القحط فاستسقى إمام الشافعية خير الدين محمد الطبري في جمع من الرجال والصغار اولاد الفقهاء والكُتاب ((ودخل بهم المطاف الشريف ووقف بهم امام البيت الشريف والتجأوا الى ا لله تعالى والمصاحف الشريفة على رؤوس اولاد الكتاب بالدعاء والبكاء والنحيب وكانت ساعة مقبولة))[2].

ولمداومة القحط وشدة الغلاء في اسعار المواد الغذائية كان من النادر أن يتوقف امام الشافعية وناظر المسجد الحرام عن ترك دعاء القنوت في الصلوات[3].

السيول: وإذا كان القحط وعدم سقوط الأمطار سبباً رئيسياً لوقوع الغلاء والمجاعات في مكة المكرمة فإن السيول الشديدة الجارفة كانت لها خطورتها أيضاً في بعض الأحيان إذ كانت تدم امكانيات البلاد الإقتصادية وتسقط المنازل على أصحابها وتكلف الناس ما لاتطيق مثلما حدث في عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م حيث أصيبت مكة بسيل جارف لم يعهدوا مثله تهدم من أثره كثير من المنشآت ودمرت كثير من المزارع ونفقت الخيول وراح ضحيته

(١) **نيل المنى**- ص٦٨-١٢١-١٩٦-٢٤٠-٣٨٠-٤٤٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٣٣٤.

(٣) **المصدر السابق**- ص ٤٨.

اكثر من سبعين نفساً غرقاً وسقطت كثير من البيوت مثـل بيـوت الزيـني بـن مزهر والقاضي برهان الدين بن ظهيره وبيت المؤرخ جار ا لله بن فهد[1] .

وتكرر ذلك بعنف اكبر عام ٩٣٦هـ/١٥٢٩م اذ استمر هطول الأمطار يومـاً وليلـة وتضـرر كثير مـن النـاس بسـبب السـيول الجارفـة[2] واسـتمرت هـذه الكوارث في فترات متفاوتة[3] .

ويـروي جـار ا لله بـن فهـد مـا حـدث في مكـة عندمـا اكتسـحها عـام ٩٣١هـ/١٥٢٤م أخطر السـيول الجارفـة الـتي سـببت كثـير مـن الأضـرار في حارات المدينة ومرافقها والمسجد الحرام فيقول: ((وتوالى بها وبأعمالها مـدة ثلاثة أيام بلياليها بحيث يمطر ساعة ويسكت اخرى الى أن كان في ليلة الاثنين ثامن عشري الشهر قوي في آخر الليل ونزل بَرَد كثير وسالت الأسطحة مـن ميازيبها في الأزقة وجاء سيل وادي ابراهيم عندطلوع الشمس ودخل المسجد الحرام من جميع ابوابه الثمانية بل توجه الى المسعى ودخل من باب بـني شيبه المعروف بباب السلام مع الابواب الموالية له الشرقية وملأ الحرم حتـى وصـل قناديل المطاف وعلا عتبة الكعبة الشريفة مقـدار ذراع او أقـل شـبرا ودخلهـا من خلال الباب وملأ غالب القناديل التي بالمطاف وعام منابر الوعاظ ودرجة الكعبة حتى وصلت الى باب ابراهيم وسلم ا لله المصاحف والربعات التي بقبة الفراشين لأن صاحب النوبة لما استشعر بالسيل رفعها علو الرفوف جـزاه ا لله

---

(١) **نيل المنى**- ص ٤٣-٤٥.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٢٧٤-٢٨٥-٢٨٦-٣٤٦.

(٣) **المصدر السابق**- ص ٣٦٤.

خيراً بل دار على الفقراء اليمانيين بالمسجد وأقامهم فخرجوا سالمين بحمد ا لله و لم يصب منهم إلا فقيراً اعمى كان في جهة باب ابراهيم فاز بالشهادة وتعلق رجلان منهم على درجة باب قبة العباس ومسكا حلق الباب حتى تصرّف غالب الماء من المسجد واستمر غالب النهار لكنه وقف السيل وصار يخرج من الابواب الثمانية عند طلوع الشمس وكان غالب خروجه من باب ابراهيم))[1].

هذا ما أحدثه داخل المسجد الحرام اما ما أحدثه في مكة المكرمة فيصفه لنا قائلاً ((وامتلأت ثلاث برك الحاج التي بالمعلاة الى علوها، وكسر جانب إحدى بركتي المصرى الموالي للمسجد الحرام في ركنها اليماني وطاح كثير من الدور التي في الطريق لسوق الليل والمسفلة بل اطراف مكة وداخلها وعلو جبل ابي قبيس وتوالى ذلك اياماً وكان الهدم سالماً لم يعطب فيه احد إلا رجلاً إسكندرانياً أثنى الناس عليه خيراً وعم السيل نواحي منى وعرفة والأودية وجدة وغير ذلك، وتعطل الناس من السفر اليها نحو اليومين بل طاح كثير من بيوت منى ويقال إن عدة الواقعة بها وبمكة قريب من الف بيت وكان منها منزلنا بهما مع غيرهما من الأملاك))[2] .

وبعد هذا السيل الجارف أصبح الناس لايستطيعون الصلاة على أرضية المسجد الحرام لما أحدثه السيل من دمار وأصبحت الارض موحولة بما جعلهم يؤدون الصلاة على سطح المسجد الحرام وكانت مثل هذه الكوارث الطبيعية

---

(١) **نيل المنى**- ص١٨٧.

(٢) **المصدر السابق**- ص ١٨٨.

التي مني بها المجتمع المكي تجعلهم يتكاتفون ويتعاونون في إزالة الآثار المدمرة التي سببتها السيول كبارهم وصغارهم أغنياؤهم وفقراؤهم ويقومون بتنظيف المطاف وشيل وإزالة الوحل وتنظيف الحجر والمقام الابراهيمي ومقام الحنفية في وقت قصير[1] .

ويضيق بنا المقام عن تتبع كافة المجاعات والسيول التي تعرضت لها مكة المكرمة في القرن العاشر ولذلك اكتفينا بالإشارة السريعة الى أهمها لنأخذ فكرة موجزة عن قسوتها من ناحية وما كانت تتعرض له البلاد والعباد بسببها من ناحية اخرى.

---

(١) **نيل المنى**- ص١٨٨-١٨٩.

الاوبئة والأمراض:

لم يغفل المؤرخ جار الله بن فهد عن رصد جزء مهم من الجانب الاجتماعي بمكة وما كان يصيب الانسان من الامراض والاوبئة التي أحدقت به لأن الصحة والمرض يتناوبان على الانسان والحيوان والنبات وكان لانتشار الامراض المعدية والمستوطنة لها علاقة وثيقة بمستويات النمو الاجتماعي والإقتصادي فمعدل الأمراض في أي مجتمع اصبح يستخدم كمؤشر من المؤشرات المهمة في تحديد درجة التقدم الاجتماعي والاقتصادي لأي مدينة.

وكثيراً ما كانت المجاعات وانتشارها مصحوبة بانتشار الأوبئة والطواعين الأمر الذي أفضى الى موت الآلاف من الناس وبذلك يتوقف معظم مظاهر النشاط في البلاد ومن ذلك ماحدث في عام ٩٤٣هـ/ ١٥٣٦م حيث انتشر ما سمي بالوباء الكبير وباء الطاعون وشمل معظم المناطق المجاورة لمكة وكان هذا الوباء مخيفاً في تلك الفترة لدرجة انهم اطلقوا عليه (الطاعون الاسود) فلم يكن له نظير في قسوته وسرعة انتشاره وفتك بالناس فتكاً ذريعاً فمات الآلاف من الناس وانتشرت جثثهم في الشوارع والحارات وأخلبت كثير من القرى و لم يجد الموتى -من كثرتهم- من يقوم بدفنهم ويواصل جار الله بن فهد وصف هذا الوباء الطاعوني بقوله ((في هذه السنة وقع من الاتفاقات الغريبة وجود الطاعون في بلاد بجيلة ووصل الى العقيق وماحولها من الطائف

حتى خلف بعض القرى ومات الكثير وصارت مواشيهم سائبة للورى ... وخشي أهل مكة من دخول الطاعون))[1].

وكان نتيجة لوقوع الطاعون والخوف المزروع داخل المجتمع المكي من امتداده اليها وموت الآلاف أن قام كثير من العلماء والقضاة بتهدئة الناس وتوعيتهم وتطمينهم بمؤلفات قاموا بتأليفها حول صحة الحديث أن الطاعون لايدخل مكة والمدينة واشتهر مؤلف مفتي المسلمين جمال الدين محمد بن الخطاب وسماه "الشارة المبينة أن الطاعون لايدخل مكة والمدينة" ونُسخت منه أعداد كبيرة وتم توزيعها لأهل مكة لبث الإطمئنان وقلع الخوف من نفوسهم[2].

اما عن الأمراض الأخف ضرراً من الطاعون الاسود فلقد وصف لنا جار الله بن فهد الامراض التي انتشرت في المجتمع المكي وكان اكثر الامراض عدوى وانتشاراً مرض الحصبة[3] الذي يستمر ملازماً للمريض مدة من الزمن ويعلل ذلك بدخول رياح الخماسين[4] وذلك في عام ٩٢٧/١٥٢١م ((وكثر مرض

---

(١) **نيل المنى**- ص٣٨٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٣٨٢.

(٣) مرض يصيب الجسم ويجعله معتلاً، وقد يكون المرض عارضاً خفيفاً في بدايته كالحمى والرشح للأنف وطفح وسعال ويستمر فترة حضانة المرض مدة تبلغ أربع عشر يوماً ويصاب به في الغالب الأطفال وأصبح الآن علاجه سهل حيث يعطى الشخص المصاب جرعات أو تطعيم. أنظر: **الموسوعة العربية العالمية**- م٢٣- ص١٠٥. الانطاكي، داود- **تذكرة داود للعلاج**- الاسكندرية- المركز العربي- ١٩٨٢م.

(٤) وتهب رياح الخماسين في الربيع، وهي حارة جافة تهب يومين او ثلاثة ثم تهدأ مدة خمسين يوماً وتحمل معها الرمال. انظر: ادهم مصطفى- **الاطلس التطبيقي للبلاد العربية**- حلب- دار ربيع- ١٩٥٦م- ص٩١.

الحصبة في اهل مكة يمرض كل واحد اسبوعاً ثم يشفى، وغالب ذلك من الصغار، ومرض فيه إبنتاي فشفاهما ا لله تعالى))[1] .

و لم يذكر لنا المؤرخ من الذي قام بعلاجهم ومانوع العلاج الذي يعطى للمريض بل أهمل ذلك عند الحديث عن أغلب الامراض التي ذكرها لنا في مؤلفه. وكما ذكر كذلك إنتشار مرض الحمى والسعال -ويبدو أنه أحد أمراض الصدر المزمنة كالدرن وغيره- حيث يستمر مع المريض عدة سنوات ثم ينتهي المرض بوفاة الشخص[2] .

وكانت تزداد الامراض في موسم الحج نظراً لضخامة عدد الحجيج الموجودين بمكة وكان يحدث الموت الجماعي من الامراض المنتشرة والمعدية لعدم توفر الإمكانات والتوعية الصحية وكانت الامراض تفتك بالناس وانتشر في عام ٩٣٥هـ/١٥٢٨م مرض سماه "تحريكه دموية مات فيه كثير من الحجاج خاصة من حجاج مصر والشام"[3] .

واكثر مايخاف منه المجتمع المكي من الامراض هو مرض الفالج[4] الذي يجعله حياً في صفة ميت[5] .

---

(١) **نيل المنى**- ص١٧٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٢٤.

(٣) **المصدر السابق**- ص ٢٦٨.

(٤) الفالج: حالة يضعف فيها التحكم في العضلات نتيجة تهتك في الجهاز العصبي المركزي (الدماغ والحبل الشوكي) ويمكن أن يكون شاملاً، وقد تنمو الأعصاب المحيطة مرة اخرى، ومن ثم يكون الشلل مؤقتاً في بعض الأحيان وقد تساعد المعالجة النفسية والتمارين الرياضية المرض على إستعادة قواهم، إذا عادت الحركة من جديد للعضلات والأعصاب. أنظر: الانطاكي، داود- **تذكرة داود للعلاج**- الاسكندرية- المركز العربي- ١٩٨٢م.
الموسوعة العربية العالمية- م١٤- ص٣٣١-٣٣٢.

(٥) **نيل المنى**- ص ١٢٤-١٢٥-٢٧٠.

وانتشرت امراض ادت الى الوفاة مثل رياح القولنج[1] وذات الجنب[2] التي تسري في الجسد بسرعة شديدة وفي اغلب الاحيان تستمر يوماً واحد ثم يقضي المريض نحبه[3] .

كما كان مرض الإسهال[4] -في ذلك الوقت- مرعباً ومخيفاً حيث يستمر المريض مصاباً به اكثر من اسبوع ثم فجأة يتوقف جسده عن الحركة ويفقد الحياة ويصبح في عداد الموتى[5] .

وتعددت كثير من الامراض مثل الإستسقاء[6] الذي يستمر مع المريض مدة

---

(١) القولنج: مرض ينتج عن هيجان القولون أو اجزاء اخرى من المعي الغليظ وهي في شكل قناة عضلية تحمل فضالة الطعام من المصران الاعور الى المستقيم، ويبلغ طول القولون لدى الإنسان نحو ١,٥م ووظيفته امتصاص الماء والأملاح المعدنية من فضالة الطعام. انظر: الانطاكي، داود- **تذكرة داود للعلاج-** الاسكندرية- المركز العربي- ١٩٨٢م. **الموسوعة العربية العالمية-** م١٨- ص٥١٣.

(٢) ذات الجنب: وهو مرض الكلى ويؤكد داود ان اعراض هذا المرض تظهر بوجع في البطن والورك ويعرف الآن بالمغص الكلوي اما اعراضه فهو الإصابة بحص الكلى فتكون على شكل لؤيه شديدة من آلام المغص في المنطقة القطنية اسفل الظهر وفي الجانبين او جانب واحد ثم تنتشر هذه الآلام الى البطن. انظر: الانطاكي، داود- **مصدر سبق ذكره-** ص٨١.

(٣) **نيل المنى-** ص ٥٥-٢٠٩-٣٠٥-٤٤٢.

(٤) حالة تتصف بحركات الاحشاء المستمرة وغير المنتظمة، ويكون البراز عادة ليناً ورخواً، ويمكن أن يحتوي على المخاط والقيح، والدم، وغالباً ما يرافق الإسهال الغثيان ونقص التحكم في حركة الاحشاء والتقلصات البطنية، والسبب الغالب للإسهال هو الالتهاب الناتج عن الغذاء أو الماء الملوث بالفيروسات. انظر: الانطاكي، داود- **مصدر سبق ذكره - الموسوعة العربية العالمية-** م٢- ص١٣٥.

(٥) **نيل المنى-** ص ٢٧٠-٢٩٥-٣٢٧.

(٦) الاستسقاء: ويسمى أيضاً الوذمة مرض تضخم أنسجة الجسم نتيجة تزايد السائل بين الخلايا، يصيب هذا المرض كل أنسجة الجسم، وقد يصيب جزءاً محدوداً منها ويحدث عموماً عندما تُسرِّب الأوعية المصابة محتوياتها إلى مساحات الأنسجة المجاورة. أنظر: الانطاكي، داود- **مصدر سبق ذكره- الموسوعة العربية العالمية-** م١- ص٦٧٥.

نصف السنة أو أزيد[1] وحصـــر البول[2] كما حصل للشيخ شـــرف الدين اسماعيل بن محمد الطرفي الذي اصيب به مدة ثم توفي على اثره[3].

ومن الامراض كذلك ضيق النفس[4] ورمي الدم[5] والفتق[6] ووجـع الدق[7]

---

(١) **نيل المنى**- ص ١٣٩-٤٠٦.

(٢) حصر البول: داء يطلق على نوعين من المرض لهما نفس الأعراض السهاف (العطش الزائد) والبوال (التبول الزائد) ويشير المصطلح في الثاني أن وظائف الغدة النخامية أو تحت المهاد (وهي جزء من الدفاع) تكون غير طبيعية. أنظر: الانطاكي، داود- **تذكرة داود للعلاج**- الاسكندرية- المركز العربي- ١٩٨٢م- **الموسوعة العربية العالمية**- م٥- ص٢٨٥.

(٣) **نيل المنى**- ص٢٥٧.

(٤) ضيق النفس: هو مرض يصيب الرئتان المسئولة عن عملية التنفس وتصاب الأوعية الدقيقة التي تسمى الشعيرات الدموية بين جدران كل حويصلة داخل تجويف الصدر ويحدث إبطاء وصعوبة في عملية التنفس، ونقص في الأكسجين في أنسجة الجسم. انظر: الانطاكي، داود- **مرجع سبق ذكره**- **الموسوعة العربية العالمية**- م٧- ص٢٤٨.

(٥) رمي الدم: ويسمى بمرض السل الرئوي وهو القيء الدموي ويسميه العامة برمي الدم أو بنفث الدم ويعني خروج الدم من الفم قسراً او بارادة المريض وتعود هذه الأسباب الى انفجار أو ضربة أو قرحة في الرئة أو خراج داخلها انفجر وقد يكون هذا الدم من الرأس أو المعده. انظر: الانطاكي، داود- **مرجع سبق ذكره**- ص١٨٥.

(٦) الفتق: بروز عضو أو نسيج من خلال جدار تجويفي في الجسم ويطلق عليه ايضاً التمزق، فكثير من اعضاء الجسم مثل الرئتين والقلب والامعاء، موجودة بداخل اماكن مجوفة يطلق عليها تجاويف الجسم، وفي بعض الاحيان ينقطع جدار التجويف او يتمزق ويندفع جزء من العضو من خلاله حينئذ يقال إن الشخص فتق. انظر: الانطاكي، داود- **مرجع سبق ذكره**- **الموسوعة العربية العالمية**- م١٧- ص٢١٥.

(٧) وجع الدق: هو نوع من الحمى ويعرف أيضاً بحمى الخلط والحمى المطبقة وحمى الروح، وهي تتعلق بأعضاء الجسم خاصة العظام ويقال لها "الدق" لأنها تدق العظام بالتجفيف والألم أو لأنها دقيقة لا يعرف لها سبب إلا بعد عناء وقد تتجاوز الاعضاء ثم تنفذ من العظام الى القلب وهناك يكون المريض في خطر من هذه الحمى. انظر: الانطاكي، داود- **مرجع سبق ذكره**- ص١٢٩.

والحمى الباطنية[1] والبواسير[2] وكـانت منتشـرة بشـكل ملحـوظ في المجتمـع المكي[3] .

وكانت بعض الأمـراض يتـم علاجهـا بواسـطة بعـض الاطبـاء الجيديـن كمـا حدث في عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م عندما أصيب الشريف ابـو نمـي بمـرض ظهـر على وجهه وجسده ويسمى بالحب الأفرنجي[4] مما جعل والـده شـريف مكـة بركات ان يحضر له طبيب هندي يدعى حسن لمعالجته ولقد وصف له دهانـاً يدهن به بعض اطراف يديه واستمر على هذا العلاج مدة ثلاثـة ايـام وشـفي من هذا المرض وكوفيء الطبيب بمال جزيل[5] .

---

(١) الحمى الباطنية: حالة ترتفع فيها درجة حرارة الجسم فوق المستوى الطبيعي، وهي تعتبر من اكثر اعـراض الامراض انتشاراً، وتحدث رجفة وشعوراً برغبة ملحة في الدفء، ويصاب بعض الاحيان بصداع وآلام عضلية وآلام أخرى ويمكن استمرارها لعـدة أيـام أو لمـدة اسبوع. انظـر:الانطـاكي، داود- **تذكـرة داود للعـلاج**- الاسكندرية- المركز العربي- ١٩٨٢م- **الموسوعة العربية العالمية**- م٩- ص٥٢٩.

(٢) البواسير: حالة تضخم في أوردة المستقيم وفي المستقيم نوعان من الأوردة الأوردة الداخليـة، تُبطـن الجـزء السفلي من المستقيم، وتمتد لأعلى، وأوردة خارجية، توجد تحت الجلد في الشرج وعندما تتسـع هـذه الأوردة تتحول الى بواسير. انظر:الانطاكي، داود- **مرجع سبق ذكره- الموسوعة العربية العالمية**- م٥- ص٢٠٧.

(٣) **نيل المنى**- ص ٥٥-١٢٤-١٧٠-١٧٥-١٨٤-٢٠٨-٣٢٧-٣٩٧-٤٠٦-٤٢١-٤٤٢.

(٤) الحب الافرنجي: يعرف الآن بمرض الجرب وهو من الامراض العامـة الظـاهرة في سـطح الجلـد، وأعـراض المرض تأخذ بشكل بثور مصحوبة بحكة وتقرح وهو من الامراض التي تتحـول الى هـم بـالليل ومذلـة بالنهـار واكثر ما تكون الإصابة بالجرب ما بين الأصابع والجبهة الداخلية للساعدين والفخذين كمـا يمكـن ان يصيـب الظهر والبطن إلا أن الوجه والرأس يكونان بمنجاة من الاصابة. انظر الانطاكي، داود- **مرجـع سـبق ذكـره**- ص١٠٣.

(٥) **نيل المنى**- ص ص١١٠.

وكان المجتمع المكي يتبع في أغلب الاحيان لعلاج الأمراض التي يصاب بها الطرق التقليدية المتوارثة جيلاً بعد آخر مثل الكي والحجامة والحمية ومن هذه الطرق ما أثبتت التجارب وأكد العلم الحديث أنه جيد وناجح وآخر أكد ماهو غير جيد وصحيح بل قد يكون ضاراً ويؤدي الى الوفاة ورغم اهتمام الدولة العثمانية بالامور العامة وفي طليعتها الناحية الصحية خاصة بمكة المكرمة وارسال مبالغ طائلة لتحسين البيمارستان الصحي ليقوم بدوره في علاج المرضى وتطويره بايفاد أعداد كبيرة من الاطباء خاصة في موسم الحج[1] .

وهذه النصوص توضح بما لايدع مجالاً للشك أن الوباء والأمراض كانت شديدة الوطأة وفاتكة وكان من أهم أسباب حدوث الأمراض يرجع الى القحط الشديد والجفاف الغير محدود الذي نتج عنه تلف كبير في المزروعات والمحاصيل الغذائية وقد زاد الوضع سوءاً إنتشار المرض والوباء بين الناس بصفة خاصة بين الفقراء والعامة.

---

(١) **نيل المنى**- ص ٢٤٠-٢٥٧-٢٨٠.

الاصلاحات في المنشآت بمكة المكرمة

تعتبر مكة هي المكان الذي تتم على أرضه شعيرة الحج وتجتمع فيه وفود الحجيج من كل بقاع الأرض وتحتدم فيه المنافسة بين جميع القوى المتصارعة للسيطرة والنفوذ وكسب الرأي العام المحلي والعالمي فكان من الطبيعي أن تحظى هي الاخرى بفيض هائل من الإصلاحات والإنجازات.

وكان اصلاح المسجد الحرام وعمارته وتوسعته من اكثر الميادين التي شملتها عناية الخلفاء ولا غرو في ذلك فقد كان المسجد الحرام ولايزال اعظم مسجد عرفته الدنيا ويقع في بقعة هي اشرف بقاع المعمورة وأطهرها، وهو اكثر المساجد تعظيماً وتكريماً لدى المسلمين، تهش لذكره نفوسهم وتهوى إليه أفئدتهم فهو مولد الهدى ومهبط الوحي ومبتدأ الرسالة المحمدية، وقبلة المسلمين في جميع مشارق الأرض ومغاربها، لذلك لا غرابة اذا اهتم ولاة أمور المسلمين عبر العصور على عمارته وتوسعته وتنميته وتباروا في إصلاحه وتوفير وسائل الراحة والأمن والطمأنينة للحاجين إليه فنهجت الدولة العثمانية نهج الدول الإسلامية السابقة فاهتم سلاطينها بالإعتناء بالمقدسات والمشاعر الاسلامية.

ويرجع تاريخ أول إصلاح في المسجد الحرام في عهد الدولة العثمانية على يد السلطان سليم الأول عام ٩٢٥هـ/١٥١٩م فعمل على إحداث زيادة باب

الندوة في المسجد الحرام ووصلها بالحرم وصولاً أفضل مما تم في عهد من سبقه من ولاة الأمر[1].

كما شملت الإصلاحات جوانب أخرى متعددة من المسجد الحرام ومنها بناء مقام الحنفية عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م فقد ذكر جار الله بن فهد أن أمير الحاج الرومي مصلح الدين اجتمع بالقضاة الأربعة بعد موافقة شريف مكة بركات وقرر معهم في هدم المقام وإعادة بنائه على شكل قبة جميلة عالية تقوم على أربعة أعمدة بعقود أربعة فاعترض عليه بعض القضاة وشددوا على منع البناء وأن هذا من الاعمال المنكرة وحصلت بينهم مشادة انتهت بأن افتى قاضي الحنفية بديع الزمان ابن الضياء أن جده القاضي ابا البقاء قد أفتى بجواز ذلك وأن هناك نصاً في منسكه المسمى "البحر العميق" وكان هذا إيذاناً للأمير مصلح الدين أن يصمم على ما أراد من بناء المقام فأحضر أمهر البنائين والمهندسين في اليوم التالي وقاموا بهدم قبة المقام القديمة[2] .

ولقد وصف جار الله بن فهد ذلك الحدث فيقول: ((شرع المعلمون في بناء مقام الحنفية الجديد عملوا أساسه حجارة عظيمة وعلى ظهر الارض حجارة الماء الصفراء وصورته مربع على أربع بتر عراض كل واحدة ثلاثة أذرع وجعلوا قبة شاهقة جميعها بالحجر الأصفر فيها أربع طاقات صغار وحوالي العقود أخشاب للقناديل ومحراب مدور خارج القبة جهة القبلة، ومن جهة

---

(١) **نيل المنى**- ص ٥٤- ٥٥-٢٣٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٥-٦-٧.

الشام دكة خشب للمكبرين يُطلع اليها بدرجتين لطاف خارج القبة من جانبيها الشرقي والغربي واستمر العمل فيها طول السنة))[١] .

وعندما تم الإنتهاء منها قاموا بعمل احتفال بهذه المناسبة حيث أكرم نائب جدة الامير قاسم الشرواني المهندس المصري المصمم والمنفذ للقبة وقام بإلباسه خلعة قفطان وتم تركيب الشعار العثماني وهو عبارة عن هلال من حديد على قمة القبة[٢] .

كما قاموا ببناء درجتين خلف قبة الحنفية من الجهة الشمالية يصعد منها الى دكة من الخشب وضعت للمكبرين خلف إمام الحنفية وقت الصلوات الخمس مما يجعل الإرتباك والإختلاف المصحوب بالضرر والانزعاج على كثير من المصلين في المسجد الحرام خلف الائمة الآخرين[٣] .

ولقد تضجر الكثير من المسلمين لبناء مقام الحنفية لكبر حجمها وكثرت ضررها لأنها أصبحت تقطع الصف الاول الذي يصلي خلف امام الشافعية[٤] ويذكر لنا القطبي كثرة الشكاوي من أهل مكة في عيوب هذا البناء وأصبحت ترفع إلى مقر الخلافة في اسطنبول مما جعل السلطان العثماني سليمان يستجيب أخيراً لمطالبهم عام ٩٤٩هـ/١٥٤٢م يصدر أمراً بهدم القبة وإعادة بنائها على أربع قوائم لطيفة وأقل عرضاً من سابقتها[٥] .

---

(١) **نيل المنى**- ص ٧-٨.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٣٤.

(٣) **المصدر السابق**- ص ٢٥.

(٤) **المصدر السابق**- ص ٢٦-٣٤.

(٥) القطبي -**اعلام**- ص١٠٦.

ومن اهتمامهم بالمسجد الحرام أن حرصوا على تنويره وإضاءته بإستمرار وتوفير الزيت وإرسال الثريا والعقود والقناديل للمسجد الحرام كما عنوا أيضاً بفرشه وبطحه من حين لآخر[1] .

ولقد قاموا بعمل إصلاحات وترميمات في الحرم الشريف بعد أن تضرر من جراء سيل مدمر حدث عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م خاصة منارة باب علي وباب السلام والرواق الذي يقع في الجهة الشمالية، فقاموا بهدم منارة باب علي القديمة لقدم البناء حيث بنيت في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور عام ١٤٥هـ/٧٦٢م وأصلح أسفلها مما يلي المسجد من الجهتين في عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م على يد سودون المحمدي، وألحق هدم باب السلام حتى ظهر اساس المنارة وبرزت الأعمدة الأربعة وعمر مكانها حجارة سوداء منحوته ووضع علوها أصفر لين وخلطت بنوره عتيقة واستمر العمل فيها مدة شهرين من الزمن كلفتهم مبالغ باهظة واستعانوا فيها بمهندسين مصريين وروميين[2] .

وفي نفس السنة قاموا بهدم قبة دار الوحي التي ولدت فيها فاطمة ابنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وتكفل بالبناء والاشراف عليها مهندسين احدهما عبد القادر الحميماني المصري[3] .

---

(١) **نيل المنى**- ص ١٢٣.

(٢) **المصدر السابق**- ص ١٨٨.

(٣) **المصدر السابق**- ص ١٨٨.

كما عني العثمانيون بالكعبة المشرفة و لم تخل فترة سيطرتهم على الأماكن المقدسة من بعض الإصلاحات والترميمات ففي عام ٩٤٤هـ/١٥٣٧م اقر قاضي القضاة الحنفي وناظر المسجد الحرام مصلح الدين الرومي بعمارة الرخام المقلوع من ارض الكعبة وجدرانها المتهالكة مع ترميم الاسطوانة التي في الجهة الشمالية لوجود تشعب بها من جهة الميزاب من آثار الأمطار السابقة(١) .

كما أهدى لها في السنة التالية قنديلاً من ذهب بسلسلة من الفضة ليعلق وسط الكعبة المشرفة بحضور خلق من الناس ابتهجوا بذلك وعلى رأسهم شيخ السدنة القاسم الشيبي(٢) .

ولقد أسهم سلاطين بني عثمان في اغداق الأموال للإصلاحات في مكة المكرمة ففي عام ٩٣٤هـ/١٥٣٦م خصص مبلغ باهظ لزيادة دار الندوة(٣) التي بناها قصي بن كلاب وجعلها منتدى لقومه من قريش يجتمعون فيها للمشورة وكان لها فناء واسع أخذت ترمى فيه القمائم، فإذا نزلت الأمطار جرفتها السيول الى المسجد الحرام فاستدعى ذلك تنظيف هذه الأوساخ والقمائم فضلاً عن الضرر الذي تلحقه بالمسجد الحرام(٤) .

كما شملت الإصلاحات حاشية المطاف وترميم الإسطوانات النحاسية التي سقطت من كثرة إزدحام الناس الشديد عندما تقرأ المراسيم وتم تكليف الزيني

---

(١) **نيل المنى**- ص ٤٠٢.

(٢) **المصدر السابق**- ص ٤٢٠-٤٢١.

(٣) **المصدر السابق**- ص ٢٣٢.

(٤) النهروالي -**الاعلام**- ص٤٤.

مصطفى الرومي المسؤول من قبل الدولة العثمانيـة علـى الإعمـار والإصـلاح لمكة المكرمة حيث أنفق مالاً في تغيير بعـض الاسـطوانات في المسـجد الحـرام وإبدالهما بإسطوانات من الحجر الأسود[1] .

كما توالت الاصلاحات والتجديدات جوانـب اخـرى متعـددة مـن المسـجد الحرام ومنها منبر الخطابة في المسجد الحرام وللمنـبر تـاريخ طويـل فقـد ذكـر الأزرقي أن أول من خطب بمكة المكرمة على منبر هو: معاوية بن أبي سـفيان الذي قدم بـه مـن الشـام سـنة حـج في خلافتـه وكـان صغـيراً وعلـى ثـلاث درجات[2] .

ثـم تطـور المنـبر باهتمـام الخـلفاء والسـلاطين وتـوالت الإصـلاحات والتجـديدات عليـه فـي فترات متفاوته وأصبح في عهد الدولة العثمانية يصنع في مصر ولم نستطع أن نجد نصـاً تاريخيـاً يبـين لنـا مـن أي انـواع الأخشـاب يصنـع وهـل ينقـش عليـه بـالذهب او تكتـب عبـارات عليـه كمـا كـان في السابق[3]. ولقد ذكر جار الله بن فهد أنـه في عـام ٩٤١هـ/١٥٣٥م وصـل المنبر الجديد المصنوع في القاهرة الواصل عن طريق البحر الى مكة المكرمـة في شهر رمضان وكان اول خطيب يعتلي درجاته ويخطب عليه الإمام ابـو الخـير اما المنبر القديم فلأهميته التراثية وتكلفتـه فكـان يقسـم بـين خطبـاء المسـجد الحرام[4] .

---

(١) **نيل المنى**- ص ٢٦٠.

(٢) الأزرقي-**تاريخ مكة**- ج٢- ص١٠٠.

(٣) النجم بن فهد-**اتحاف الورى**- ج٢- ص٤٧٩.

(٤) **نيل المنى**- ص ٣٢٦.

والى جانب الاصلاحات التي قام بها الخلفاء وبعض الامراء المعاصرين لهم في المسجد الحرام والكعبة المعظمة، هناك اصلاحات أخرى شملت جوانب متعددة من مكة المكرمة ولعل في مقدمتها توفير مياه الشرب لأهالي تلك المدينة وللحجاج القادمين اليها من مشارق الارض ومغاربها.

وكانت مكة قليلة المياه وتقع في وادي تحف به جبال سود شاهقة الارتفاع خالية من المياه والنبات وكان سكانها والحجاج والوافدين اليها يحصلون على ماء الشرب من الأمطار التي تتجمع في صهاريج وبرك ومن آبار أخرى مالحة أطيبها بئر زمزم وماؤها مالح ايضاً ولكنه يستساغ.

وعندما حجت السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، ورأت حجاج بيت الله الحرام يقاسون الأمرّين من قلة المياه، وصعوبة الحصول عليها سارعت الى شراء حائط حنين وهو مكان كثير المياه يستفاد منها في زراعة بساتين النخيل وغيرها، فأبطلت تلك المزارع وعملت على توصيل مياهها بما ضمت اليها من العيون الاخرى كعين مشاش وعين الزعفران وعين البرود وغيرها عبر قنوات الى مكة المكرمة، كما عملت على اجراء عين وادي نعمان الى عرفات وقد بلغت تكاليف هذا العمل مليون وسبعمائة الف دينار من الذهب[1]، ثم اخذ الخلفاء والسلاطين يتعاهدون عين زبيدة بالاصلاح كلما بلغهم خراب فيها او في احدى قنواتها فكانوا يرسلون من يعمل على اصلاحها كلما دعت الحاجة الى ذلك[2].

---

(١) النجم بن فهد-**اتحاف الورى**- ج٢- ص٢٤٨.

ناصر خسرو، - سفر نامه- ترجمة يحيى الخشاب/ بعنوان رحلات ناصر خسرو- ط٢- بيروت-١٩٧٠. ص١٣٣.

(٢) النجم بن فهد-**المصدر السابق**- ج٢ ص٣٢٥.

وكان ممن عمّرها من الخلفاء العباسيين المتوكل على الله عندما غارت عيون مكة نتيجة زلزال عام ٢٤١هـ/٨٥٥م فرصد لذلك مبلغ مائة الف دينار ذهباً لاعادة اجراء مياه عرفات اليها وفي عام ٢٤٥هـ/٥٥٩م غارت عين مشاش -وهي العين التي تمد مكة بالماء- فبلغ ثمن القربة درهمان فبعث المتوكل على الله مالاً انفق عليها حتى عاد جريانها[١] .

وازدادت أهمية الاعتناء بالعيون في مكة المكرمة خاصة من قبل الدولة العثمانية فلقد أصدر السلطان سليم عام ٩٢٦هـ/١٥٢٠م مرسوماً بتعيين الشيخ ناصر الدين محمد بن عراق الدمشقي مشرفاً ومسئولاً بتحسين وتشغيل عين حنين[٢] وصرف الاموال الطائلة لتوصيل المياه الى مكة المكرمة ولقد كثف العمل إبن عراق مدة خمسة أشهر وارسل عمالاً يقومون بتنظيف بركة الماجن التي تقع أسفل مكة من طريق اليمن لتوصيل المياه اليها[٣] .

كما أن السلطان العثماني سليمان اولى ذلك الجانب كثيراً من عنايته وخصص مبالغ باهظة في توفير مياه الشرب لأهل مكة المكرمة والحجيج ومن اجل أعماله اجراء عين عرفات الى مكة المشرفة[٤] .

ولقد توسع في رصد هذا العمل القطبي حيث ذكر أن السلطان العثماني عام ٩٣١هـ/١٥٢٤م اسند هذا الامر لشخص رومي يسمى مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة واصبح ناظراً على عمائر الدولة العثمانية فقام

---

(١) النجم بن فهد- المصدر السابق- ج٢- ص٣١٦-٣٢٥.

(٢) **نيل المنى**- ص ١٠٥.

(٣) **المصدر السابق**- ص ١١٦.

(٤) **المصدر السابق**-ص ٤٠.

ببذل الجهد والهمة في عمارتها وإصلاح قناتها فوجد أن السبب في ضعفها وانقطاع مائها أن العين إذا كثرت مياه الامطار زادت وجرت المياه وتم توصيلها الى البرك وإذا قلت مياه الامطار ضعفت وربما في بعض الأحيان انقطعت وتم صرف المبالغ لتحسين العين وبالفعل تم توصيل المياه الى البرك في ناحية عرفات وسر الناس بذلك[1] .

ولم يكتف ناظر العين مصلح الدين مصطفى بتوفير المياه الى البرك فقط بل أنه قام بشراء عدد من العبيد السود المتميزين بالقوة الجسدية لممارسة الأعمال الصعبة خاصة في حفر الآبار وجعل لهم مبالغ ووفر لهم المسكن والاطعمة ليقوموا بخدمة العين والعناية بها ليضمن استمرار تدفق المياه الى البرك وتوفيره لأهل مكة المكرمة والحجيج[2] .وساعد على ذلك أن قام الناظر مصلح الدين مصطفى بالكشف والحفر والتنظيف للدبول وقام بإخراج التراب من داخلها ثم تعميرها وتعليتها عن الارض والقيام بصيانتها خاصة الدبول الثلاثة المسماة بالبازان الاول بجوار باب ابراهيم من المسجد الحرام والثاني بالقرب من دار القائد جوهر المغربي والثالث الاخير خارج البيوت على طريق اليمن من جهة المسفلة[3] وبلغت المصاريف التي اقطعت لهذا العمل نحو ثلاثين الف دينار ذهباً[4] .كما عنيت بالحمامات خاصة الذي يقع في سوق الليل المعروف بحمام النبي صلى الله عليه وسلم وعمل السبل والمياضي لخدمة الحجيج[5] .

---

(١) القطبي -**مصدر سبق ذكره**- ص١١٠.

(٢) **المصدر السابق**- ص١١١.

(٣) **نيل المنى**- ص٢٤٨.

(٤) القطبي -**اعلام**- ص١١١.

(٥) **نيل المنى**- ص ٥.

حارات مكة:

قسمت مدينة مكة المكرمة الى مناطق وقسمت كل منطقة الى عدة حارات وتعتبر هذه الحارات احياء سكنية قامت فيها اسواق محلية صغيرة، وكانت أحياء مكة مساوية لحجم القرى الصغيرة تقريباً.

ويروي لنا صاحب "**نيل المنى**" عن وجود ما يقارب العشرين حياً في مدينة مكة المكرمة كانت تربطهم علاقات وثيقة من الود والمحبة والتعاون (١).

وورد ذكر العديد من الشوارع والممرات والأزقة وهكذا كانت الأحياء مناطق متجاورة صغيرة تقع داخل الوحدة المدنية المتكاملة ولاتتضمن القوائم بالضرورة ان كل حي كان وحدة حقيقية للتنظيم الاجتماعي ففي بعض الحالات كما هو محتمل بالنسبة لحي اجياد وحي المعلاة وحي المسفلة التي كانت تتضمن احياء عديدة وحدة العمل الاجتماعي الفعال، فقد بلغ مجموع الاحياء تقريباً حدود العشرين غير أن خمسة أحياء منها كانت ذات أهمية فقط وأشهرها حي أجياد حيث كان يقطنه حكام مكة وأثرياؤها ويضم القصور الجميلة والمباني الفخمة داخل حدوده(٢).

---

(١) **نيل المنى**-ص٧٩-٨٠-١٤٦-٢٦١-٢٨٥-٣٤٨-٤٤٧.

(٢) **المصدر السابق**-ص ٩٦-٢٤٥-٢٤٧-٢٨٥.

وكان العديد من الاحياء عبارة عن وحدات متجانسة ومرتبطة بإحكام وليس من الضروري ان كل واحد منها كان تضامنياً في حد ذاته ويغلب عليه ميل جماعاته المتنوعة في البحث عن الراحة والحماية لأعضائها قوياً جداً في عالم لم يكن المرء يشعر بالأمان الحقيقي الا بوجوده داخل هذه الأحياء.

ويتضح ذلك في حادثة وقعت عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م عندما ابتهج حي المعلاة وحي المسفله بالعيد وأثناء اللعب اعتدى احدى أفراد الحيين على الآخر، ونتج عنه قتل احد افراد حي المعلاة وهروب القاتل مما جعل الشريف ابو نمي حاكم مكة يتهدد مشائخ المسفلة إن لم يحضروا القاتل مما جعلهم يتوسطون لقاضي القضاة الشافعي في قبول والد المقتول الدية فتحقق لهم ما أرادوا وسكنت الفتنة بتكاتفهم وإلتفافهم حول بعضهم[1].

ووجدت ايضاً قواعد اقتصادية واجتماعية لتجانس الأحياء الخاصة وقد اعطيت اسماء بعضها تبعاً لأحد الأسواق أو حرفة من الحرف مثل حارة سويقه[2] أو لأسرة من الاسرة المعروفة كأسرة بني ظهيرة المشهورة بالعلم والفقه والقضاء وسميت بإسمهم حارة بني ظهيره[3] أو تسمى باسم قبيلة مثل قريش سميت حارة قريش[4].

---

(١) نيل المنى-ص ٢٨٥.

(٢) المصدر السابق-ص ٢٠٣-٢٤٧.

(٣) المصدر السابق-ص ٤٧.

(٤) المصدر السابق-ص ٧٩-٨٠.

وهناك نص لجار الله بن فهد يجمع اغلب الأحياء ((في يوم الأحد تمت تفرقـة -المبرة- عامة مكة على ترتيـب حـاراتهم وكـانت البـدأة بـبـاب السـلام مـع السويقه والشبيكه والمسفله وأجياد وجبل ابي قبيـس والجزيـرة وسـوق الليـل والمعلاة وشعب عامر والنقعة والقراره والفلـق))[1] ولم يعـدد النـص الحـارات المتبقية مثل احياء المدعى وقريش وبني ظهيرة وقيقعان والزاهر والحجون وباب العمرة[2].

---

(١) نيل المنى-ص ٢٦١.

(٢) المصدر السابق-ص ٧٩-٨٠-٨٩-٩٦-١٠٦-١٤٣-١٤٦-٢٠٣-٢٦١-٢٤٧-٢٧٨.